

الْبَيْتُ الْمَكِينُ

مَجْدُ بَنِي إِسْرَءِيلَ

لِلْبَيْتِ الْمَكِينِ

مَجْدُ بَنِي إِسْرَءِيلَ



التفسير الكاشف

مَجْمَعُ جَوَاهِرِ مَغْنِيَّتِهَا

النَّفْسِ الْكَاشِفُ

المجلد الثالث

مِنْ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ إِلَى آخِرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

مَجْمَعُ جَوَاهِرِ مَغْنِيَّتِهَا

دار الفکر للطباعة والنشر والتوزيع



جميع حقوق الطبع محفوظة و مسجلة للناشر

الكتاب : التفسير الكاشف (ج ٢)

للمؤلف: العلامة محمد جواد مقبلة (ره)

الناشر: مؤسسة دارالكتاب الاسلامي

الطبعة: الرابعة ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

المطبعة: مطبعة سنار

عدد النسخ: (٢٠٠٠) دوره

الترقيم الدولي للمجموعة : ٩ - ٠٨٥ - ٤٦٥ - ٩٦٤ - ٩٧٨

الترقيم الدولي (ج ٢): ٣ - ٠٨٨ - ٤٦٥ - ٩٦٤ - ٩٧٨

قم- ميدان معلم- شارع سمية ٢٢ - رقم ٢٦

تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ - ٧٧٣٠٩٩٤

فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

مدنية الا قوله تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم » فإنه نزل في حجة الوداع ، وعدد آياتها ١٢٠ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اولوا بالعقود الآية ١ - ٢ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *

اللغة :

العقود واحدها عقد ، والمراد بها كل التزام جرى بين بالغين عاقلين عن طيب نفس على أي شيء كان ، شريطة ان لا يحرم حلالاً ، ولا يحلل حراماً .

سورة المائدة

والبهيمة في اللغة الحيوان الذي لا نطق له لما في صوته من الإجماع ، ولكن العرب لا يستعملون هذه اللفظة في الطير . والأنعام الإبل والبقر والغنم . وشعائر جمع شعيرة ، والشعيرة والعلامة والآية بمعنى واحد ، وشعائر الله علامات دينه ودلائله ومظاهره وآياته . والمراد بالهدي ما يهدي من الأنعام الى الكعبة ليذبح هناك . والقلائد جمع قلادة ، وكانوا يقلدون الإبل من الهدي بما يدل عليها ، فلا يتعرض لها أحد . وآمين أي قاصدين . ولا يجرمنكم أي لا يبعثنكم . والشأن البغض .

الأهراء :

الا ما يقلى (ما) في محل نصب على الاستثناء المتصل من بهيمة . غير حال من الضمير المجرور في لكم ولا القلائد على حذف مضاف ، أي ولا ذوات القلائد . ولا آمين أيضاً على الحذف ، أي ولا قتال آمين . والبيت مفعول لآمين . وجملة يتفون حال من الضمير في آمين . وان صدوكم المصدر المنسبك مفعول لأجله ليجرمنكم . والمصدر المنسبك من ان تعتدوا مجرور بحرف جر محذوف ، والمجرور متعلق بيجرمنكم ، أي لا يبعثنكم شأن قوم لأجل صدمهم إياكم عن المسجد على الاعتداء .

المعنى :

تدور آيات القرآن حول العقيدة ، والعبادة ، والشرعية ، والأخلاق، والرئاسة الدينية والدينية ، والقضاء والجهاد ، وتُعرف الآيات الواردة في الشريعة بما فيها العبادة ، تُعرف بآيات الأحكام عند الفقهاء ، وتبلغ حوالي خمسة آية ، ومنها قوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) . وهذه الجملة على إيجازها عظيمة النفع ، فلها الأصل والأساس لاجتماع المذاهب على وجوب الوفاء بما يقع عليه التراضي بين اثنين ، مع توافر الشروط التي اعتبرها الشرع من البلوغ والعقل في المتعاقدين

الجزء السادس

وقابلية الشيء المعقود عليه للتملك ، وعدم استلزامه تحليل الحرام ، أو تحريم الحلال ، وما إلى ذلك مما جاء في كتب الفقه ، ومنها الجزء الثالث من فقه الإمام جعفر الصادق .

(أحلت لكم بهيمة الانعام) . الانعام هي الابل والبقر والغنم والمعز الأهلية والوحشية ، وتقع البهيمة على الانعام وغيرها من الحيوانات التي لا نطق لها ، وعلى هذا تكون اضافة البهيمة الى الانعام من باب اضافة الشيء الى ما هو اخص منه . وبعد أن أحل الله أكل الانعام جاء هذا الاستثناء (الا ما ينثى عليكم) . وقد تلا علينا جل ثناؤه صنفين من الانعام : الأول ما أشار اليه بقوله : « غير محلي الصيد وأنتم حرم » . والثاني ما أشار اليه في الآية الثالثة « حرمت عليكم الميتة والدم... » . ويأتي الكلام عن هذا الصنف قريباً .

ومعنى (غير محلي الصيد وأنتم حرم) ان الانعام التي أحل الله لنا أكلها هي الانعام الأهلية ، أو الوحشية التي لم تنصيدها حال الاحرام ، أما المصطادة في هذه الحال ، فأكلها حرام ، لأن كل ما يصطاده المحرم فلا يجوز أكله ، سواء أكان من الانعام ، أم من غيره ، ويأتي التفصيل عند تفسير الآية ٩٧ وما بعدها من هذه السورة .

(يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) . وشعائره جل وعز هي أحكام دينه ، ومن أظهرها مناسك الحج والعمرة ، قال تعالى : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب - ٣٢ الحج » ، ومعنى النهي عن تحليل أحكام دين الله ان لا تحرفها ، ونصرف فيها كما نشاء . (ولا الشهر الحرام) أي لا تحلوا القتال في الشهر الحرام ، والمراد به الأشهر الأربعة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، لأن الألف واللام في الشهر للاستغراق . (ولا الهدي) وهو ما يُهدى الى بيت الله من الإبل والبقر والغنم ، والمراد ان لا يتعرض أحد لها بغصب أو منع من بلوغها البيت الحرام . (ولا القلائد) أي ولا ذوات القلائد فقد كانوا يقلدون الهدي بتعل أو حبل وما اليه ، ليُعرف فلا يتعرض له أحد ، وانما ذكر ذوات القلائد بعد الهدي ، مع ان الهدي يقع عليها وعلى غيرها - للاهتمام بها ، تماماً كقوله تعالى : « حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى » .

سورة المائدة

(ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً) . أي لا تقتاتلوا أحداً قصد بيت الله ، سواء أقصده للعبادة أم التجارة . (وإذا حلثتم فاصطادوا) . لأن الصيد يحرم في حال الاحرام ، وفي ارض الحرم مطلقاً ، فإذا لم يكن الانسان محرماً ولا في ارض الحرم فالصيد وأكل المصيد حلال ، لزوال المانع .. والأمر في قوله : « فاصطادوا » للاباحة ، لأنه ورد بعد النهي .

(ولا يجرمنكم شتان قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) . في سنة ست للهجرة كان المشركون هم المسيطرين على مكة والبيت الحرام ، وأراد النبي والصحابة أن يزوروا البيت في هذه السنة فصدهم عنه المشركون ، وفي حجة الوداع كانت السيطرة على مكة والبيت للمسلمين ، فزلت هذه الآية ، ومعناها لا ينبغي لكم أيها المسلمون أن يحملكم بغض المشركين لكم ، أو بغضكم لهم على أن تمنعهم عن البيت الحرام بعد أن أظهركم الله عليهم ، لأنهم منعكم من قبل . وقد كان هذا قبل أن تنزل الآية ٢٩ من سورة التوبة : « انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .

وتسأل : ألم يقل الله سبحانه : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » - البقرة ، ١٩٤ ؟

الجواب : ان هذه الآية نزلت في القصاص ، والمعاملة بالمثل في موارد خاصة ، كالحرب وقطع الأعضاء ، أي من قاتلكم فقاتلوه ، ومن قطع يد غيره تُقطع يده ، وما الى ذلك .. أما من منع وصد عن عبادة الله والتجارة والزراعة فلا يجوز أن يُمنع هو عن ذلك ، بل يجازى بعقوبة أخرى .
والخلاصة ان جزاء المعتدي قد يكون بالمثل ، وقد يكون بغيره ، وفي سائر الأحوال ينبغي أن يكون الجزاء انتصاراً للحق ، لا تشفياً وانتقاماً .

الثورة والثورة المضادة :

(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) . من الألفاظ التي كثر تداولها اليوم على ألسنة المتكلمين ، وأفلام الكتّاب لفظ الثورة والثورة المضادة .. ويعنون بالثورة تعاون المخلصين ونضالهم ضد التخلف والأوضاع

الجزء السادس

الفاسدة ، ويعنون بالثورة المضادة تكتل الرجعيين والخائنين وتعاونهم على مقاومة كل محاولة لتغيير التقاليد الفاسدة .

وظاهر الآية الكريمة . يقول لنا ان نطبق قوله تعالى : « ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » على الثورة المضادة لكل خير وتقدم .

حرمت عليكم الميتة الآية ٣ :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

الإعراب :

الا ما ذكيتكم (ما) في محل نصب على الاستثناء المتصل مما تقدم ذكره من الحيوانات على أن يدرك حياً سوى ما لا يقبل التذكية كالحنزير . والمصدر من ان تستقسموا في محل رفع عطفاً على الميتة ، أي وحرّم عليكم أن تستقسموا . ودنياً حال من الإسلام . وغير حال من الضمير في اضطر .

المعنى :

كل المأكولات والمشروبات على الإباحة إلا ما ورد النص بتحريمه خصوصاً كالميتة وما إليها ، أو عموماً كالأشياء الضارة ، ومنها الخبائث . قال تعالى : « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً » - ١٦٨ البقرة . وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : كل شيء فيه حلال وحرام فهو لك حلال أبداً ، حتى تعرف الحرام بعينه فتدعه .

وتقدم في الآية الأولى قوله تعالى : « إلا ما ينل عليكم » وقد تلا علينا صنفين من المحرمات : الأول ما أشار إليه بقوله : « غير محلي الصيد » الخ وسبق تفسيره . الثاني ما ذكره في هذه الآية ، وهو عشرة أصناف .

الأول : الميتة ، وهي كل حيوان أو طير مات من غير تذكية شرعية ، وتختلف التذكية الشرعية باختلاف الحيوان ، فتذكية السمك باخراجه من الماء حياً ، وتذكية الجراد بالاستيلاء عليه حياً أيضاً ، وتذكية الجنين بذكاة أمه ، وتذكية المصيد تكون بالكلب المعلم ، أو بالسيف أو الرمح أو السهم أو آلة عديدة الرأس ، وتذكية الحيوان باستقباله القبلة وقطع أوداجه الأربعة مع ذكر اسم الله عليه . والتفصيل في كتب الفقه ، ومنها الجزء الرابع من فقه الإمام الصادق .

الثاني : الدم المسفوح ، والمراد به الذي يخرج بقوة ودفع ، ويتميز عن اللحم ، لأن ما يختلط باللحم معفو عنه ، والدم الذي هو كالحكم حلال إذا كان كبداً عند جميع المذاهب ، وحرام إذا كان طحالاً عند الشيعة الإمامية خاصة .

الثالث : لحم الخنزير ، وهو حرام باجماع المسلمين .

الرابع : ما أهل لغبر الله ، والاهلال رفع الصوت ، يقال : استهل الصبي إذا صرخ عند الولادة ، والمراد به هنا ما ذُبح على غير ذكر الله . وقد كان المشركون يلعبون لأصنامهم ، ويرفعون أصواتهم باسم اللات والعزى . ونقدم الكلام عن هذه الأصناف الأربعة عند تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٦٤ .

الجزء السادس

الخامس : المنخقة ، وهي التي تموت اختناقاً بيد أو حبل ، أو يدخل رأسها في مضيق ، وما الى ذلك .

السادس : الموقوذة ، وهي التي تضرب بعصا ونحوها ، حتى تموت .

السابع : المتردية ، وهي التي تردى من مكان عال .

الثامن : النطبعة ، وهي التي تنطحها أخرى ، فتموت .

التاسع : ما أكل السبع ، أي ما تبقى من فريسة الحيوان المفترس .

ثم استثنى سبحانه من الأصناف الخمسة الأخيرة ما ندركه حياً ، فانه يحل لنا بالذبح الشرعي ، وهذا معنى قوله تعالى : (الا ما ذكيتم) . وفي الأخبار : « ان أدنى ما تدرك به الذكاة أن تدركه وتتحرك اذنه أو ذنبه أو تطرف عينه » .

العاشر : ما ذبح على النصب ، قال صاحب التسهيل لعلوم التنزيل : « والنصب جمع نصاب ، وهي حجارة كان أهل الجاهلية يعظمونها ، ويدبحون عليها ، وليست بالأصنام ، لأن الأصنام مصورة ، والنصب غير مصورة » .

وتجدر الإشارة الى ان محرمات الطعام لا تنحصر بهذه الأصناف العشرة التي جاءت في الآية الكريمة ، بل هناك محرمات أخرى ، كالكلب والحيوان المفترس والطير الكاسر كالبازي والنسر والحشرات وبعض أنواع السمك ومحرمات اللبحة ، وما إليها مما نصت عليه السنة النبوية ، وأجمع عليه الفقهاء ، ولا فرق بين ما جاء النص على تحريمه في الكتاب أو السنة : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » - ٧ الحشر . وغير بعيد أن يكون ذكر هذه الأصناف بالخصوص لمناسبة قوله تعالى : « أحلت لكم بهيمة الانعام » . وبعد أن ذكر سبحانه الأصناف العشرة عطف عليها قوله :

(وان تستقسموا بالأزلام) . أي وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام ، وهي جمع زلم بضم الزاي وفتحها ، مع فتح اللام ، والزلم قطعة من الخشب على هيئة السهم . وكان أهل الجاهلية اذا أراد أحدهم أن يقدم على أمر يهيمه أخذ ثلاثة من الأزلام ، وكتب على واحد منها أمرني ربي ، وعلى ثانٍ نهاني ربي ، وأهل الثالث ، ثم يغطيها بشيء ، ويدخل يده ويخرج أحدها ، فان كان أمراً فعل ، وان كان نهياً ترك ، وان كان مهملًا أعاد ، حتى يخرج الأمر ، أو النهي .

(ذلكم فسق) . اشارة الى خصوص الاستقسام بالأزلام دلالة ، والى جميع المحرمات المذكورة حكماً ، وبهذا يتبين معنا ان اختلاف المفسرين حول ذلكم : هل هي اشارة الى خصوص الأخير ، أو الى الجميع ؟ ان هذا الاختلاف لا جدوى منه ، ما دام حكم الجميع واحداً ، من حيث الفسق ، أي الذنب العظيم .

(اليوم يمش الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون) . قال كثير من المفسرين : ان المراد باليوم في الآية اليوم الذي نزلت فيه من ذي الحجة في حجة الوداع من السنة العاشرة للهجرة ، وعليه يكون الألف واللام في اليوم للعهد ، وقال صاحب مجمع البيان : اليوم هنا بمعنى الآن ، كما يقول القائل : اليوم قد كبرت ، أي الآن قد كبرت . ومهما يكن فان معنى الآية ان الكفار يشوا من زوال الإسلام ، أو تحريفه بعد أن تمكن في نفوس أتباعه ، وأخذ طريقه في الانتشار يوماً بعد يوم .. اذن ، فلا تخافوا - أيها المسلمون - من الكافرين ، وخافوا من الله وحده ، وصدق الله العظيم في كل ما يقول : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون - ٣٣ التوبة » .

ومن المفيد بهذه المناسبة أن نقطف جملاً من كتاب « الإسلام في القرن العشرين » للعقاد ، قال :

« ان العقيدة الإسلامية لم تكن قوة غالبية ، وحسب في ابان النشأة والظهور ، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين .. وصمود القوة الإسلامية في أحوال الضعف عجيبة كانتصاهاها في أحوال القوة والسطوة ، ولا سيما الصمود بعد أكثر من عشرة قرون .. ان قوة صمود العقيدة الإسلامية في صدر الإسلام عجيبة ، ولكن صمودها الآن أعجب ، لأنها لا تملك الدفاع النافع ولا مال لديها ولا سلاح ولا علم ولا معرفة ، بل لا تملك الدفاع ، ولا اتفاق بين أهلها على الدفاع .. ان قوة العقيدة الإسلامية قد سرت مسراها في أرجاء العالم بمعزل عن حروب الدول وسياستها ، وعن عروش العواهل وتيجانها ، وفي افريقية اليوم مئة مليون مسلم ، لا شأن في اسلامهم للدولة أو سياسة ، وقريب من هذا العدد مسلمون

الجزء السادس

في السومطرة وبلاد الجاوة ، وقريب منه في الباكستان ، وقد يكون في الصين وما جاورها عدة كهذه العدة من الملايين .

اكمال الدين وانعام النعمة :

(اليوم أكملت لكم دينكم وأنمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) .
اختلف الشيعة وأكثر السنة في تفسير هذه الآية ، ونحن نعرض أقوال الطرفين كناقلين ، لا مؤيدين ، ولا مفندين ، ونترك القارئ ، وعقله يستفite وحده .
قال السنة أو أكثرهم : المراد بالآية ان الله سبحانه أكمل للمسلمين دينهم بتغلبه واطهاره على الأديان كلها رغم محاربة أهلها ومقاومتهم له وللمسلمين ، وأتم نعمته عليهم بالنص على عقيدته وشريعته أصولاً وفروعاً ، وأبان جميع ما يحتاجون إليه في أمر دينهم ودنياهم : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) .
وقال الشيعة : يصح تفسير الآية بهذا المعنى إذا لم تقترن بحادثة تفسرها ، وتبين المراد منها ، فإن كثيراً من الآيات تفسرها الحادثة التي اقترنت بزمن نزولها . من ذلك - على سبيل المثال - قوله تعالى مخاطباً نبيه الأكرم : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه - ٣٧ الأحزاب » . فلو جردنا هذه الآية عن قصة زيد بن حارثة ، وأخلدنا بظاهرها لكان معنى الآية ان رسول الله (ص) يؤثر رضا المخلوق على رضا الخالق .. حاشا من اصطفاه الله لوحيه ورسالته .
ثم قال الشيعة : وهذه الآية اقترنت بحادثة خاصة تفسرها وتبين المراد منها ، واستدلوا على ذلك بما يلي :

أولاً : اتفق علماء السنة والشيعة المفسرون منهم والمؤرخون على ان سورة المائدة بجميع آياتها مدنية ، ما عدا هذه الآية : « اليوم أكملت لكم دينكم » فإنها نزلت في مكة ، وفي السنة العاشرة للهجرة ، وهي السنة التي حج فيها رسول الله (ص) حجة الوداع ، لأنه انتقل الى جنان ربه في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة .

ثانياً : ان النبي بعد أن قضى مناسكه في هذه السنة توجه الى المدينة ، ولما

بلغ غدِير خم - وهو مكان في الجحفة تشعب منه طرق كثيرة - أمر مناديه أن ينادي بالصلاة ، فاجتمع الناس قبل أن يثفروا ، ويذهب كل في طريقه الى بلده ، فخطبهم وقال فيما قال :

« ان الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، أنا أولى بهم من أنفسهم ، فن كنت مولاه فعليّ مولاه بقولها ثلاثاً ، وفي رواية أربعاً .. ثم قال : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . وأحب من أحبه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وادر الحق معه حيث دار . ألا فليبلغ الشاهد الغائب . »

والسنة لا ينكرون هذا الحديث بعد ان تجاوز حد التواتر وسجله الكثير من أئمتهم وعلمائهم ، منهم الإمام ابن حنبل في مسنده ، والنسائي في خصائصه ، والحاكم في مستدركه ، والخوارزمي في مناقبه ، وابن عبد ربه في استيعابه ، والعسقلاني في اصابته ، كما ذكره الترمذي والذهبي وابن حجر وغيرهم ، ولكن الكثير منهم فسروا الولاية بالحب والمودة، وان المراد من قول الرسول (ص): من كنت مولاه - من أحبني فليحب علياً .

ورد الشيعة هذا التفسير بأن قول النبي : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فن كنت مولاه فعليّ مولاه - يدل بصراحة ووضوح على ان نفس الولاية التي ثبتت لمحمد (ص) على المؤمنين هي ثابتة لعلي (ع) ، دون زيادة أو نقصان ، وهذه الولاية هي السلطة الدينية والزمنية ، حتى ولو كان للفظ الولاية ألف معنى ومعنى .

وعلى هذا يكون معنى الآية ان الله سبحانه أكمل الدين في هذا اليوم بالنص على علي بالخلافة .

١ لكل الشيعة هذا الحديث عن العهد من مصادر السنة ، ووضع علماءهم له كتاباً خاصة ، وأكرم الشيخ الاميني من علماء النجف الأشرف في هذا العصر ، فقد ألفت كتاباً أسماه الغدير في ١٢ مجلداً ، تبلغ صفحاتها حوالي خمسة آلاف صفحة ، ذكر فيه رواية الحديث ، وهم ١٢٠ صحابياً ، و ٨٤ تابعياً ، و ٣٦٠ إماماً وسائلاً الحديث ، وفيهم الحنفي والشافعي وغيرهما كل ذلك نقله عن كتب السنة والكتاب معروض لبيع في مكتبات العراق وإيران ولبنان .

الجزء السادس

وتسأل : ان اكمال الدين باظهاره على الأديان ، وبيان أحكامه كاملة وافية كما يقول السنة - واضح لا يحتاج الى تفسير ، أما اكمال الدين بالنص على خلافة علي فلا بد له من التفسير والابضاح ، فبأي شيء يفسره الشيعة ؟

قال الشيعة في تفسير ذلك : ان الاكمال حقاً لا يتم إلا بوجود السلطة التشريعية والتنفيذية معاً ، والأولى وحدها ليست بشيء ما لم تدعمها الثانية ، وقد كان التنفيذ بيد الرسول الأعظم (ص) ، فظن اعداء الاسلام ان السلطة التنفيذية ستذهب بذهاب الرسول ، وبذهابها يذهب الاسلام ... فأقام النبي علياً ليحفظ الشريعة من بعده ، وبقيم الدين كما أقامه الرسول (ص) ، وبهذا لم يبق للكفار أي أمل في ذهاب الاسلام أو ضعفه .

(فن اضطر في مخمصة غير متجانف لأثم فلإن الله غفور رحيم) . مر تفسيره مفصلاً في ج ١ ص ٢٦٥ فقرة ٥ المضطر وحكمه ، الآية ١٧٣ من سورة البقرة .

وما علمتم من الجوارح مكلبين الآية ٤ :

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ
مُكَلِّبِينَ يُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا
اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *

الآية :

الجوارح جمع جارح من جرح بمعنى كسب ، ومنه قوله تعالى : « ويعد ما جرحتم بالنهار ، والمراد بالجوارح هنا ما يمكن الاصطياد به من الكلاب والقطود والطيور ، لأنها كواسب لأهلها . ومكلبين أي معلمين الكلاب ونحوها الاصطياد ،

وانما اطلق لفظ مكبلين على الجوارح المعلمة ، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب ، فاشتق منه هذا اللفظ لكثرة في جنسه .. هذا عند غير الشيعة ، أما الشيعة فلا يميزون الا صيد الكلب ، وفيها يلي التفصيل .

الإهراب :

ماذا يجوز أن تكون (ما) مبتدأ ، وذا خبر بمعنى الذي ، ويجوز أن تكون (ماذا) كلمة واحدة وجملة أحل خبر . وما علمتم على حذف مضاف ، أي وصيد الذي علمتم . ومكبلين حال من ضمير علمتم، لأنها بمعنى معلمي الكلاب .

المعنى :

(يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) . الطيب ضد الخبيث ، والخبيث ما نص الشارع على تحريمه بالخصوص كاللينة ولحم الخنزير، أو بالعموم، وهو ما فيه ضرر وفساد بجهة من الجهات . وقد ذكر سبحانه هذه الجملة بلفظها أو معناها في ١٥ مكاناً من كتابه العزيز .

(وما علمتم من الجوارح مكبلين تعلمونن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) . وانفقت كلمة المذاهب على ان صيد الكلب يحل أكله بالشروط الآتية ، واختلفت في صيد غيره كالفهد والصقر وما أشبه إذا كان معلماً يفقه ما يفقه الكلب ، قال الشيعة : لا يحل . وقال غيرهم : يحل . واستدل الشيعة بأن لفظ مكبلين خاص بصيد الكلب المعلم ، ومهما يكن ، فلا يحل صيد الجوارح إلا مع توافر الشروط التالية :

١ - أن يكون الجوارح معلماً إذا أمره صاحبه بأمر ، وإذا زجره ينزجر . وهذا هو معنى قوله تعالى : « تعلمونن مما علمكم الله » .

٢ - ان يرسله صاحبه بقصد الصيد ، فلو انطلق من تلقائه ، وأتى بالصيد مقتولاً فلا يحل .

٣ - أن يكون الصائد مسلماً عند الشيعة .

٤ - أن يسمي الصائد عند ارسال الجارح ، فيقول : اذهب على اسم الله ، وما أشبه ، وهذا معنى قوله تعالى : « واذكروا اسم الله عليه » .
 ٥ - أن يدرك الجارح الصيد حياً ، وإن يسند الموت الى جرحه ، فلو أدركه ميتاً لم يحل ، وكذا اذا أدركه حياً ، ولكن مات بسبب آخر غير الجارح .

طهارة أهل الكتاب الآية ٥ :

أَيُّوْمَ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *

اللغة :

للاحصان معان أربعة : الاسلام والتزوج والحرية والفضة ، وهي المقصودة هنا . والسفاح الزنا ، والمراد به هنا الجهر به ، لأن قوله تعالى : « ولا تمتلحن » اخدان ، المراد به الزنا بالسر ، والخذن الصديق يقع على الذكر والأنثى .

الاعراب :

والمحصنات معطوف على الطيبات ، واذا ظرف متضمن معنى الشرط متعلق بأحل . ومحصنين حال من الواو في آتيتموهن . وغير مسافحين (غير) صفة

لمحصنين ، ويجوز أن تكون حالاً ، وإن كان صاحب الحال نكراً ، ما دام المعنى ظاهراً .

المعنى :

(اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) . اختلف السنة والشيعه في المعنى المراد بطعام أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، فقال السنة : المراد به ذبائحهم ، نقل هذا عنهم صاحب تفسير المنار ، وهذه عبارته بالحرف : « فسر الجمهور الطعام هنا بالذبائح ، لأن غيرها حلال بقاعدة أصل الحل » .

وذهب أكثر فقهاء الشيعة الى نجاسة أهل الكتاب ، وحرّموا طعامهم وشربهم ، حتى الخبز والماء الذي باشروه ، وفسروا الطعام في الآية بالحبوب .

أما نحن فنرى طهارة أهل الكتاب ، وقد صرحنا بذلك مع الدليل في الجزء الأول من فقه الإمام جعفر الصادق ، وعلى هذا كثير من المراجع الكبار ، منهم السيد الحكيم والسيد الخوئي الذي أسرّ برأيه لمن يثق به . أما قول من قال : الكتابي متنجس لا نجس فهو تلاعب بالألفاظ ، لأن الأشياء في الشريعة على قسمين : طاهر ونجس ، ولا ثالث .. أجل قد تعرض النجاسة للطاهر ، ثم تزول بالتطهير ، ولو كانت لازمة له لكان نجساً ، لا متنجساً .

أما تفسير الطعام بالحبوب خاصة فبعيد كل البعد عن فصاحة القرآن وبلاغته ، فقد استعمل الطعام لصيد البحر ، ولا حبوب في البحر ، قال تعالى : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم - ٩٦ المائدة » . واستعمله في الماء ، وبين الماء والحبوب ما بين السائل والجامد ، قال عز من قائل : « فن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني - ٢٤٩ البقرة » . واستعمله في شئ المأكولات : « فإذا طعمتم فانتشروا - ٥٣ الأحزاب » . وهل يجوز واحد على تفسيره باذا أكلم الشعر - مثلاً - فانتشروا ؟ .. وإذا تجرأ على مثل هذا التفسير فمن أي نوع

١ وأخيراً أتى بطهارتهم السيد الحكيم المرجع الكبير لطائفة الاسلاميّة الشيعيّة .

يكون ؟.. بل استعمل سبحانه الطعام في اللحم : « قل لا أجد في ما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير - ١٤٥ الانعام » .

ومن أجل هذا نقول بأن ذبائح أهل الكتاب حلال ، مع العلم بتوافر الشروط من الاستقبال والتسمية وقطع الأوداج الأربعة ، وهذا هو الفرق بين ذبيحة الكتابي ، وذبيحة المسلم ، فذبحة الأول تحرم إلا إذا علمت بأنه استقبل وسمى وقطع الأوداج الأربعة مع استقرار الحياة في الحيوان قبل الذبح ، وذبيحة الثاني تحل إلا إذا علمت بأنه أدخل بما أوجبه الشرع . وصرحنا بذلك مع الدليل في الجزء الرابع من فقه الإمام جعفر الصادق ، وفيه روايات صحيحة عن أهل البيت (ع) . وعمل بها الشهيد الثاني والصدوق وابن أبي عقيل وابن الجنيد . قال صاحب مجمع البيان عند تفسير هذه الآية : « عن أكثر المفسرين ، وأكثر الفقهاء ان المراد بالطعام في الآية ذبائح أهل الكتاب ، وبه قال جماعة من أصحابنا » أي من علماء الشيعة الذين يعتد بأقوالهم .

(والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتوهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان) . المراد بالاحصان في الألفاظ الثلاث العفة ، وبالأجور المهسور ، والمسافحون هم الذين يرتكبون الزنا جهراً ، ومتخلو الأخدان يرتكبونه سراً ، وقيد اتيان الأجور بعدم الزنا المشار اليه بمحصنين غير مسافحين - للاشعار بأن ما يدفعه الرجل للمرأة من المال يجب أن يكون مهراً للنكاح الشرعي ، لا أجراً للسفاح ، وحصل المعنى ان الله قد أحل نكاح العفيفات المسلمات والكتائيات ، وعلى من ينكحهن أن يدفع لهن ما جرى عليه الاتفاق من المال مهراً شرعياً ، لا بدلاً عن الزنا .

واتفق فقهاء المذاهب على أن المسلم لا يحل له أن يتزوج بمن لا تدين بشيء إطلاقاً ، ولا بمن تعبد الأوثان والنيران ، وما إليها ، واختلفوا في زواج الكتابية ، أي النصرانية واليهودية ، فقال أصحاب المذاهب الأربعة السنية : يجوز ، واستدلوا بهذه الآية ، واختلف فقهاء الشيعة بين مجيز ومانع ومفصل بين الزواج الدائم والمنقطع ، فأجاز الثاني ، ومنع الأول .

سورة المائدة

ونحن مع القائلين بالجواز مطلقاً ، ومستندنا أولاً : الأدلة الدالة على اباحة الزواج بوجه عام . ثانياً : قوله تعالى : « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » . ثالثاً : الروايات الكثيرة عن أهل البيت (ع) ، وذكرها صاحب الوسائل والجواهر ، ووصفها هذا بالمستفيضة ، أي بلغت حداً من الكثرة يقرب من التواتر ، ونقلنا بعضها في الجزء الخامس من فقه الإمام جعفر الصادق .

وتسأل : وما أنت صانع بقوله تعالى : ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن . وقوله : ولا تمسكوا بعصم الكوافر ؟

الجواب : المشركات غير الكتائيات بدليل عطف المشركين على أهل الكتاب في الآية الأولى من سورة البينة : « ولم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » . أما قوله : « فلا تمسكوا بعصم الكوافر » فغير صريح في الزواج ، لأن الامساك بالعصم كما يُكنى به عن الزواج يكتفى به عن غير الزواج أيضاً ، قال صاحب المسالك : « ان الآية ليست صريحة في ارادة النكاح ، ولا فيها هو أعم منه » .

(ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين) . بعد أن ذكر سبحانه طرفاً من أحكامه وحلاله وحرامه قال : من سمع وأطاع فهو المؤمن حقاً ، وعمله مقبول ، وعليّ أجره وثوابه ، ومن جحد أحكامي وشريعتي فهو الكافر الخاسر ، فالمراد بالايمان هنا نفس الأحكام التي يجب الايمان بها ، من باب اطلاق المصدر على المفعول ، كاطلاق الخلق على المخلوق ، والأكل على المأكول ، أما الاحباط فقد تكلمنا عنه مفصلاً عند تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٦ .

الوضوء والتيمم الآية ٦ - ٧ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ - وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ

جُنْبًا فَاظْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *
وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *

اللفظة :

المرافق جمع مرفق . والكعبان عظامان ناشزان يفصلان بين الساق والقدم .
والجنب ذو الجنباة ، ويطلق على الذكر والمؤنث ، والمفرد والمثنى والجمع .
والغائط المكان المنخفض ، والمراد به هنا قضاء الحاجة من المخرجين . والصعيد
وجه الأرض .

الإعراب :

برؤوسكم ، قبل الباء زائدة ، وقبل للالصاق ، وقبل للتبخيص ، ويأتي التفصيل
في فقرة المعنى . وما يريد الله ليجعل عليكم من حرج مفعول يريد محذوف ،
ويجعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لفظة الله ، ومن زائدة ، وحرج مفعول
يجعل ، والتقدير ما يريد الله ذلك لأن يجعل عليكم حرجاً . ومثله يريد ليطهركم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة) . أي إذا أردتم القيام الى الصلاة ،

تماماً كما تقول : اذا نمت فاقرأ سورة الفاتحة ، وهذا من باب اطلاق السبب على السبب .

(فاعسلوا وجوهكم) . لا خلاف فيه ، سوى ان الشيعة الامامية قالوا : يجب الابتداء من الأعلى ، ولا يجوز النكس ، وقال غيرهم : يجوز الغسل كيف اتفق ، والابتداء من الأعلى أفضل .

(وأيديكم الى المرافق) . أيضاً لا خلاف فيه إلا ان الشيعة أوجبوا الابتداء بالمرق ، وأبطلوا النكس ، كما أوجبوا تقديم اليد اليمنى على اليسرى ، وقال السنة : يغسلها كيف اتفق .. أجل ، تقديم اليمنى أفضل ، وكذا الابتداء من الأصابع الى المرفق .

وتسأل : ان كلاً من السنة والشيعة قد خالفوا ظاهر الآية ، لأن المرافق يجب أن تكون نهاية الغسل لمكان « الى » ، مع ان السنة لا يوجبون ذلك ، والشيعة لا يجزونه ، فما هو التأويل ؟

وأجاب كثيرون بأن « الى » هنا بمعنى مع مثل قوله تعالى : « وَبَرِّدْكُمْ قُوَّةَ اِلٰى قُوَّتِكُمْ - ٥٢ هود » ، أي مع قوتكم .. والذي نراه في الجواب ان التحديد في الآية للعضو المغسول ، وهو اليد ، بصرف النظر عن كيفية الغسل من حيث الابتداء والانتهاء ، تماماً كقولك : بعثك الأرض من هنا الى هناك ، وقطفت ورد الحديقة من هنا الى هنا ، وأنت تريد تحديد الكم والمقدار ، لا بيان الكيف والهيئة .

(وامسحوا برؤوسكم) . قال الحنابلة : يجب مسح الرأس والأذنين، ويجزي الغسل عن المسح بشرط امرار البد على الرأس . وقال المالكية : يجب مسح جميع الرأس دون الاذنين . وقال الحنفية : يجب مسح ربع الرأس ، ويكفي ادخال الرأس في الماء ، أو صبه عليه . وقال الشافعية : يجب مسح بعض الرأس ولو قل ، ويكفي الغسل أو الرش . وقال الشيعة الامامية : يجب مسح جزء من مقدم الرأس ، ويكفي أقل ما يصدق عليه اسم المسح ، ولا يجوز الغسل ولا الرش .. وعليه يكون معنى الباء الالتصاق على القولين الأولين ، والتبقيض على الأقوال الأخيرة الثلاثة .

الجزء السادس

(وأرجلكم الى الكعبين) . ورد في الأرجل قراءتان : احدهما النصب ، والأخرى الخفض . وقال السنة : يجب غسل الأرجل ، لا مسحها ، لأنها معطوفة على الأيدي ، على القراءتين . أما على قراءة النصب فواضح ، اذ الأيدي منصوبة لفظاً ومحللاً . وأما على قراءة الجر فللجوار والإتياع ، أي الرؤوس مجرورة ، والأرجل مجاورة لها ، فجُرت الأرجل لعلاقة المجاورة ، تماماً كقول العرب : « جحر ضب خرب » مع العلم بأن خرب يجب رفعه ، لأنه صفة للحجر ، لا للضب ، ولكنه خفض لمجاورته للضب .

وقال الشيعة : يجب مسح الأرجل ، لا غسلها ، لأنها معطوفة على الرؤوس . أما على قراءة الجر فواضح ، اذ الرؤوس مجرورة بالباء . وأما على قراءة النصب فمعطوفة على محل الرؤوس ، لأن كل مجرور لفظاً منصوب محلاً .
ثم قال الشيعة : ان العطف على الأيدي لا يجوز لأمرين :

الأول : انه خلاف الفصاحة ، لوجود الفاصل بين الأيدي والأرجل ، وهو قوله : « وامسحوا برؤوسكم » ولو كان الأرجل معطوفة على الأيدي لقال : « وأيديكم الى المرافق وأرجلكم الى الكعبين » ولم يفصل بين الأيدي والأرجل بمسح الرأس .

الثاني : ان العطف على الأيدي يستدعي أن يكون لكسل قراءة معنى مغاير للآخر ، اذ يكون المعنى على قراءة النصب الغسل ، وعلى قراءة الجر المسح .. وهذا بخلاف العطف على الرؤوس فان المعنى يكون واحداً على القراءتين . بالإضافة الى أن الجر للجوار رديء لم يرد في كلام الله إطلاقاً .

(وان كنتم جنباً فاطهروا) . يجب الغسل من الجنابة لأمرين : الأول : نزول المني في نوم أو يقظة . الثاني : ادخال رأس الاحليل في قبل أو دبر ، وبالأولى ادخاله كاملاً .

ولم يوجب السنة الغسل بكيفية خاصة ، وانما أوجبوا أن يعم الماء جميع البدن كيف اتفق .

وقسم الشيعة الإمامية غسل الجنابة الى نوعين : ترتيب وارتماس ، والترتيب ان يصب المغتسل الماء على جسمه صباً ، وفي هذه الحال أوجبوا الابتداء بالرأس ،

سورة المائدة

ثم بالجانب الأيمن من الجسم ، ثم الأيسر ، فلو أدخل ، وقدم المؤخر، أو أخر المقدم يطل الفضل . أما الارتماس فهو غمس تمام البدن تحت الماء دفعة واحدة ، فلو خرج جزء منه عن الماء لم يكف .

(وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً) . تقدم تفسيره في سورة النساء الآية ٤٣ .

(ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) . الحرج الضيق والمشقة ، والضرر حرج وزيادة ، ومنه الأذى والمرض وذهاب المال .. والإسلام لم يشرع حكماً يستدعي أي نحو من الضيق والمشقة ، فضلاً عن الضرر ، فما أمر بشيء الا وفيه خير وصلاح ، وما نهى عن شيء الا وفيه شر وفساد، وإذا كان في الشيء الواحد جانبان: نفع وضرر ، يُنظر : فان كان النفع أكبر فهو مطلوب ، وان كان الضرر أكبر فهو منهى عنه ، فالعبرة دائماً بالأكثر ، ومع التساوي فالخير في الفعل والترك ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحبيكم - ٢٤ الأنفال » . وقال : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر - ١٨٥ البقرة » .

(واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به) . كل من دخل في دين أو حزب فقد قطع عهداً على نفسه أن يستجيب لمبادئه وتعاليمه ، ويعمل بها عن رضى وطيب نفس .. وهذا هو الميثاق الذي واثقنا الله به نحن المسلمين حين ارتضينا الإسلام ديناً ، ومن قام بهذا الميثاق وأداه كما أمر الله فقد وفى مع الله ، ومن عصى فقد خان الله، ومن أظهر معاني الوفاء لله سبحانه الاخلاص لعباده . والصدق في معاملتهم ، ولا أعرف علامة على الصدق في الدين حقاً وواقعاً غير الوفاء .. وأنصح كل انسان ان لا يأتمن أحداً لعلمه أو عبادته ، أو لتعبه وشهرته ، بل يأتمنه ويثق به بعد اليقين بصدقه ووفائه .

اعدلوا هو اقرب للتقوى الآية ٨ - ١٠ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

شَتَّانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَحِيمِ *

اللمعة :

القسط العدل . ولا يجزئكم ، أي لا يبعثكم . والشتان البغض .

الاعراب :

شهداء حال من الواو في كونوا . هو أقرب مبتدأ وخبر ، وضمير هو يعود
 على المصدر المتصيد من اعدلوا . وعد الله (وعد) تحتاج الى مفعولين الأول
 الذين آمنوا ، والثاني جملة لهم مغفرة ، وقبل : المفعول الثاني محذوف تقديره
 الجنة ، وجملة لهم مغفرة مفسرة لهذا المفعول المحذوف .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط) . للإيمان الصحيح
 مظاهر خمس وتلمس ، وقد حدها الله سبحانه ، وأوضحها بشئ الأساليب
 في العبد من آياته ، مرّ الكثير منها ، وما يأتي أكثر ، والآية التي نضمرها
 الآن تقول بلسان مبين : ان كنتم مؤمنين فقوموا لله ، واشهدوا بالعدل ، ومعنى
 القيام له تعالى الصديق والاخلاص في الأقوال والأفعال ، أما الشهادة بالعدل فليس
 المراد منها ان نشهد لأعدائنا وأضدادنا بما لهم من حق علينا أو على غيرنا ..

كلا ، وان كان السياق يشعر بذلك ، وانما المراد أن يعدل الانسان في جميع سلوكه ، دون استثناء .

فإن كان عالماً زمنياً اتخذ من علمه وسيلة للقضاء على أسباب الضعف والتخلف ، وتوفير أسباب القوة والتقدم ، وان كان دينياً ، دعا الى كلمة الله ، وهي أن يحسن الانسان خلافة الله في أرضه ، ويقاوم كل من ينحرف عن هذا السبيل ، وان كان جاهلاً استجاب لأهل العلم والدين ، ووقف الى جانبهم مناصراً ومؤازراً ، ما داموا مع الحق والعدل .

هذا هو العدل الذي أمر الله به في هذه الآية وغيرها ، العدل الذي هو أمل الانسانية وهدفها ، والذي لا تستقيم بدونه حياة .. ان المجتمع قد يعيش من غير علم ، اما ان يعيش بلا عدل في جهة من الجهات فحال ، حتى ولو كان جميع أفرادها عباقرة ومخترعين .. ان العلم بلا عدل ضرره أكثر من نفعه ، أما العدل فكله نفع ، ومحال أن يكون فيه للضرر شائبة ، وان وجدت فهي وسيلة لدفع ما هو أعظم ضرراً ، وأشد خطراً .

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) . المراد بالقوم في الآية أعداء الخير والعدل الذين يقاومون كل محاولة لتحرير الانسانية من قيود الضعف والتخلف .. وقد أمرنا سبحانه بالمضي في اقامة العدل والعمل من أجل الحياة غير مهتمين ولا مكترئين بغيظ المنحرفين ودسائسهم ، وبعبارة ثانية ينبغي أن نعمل بالمثل : القافلة تسير ، والكلاب تنبح .

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) . في الآية ٢٥ من سورة البقرة بشر سبحانه المؤمنين العاملين بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وفي الآية ٥٧ من سورة آل عمران بشرهم بأنه تعالى يوفيهم أجورهم ، وزاد في الآية ٥٦ من سورة النساء بأن لهم في الجنة أزواجاً مطهرة ، ويأتي هذا الوعد في بقية السور بأسلوب آخر .. والهدف في الجميع واحد ، وهو الحث والرغبة في الإيمان والعمل كلما دعت المناسبة .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) . بعد أن وعد المؤمنين العاملين بالنعيم توعد الكافرين بالجحيم على طريقته تعالى من تعقيب الرغبة

الجزء السادس

بالترهيب .. وفي هذه الآية دلالة واضحة على ان من كفر بالله فهو من أصحاب الجحيم ، وان لم يدعه الى الايمان نبي أو وصي نبي . ذلك ان آياته تعالى التي تقوم بها الحجة على وجوده لا تختص بما أنزله على رسله ، فلقد أقام الدليل الكافي الوافي على وحدانيته وعظمته من الأنفس والسماوات والأرض ، فمن يكفر بها تلزمه الحجة : « أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق - ٨ الروم » .

اذكروا نعمة الله الآية ١١ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا
إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ *

الإعراب :

اذ ظرف متعلق بنعمة الله . والمصدر المنسبك من : أن يبسطوا . ، مجرور بالباء
المحذوفة ، والمجرور متعلق بهم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا اليكم
أيديهم فكف أيديهم عنكم) . يقال ، بسط اليه لسانه إذا شتمه ، وبسط اليه
يده إذا بطش به ، والمراد بالقوم هنا مشركو مكة الذين أرادوا القضاء على
الإسلام في بدايته عن طريق البطش بأتباعه قتلاً وتعذيباً وتشريداً ، ثم اعلان

الحرب وتجييش الجيوش، ولكن الله في النهاية نصر المسلمين على أعدائه وأعدائهم، وصاروا أعزاء بعد أن كانوا أذلاء، وحاكمين بعد أن كانوا محكومين، ولا نعمة أعظم من الحرية والنصر على العدو، وبعد أن ذكر الله سبحانه المسلمين بهذه النعمة الجلى وجهه اليهم هذا الخطاب :

(واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) لا على قوتهم ، أي انما منحتكم هذه القوة لتستعملوها في احقاق الحق ، لا في احياء الباطل ، وفي انتشار الأمن والعدل ، لا لاستغلال المستضعفين ، والتآمر عليهم ، والتحكم بهم ، كما فعل بكم المشركون من قبل ، وكما يفعل أكثر الناس ، يطلبون العدالة ، وهم ضعفاء ، ويتكبرون لها ، وهم أقوياء .. ان المؤمن حقاً يخشى الله ويشكره ، وهو قوي أكثر مما يخشاه ويشكره ، وهو ضعيف ، أو هو في الحالين سواء - على الأقل - أما من آمن بلسانه ، دون قلبه فعلى العكس : « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون - ٦٥ العنكبوت » .

أخذ الميثاق من اليهود والنصارى الآية ١٢ - ١٤ :

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَمَا تَفْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَانْفُذْ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ *

الله :

نقيب القوم من يبحث عن أحوالهم، والمراد به هنا من أسندت إليه أمور القوم وتدير مصالحهم . ويطلق التعزير على التأديب ، وعلى النصرة ، وهو المراد هنا . وأغرينا أي الصقنا ، لأنه مأخوذ من الغراء الذي يلصق بالشيء .

الإعراب :

لما نقصهم (ما) زائدة ، والمجرور متعلق بـلغناهم . وقاسية مفعول ثانٍ لجعلنا . ومن الذين قالوا متعلق بأدخلنا .

المعنى :

تحدث سبحانه في كتابه العزيز عن الكفار والمشركين بعامه ، وعن مشركي قريش بصورة خاصة لما لاقاه النبي (ص) منهم ، وتحدث عن المنافقين الذين أظهروا الاسلام ، وأبطنوا الكفر ، وعن اليهود والنصارى ، ولكنه تحدث عن اليهود أكثر من الجميع ، لأنهم أكثر خلق الله عناداً للحق، وحقداً على الانسانية، ومرة الكثير عنهم في سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء، ومعظم هذه السورة، أي المائة فيهم وفي النصارى .

(ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبياً) . ذكر

سورة المائدة

سبحانه انه بعث من بني اسرائيل اثني عشر نقيباً ، ولم يبين : هل كان هؤلاء الاثنا عشر زعماء اسباطهم الذين يمثلون ١٢ فرعاً من يعقوب ، وهو اسرائيل ، أو هم أنبياء أو أوصياء ؟ لم يذكر الله شيئاً من ذلك ، ونحن نسكت عما سكت الله عنه .. اجل ، ان الآية صريحة في انه قد كان لله ميثاق مع بني اسرائيل ، يتضمن أن يقوم بنو اسرائيل بأمر خمسة ، وان الله يشيهم بأمرين اذا وفوا ، واذا نكثوا استحقوا منه تعالى الطرد والعذاب ، أما الامور التي التزموا بادائها والوفاء بها فهي :

- ١ - اقامة الصلاة . (لئن أقم الصلاة) .
- ٢ - ايتاء الزكاة . (وآتيتم الزكاة) .
- ٣ - الايمان برسول الله . (وآمنتم برسلي) .
- ٤ - نصره الرسل . (وعزرتوهم) .
- ٥ - بدل المال في سبيل الله . (وأقرضتم الله قرضاً حسناً) . وبدل عطف القرض على الزكاة على انه كان الواجب في أموالهم أمرين : الزكاة ، والبدل في سبيل الله . ولقاء القيام بهذه الأمور الخمسة التي جاءت شرطاً في الميثاق يشيهم الله بأمرين وقعا جزاء لهذا الشرط ، وهما :

- ١ - العفو عن السيئات . (لا كفرن عنكم سيئاتكم) .
- ٢ - الجنة . (ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار) .

هذا هو ميثاق الله مع بني اسرائيل شرطاً وجزاء ، وبعد ان بينه سبحانه خاطبهم بقوله : « فن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » . ومن ضل الصراط المستقيم فعاقبته الخزي والخلدان .

(فبا نقضهم ميثاقهم لعناهم) . انهم ينقضون كل عهد الا عدم نقض العهد والميثاق ، وهذه سمة لهم لا تفارقهم أبداً ، كما ان لعنة الله عليهم لا تنفك عنهم أبداً .. للتلازم والتلاحم بين نقض العهد ، وبين لعنة الله . (وجعلنا قلوبهم قاسية) . كل من لا يقي الشر والمعاصي في قلبه . قال الإمام علي (ع) : من قل ورعه مات قلبه .

وتسأل : كيف نسب سبحانه قسوة قلوبهم اليه ؟ أليس معنى هذا أنهم غير مسؤولين عن هذه القسوة ، لأنها من الله ، لا منهم ؟ .

الجواب : ان الله يبين لهم طريق الخير ، وأمرهم به ، ويبين طريق الشر ، ونهاهم عنه ، وأخذ منهم الميثاق على السمع والطاعة ، فأعطوه إياه ، ثم خانوا ونكثوا ، وأصروا على العصيان والتمرد ، فتركهم وشأنهم ، ولم يلجنهم إلى عمل الخير ، إذ لا تكليف مع الالغاء ، ولأنه تعالى لم يلجنهم صح ان ينسب القسوة اليه ، ومن أراد زيادة في التوضيح فليرجع الى ما قلناه عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء ، فقرة الاضلال من الله سلبى ، لا إيجابى .

(يحرفون الكلم عن مواضعه) . تقدم تفسيره في سورة النساء الآية ٤٥ .
(ونسوا حظاً مما ذكروا به) . ذكروا بالتوراة ، فحرفوا منها ما يتنافى مع أهوائهم ، وابقوا ما يشتهون . وإذا نقضوا ميثاق الله ، وحرّفوا كتابه الذي أنزله اليهم من السماء - فبالأولى أن ينقضوا ما يعطونه من موثيق للعرب وغير العرب ، وان يحرفوا قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن .

(ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم) . لم يكتف يهود الجزيرة العربية آنذاك بانكار نبوة محمد (ص) ، حتى تأمروا عليه مع أعدائيه ، وبيتوا له المكر والغدر ، فخطبه الله بقوله : (لا تزال تطلع على خائنة منهم) . أي انك لاقيت - يا محمد - الكثير من اليهود ، وستلاقي أيضاً الكثير منهم ، وان احسنت اليهم ، لأن المحسن والمسيء عندهم مسواء (إلا قليلاً منهم) وهم الذين أسلموا وصدقوا في اسلامهم كعبدالله بن سلام ومن معه . ورغم ذلك كله فان الله أمر نبيه أن يقابل اساءتهم بالاحسان : (فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين) .

وتسأل : أبعد أن وصفهم سبحانه بأقبح الأوصاف ، وان الخير لا يُرجى منهم بحال ، أبعد هذا بأمر نبيه بالصفح والعفو عنهم ؟ وهل يعرف اليهود معنى الصفح والعفو ؟ وهل يجوز الصفح عن الأفاعي والعقارب ؟

وأجيب عنه بأجوبة منها ان ضمير عنهم يعود على القليل منهم الذين أسلموا وأخلصوا . ومنها ان هذه الآية منسوخة بآية السيف . وهذان الجوابان محتملان ،

أما الأول فلأن الضمير بظاهره يعود على الأقرب ، وأما الثاني فلوجود النسخ في القرآن .

وبجوز أن يكون الأمر بالصفح عنهم نزل بعد أن قوي الإسلام ، وأصبح في حصن حصين لا يضره كيد اليهود ولا غيرهم من الكافرين .

(ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم) . بعد ان بيّن سبحانه حال اليهود من نقض الميثاق والتحريف بيّن حال النصارى وانهم واليهود سواء من هذه الجهة . . ولكن جل ثناؤه ذكر في الآية السابقة نوع الميثاق الذي نقضه اليهود ، ولم يذكر شيئاً عن نوع الميثاق الذي أخذه على النصارى ، وغير بعيد ان الله سبحانه أطلق الكلام بالنسبة الى النصارى لوضوح الميثاق الذي أخذه منهم ، وهو التوحيد (فسوا حظاً مما ذكروا به) . والذي ذكروا به هو الانجيل الذي أنزله الله على عيسى (ع) وينص صراحة على التوحيد ، وعلى نبوة محمد (ص) باسم أحمد ، فحرقوه تماماً كما حرق اليهود التوراة .

ومن أقوى الأدلة على تحريف الانجيل ان رؤساء الكنيسة وعلماء التاريخ في الأنجيل الأربعة التي اعتمدها النصارى في القرن الرابع ، قد اختلفوا فيما بينهم فيمن كتب الأنجيل ؟ ومنى كتبت ؟ وبأية لغة ؟ وكيف فقدت نسخها الأصلية ؟ وهذه الخلافات موجودة بالتفصيل في « دائرة المعارف للفرنسية الكبرى » . ذكر هذا وكثيراً غيره صاحب تفسير المنار .

(فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) . ولا شيء يقال في تفسير هذه الجملة خير مما قاله الشيخ أبو زهرة في كتاب « محاضرات في النصرانية » . لذا ننقل عبارته بحروفها :

« ولقد وقع بين الذين قالوا : انا نصارى من الخلاف والشقاق والعداء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه سبحانه في كتابه الصادق الكريم ، فقد سال من دعاتهم على أيدي بعضهم البعض ، ما لم يسأل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله ، سواء أكان ذلك بسبب الخلافات الدينية ، أو بسبب الخلافات على الرئاسة الدينية ، أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات ، ولم تخمد هذه الحروب والجراحات ، وهي ماضية الى يوم القيامة ، كما قال أصدق القائلين . »

قد جاءكم من الله نور الآية ١٥ - ١٦ :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ
مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *

الاهراب :

جملة يبين لكم حال من رسولنا . وسبل السلام بدل من رضوانه ، ويجوز
أن يكون مفعولاً ثانياً ليهدي ، لأن هدى تتعدى تارة الى المفعول الثاني بواسطة
حرف الجر مثل هداه الى الخير ، وتارة بلا واسطة مثل هداه الخير .

المعنى :

أمر الله سبحانه نبيه (ص) والمسلمين جميعاً أن يجادلوا أهل الكتاب بالتي
هي أحسن ، ثم ضرب لهم أمثلة من هذا الجدل ليكونوا على بينة من معناه
ومفهومه ، من ذلك أن يقول المسلمون لأهل الكتاب : « آمنا بالذي أنزل
إلينا وأنزل اليكم وإلينا وألحكم واحد ونحن له مسلمون - ٤٦ العنكبوت » :
« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا
نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله - ٦٣ آل عمران » ..
وهناك آيات تخصي على أهل الكتاب بعض آثامهم ، ومنها هذه الآية التي نفسرها ،
فقد ذكرتهم بتحريف التوراة والانجيل ، وعنادهم لمحمد الذي جاءهم بالهدى
والنور .

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير) . المراد بالرسول محمد (ص) ، فإنه بين لليهود والنصارى فيما بين بعض ما أخفوه من الكتاب الذي معهم ، فالنصارى أخفوا التوحيد ، وهو اساس الدين ، واليهود أخفوا من العقيدة خبر الحساب والعقاب يوم القيامة ، ومن الشريعة تحريم الربا ، ورجم الزاني ، كما أخفى اليهود والنصارى معاً بمئة محمد : « الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل - ١٥٦ الأعراف » .

لقد أطلع الله سبحانه محمداً (ص) على كل ما أخفاه وحرّفه اليهود من التوراة ، والنصارى من الانجيل ، ثم أخبرهم محمد (ص) بكثير مما كانوا يخفون ، وسكت عن كثير مما يعلم من تحريفهم ، وهذا معنى قوله تعالى : « بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير » . أي يسكت عنه .

وجاء هذا الإخبار من محمد (ص) دليلاً قاطعاً على نبوته ، ومعجزة من معجزات القرآن التي لا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيها ويشك ، لأن النبي (ص) كان أمياً لم يقرأ كتاباً ، ولم يخبره أحد عما في كتب اليهود والنصارى .

وتسأل : لماذا أخبرهم النبي ببعض فقط ، دون الجميع ؟

الجواب : ان الغاية هي اعلامهم بأن الرسول عالم بما يخفون ، وهذه الغاية تحصل بالإخبار عن البعض ، كما تحصل بالإخبار عن الكل .. هذا ، الى انهم اذا علموا بأنه (ص) عالم ببعض ما أخفوه فقد علموا بأنه عالم بالكل .

الاسلام وأنصار السلام :

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) . قيل : النور محمد ، والكتاب القرآن . وقيل : هما وصفان للاسلام .. ولا اختلاف بين القولين الا في التعبير ، فان محمداً والاسلام وكتاب الله معانٍ متلازمة متشابكة ، لا ينفك بعضها عن بعض .

(يهدي به الله من اتبع رضوانه) . أي من رغب في مرضاة الله وحده ، وطلب الحق لوجه الحق فانه يجد في الاسلام بغيته ومرامه ، لأن فيه ثلاث فوائد :

الجزء السادس

١ - (سبيل السلام) . وليس المراد بالسلام خصوص السلام الذي ينشده وينادي به أنصار السلام من طلب الأمن على الأرواح والأموال للشعوب : وإنما المراد به السلام الكامل الشامل لجميع الشعوب ، والأفراد ، وسلام البيت والأسرة من التربية الفاسدة ، وسلام العقل من الجهل والاليمان بالخرافات والأساطير ، وسلام النفس من الطمع والحقد والكذب والمكر .

٢ - (ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه) . أي يخرجهم الله بأمره تعالى من ظلمات التعبد للأصنام الى نور التوحيد الذي يحررهم من كل قيد إلا التعبد لله الواحد القهار .

٣ - (ويهديهم الى صراط مستقيم) . والصراط المستقيم عند الله هو السبيل الذي يجعل الحياة ، هذه الحياة ، متعة وهناء لا عذاباً وشقاء .

وبعد ، فهل عند أنصار السلام وغيرهم من الذين ينادون بتنمية الانتاج ، وتوفير العيش للجميع ، هل عند هؤلاء وغير هؤلاء منهج أفضل وأجلى مما عند الاسلام ؟ . وهل يحبون عباد الله أكثر من حب الله لعباده ، أو أنهم أعلم منه بما يصلح خلقه ويفسده ؟ وبالتالي ، هل في عقيدة الاسلام ، وشرعية الاسلام ، وأخلاق الاسلام ، أو في حكم واحد من أحكام الاسلام ما يتنافى مع زيادة الانتاج وتوزيعه بالحق والعدل ؟ . ان القرآن أول الدعاة الى حياة أفضل ، قال سبحانه في الآية ٩ من الاسراء : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » . قال المفسرون : أي للحالة الأفضل .

ومها شككت ، فاني على علم اليقين ان ما من أحد يدرس الاسلام دراسة صحيحة ، أي بكفاءة وتجرد ، إلا آمن به واذعن له ، من حيث يريد ، أو لا يريد .

قالوا ان الله هو المسيح الآية ١٧ - ١٩ :

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَنَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي

الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ
وَاللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّٰهِ
وَأَحِبَّآؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ
لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى
فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُمْ
بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَ اللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

الاهراب :

جميعاً حال من المسيح وامه ومن في الأرض . وعلى فترة متعلق بمحذوف
حالات من الضمير في يبين . والمصدر المنسبك من أن تقولوا مجرور باضافة مفعول
له محذوف ، والتقدير مخافة قولكم ما جاءنا من بشر .

المعنى :

(لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) . قد نفهم ان أحكام
الشرائع الوضعية تتغير بتغير الزمان ، أما ان تتغير اصول العقيدة الدينية بتغير
الظروف والأوقات فبعيد عن فهم كل عاقل .. ولكن هذا ما حدث بالفصل
للعقيدة المسيحية ، فقد ابتدأت هذه العقيدة بالتوحيد الخالص في عيسى (ع) ،
وبقيت على التوحيد أمداً غير قصير ففرق من المسيحيين ، منها فرقة ايون ،
وفرقة بولس الشمشاطي ، وفرقة أريوس ، وقد نص القرآن صراحة على ان

عيسى (ع) أنى بعقيدة التوحيد :

« واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي آلهين . من دون الله . قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم الا ما أمرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » (١١٥ المائدة) .

وظلت عقيدة التوحيد عند كثير من المسيحيين ، ولم تعلن عقيدة التثليث مدعومة بالقوة الى سنة ٣٢٥م حيث أصدر مجمع نيقية قراراً بإثبات ألوهية المسيح ، وتكفير من يقول : انه انسان ، وحرقت جميع الكتب التي تصفه بغير الألوهية ، ونفذ قسطنطين امبراطور الرومان هذا القرار ، وأصبح المسيح إلهاً عندهم بعد أن كان بشراً ، وصدق عليهم قول الفيلسوف الصيني (لين يوتانغ) : ان الاغريق جعلوا آلهتهم مثل الرجال ، أما المسيحيون فقد جعلوا الرجال مثل الآلهة ١ .

وبهذا يتبين معنا ان الاعتقاد بالوهية عيسى (ع) كان قبل نزول القرآن بحوالى ثلاثة قرون - اذن - يكون المعنى المراد من قوله تعالى : (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح) المعنى الظاهر من اللفظ ، ولا داعي للتأويل بالحلول والاتحاد ، كما فعل كثير من المفسرين القدامى زاعمين ان أكثر النصارى لا يقولون بربوبية عيسى ، بل يقولون : ان الله حل به ، أو اتحد معه ، وعليه فلا تعدد .. وقال صاحب تفسير المنار : « ان أمثال الزنجشري والبيضاوي والرازي لا يعتقد بما يعرفون عن النصارى ، لأنهم لم يقرأوا كتبهم ، ولم ينظروهم فيها » . وصدق صاحب المنار ، فان من يرجع الى كتبهم يجدونها صريحة في التثليث ، ونقل الشيخ أبو زهرة الكثير منها في كتاب « محاضرات في النصرانية »

١ المجامع عند النصارى تنقسم الى ثلاثة اقسام : مجامع مسكونية ، أي تجمع رجال الكنيسة في جميع أنحاء المعمورة ، وهذه حكمها لا يرد ، ومجامع ملية ، أي تختص بملة دون ملة ، ومجامع اقليمية ، أي خاصة بأقليم دون إقليم .. وتجدر الإشارة الى ان ابا حنيفة يقول : ليس لله احكام واقعية ، وان حكمه ما يراه المجتهد بالذات ، أي ان حكم الله واقعاً ما حكم به للفرد فضلاً عن الجماعة والمجامع .

سورة المائدة

وعقد في هذا الكتاب فصلاً خاصاً بعنوان « النصرانية كما هي عند النصارى وفي كتبهم » ، وما جاء فيه ان القس بوطر ألّف رسالة أسماها «الأصول والفروع» قال فيها : « ان في اللاهوت ثلاثة أقانيم ، ولكل منهم عمل خاص في البشر» .
وتقدم الكلام عن الأقانيم الثلاثة عند تفسير الآية ٥٠ من النساء .

الاشاعرة والنصارى :

وتسأل : ان النصارى يؤمنون بالتثليث والوحدانية في آن واحد ، لأنهم يقولون « بسم الأب والابن والروح القدس إلهاً واحداً » ، فكيف يمكن الجمع بين الوحدانية والتثليث ، كيف يكون الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحداً ؟
وأجاب المسيحيون أنفسهم عن ذلك بأن العقيدة فوق العقل ، وهم يربون صغارهم على ذلك ، ويقولون لهم : اذا لم تفهموا هذه الحقيقة الآن فانكم سوف تفهمونها يوم القيامة .

وهذه المناسبة نشير الى أن الأشاعرة من المسلمين قالوا : ان الله قد أراد الكفر به من العبد ، ومع ذلك يعاقبه عليه .. فاذا كان قول النصارى : الثلاثة واحد غير معقول فان قول الأشاعرة : الله يفعل الشيء ثم يعاقب عبده عليه غير معقول أيضاً .

أما المسلمون فيؤمنون إيماناً جازماً بأن كل ما يقره العقل يقره الدين ، وما يرفضه العقل يرفضه الدين ، ويروون عن نبيهم انه قال : أصل ديني العقل .. وان رجلاً سأله عن معنى البر والإثم ؟ فقال له : استفت قلبك، البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر ، وان أفتاك الناس وأفتوك .

(قل فمن يملك من الله شيئاً ان أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً) . هذه الآية من أقوى الردود على المسيحيين ، وأصدق الأدلة على عدم ألوهية المسيح ، لأن الله سبحانه اذا ملك القدرة على هلاك المسيح فلا يكون المسيح ، والحال هذه ، إلهاً ، وان لم يملك الله القدرة على هلاكه فلا يكون الله إلهاً ، والمفروض انه إله ، فيكون قادراً على هلاك المسيح .

الجزء السادس

ورب قائل يقول : ان هذه الآية لا تصلح رداً على النصارى فضلاً عن أنها من أصدق الأدلة ، لأنها دعوى مجردة عمن الدليل .. فللنصارى أن يقولوا : ان الله لا يقدر على هلاك المسيح ، ولا المسيح يقدر على هلاك الله ، لأن كلاماً منها إلهه ؟.

الجواب : ان المسيحيين متفقون قولاً واحداً على أن اليهود قد صلبوا المسيح وآذوه وأماتوه وقبروه تحت الأرض ، وعلى ذلك نصت أناجيلهم ، منها ما جاء في انجيل متى لإصحاح ٢٧ رقم ٥٠ : « وصرخ أيضاً يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح » . وما جاء في انجيل لوقا لإصحاح ٢٣ رقم ٤٦ : « ونادى يسوع بصوت عظيم قائلاً يا أبت في يدك استودع روحي ولما قال هذا أسلم الروح » . وما جاء في انجيل يوحنا لإصحاح ١٩ رقم ٣٣ و ٣٤ « وأما اليسوع فلما انتهوا اليه ورأوه قد مات لم يكسروا ساقه ، ولكن واحداً من الجنود فتح جنبه بحربة ، فخرج للوقت دم وماء » أي خرج من جنب المسيح بعد موته .. وإذا كان اليهود قد أهلكوا المسيح فبالأولى أن يقدر الله على هلاكه وهلاك أمه .

(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) . ان قولهم هذا تماماً كقولهم الذي حكاه الله عنهم في الآية ١١١ من سورة البقرة : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » . ونجد تفسير هذه الآية في ج ١ من هذا التفسير ص ١٧٧ و ١٧٨ .. ونجدد الإشارة الى عقيدة الاسلام التي تقول : لا فضل لانسان على انسان إلا بالتقوى ، وان النطق بكلمة الاسلام من حيث هو ليس بشيء إلا مع العمل الصالح .

(قل فلم يعذبكم بذنوبكم) . وسأل: ان هذا لا يصلح جواباً لليهود والنصارى عن زعمهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه ، لأن لهم أن يقولوا : ان الله لا يعذبنا في الآخرة ، وإذا لم يكن لديهم دليل محسوس على عدم عذابهم في الآخرة فلا دليل محسوس أيضاً على عذابهم في ذلك اليوم ؟.

الجواب : ان المراد بالعذاب ما يعم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.. والله سبحانه قد عذب اليهود في الدنيا على يد الفراعنة ، وبختنصر والرومان وغيرهم . (انظر ج ١ من هذا التفسير ص ٩١) . أما عذاب النصارى فهو أدهى وأمر ،

سورة المائدة

لأنه في الدنيا كان بمحاربة بعضهم بعضاً ، وتنكيل بعضهم ببعض .. وبدية ان الأب لا يعذب أبنائه ، والمحب لا يعذب أحباءه .

أما الدليل على عذابهم في الآخرة فقد أشار اليه سبحانه بقوله : (بل أنتم بشر) لا تختازون عن غيركم في شيء .. كل الناس من آدم ، وآدم من تراب كما قال رسول الله (ص) . (يغفر لمن يشاء) ممن يراه أهلاً لمغفرته (ويعذب من يشاء) ممن يراه مستحقاً لعذابه ، وليس لأحد أن يفرض عليه الغفران ، أو يمنعه من العذاب .

(والله ملك السموات والأرض وما بينها) . لأنه خالق الكون ، ومن كان كذلك فهو غني عن الأبناء والأحباء . (واليه المصير) . وهناك يعلم اليهود والنصارى انهم أبغض عباد الله لله ، وأكثرهم عذاباً على افترائهم الكذب بأنهم أبناء الله وأحباؤه .

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) . أي بعد انقطاع الوحي أمداً من الزمن ، واحتياج الناس الى الأنبياء والمرشدين ، قال الإمام علي (ع) : « بعثه والناس ضلالاً في حيرة ، وخابطون في فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واسترلنهم الكبرياء ، واستخفنهم الجاهلية الجاهلاء ، حيارى من زلزال في الأمر ، وبلاء من الجهل ، فبالغ (ص) في النصيحة ، ومضى على الطريقة ، ودعا الى الحكمة والموعظة الحسنة » .

(ان تقولوا ما جاءنا من بشر ولا نذير فقد جاء بشر ونذير) ولم يترك الله لكم حجة ولا معذرة ، وهذه الآية بمعنى الآية ١٦٥ من سورة النساء : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ومر تفسيرها . (والله على كل شيء قدير) . يقدر على نصرته محمد (ص)، واعلاء كلمة الاسلام ، وان جحد اليهود والنصارى .

موسى وقومه الآية ٢٠ - ٢٦ :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ

فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ *
يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا
عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ
وَأِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ *
قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ
فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *
قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
فَقَاتِلْ إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي
فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُخِرمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ
سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ *

اللغة :

الجبار للمبالغة . ويستعمل في اصلاح الأمور ، يقال : جبر كسره إذا أصلحه .
وجبر الفقير إذا أنعشه ، وأيضاً يستعمل في ذم الانسان المتكبر المتعظم وهذا هو
المراد هنا . وإذا وصف ذو الجلال به فالمراد به العالي الذي لا يُنال ، حتى العقول
تعجز عن ادراك كنهه وحقيقته ، ومن ذلك قول العرب : نخلة جبارة ، إذا طالت
وعلت وقصرت الأيدي عن تناولها . والته الحيرة . والاسى الحزن له أو عليه .

الاعتراب :

فتقبلوا منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لوقوع الفعل في جواب النهي . وما داموا (ما) مصدرية ظرفية ، والمصدر المنسبك بدل بعض من أبدأ . وها هنا . (ها) للتنبيه ، وهنا ظرف متعلق بمقاعدون . وأربعين سنة ظرف متعلق بمحرمة . وجملة يتيهون حال من الضمير في عليهم .

المعنى :

هذه الآيات حلقة من قصة بني اسرائيل التي ذكرها سبحانه متفرقة في العديد من سور القرآن ، وكرر بعض حلقاتها مرات ، وهي - كما ترى - ظاهرة الدلالة ، واضحة المعنى :

(واذا قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤث احداً من العالمين) . ذكرهم موسى (ع) بنعم الله عليهم تمهيداً لما سيأمرهم به من الجهاد ، وعدّ من هذه النعم ثلاثاً: الأولى ان الله جعل فيهم انبياء . الثانية : انه جعلهم ملوكاً ، أي مستقلين يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، ولا نعمة أعظم من الحرية . الثالثة : انه عاملهم بما لم يعامل به أحداً من الناس ، فأهلك عدوهم من غير جهاد وقنال ، وأنزل عليهم المن والسلوى بلا حرث ولا حصاد ، وأخرج لهم المياه العذبة من الحجر بلا حفر وتقيب ، وأظّل فوقهم الغمام بلا بناء زعناء .

وهذه النعم الثلاث نجد تفسير الآية ٤٧ من سورة البقرة : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين » . فالتميز على أهل زمانهم كان بإرسال الأنبياء منهم ، وباستقلالهم ، وانزال المن والسلوى عليهم ، وما اليه . ويتعبّر ثانٍ ان التفضيل لم يكن بالأخلاق والمنافق ، بل بكيفية المعاملة معهم .

(يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب - أي وعد - الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتقبلوا خاسرين) . بعد أن ذكرهم موسى بنعم الله عليهم

أمرهم بغزو فلسطين ، وكان فيها الحيثيون والكنعانيون ، وأمرهم بالصبر والثبات في القتال ، وكان الله قد وعدهم السكنى بها في ذلك العهد . فقول موسى : « كتب الله لكم » إشارة الى هذا الوعد ، وليس معناه ان فلسطين ملكٌ طلقٌ لهم ، كما يزعم اليهود .

ولكن قوم موسى قالوا له جبناً وضعفاً : (يا موسى ان فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فلإنا داخلون) . فهم يريدون نصراً رخيصةً ومريحاً ، لا يكلفهم قتيلًا ولا جريحاً ، تماماً كما غرق عدوهم فرعون .. ولكن رجلين صالحين منهم قاما فيهم مرشدين يحنأهم على السمع والطاعة لله ولرسوله ، واليهما أشار سبحانه بقوله :

(قال رجلان من الذين يخافون الله عليهما - أي بالآمان - ادخلا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) . أي اغزوا القوم في عقر دارهم ، فذلوا وينكسروا ، على أن تكونوا متوكلين حقاً على الله ، كما هو شأن المؤمنين المخلصين . ولكنهم عادوا الى جبلتهم من العناد والتمرد والفيحة والصلافة .

و (قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) . أرايت الى هذه الجرأة على الله ورسوله ؟ الى هذه الوقاحة والصلافة : « اذهب أنت وربك » .. انه ربهم اذا خدم مصالحهم الشخصية ، ولم يكلفهم بما يزعجهم ، وقتل أعداءهم .. وهم (قاعدون) سالمون آمنون ، أما اذا انزعج خاطرهم بأدنى تكليف فهو رب موسى ، وليس برهم .. ومعنى هذا في واقعه ان أهواءهم وشهواتهم وحدها هي ربهم وإلههم الذي يستحق منهم العبادة والتقديس بحمده .

والحق ان هذه الظاهرة لا تخص اليهود وحدهم ، بل تشمل كل من عبد الله على حرف .. وما أكثرهم في المسلمين والنصارى .

(قال رب اني لا أملك الا نفسي وأخي) . هذا التوجه من موسى الى ربه يشعر بالشكوى من غربته بين قومه بعد الجهد الجهيد ، والعناء الطويل من أجلمهم .. (اني لا أملك الا نفسي وأخي) ولا ملك ولا أمر لمن لا يطاع :

(فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) . لم يجد موسى بداً من الطلب اليه تعالى ان يفصل ويباعد بينه وبين قومه بعد نكولهم عن عهد الله وميثاقه .
(قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) . هذا هو جزاؤهم : التيه في صحراء سيناء الجرداء ، يسبرون فيها لا يهتدون الى طريق الخروج ، ولا يدرون أين المصير .. وهكذا يضربون في مجاهلها أربعين عاماً ، حتى يغنى كبراًؤهم ، وينشأ بعدهم جيل جديد .

قاييل وهابيل الآية ٢٧ - ٣١ :

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِغْمِي وَإِغْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ *

الغلة :

الغراب مصدر كالشكران والكفران ، والمراد به هنا اسم المفعول ، أي الشيء

الجزء السادس

الذي يتقرب به الى الله من الذبائح وغيرها ، فهو مثل الخلق حيث أريد به المخلوق . والبسط المد ضد القبض . وباء بوءاً ، أي رجع رجوعاً . فطوعت له نفسه ، أي زينت له نفسه . والسواة ما يسوء ظهوره . والويل حلول الشر ، والويلة تستعمل في الفضيحة ، وهذا المعنى هو المراد هنا ، فكأنه قال : وافضيتاه .

الإعراب :

اذ قربا قرباناً ، أي قرب كل واحد منهما قرباناً ، مثل قوله تعالى : فاجلدوهم ثمانين جلدة ، أي اجلدوا كل واحد منهم . وكيف حال من الضمير في يوارى . وجملة يوارى مفعول ثانٍ ليريه . يا ويلنا ليس النداء هنا للآدميين بل للويل نفسه ، أي يا ويل احضر هذا وقتك . وكذا واعجابه ، أي أيها العجب هذا وقتك .

المعنى :

لقد حاك القصاص ، وكثير من المفسرين الأساطير من قصة ابني آدم هذين .. ولا مصدر إلا الاسرائيليات . ونحن نلخص ما دل عليه ظاهر الآيات بما يلي : لقد كان المتنازعان ابني آدم من صلبه مباشرة ، كما هو الظاهر ، ولكن الله سبحانه لم يصرح باسمها ، وقال المفسرون والمؤرخون : ان اسم القاتل قابيل ، واسم المقتول هابيل .. وسبب النزاع والشقاق ان كلاهما قرب قرباناً لله سبحانه ، فتقبله جل ثناؤه من هابيل ، ولم يتقبل من قابيل .. ولم تذكر الآيات نوع القربان ، ولا كيفية التقبل من ذلك ، والرفض من هذا .

فثارت حفيظة قابيل ، وهدد أخاه بالقتل . فقال له هابيل : انت الجاني على نفسك ، ولا لوم عليّ ، لأن الله تعالى يتقبل من المتقين ، ولست منهم ، وان أردت قتلي فلا اقابلك بالمثل ، وكفأك جرمأ إن فعلت أن ترجع بلأثم قتلي ، وأثمك الذي كان السبب في عدم قبول قربانك .

سورة المائدة

ولكن هذه الكلمات لم تترك أثراً في نفس قابيل ، بل على العكس زادت من نقمته ، ونفذ الخطة عامداً ، وبعد أن صار أخوه جثة هامدة لم يعرف كيف يوارىها ، فبعث الله غراباً ، فحفر برجليه ومنقاره حفرة ، فلما رآها القاتل زالت حيرته ، واهتدى الى دفن أخيه من عمل الغراب .. ولكنه عض يده ندامة بعد أن أدرك فداحة الخطب ، كما أدرك انه دون الغراب معرفة وتصرفاً . هذا هو موجز القصة ، كما دلت عليها الآيات .. وبهذه المناسبة نشير الى خلاف معروف بين علماء الأخلاق منذ القديم ، وهو ، هل الانسان شرير بالطبع ، أو خير بالطبع ؟ . وحاول كثير من المفسرين أن يستدلوا بهذه القصة على انه شرير بالطبع .

والصحيح ان في كل انسان استعداداً للخير والشر بفطرته ، حتى خير الأخيار ، وشر الأشرار ، والفرق ان في بعض الأفراد مناعة من عقل رصين ، أو دين متين يكبح نزواتهم الى الشر ، ويندفع البعض الآخر مع شهواته لضعف في ديبته ، أو عقله .

الفرد والجماعة في الاسلام الآية ٣٢ :

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ
أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا
أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ *

اللغة :

من أجل ذلك ، أي بسبب ذلك . والإسراف التجاوز عن حد الاعتدال .

الإعراب :

من أجل ذلك متعلق بكتبنا . وانه (الهاء) ضمير الشأن ، والمصدر المنسبك من ان وما بعدها مفعول كتبنا . ومن شرطية . وبغير متعلق بمحذوف حالاً من الضمير في قتل . وبعد ظرف متعلق بمسرفون .

المعنى :

(من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل) . لقد كشفت قصة ولدي آدم ان في الناس نوعين : معندياً ومعتدياً عليه .. ولحماية هذا من ذاك ، وصيانة الحياة ونظامها جعل الله لكل معتد عقوبة يستحقها ، واعتبر قتل الأبرياء جريمة الجرائم كلها ، فقله تعالى : (من أجل ذلك) اشارة الى جريمة القتل من حيث هي ، وليس اشارة الى قصة قابيل مع أخيه هابيل، وان كانت هي السبب الباعث على التشريع ، تماماً كما تُشرع السلطة قانوناً عاماً بسبب حادثة خاصة . وتساءل : ان عقوبة القتل نعم بني اسرائيل وغيرهم ، فسا هو القصد من تخصيصهم بالذكر ؟

الجواب : أجل ، ان هذه العقوبة وغيرها عامة لهم ولغيرهم ، ولكن الله سبحانه خص اليهود بالذكر لأنهم أجزأ خلق الله على قتل عباده، واراقة دمائهم، وبذلك تشهد ثوراتهم التي أباحت لهم قتل النساء والأطفال ، وبشهد عليهم قتلهم الأنبياء في تاريخهم القديم ، وسيرتهم في فلسطين في تاريخهم الحديث . (انه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض) . أي أو غير فساد في الأرض عطفاً على نفس ، لا على غير ، والمعنى يجوز شرعاً قتل من قتل غيره عدواناً ، وأيضاً يجوز قتل من سعى في الأرض فساداً جزاءً وفاقاً، وصيانة لحياة الناس وأمنهم .

أما من يقتل نفساً بريئة مسالمة (فكأنما قتل الناس جميعاً) . اختلف المفسرون وغير المفسرين في الوجه المبرر لتشبيه القتل الافرادي بالقتل الجماعي ، واحياء الفرد باحياء الناس جميعاً ..

فمن قاتل : انه مبالغة في الردع عن جريمة القتل ، والحث على انقاذ النفس وتخليصها من المهلكات ، كالفرق والحرق ، وما اليها من اغاثة الملهوف . ومن قاتل : انه بيان لحقيقة القاتل والمحسن ، بأن من أقدم على قتل واحد يقدم على قتل الناس جميعاً ، تماماً كما يقولون : « من يسرق البيضة يسرق الجمل »^١ وان من أحسن الى واحد من الناس يحسن للجميع ، ما دام الدافع له حب الخير والاحسان . وقال آخرون : انه بيان للطبيعة النوعية في الانسان ، وانها تتمثل في البعض والكل على السواء ، لا تزيد بكثرة الأفراد ، ولا تنقص بقلتهم .

والذي نفهمه من الآية ان الفرد في نظر الإسلام هو غاية بنفسه ، لا وسيلة الى غيره ، وانه ظاهرة انسانية ، له ما لها من المحرمة والكرامة ، وان العدوان عليه عدوان على الانسانية التي تتمثل به وبالناس جميعاً، وان الاحسان اليه احسان الى الناس جميعاً .

وتسأل : ان هذا تضخيم خيالي لذات الفرد : وتضحية بالجماعة من أجله ، مع ان العكس هو الحق والعدل ؟

الجواب : ليس المراد بمصلحة الفرد المصلحة التي تطفئ على مصلحة الجماعة، وتتنافى معها، ولا المراد بالفرد الذي يحاول العيش على حساب غيره من الناس .. ان هذا لا يُعد انساناً بالمعنى الصحيح ، بل هو أعدى أعداء الانسانية في نظر الإسلام ، والى هذا يومئ قوله تعالى : (أو فساد في الأرض) . وانما المراد بالفرد الذي يستمد مصلحته من مصلحة الجماعة ، ويرى حياته بجياتها ، وكرامته بكرامتها . كما ان المراد بمصلحة الجماعة مصلحة جميع أفرادها ، لأن الجماعة ليست مجموعة أصفار ، وانما هي مجموعة أفراد .. فأية جماعة يوجد فيها ضعيف واحد يخاف على حق من حقوقه فهي ضعيفة في كيانها ، فاسدة في أوضاعها ، تماماً كالجسم اذا فسد بعض أعضائه ، أو البيت اذا تهدم ركن من أركانه . وعلى هذا تكون مصلحة الفرد والجماعة متكاملتين ، يملأ بعضها بعضاً ، ولا تنفك احدهما عن الأخرى .

١ رأيت هذا بالحرف في بعض الأحاديث المروية عن النبي (ص) .

(ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون) . أي ان رسل الله قد بلغوا اليهود حكم الله سبحانه ، وقالوا لهم بوحى منه : من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً .. ولكن الكثير من اليهود لم يكتثروا بهذا التحذير ، ومضوا مسرفين في سفك الدماء وانتهاك الحرمات .. وقوله تعالى : (بعد ذلك) اشارة الى انهم فعلوا ما فعلوا بعد إقامة الحجة عليهم ، وانقطاع كل عذر يمكن أن يتلذعوا به .. وهذا هو موقف القرآن من كل جاحد يحتاج عليه بمنطق الحق ، وبدعوه اليه بالحكمة ، حتى اذا أصر على جحوده كان اصراره عناداً للحق بالذات ، لا لشخصية الداعي .

جزاء المفسدين الآية ٣٣ - ٣٤ :

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ* إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ*

اللفظ :

تقطع الأيدي والأرجل من خلاف معناه إذا قُطعت اليد اليمنى تُقطع الرجل اليسرى ، والعكس بالعكس ، والخزى الذل والفضيحة .

الإعراب :

جزاء مبتدأ . وفساداً مصدر وضع موضع الحال من الواو في يسعون ، أي يسعون في الأرض مفسدين . والمصدر المنسبك من أن يقتلوا خبر جزاء . ومن خلاف متعلق بمحذوف حال من أيديهم وأرجلهم . وذلك مبتدأ أول ، وخزي مبتدأ ثان ، وخبره لهم ، والمبتدأ الثاني مع خبره خبر المبتدأ الأول . وفي الدنيا متعلق بمحذوف صفة لخزي . وإلا الذين في محل نصب على الاستثناء المتصل من واو يحاربون .

المعنى :

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً) المراد بمحاربة الله ورسوله أن الاعتداء على الناس اعتداءً على الله والرسول ، ومن أجل هذا كانت عقوبته حداً من حدود الله . والمراد بالفساد في الأرض هنا قطع الطريق ، وتلقي في هذه الجريمة عدة جرائم : إخافة الآمنين ، والتعرد على الحكم ، والمجاهرة بالإجرام ، وإزاحة الدماء ، ونهب الأموال ، وقد يكون فيها هتك الأعراض . ومن أجل ذلك جعل الله جزاء قطاع الطريق ما أشار إليه بقوله :

(أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم) . المراد بالمفسد هنا كل من جرد السلاح لإخافة الناس بالضرب أو القتل أو السلب أو الإهانة أو الاعتداء على الأعراض ، مسلماً كان أو غير مسلم ، فعل ذلك في بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في مصر أو غير مصر ، تسليحاً بسيف أو مسدس أو عصا أو حجارة ، فالعبرة بإخافة الناس على أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم ، ونصت الآية على أربع عقوبات :

١ - القتل ، وجاء بصيغة المبالغة إشارة إلى أن القتل حتم لا بد منه ، ولو أن قاطع الطريق قتل نفساً ، وعفا عنه ولي المقتول فلا يُعفى عنه ، قيل للإمام

أبي جعفر الصادق (ع) : أرأيت لو أراد أولياء المقتول أن يأخذوا الدية ، ويدعوه ، ألم ذلك ؟ قال : لا ، عليه القتل .

٢ - الصلب ، والمبالغة فيه كالمبالغة في القتل ، أما كيفيته فما هو معروف عند الناس .

٣ - قطع الأيدي والأرجل من خلاف ، أي إذا قطعت اليد اليمنى قطعت الرجل اليسرى ، والمبالغة فيه أظهر من المبالغة في القتل والصلب لتكرار القطع .

٤ - النفي إلى بلد نام عن بلده يحس فيه بالغبرة والتشريد، وقال أبو حنيفة: المراد بالنفي السجن ..

وعلق صاحب المنار على هذا بقوله : « وهو أغرب الأقوال » .
واختلفت المذاهب الإسلامية في كيفية تنفيذ هذه العقوبات الأربع : هل تنفذ على سبيل التخيير أو التعمين لكل حسب جرمه ، ومقدار إفساده ؟.

قال الشيعة الإمامية : ان (أو) تدل بظاهرها على التخيير ، وعليه يُترك الأمر لاجتهاد الحاكم في تنفيذ ما تدرأ به المفسدة ، وتقوم به المصلحة من القتل أو الصلب أو القلع أو النفي . وقريب من هذا قول المالكية .

وقال الشافعية : ان هذه العقوبات تختلف باختلاف الجنايات ، فمن اقتصر على القتل قتل ، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب بعد القتل ثلاثة أيام، ومن أخذ المال فقط قطع من خلاف ، ومن أخاف السبيل ، دون أن يقتل أو يأخذ المال نفي .

وقال الحنفية : ان أخذ المال وقتل فالحاكم الخيار ، ان شاء قطع من خلاف وان شاء قتل ولم يصلب ، وان شاء جمع بين القتل والصلب ، وصفة الصلب عنده أن يصلب حياً ، ويبيع بطنه برمح إلى أن يموت ، ولا يصلب أكثر من ثلاثة أيام .

(إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم) .
إذا تاب قاطع الطريق من تلقائه ، وقبل القبض عليه سقطت عنه العقوبة ، لأن الحكمة من العقوبة أن يرتدع المجرم عن الفساد ، فان ارتدع من نفسه لم يبق لها من موجب ، وهذا أصدق مثال على إنسانية الشريعة الإسلامية وعظمتها .

سورة المائدة

ونجد الإشارة إلى أن التوبة قبل الظفر بالجلاني تسقط عنه العقوبة الأدبية ، أما الحقوق المادية للناس فيُطالب بها ، فإن سلب مالاً فعلية ارجاعه أو ارجاع بدله من المثل أو القيمة إذا كان قد تلف ، وإن قتل ، فلاولياء المقتول أن يقتلوه به إن شاءوا .

ابتغوا إليه الوسيلة الآية ٣٥ - ٣٧ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ*

اللغة :

الوسيلة الوسيلة والقربة ، تقول توسلت إليه ، أي تقربت إليه .

الإعرا ب :

ما في الأرض اسم أن . ولهم خبرها ، والمصدر المنسبك من أن وما بعدها فاعل لفعل محذوف ، أي لو ثبت أن لهم ، و « لو وجوابها خبر إن الذين .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون) . ان تقوى الله ، وابتغاء الوسيلة إليه ، والجهاد في سبيله ، كل هذه تعبر عن معنى واحد ، أو عن معانٍ متلازمة متشابهة ، لأن تقوى الله انقضاء سخطه ، وابتغاء الوسيلة إليه طلب مرضاته ، والجهاد في سبيله يشمل الأمرين .. وأفضل ما يتوصل به المتوسلون الى الله حب الناس ، والعمل من أجلهم ، وقرأت كلمة لكاتب كبير تقول : ومحال أن يعرف حقيقة الناس من لا يحب الناس ، . ونزيد عليها: ومحال أن يحب الله من لا يحب الناس .

(إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ، ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة) . بضحي الإنسان بجميع ما يملك للخلاص من أسقامه وآلامه في حياته هذه ، فكيف بنار جهنم . (ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) . انما يقبل الغدية من يفتقر إليها ، والله ملك السموات والأرض . (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) . وهذا نص قاطع على أن من جحد الخالق ، أو عبد سواه ، فهو مخلد في النار . (وما هم بخارجين منها) . وفي الآية ٢٠ من سورة السجدة : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقبل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون » . وهناك جرائم لا تقل إلغماً وعذاباً عن الكفر بالله ، كسلب الشعوب أوقاتها ومقومات حياتها ، وقتل النفس ، لأنها أثبت إلا أن تعيش حرة كريمة .

والسارق والسارقة الآية ٣٨ - ٤٠ :

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ

عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

الاحزاب :

والسارق والسارقة مبتدأ ، والخبر فاقطعوا ، وجاز دخول الفاء على الخبر لأن
الألف واللام في السارق والسارقة بمعنى اسم الموصول ، فكأنه قال ، من سرق
فاقطعوا . وعن سيبويه ان الخبر محذوف . والظاهر من أيديهما ان السارق يُقطع
يداه الاثنان ، لأن أيديهما جمع ، والجمع يصدق على الثلاثة وما فوق ، ولو
كان المقصود قطع الواحدة لقال بأيديهما ، ولكن هذا الظاهر متروك بالسنة النبوية
والاجماع على قطع الواحدة ، كما ان عموم السارق والسارقة يقتضي قطع كل
سارق وسارقة ، ولكن هذا العموم متروك كما يتضح مما يأتي . وجزاء مفعول
من أجله لإقطعوا . ونكالا بدل من جزاء .

المعنى :

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله) . المراد
بالنكال هنا العقوبة الدنيوية .. ومهما اختلفت الشرائع السأوية والأرضية في تحديد
الجريمة ، ونوع العقوبة ، وشروط تنفيذها فإنها تتفق على أن الهدف منها ردع
المجرم عن الاجرام حفظاً للأمن وصيانة للمصالح ، قال الإمام علي (ع) :
« السلطان وزعة الله في أرضه » . ولا يُلصق إلى قول بعض الفقهاء : ان الهدف
من العقوبة مجرد سقوط العذاب عن المجرم في الآخرة .. أجل ان الله أحسن
وأرحم من أن يجمع بين عقوبتين على جرم واحد . ولقطع يد السارق شروط :

١ - أن يكون المسروق في حرز ، ويخرجه السارق منه ، فمن سرق سيارة
- مثلاً - من كراج مقلل يحد ، ويرجع السيارة إلى أهلها ، ومن سرقها من

الجزء السادس

الطريق ، أو من كراج غير مقفل فلا يجد ، بل يعزر بما يراه الحاكم ، ويرجع المسروق إلى صاحبه . ولا خلاف في ذلك .

٢ - اتفقوا على أنه لا قطع إلا في ربع دينار أو أكثر . وقال أبو حنيفة : بل في دينار .

٣ - أن يكون السارق بالغاً ، لحديث : « رفع القلم عن الصبي ، حتى يحتلم ، وعن المجنون ، حتى يفيق ، وعن النائم ، حتى يستيقظ » . وقال المالكية : لا فرق بين الصغير والكبير .

٤ - أن يكون السارق عاقلاً ، لحديث « رفع القلم » .

٥ - اتفقوا على أن الوالد لا يقطع إذا سرق من ماله ولده ، لحديث : « أنت ومالك لأبيك » وقالت المذاهب الأربعة ، وبعض فقهاء الشيعة : الأم مثل الأب . وقال الحنفية والشافعية والحنابلة : لا يُقطع أحد الزوجين بسرقة مال الآخر . وقال المالكية : لا يُقطع إذا سرق من بيت يسكنان فيه معاً ، وإلا قُطع . وقال : الشيعة : يُقطع اطلاقاً إلا إذا سرقت الزوجة لنفسها ونفقة أولادها .

٦ - أن لا تكون السرقة في عام المجاعة ، فإذا سرق الجائع مأكولاً، حيث لا وسيلة لسد حاجته إلا السرقة فلا حد عليه .

أما كيفية القطع فقد اتفقت المذاهب الأربعة على أن الكف اليمني يُقطع من المفصل . وقال الإمامية : تقطع أصابعه الأربع من الكف اليمني ، وتترك الراحة والابهام . وهناك مسائل كثيرة تتصل بهذا البحث ندعها لكتب الفقه ، ومنها الجزء السادس من فقه الإمام جعفر الصادق .

(فن تاب - من السارقين - من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) . قال السنة : توبه السارق لا تسقط عنه الحد . وقال الشيعة الإمامية : إذا تاب السارق من تلقاء نفسه ، وقبل أن تثبت السرقة عليه عند الحاكم فلا حد عليه . ووافقهم على ذلك صاحب تفسير المنار ، قال : « وإذا قبست السرقة على الحرابة - أي قطع الطريق - فالقول بسقوط الحد ظاهر ، إن تاب السارق قبل رفع أمره إلى الحاكم » .

سورة المائدة

وانفقوا على ان التوبة لا تسقط الحق الشخصي للمسروق منه ، ولا بد من اعادة المال الى صاحبه عيناً ان كان قائماً ، أو بدله ان كان تالفاً .

(ألم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء) .
هذا خطاب لكل من يسمع القرآن ، لا للنبي وحده ، وفيه بيان ان الله سبحانه هو الذي خلق الكون والانسان ، وانه لا يفعل إلا ما فيه خير وصلاح لعباده ، فإذا عذب من يشاء من الجناة فلإنما يفعل ذلك تربية له ، وتأميناً للناس من شره ، وإذا غفر ورحم من يشاء من عباده الثائين فلإنما يفعل ذلك ترغيباً له في اصلاح نفسه .

ساعون للكذب الآية ٤١ - ٤٣ :

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ

وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ *

اللغة :

كل من يقبل الكذب يقال له سماع للكذب . والمراد بالسحت المال الحرام .

الإعراب :

من الذين قالوا متعلق بمحذوف حال من واو يسارعون . سماعون مبتدأ خبره
من الذين هادوا ، واللام في (للكذب) زائدة ، والكذب مفعول سماعون .
وسماعون الثانية تأكيد للأولى ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أي هم سماعون . واللام
في (القوم) ليست زائدة ، بل متعلقة بسماعون الثانية ، مثل استمعت له .
وشيئاً مفعول مطلق ، أي فلن تملك له من الله أي نوع من الملك . وكيف
حال من فاعل يحكمونك . وعندهم التوراة مبتدأ وخبر . وكذلك فيها حكم الله .

المعنى :

(يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا
بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) . هذا خطاب من الله لرسوله (ص) ، يهون عليه
أمر المنافقين واليهود ، لأن العاقبة ستكون عليهم لا لهم .. وهذه الجملة تختص
بالمناققين ، لأن الإيمان بالأفواه ، دون القلوب حقيقتهم وهويتهم .

والنهي عن الحزن نهي عن لوازمه ، وعدم ترتب الأثر عليه ، لأن الإنسان
لا اختيار له فيه ، وأي عاقل يختار الحزن لنفسه ؟ ولكن تبقى السيطرة معه
للعلل والدين ، قال الرسول الأعظم (ص) : تدمع العين ، ويحزن القلب ،

سورة المائدة

ولا نقول ما يسخط الرب . وبعد أن ذكر سبحانه المنافقين أشار إلى قوم من اليهود بقوله :

(ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) . عاد الحديث عن اليهود ، وفي هذه الآيات أخبار اعتمدها المفسرون ، وتتلخص بأن التوراة كانت تنص على وجوب رجم الزاني .. وصادف في عهد الرسول (ص) ان زنى رجل وامرأة من أشرافهم ، فكره قوم من اليهود رجمها ، وأرسلوا وفداً منهم إلى رسول الله ليسألوه عن حكم الزنا ، وقالوا للوفد : ان افق بغير الرجم فاقبلوا ، وان افق بالرجم فرفضوا .. فجاءوا الرسول ، فأفتاهم بالرجم ، فرفضوا زاعمين ان التوراة ليس فيها رجم ، ولما حجاج الرسول بعض علمائهم اعترف بأن حكم التوراة هو الرجم ، تماماً كما أفق الرسول ، وان اليهود خصوا حكم الرجم بالضعفاء ، وجعلوا الجلد مكان الرجم اذا زنى الشرفاء .

فالمراد بقوله : (سماعون للكذب) ان اليهود يقبلون الكذب من المنافقين ، ومن بعضهم البعض . والمراد من القوم في قوله : (لقوم آخرين لم يأتوك) أولئك الذين أرسلوا الوفد ليسألوا النبي (ص) ولم يأتوه بأنفسهم .

(بحرفون الكلم من بعد مواضعه) . حيث وضعوا الجلد مكان الرجم . وتقدمت هذه الجملة بالمعنى في سورة البقرة الآية ٧٥ : « يسمعون كلام الله ثم يحرفونه » . وأيضاً تقدمت بحرفوها في الآية ٤٥ من سورة النساء .

(يقولون إن أوتينم هذا فخذوه وإن لم تؤنوه فاحذروا) . أي قال الذين أرسلوا الوفد للوفد : ان أفق محمد (ص) بغير الرجم فاقبلوا، وإن أفق بالرجم فارفضوا .

(ومن يرد الله فنته فلن تملك له من الله شيئاً) . اختلف المفسرون في المراد من الفتنة .. قال الأشاعرة ، أي السنة : المراد من الفتنة الكفر ، ويكون المعنى ان أي عبد جعله الله كافراً وضالاً فلن يقدر أحد أن يدفع عنه الكفر والضلال .. وإنما ذهب الأشاعرة إلى هذا التفسير ، وفي مقدمتهم الرازي لأنهم يميزون على الله أن يريد الكفر من عبده ، وأن يفعله فيه ، ثم يطهيه عليه . وقال الشيعة والمعتزلة : المراد من الفتنة في هذه الآية العذاب ، ويكون المعنى

ان من يرد الله عذابه فلن يقدر أحد أن يدفع العذاب عنه .. وإنما قالوا ذلك لأنهم لا يجيزون على الله أن يفعل الشيء ، ثم يعاقب غيره عليه .

والذي نراه في تفسير هذه الآية ان الله سبحانه نهى اليهود عن الكذب والتحريف ، والمكر والخداع ، وتوعدهم بالعذاب إن خالفوا وتمردوا . ولكنهم أصروا على العناد ، ولم يكثرثوا بالنهي ، ولا بالوعيد .. فتركهم الله وشأنهم ؛ ولم يردعهم بالفسر والقهر عن الفتنة ، لأنه تعالى يعامل الناس - فيما يعود إلى أفعالهم - معاملة المرشد الناصح ، لا معاملة القاهر الغالب .

وقد أكد سبحانه ذلك بقوله : (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) . أي لم يرد أن يلجنهم إلهاء إلى تطهير القلوب وتركية النفوس ، بل جعل لهم الخيار في ذلك ، وبهذا الاعتبار صحت نسبة الفتنة إليه تعالى .. وقد أوضحنا ذلك عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء ، فقرة « الاضلال من الله سلبى لا إيجابى » .

(سماعون للكذب أكالون للسحت) . كسر سبحانه (سماعون للكذب) مبالغة في الذم والقذح ، والردع والزجر ، والمراد بالسحت المال الحرام ، كالربا وما إليه .. وأشد جرمًا من الربا الأموال التي يقبضها العملاء من الدول الاستعمارية لتبقى شعوبهم متخلفة بائسة تسول الرغبة ممن ينهب أقواتها وثرواتها .

(فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) . هذا بيان لوظيفة الحاكم المسلم إذا تحاكم لديه خصمان من غير المسلمين .. وقد اتفق الفقهاء على انه إذا كان الخصمان من غير أهل الذمة فلهما الخيار ، إن شاء حاكمهما ، وإن شاء رفض ، حسبما يرجحه من المصلحة .. واختلفوا فيما إذا كان الخصمان من أهل الذمة ، فقال صاحب المنار - من السنة - : يجب على الحاكم أن يحاكمهما . وقال فقهاء الشيعة : بل هو خير ان شاء حاكم ، وان شاء رفض .

وإذا حاكم يجب عليه أن يفصل بينها بحكم الإسلام ، لا بأحكام دينهم ، لقوله تعالى : (وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط) .

وإذا كان أحد المتخاصمين مسلماً ، والآخر غير مسلم وجب على الحاكم قبول الدعوى والحكم بما أنزل الله باتفاق المسلمين .

سورة المائدة

(وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك).
تحاكم اليهود في أمر الزاني عند النبي (ص) ، ولما حكم بينهم تولوا عنه ورفضوا حكمه بعد أن اختاروه حكماً .. وما كان أغناهم عن الحالين ٩. فالأولى بهم أن لا يحكموه منذ البداية ، أما أن يرضوا به حكماً ، ثم يرفضوا حكمه فغريب .. هذا مع أنهم يعلمون علم اليقين بأنه (ص) حكم بحكم الله الموجود في التوراة .. فقلوه تعالى : (بعد ذلك) إشارة إلى التحكيم ، وإلى حكم النبي بحكم الله . ولفظ ذلك يشار به الى المفرد والمثنى والجمع .

(وما أولئك بالمؤمنين) . أي لا غرابة في أن يتولوا عن حكم النبي بعد أن رضوا به حكماً ، وبعد ان حكم بحكم الله ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا بالتوراة إيماناً صادقاً ، وإنما يؤمنون بأهوائهم ورغباتهم .. وكل من لا يرضى بالحق وحكمه فما هو من الإيمان الحق في شيء يهودياً كان أو مسلماً . قال تعالى : ه فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً - ٦٤ النساء .

فلا تخشوا الناس الآية ٤٤ :

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْمَوْا
لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْجَارُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ
وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي
قَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ*

اللفظ :

ربانيون جمع رباني نسبة إلى الرب ، أي يرضي الرب بأقواله وأفعاله .
والأنجار جمع حبر بفتح الحاء ، وهو العالم .

الإعرا ب :

فبها هدى ونور مبتدأ وخبر . والربانيون والأخبار فاعل لفعل محذوف دل عليه الموجود ، أي ويحكم الربانيون والأخبار بما استحفظوا .

المعنى :

(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) . كل كتاب أنزله الله على نبي من أنبيائه فهو نور يهدي إلى الحق والخير ، والتوراة كتاب الله أنزله على موسى (ع) فهو هدى ونور .. أما توراة اليوم فليست من الله في شيء ، لأنها أبعد ما تكون عن الهدى والنور ، والحق والخير .. إن تعاليمها تقوم على التفرقة العنصرية ، فتجعل اليهود شعب الله المختار ، يباح لهم غزو الشعوب الأخرى: وقتل رجالها ، وذبح نساها وأطفالها ، ونهب أموالها ، واحتلال ديارها . (أنظر فقرة ١٣ و ١٤ من اصحاح ٢٠ سفر التثنية - نقلاً عن الأسفار المقدسة لعلي عبد الواحد وافي) .

(يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) . أي ان الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى كداود وسليمان وزكريا ويحيى كانوا يرشدون اليهود إلى حكم التوراة التي هي هدى ونور ، فيحلون لهم حلالها ، ويحرمون لهم حرامها. وقوله تعالى: (النبيون الذين أسلموا) معناه ان أنبياء الله أسلموا أنفسهم لله ، وحكموا لليهود بحكم الله ، لا بمشيتهم ، ولا باجتهاداتهم أو أهوائهم ، كما فعل اليهود في عهد محمد (ص) وأرادوا منه أن يحكم في الزاني بما يشتهون .

(والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله) . أي وكذلك علماء اليهود وقضاةهم المؤمنون المخلصون كانوا يحكمون بما عرفوا وحفظوا من كتاب الله . (وكانوا عليه شهداء) الضمير في (كانوا) يعود على الربانيين والأخبار ، وفي (عليه) يعود على اليهود ، والمعنى ان أولئك الربانيين والأخبار كانوا يعملون بكتاب الله ، ولا يحيدون عنه ، وليس من شك ان من قدس قولاً والتزم العمل به فقد شهد له بالفعل قبل القول انه حق وعدل .

سورة المائدة

(فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) . من عرف حكم الله لا يخافه إلا لأحد أمرين : إما خوفاً على منصبه من الزوال ، وإما طمعاً في المال ، وقد أشار سبحانه إلى الأول بقوله : (فلا تخشوا الناس واخشون) . وإلى الثاني بقوله : (ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) . والمعنى يا أحبار اليهود اعملوا بما تعلمون إنه الحق ، ولا تخشوا فيه لومة لائم ، ولا تحرفوه طمعاً في الرشوة .. وإذا كان هذا الخطاب موجهاً بظاهره للأحبار الذين حرفوا حكم الزاني من الرجم إلى الجلد فإنه في واقعه عام لكل من يحاول التحريف والتزييف خوفاً أو طمعاً .

وأبلغ قول يفسر هذه الآية كلمة قالها علي أمير المؤمنين (ع) في وصف أولياء الله : « بهم قام الكتاب ، وبه قاموا ، لا يرون مرجواً فوق ما يرجون ، ولا غمواً فوق ما يخافون » أي لا يرجون إلا الله ، ولا يخافون إلا منه .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . وقال تعالى في الآية التالية ٤٥ : (فأولئك هم الظالمون) . وفي الآية ٤٧ (فأولئك هم الفاسقون) . وعند تفسير هذه الآية ، أي ٤٧ نبين الوجه في تعدد الوصف بالكفر والظلم والفسق ، لموصوف واحد .

النفس بالنفس الآية ٤٥ - ٤٧ :

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ
وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ
كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفَّيْنَا
عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ
الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ
لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *

الاعراب :

النفس اسم ان ، وبالنفس متعلق بمحذوف خبرها ، والعين وما بعدها عطف
على النفس . والجروح قصاص ، أي وان الجروح قصاص . ومصدقاً الأولي
حال من عيسى . وفيه هدى مبتدأ وخبر ، والجملة حال من الانجيل . ومصدقاً
الثانية عطف على الجملة الحالية ، لأنها حال مثلها .

المعنى :

(وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن
بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص) . هذه الآيات من آيات الأحكام ،
وموضوعها القصاص ، وفي الفقه الاسلامي باب خاص به ، وهذا الحكم ، أي
النفس بالنفس الخ من الأحكام التي نزلت في التوراة ، ولم تنسخه الشريعة الاسلامية .
وسبق الكلام عن القصاص عند تفسير الآية ١٧٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٧٤ .

(فمن تصدق به فهو كفارة له) . ضمير (به) يعود على حق القصاص ،
و (فهو) يعود على التصديق ، أي المصدر المنصيد من (تصدق) وضمير (له)
يعود على المتصدق ، والمعنى ان المجني عليه إذا عفا عن الجاني فإن الله سبحانه
يجعل هذا العفو كفارة للذنوب العاني .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) . يأتي الكلام عنه في
الآية التالية .

(وقفنا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة) . الضمير
في آثارهم يعود على النبيين ، أي وبعثنا عيسى بعد النبيين الذين كانوا يحكمون

بالتوراة ، وصدق هو التوراة بأقواله وأعماله ، ونقلوا عنه في أناجيلهم أنه قال :
« ما جئت لأنقض الناموس - أي شريعة التوراة - وإنما جئت لأتمم » . أي
لأزيد عليها من الأحكام والمواظع .

(وآتيته الانجيل فيه هدى ونور) . شأن كل كتاب إلهي ، وكل نبي من
أنبياء الله، والانجيل الذي وصفه الله بالهدى والنور هو الانجيل الذي نطق بالتوحيد،
ونفى التثليث ، وأقر بنبوة محمد (ص) (ومصدقاً لما بين يديه من التوراة)
التي تأمر بالعدل والاحسان ، ولا تبيح القتل والسلب .

(وهدى وموعظة للمتقين) . وتساءل : ان الله سبحانه وصف الانجيل الذي
أنزله على عيسى بالهدى والنور ، ثم وصفه ثانية بالهدى والموعظة للمتقين فما هو
الوجه لتكرار وصفه بالهدى في آية واحدة ؟ .

الجواب : إن الهدى الأول جاء وصفاً لطبيعة الانجيل من حيث هو بقطع
النظر عن العمل به ، والهدى الثاني جاء وصفاً له من حيث العمل به ، أي ان
هذا الذي في الانجيل إنما ينتفع به ويتعظ بمواعظه المتقون ، فهو تماماً كقولك :
إنما ينتفع بالنور ذوو الأبصار ، قال الإمام علي (ع) : « ربّ عالم قتله جملته
وعلمه معه لا ينفعه » . لأنه لم يعمل بعلمه، ونكرر القول : إن المراد بالانجيل
في الآية الانجيل الذي يتره الله عن الولد والصاحبة، وينفي الربوبية عن عيسى (ع)
ويبشر بنبوة محمد (ص) .

(وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) . أهل الانجيل النصارى ، وأهل
التوراة اليهود ، وأهل القرآن المسلمون ، وقد أمر الله سبحانه كل من يدين
بدين ، ويؤمن بكتاب من كتب الله سبحانه أن يعمل به، ويلزم نفسه بأحكامه،
ومن خالف فهو مفترٍ كذاب ، يهودياً كان أو نصرانياً أو مسلماً . ولا ميزة
لطائفة دون طائفة ، وإنما خص أهل الانجيل بالذكر لأن الحديث عنهم .

بين الكفر والفسق والظلم :

قال سبحانه في الآية المتقدمة ٤٤ : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم
الكاफرون » . وقال في الآية ٤٥ : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم

الظالمون . وقال في الآية ٤٧ ؟ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . ثلاثة أوصاف تواردت على موصوف واحد، وقد اختلف المفسرون في التوجيه والتأويل ، ونضرب صفحاً عن أقوالهم تجنباً للاطالة ، أما رأينا غنبيه فيما يلي :

ان الدين عقيدة وشرعية ، والعقيدة من صفات القلب ، ولها أصول ، وهي الايمان بالله وصفاته ، وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر ، والشرعية أحكام عملية تتعلق بالأقوال والأفعال ، وإذا أطلق لفظ الكفر مجرداً عن القرينة ، كما لو قيل : فلان كافر فهم منه انه يجحد أصول العقيدة كلاً أو بعضاً .. وإذا أطلق لفظ الفسق فهم منه انه مقر بالدين أصولاً وفروعاً ، ولكنه منهان ، وتارك العمل بالفروع كلاً أو بعضاً .

هذا ، إذا أطلق كل من اللفظين ، دون أن يضاف إلى شيء ، أما إذا أضيف الفسق إلى العقيدة كقولنا : فلان فاسق العقيدة فيكون المراد بالفسق الكفر ، وقد جاء هذا الاستعمال في القرآن ، قال تعالى : « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون - ٩٩ البقرة » . وإذا أضيف الكفر الى العمل ، لا الى العقيدة فالمراد منه الفسق ، قال تعالى : « والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فان الله غني عن العالمين - ٩٧ آل عمران » . فقد وصف سبحانه تارك الحج بالكفر ، مع انه مؤمن بجميع الأصول ، فيتعين ان المراد بالكفر الفسق .

أما لفظ الظلم فيجوز اطلاقه على الكفر وعلى الفسق ، لأن كلاً من الكافر والفاسق قد ظلم نفسه ، حيث حملها من العذاب ما لا تطيق ، قال تعالى : « والكافرون هم الظالمون ٢٥٤ - البقرة » . وقال : « ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله - ١٤٠ البقرة » . وكتم الشهادة بوجه العموم لا بوجه الكفر باتفاق المسلمين .

وبهذا يتبين معنا ان الكفر والفسق والظلم ألفاظ كثيرة ما تتوارد في القرآن على معنى واحد ، وعليه يصح أن بوصف بها من لم يحكم بما أنزل الله ، والقصد التغليب على من لم يحكم بالحق ، سواء أحكم بالباطل ، أو استنكف عن الحكم سلباً

وإيجاباً ، ونفس الشيء يقال فيمن يُحكم عليه بحكم الله فيستكف عن تنفيذه والأذعان له .

وهذه المناسبة نشير إلى أن الفقهاء اتفقوا على أن من جحد حكماً شرعياً ثبت باجماع المسلمين كوجوب الصلاة وحرمة الزنا فهو كافر ، ومن خالفه مقراً به فهو فاسق .

لكل جعلنا منكم شرعة الآية ٤٨ - ٥٠ :

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئاً عَلَيْهِ فَانْحَكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنْ أُنْهَكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرْتُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ *

اللغة :

المهيمن على الشيء القائم على شؤونه . والشرعة والشرعة المعنى واحد ، وهي

الطريق الى الماء ، أو مورد الماء ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الأحكام العملية ، لأن كلاً من الماء وأحكامه تعالى سبب للحياة . والمنهاج الطريق الواضح . والابتلاء الاختبار . وان يفتنوك ، أي يميلوا بك عن الحق .

الاعراب :

بالحق متعلق بمحذوف حال من الكتاب . ومصدقاً حال . وليبلوكم منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور باللام متعلق بمحذوف ، والتقدير فرقكم ليلوكم . والمصدر المنسبك من أن أحكم مبتدأ ، وخبره محذوف ، والتقدير الحكم بالحق لازم . والمصدر المنسبك من أن يفتنوك، مفعول لأجله، على حذف مضاف أي احذرهم مخافة أن يفتنوك . وحكماً تمييز .

المعنى :

(وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه) . المراد بالكتاب الأول القرآن ، لأن الخطاب موجه لمحمد (ص) ، والمراد بالكتاب الثاني جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية ، ومنها التوراة والانجيل .. بعد أن ذكر سبحانه التوراة والانجيل وموسى وعيسى (ع) عقب بذكر القرآن ومحمد (ص) ، ووصف القرآن بوصفين : الأول : انه يصدق كل كتاب نزل على نبي من الأنبياء . الثاني : انه مهيم على ما سبقه من الكتب السماوية ، ومعنى هيمته القرآن على التوراة والانجيل انه يشهد لها بالحق والصدق ، ويخبر عن الأصول والأحكام المحرفة فيها ليميز الناس الأصل من الدخيل الذي نسبته رؤساء الأديان الى الله كذباً واقتراء .

(فاحكم بينهم - أي بين اليهود - بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق) . وبديهة أن النبي (ص) لا يحكم إلا بالحق ، ولا يتساهل فيه كبيراً كان أو صغيراً ، وعالم أن يتبع هوى مخلوق .. كيف وأقواله وأفعاله الميزان الذي يقاس به الحق والعدل ؟.. ولو افترض أن معاداً حاول أن يخدع الرسول

بمظهره وريائه ، وأوشك الرسول أن يُخدع به باعتباره بشراً فإن الله سبحانه يبراه بعنائه ، ويُعلمه بالواقع قبل أن تبدر منه أية بادرة يريد بها منه المخادع المحتال : « ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً » - ٧٤ الاسراء .

وتسأل : ما دام الأمر كذلك ، فلماذا خاطب الله نبيه المعصوم بهذا الخطاب ؟
الجواب : أولاً بيتنا فيما تقدم ان الخطاب إذا صدر من الأعلى لا يُلاحظ فيه حال المخاطب ، مهما كانت منزلته ، وإنما يعتبر ذلك إذا صدر الخطاب من المساوي أو الأدنى .

ثانياً : إن الله سبحانه يعلم ان علماء السوء من أمة محمد (ص) سيبرون الانحراف عن حكمه ، بمعاذير شيطانية ، فخاطب نبيه الأكرم بهذا الخطاب تحذيراً لهم من التلاعب بالدين مسابرة لأهواء الحاكمين والمترفين .

(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) . المضاف اليه محذوف ، أي لكل أمة . ومنكم خطاب لجميع الناس ، أو للأمم الثلاث : اليهود والنصارى والمسلمين ، وشرعة الشريعة ، وهي الأحكام العملية التي يمثلها الانسان طاعة لله ، وابتغاء مرضاته وثوابه ، وتجدد الإشارة إلى أن كلمة الشريعة أخص من كلمة الدين ، لأن الدين يشمل الشريعة ، وأصول العقيدة . والمنهاج السبيل الواضح ، أي أن الله جعل لكل أمة شريعة واضحة لا التباس فيها ولا غموض .

وهذه الآية نص في أن شريعة الله لم تكن واحدة لكل الناس في كل العصور وأنها كانت فيما مضى مؤقتة بآمد محدود ، وإن الأديان تنفخ وتتحد في أصول العقيدة فقط ، لا في الشريعة .

وتسأل : إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا اختصت الشريعة الإسلامية بالدوام والاستمرار من بين الشرائع ؟

ولن يعرف الجواب عن هذا السؤال إلا من درس الشريعة الإسلامية ، حيث يرى أنها تقوم على قواعد ثابتة محال أن تتغير بتفسير الأزمان والأحوال ، لأنها تلائم الإنسان ، من حيث هو إنسان ، لا من حيث انه قديم أو حديث ، من ذلك على سبيل المثال : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. كسل إنسان بريء ، حتى تثبت إدانته .. الصلح خير .. إقرار العقلاء على أنفسهم جائز .. الناس عند

شروطهم .. الحدود تدرأ بالشبهات .. لا ضرر ولا ضرار .. الضرورات تبيح المحظورات .. اليقين لا يتقضى إلا بقين مثله .. درأ المفسدة أولى من جلب المصلحة .. الضرر لا يزال بضرر مثله .. الغالب على حجته حتى يحضر ، وما إلى ذلك مما أفرد له الفقهاء المجلدات .. إن هذه المبادئ محال أن تتغير إلا إذا تغيرت طبيعة الإنسان .

(ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة) . مَيَّزَ الله سبحانه الإنسان عن غيره من المخلوقات بأن جعل فيه استعداداً للجهل والعلم ، والتخلف والتقدم ، ولعمل الخير والشر ، ثم نهاه عن هذا ، وأمره بذلك ، وكان من نتيجة هذا الاستعداد والأمر والنهي أن تفاوت الناس في استغلال هذا الاستعداد ، وفي طاعة الله ومعصيته ، ولو شاء الله أن لا يمنح الإنسان هذه الموهبة لفعل ، ولو فعل لكان الناس جميعاً في مستوى واحد ، تماماً كالحيوانات والطيور والحشرات ، يتصرفون ولا يعرفون خيراً ولا شراً ، ولا نجاحاً ولا فشلاً .

(ولكن ليلوكم فيها آتاكم) . أي أن الله منحنا هذه الموهبة ، وأمرنا ونهانا ليعاملنا معاملة السيد المختبر ليعيده أيهم أحسن عملاً ، مع العلم بأنه يعلم السرائر والضمائر ، ولكنه لا يثيب إلا بالعمل ، ولا يعاقب إلا بعد الإنذار والاعذار . (فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبشكم بما كنتم فيه تختلفون) . أي إذا كان الله قد منح الإنسان هذه الموهبة ، وشرع الشرائع للأثم لتظهر الأفعال التي يستحق بها الإنسان الثواب فعلياً جميعاً أن نسارع إلى عمل الخيرات لأنها المقصود الأول من الشرائع ، ومن يتخذ من اختلاف الشرائع وسيلة للشحناء والبغضاء فإن الله سبحانه يحاسبه غداً ، ويجازيه بما يستحق .

(وإن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) . هذه الآية تكرر للآية التي قبلها بلا فاصل ، وقال بعض المفسرين : تلك نزلت في تحاكم اليهود في الزنا ، وهذه في تحاكمهم في القتل ، ولا دليل على هذا التوجيه ، ولا على غيره مما في كتب التفسير ، وقد بينا في ج ١ ص ٩٦ أن القرآن الكريم يستعمل التكرار لأنه عامل قوي في تكوين الآراء وانتشارها .

سورة المائدة

هذا ، إلى أن ضمير أهوائهم يعود إلى اليهود ، ومن طريقة القرآن أن يكرر ويؤكد ما يتصل بهم أكثر من تأكيده وتكراره لأي شيء آخر ، وإن دل هذا على شيء فلأنما يدل على أن اليهود شر الأمم على الإطلاق ، وبذلك شهد تاريخهم القديم والحديث ، وما من أحد رآهم أهلاً لغير الشر إلا أهل الشر ، وقد ظهرت هذه الحقيقة للرأي العام بأجل معانيها بعد ٥ حزيران من سنة ١٩٦٧ .

(فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) . أي إن أعرضوا عن حكم الله فسيعود عليهم هذا الاعراض بالجزى والوبال ، وتساءل : لماذا قال ببعض ذنوبهم ، ولم يقل بذنوبهم ، وهل معنى هذا أن الله يعذبهم على بعض الذنوب ، ويعفو عن بعض ؟

الجواب : ان قوله تعالى : « ببعض ذنوبهم » إشارة إلى إعراضهم عن الحكم الذي حكم به رسول الله (ص) ، والمعنى : لا يرفعك أيها الرسول إعراض اليهود عن حكمك ، فإن الله سيعاقبهم على هذا الاعراض والتمرد .

(وان كثيراً من الناس لفاسقون) . الفاسق من عصى الله في حكم واحد من أحكامه .. وعلى هذا فأكثر الناس ، بل كل الناس ، فاسقون إلا من ندر ، ولكن كلمة كثير تستعمل في الأكثريّة ، ولا عكس . (أفحكم الجاهلية يبغون) . وكل حكم يخالف حكم الله فهو حكم الجاهلية ، سواء أكان في عصر الجاهلية ، أم بعده .

(ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) . وليس من شك أن كل حكم فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو حكم الله ، سواء أورد فيه نص خاص من الكتاب والسنة ، أم لم يرد ، وكل ما فيه ضرر للناس بجهة من الجهات فحال أن يرضى الله به ، حتى الحق الإلهي يسقط إذا تولد منه الضرر .. وكفى دليلاً على أن كل حكم ينتفع الناس به فهو حكم الله ، كفى دليلاً على هذه الحقيقة الآية ٢٣ من سورة الأنفال : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم ، لأن معناها أن كل دعوة إلى الحياة فهي دعوة لله وللرسول الله (ص) .

واختلف المفسرون في معنى اللام في قوله تعالى : (لقوم يوقنون) فقال

بعضهم : انها بمعنى عند مثل كتيبه لخمس خلون من شهر كذا ، أي عند خمس . وقال آخر : هي للبيان . والصحيح انها للاختصاص مثل اللجنة للمتقين ، لأن المؤمنين المؤمنين هم وحدهم الذين يحكمون ويعملون بحكم الله .

لا تتخلوا اليهود والنصارى أولياء الآية ٥١ - ٥٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأُصْبِحُوا خَاسِرِينَ *

اللمعة :

الدائرة ما أحاط بالشئ ، والمراد بها هنا ما يدور به الزمان من المصائب ، يقال دارت عليه الدوائر ، أي نزلت عليه النوائب والدواهي . والفتح القضاء والفصل ، والمراد به هنا النصر .

الاعراب :

بعضهم أولياء بعض مبتدأ وخبر ، والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب.

وفي قلوبهم مرض مبتدأ وخبر ، والجملة صلة الدين . و (فترى) ان كانت بصرية فاتما تحتاج الى مفعول واحد ، وهو الدين ، وعليه تكون جملة يسارعون حال ، وإن كانت قلبية فتحتاج إلى مفعولين ، وعليه تكون جملة يسارعون مفعولاً ثانياً . وجهد مفعول مطلق لأقسموا لأنه مضاف إلى الإيمان ، والإيمان معنى القسم ، فيكون مثل قدمت جلوساً ، وجلست قعوداً .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) . يتبع الإسلام لجميع الأديان والأجناس ، لا فرق عنده بين الأسود والأبيض ، ولا العربي والعجمي ، ولا بين المسلم وغير المسلم من حيث المساواة أمام العدالة والقانون .. فلكل إنسان كائناً من كان الحق في أن يعيش بحرية وأمان على نفسه وماله ، ولا سلطان لأحد عليه ما كفى . إذاه عن غيره ، فإن تعدى وأفسد أقيم عليه الحد .. فإذا أساء المسلم إلى غيره وجب علينا نحن المسلمين أن نحققه ونبرأ منه ، وعلى العدالة أن تردعه وتعاقبه ، وإذا كفى اليهودي أو النصراني إذاه بسطنا له يد البر والإحسان ، ولو أنكر نبوة محمد والقرآن ، قال تعالى : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون - ٩ المحتنة .

وإذا عطفنا هذه الآية التي رغب الله بها المسلمين في البر والإحسان إلى جميع الطوائف وأهل الأديان الذين لم ينصبوا العداء للمسلمين ، إذا عطفنا هذه الآية على الآية التي نفسرها ، وجمعناهما في كلام واحد يكون المعنى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء إذا نصبوا العداء لكم ، وكانوا حرباً عليكم ، أما إذا كانوا وادعين مسلمين فعليكم أن تحسنوا العشرة معهم ، وتعيشوا جميعاً متعارفين متآلفين .. بل ولكم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، لأن الله يحب

العدل والإحسان إلى جميع خلقه ، من آمن أو كفر بشرط واحد : وهو أن لا يسيء إلى أحد ، لأن الناس ، كل الناس عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعباده .. فالمرء عنده تعالى لحسن العشرة مع أي إنسان ، هو كف الإساءة والأذى ، أما من جحد وكفر فعليه كفره . وتقدم الكلام مفصلاً عن سؤالات المؤمنين للكافرين بشق أقسامها وأحكامها عند تفسير الآية ٣٠ من سورة آل عمران.

وبهذه المناسبة نشير إلى أن كرهنا لليهود نحن المسلمين لا سبب له إلا أنهم قاتلونا في عقر ديارنا ، وأخرجوا منها نساءنا وأطفالنا ، كما أن السبب الأول والأخير لكرهنا وعدائنا للولايات المتحدة وانكثرت ، ومن اليها من دول الاستعمار التي ساندت إسرائيل هو أن هذه الدول ظاهرت إسرائيل على إخراج أهل فلسطين من ديارهم .. ومرة ثانية نعيد خطاب الله لنا وقوله عز من قائل : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

البرول واليهود والنصارى :

(بعضهم أولياء بعض) . أجمع المقصرون على أن المراد بعض اليهود أنصار بعض ، وبعض النصارى أنصار بعض ، وليس المراد أن كل طائفة توالي الأخرى ، لأن ما بين الطائفتين من العداء أكثر مما بين النصارى والمسلمين ، فإن اليهود يرمون مريم بالفاحشة ، والمسلمون يقصدونها ويبرأونها من كل عيب .

وليس من شك أن المفسرين قد استوحوا هذا المعنى من العصر الذي عاشوا فيه ، حيث لا شركات برول عالمية ، ولا مؤسسات احتكارية نهمة إلى التوسع والسيطرة على ثروات الشعوب ومقدراتها .. أما اليوم وبعد أن قامت هذه الشركات والمؤسسات فقد رأى أصحابها المسيحيون في اليهود خير وسيلة يعتمدون عليها لتدعيم احتكاراتهم وأطماعهم ، ومن أجل هذا أقاموا دولة إسرائيل في فلسطين وحرصوا على تعزيزها وحمايتها ، ورسخوا لها خطط العدوان والتوسع ، وتعهدوا بالوقوف إلى جانبها في الأمم المتحدة ومجلس الأمن .. وتعلقت هي بأذيالهم ،

ودارت في فلكهم ، ونفذت خطط الاستعمار ، وامتلئت أوامر العدوان بعد أن استبان لها ان حياتها رهن بالسمع والطاعة لأوامر الاستعمار ، وتنفيذ خطته ، وإلا تخلى عنها ، وولت إلى غير رجعة .. وإذا عقد المستعمرون وأذانهم الآمال على مغالب إسرائيل فإننا نعتد على الله ، وعلى حقنا المشروع ، واستعادة إيجابيتنا استعداداً للمعركة الحاسمة لاسترداد الحق السليب .

(ومن يتوهم منكم فإنه منهم والله لا يهدي القوم الظالمين) . أي ان من يتولى اليهود والنصارى الذين نصبوا العداة للإسلام والمسلمين فهو بحكمهم بحاسب حسابهم ، وبعاقب عقابهم ، لأن من رضي عن قوم فهو منهم ، وهذه الآية دليل قاطع على ان عملاء الاستعمار الذين يقومون بدور الحارس لمصلحته هم أشد جرماً ، وأكثر خطراً من المستعمرين أنفسهم ، أو مثلهم - على الأقل - لأنهم الركيزة الأولى لاستغلالهم وعدوانهم .

(فرى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم) . يظهر من سياق الآية انها قضية في واقعة ، وحكاية عن حادثة خاصة تتلخص بأن بعض المنافقين المشاريهم بقوله : (في قلوبهم مرض) كانوا يوالون اليهود الذين يضرعون العداة للإسلام والمسلمين ، ويخطبون ودهم ، وإذا عوتبوا على ذلك قالوا : ما يدرينا أن تدور الأيام ويضعف الإسلام ، وتضيق القوة والشوكة لليهود والمشركين على المسلمين ، فإذا لم نخطط من الآن لأنفسنا ونتخذ لنا بدأ عندهم خسرنا كل شيء ودارت علينا دائرة السوء ، وهذا هو المعنى الظاهر من قوله تعالى : (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) .. وهكذا الانتهازيون يتلذذون بين جميع الفئات ، حتى إذا كان الغلب لفئة على فئة قالوا لمن غلب : ألم نكن معكم ؟ .. وبكلمة ان المنافقين مع الجميع بالستهم ، وفي واقعهم لا يستجيبون إلا لأهوائهم : ويخفون بالله أنهم لنحكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون - ٥٦ التوبة ، أي يخافون على أنفسهم ومصالحهم .

وتسأل : لماذا قال يسارعون فيهم ، ولم يقل يسارعون اليهم ؟

الجواب : ان فيهم أبلغ في التأكيد والثبات ، لأن الداخل في الشيء يتمكن منه أكثر من المسارع اليه .

(فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) . المراد بالفتح انتصار المسلمين على اليهود والمشركين ، والمراد بأمرٍ من عنده اظهار حال المنافقين ، واذلالهم وخزيهم ، والمعنى ان المنافقين أحكموا الحطة لأنفسهم عند أعداء الاسلام ظناً منهم ان الدائرة ستدور مع الكفار على المسلمين ، ولما انعكس الأمر ، ودارت الدائرة مع المسلمين على أعدائهم ندم المنافقون ، ولكن حيث لا ينفع الندم .

(ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم) . لما أظهر الله المسلمين على أعدائهم لم يستطع المنافقون أن يخفوا مسا في أنفسهم من الحسرة واللوعة ، وظهر أثرها في فلتات ألسنتهم ، وصفحات وجوههم .. فتعجب المؤمنون من حال المنافقين حين تكشف حقيقتهم ، وقال بعضهم لبعض: أهؤلاء الذين كانوا يلحفون بالأمس أغلظ الإيمان مجتهدين في توكيدها أنهم منا ومعنا ؟ . ما أجرأهم على الكذب والرياء . (حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) . قال الرازي وصاحب النار : يحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الله ، ويحتمل أن تكون من كلام المؤمنين .

ويلاحظ بأن احتمال كونها من كلام الله غير وارد على الإطلاق ، لأن سياق الآية يدل على أنها من كلام المؤمنين ، وليست إخباراً مستأنفاً من الله سبحانه ، والمعنى ان المؤمنين بعد أن تعجبوا من حال المنافقين وألعبهم قالوا : لقد بطلت أعمال المنافقين التي كانوا يتظاهرون بها أمامنا كالصوم والصلاة ، وما اليها ، ولم ينلهم من الثواب شيء (فأصبحوا خاسرين) . خسروا الدنيا ، لأنهم خذلوا وخسروا الآخرة . لما أعد لهم من العذاب الأليم .

أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين الآية ٥٤ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي

سورة المائدة

سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ★

اللغة :

الذَّل بكسر اللال ضد الصعوبة ، والمراد به هنا التواضع واللين ، وبضم
الذال ضد العز ، أي الهوان .

الاعراب :

جملة يحجبهم صفة لقوم . وأذلة صفة ثانية . وأعزة صفة ثالثة . وجملة
يجاهدون صفة رابعة .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه) . الارتداد هو الكفر بعد
الإسلام . وذكرنا المرتد وتقسيمه إلى مرتد عن ملة وفطرة ، وحكم كل منها
عند تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٥ . والنهي عن الارتداد
بعد النهي عن موالة أعداء الدين يُشعر بأن هذه الموالة قد تؤدي إلى الارتداد
عن الإسلام . وفي الحديث : « لو أن راعياً رعى إلى جنب الحمى لم يثبت
غنمه أن يقع في وسطه » .

وقال أهل السير والتاريخ : إن ثلاثة ارتدوا ، وادعوا النبوة على عهد
رسول الله (ص) بعد أن آمنوا به . الأول الأسود العنسي ، تنبأ في اليمن ،
وأخرج عمال رسول الله (ص) منها ، ولكنه قُتل قبل وفاة النبي (ص) يوم
واحد . الثاني مسيلمة الكذاب ادعى النبوة ، وكتب إلى محمد (ص) : « من

مسيلة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فإنني شريك معك في الأمر ، والأرض بيتنا مناصفة . وقُتل في عهد أبي بكر . الثالث طلحة بن خويلد ، ادعى النبوة ، ثم عاد وأسلم .

أما سجاح فقد ادعت النبوة في خلافة أبي بكر ، وتزوجها مسيلة . وقال أبو العلاء المعري في هذا الزواج :

أمت سجاح ووالاها مسيلة كذابة في بني الدنيا وكذاب

وتسأل : ان بعض الشيوخ لا تتوافر فيهم شروط المجتهد الذي عناه الإمام (ع) بقوله : « صائناً لنفسه ، حافظاً لدينه ، مخالفاً لهواه ، مطيعاً لأمر مولاه » ومع ذلك يدعي النيابة عن المعصوم في الفتيا والقضاء ، وان الراد عليه راد على الله ، فهل حكم هذا ، تماماً ، كحكم مسيلة الكذاب ، لأن كلاً منها يفترى على الله كذباً ؟ .

الجواب : يكون بحكم مسيلة الكذاب بشرطين : الأول أن يدعي النيابة عن المعصوم ، وهو يعلم بأنه مفترٍ كذاب ، وأنه ليس أهلاً لهذه الدعوى . الشرط الثاني : أن لا يرى الاجتهاد والعدالة من الشروط الأساسية للنيابة عن المعصوم . مع علمه بأنها واجبان بحكم البديهة الدينية .. وهذا القرض بعيد جداً فإن من يدعي النيابة عن المعصوم يرى نفسه من أهل العدالة والاجتهاد ، حتى ولو لم يكن مطيعاً لمولاه ، ومخالفاً لهواه .

وليس من شك ان هذا يفرق عن مسيلة الكذاب ، من حيث الارتداد ، ولكنه يلتقي معه من حيث الكذب والغرور .. وبديهة ان العلم والغرور ضدان لا يجتمعان ، تماماً كالكذب والعدالة ، لأن الغرور يبعد صاحبه عن واقعه ، ويفصله عن نفسه ، ويتنقل به الى عالم الأوهام والأحلام ، ومن كان هذا شأنه فلا يهتدي إلى صواب .

(فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) . اختلف المفسرون فيمن هو المقصود بلفظ القوم . ونقل الرازي في ذلك ستة أقوال .. والله سبحانه لم يعينهم

بأسمائهم ، بل أشار إليهم بأوصافهم ، وعلى هذا فكل من تنطبق عليه الأوصاف الخمسة المذكورة في الآية فهو المقصود ، وهي :

١ - يحبهم ويحبونه ، وحب الله لعبده أن يرفع من شأنه غداً ، وينعم عليه بالجنان والرضوان ، أما حب العبد لله فإنه لا ينفك أبداً عن حبه لعباد الله ، تماماً كما لا ينفك حب الحق عن حب العالمين به ، وكرهية الباطل عن كراهية أهله .

٢ - أدلة على المؤمنين ، لأن التواضع للمؤمن المخلص تقديس وتكريم للإيمان والاخلاص ، لا للأفراد والأشخاص ، قال تعالى يخاطب نبيه العظيم : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين - ٢١٥ الشعراء .. وبديهة أنهم لم يستحقوا هذه الكرامة إلا بالإيمان والاخلاص لله ولرسوله .

٣ - أجرة على الكافرين ، لأن الاستعلاء عليهم استعلاء للعقيدة والمبدأ ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم - ٢٩ الفتح » .

وترشدنا هذه الآية ، وآية « واخفض جناحك » الى حقيقتين : الأولى كل من يتدلل للأغنياء والأقوياء الطغاة ، ويتعاطف على الفقراء المؤمنين فإنه ليس من الدين في شيء ، وإن قام الليل ، وصام النهار . الحقيقة الثانية ان قيم الأخلاق في الإسلام ليست مطلوبة لذاتها ، وإن الله سبحانه قد أمر بها من أجل الانسان ، ولم يأمر الانسان بها من أجلها .. ومن هنا كان التواضع للمتكبرين ضمة ، وللمتواضعين رفعة . قال الإمام علي (ع) : ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، وأحسن منه تبه الفقراء على الأغنياء انكالاً على الله .

٤ - يجاهدون في سبيل الله ، وكل عمل يسد حاجة ، أو يدفع ظلامة فهو جهاد في سبيل الله . وفي الحديث : « إن النبي (ص) كان جالساً مع بعض أصحابه ، فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة ، فقالوا : ويسع هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله . فقال : إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو في سبيل الشيطان .

٥ - لا يخافون لومة لائم ، لا يظهر الإيمان على حقيقته إلا عند المحنة ،

الجزء السادس

فهي المحك الصحيح لإيمان المؤمن .. ينكر المنكر لإرضاء لربه وضميره ، أما ما يصيبه من وراء ذلك فيهون ويزدري .

هذا هو شعار المخلصين : لا يخافون في الحق لومة لائم . أو كما قال نبي الرحمة : « إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي » . ولا مصدر لهذه المشاكل التي يعانيها عالم اليوم من حرب فيتنام إلى حرب الشرق الأوسط ، ومن الحكومة العنصرية في روديسيا وجنوب أفريقيا إلى مشكلة الملونين في الولايات المتحدة ، لا مصدر لهذه المآسي وما اليها إلا سكوت من سكوت عن الحق في الصحف والاذاعات والأمم المتحدة ومجلس الأمن خوفاً من ملوك الذهب الأسود وحامتهم المأجورين .

وبالتالي ، فإن قوله تعالى : « ولا يخافون لومة لائم » يرسم صورة حية للمتمدين ، وللأهداف التي يجب أن ينطلق إليها ، وبصحي من أجلها .. بقي هذا السؤال البسيط : هل يسوغ بعد هذا للقائل أن يقول : إن الدين مغيبات ، وصلاة أموات ! .

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) . وقد رأينا بالحس والوجدان أن الله سبحانه لا يشاء أن يمنع فضله إلا لمن سار وفق الأسباب والسنن التي أقام بها جلّت حكمته نظام الكون بأسره .. ولو أراد منا أن نمشي بلا رجلين ، ونعمل بلا يدين ، ونبصر بلا عينين لكان في غنى عن خلق شيء منها : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً - ٢ الفرقان » .

مشكلة الاخلاق :

قال (نيتشه) فيلسوف الإنسان الأعلى : لا واقع لقيم الأخلاق ، فالحرية والعدالة والمساواة مجرد ألفاظ صنعها الضعفاء ليحدّوا بها من سيطرة الأقوياء . وقال ماركس فيلسوف الثورة ضد الإنسان الأعلى : العكس هو الصحيح ، فالزهد والصبر والوداعة ألفاظ صنعها الأقوياء ليسيّطروا بها على الضعفاء . ومعنى هذا عند الاثنين أن ألفاظ القيم لا مصدر لها إلا الهوى والمصلحة

الذاتية ، وما دام الهوى لا يتفق مع الإنسانية والمثل العليا فتكون أفاظ القيم دجلاً ونفاقاً .

ونحن نؤمن بأن مصدر القيم هي المصلحة ، ولكنها المصلحة المنبثقة من طبيعة الانسان بما هو إنسان ، لا بما هو طبقة من الطبقات ، وفئة من الفئات ، وليس من شك أن هذه المصلحة تتفق مع الإنسانية والمثل العليا ، بل هي هي ، ولذا سميت قيماً إنسانية ، لا طبقية . وعليه يكون لها واقع ثابت بثبوت الإنسان نفسه .. ولا ينبغي هذا استغلال من يستغلها ، وتحريف من يحرفها حسب أهوائه ومصالحه ، وإلا لم يصح تقسيم الناس إلى محق ومبطل بحرف الكلم عن مواضعه ، وإلى مخلص ومناقق بتستر بشعار الصالحين .. هذا ، إلى أنه ليس في تاريخ الإنسان مجتمع واحد قال للفرد : الفعل ما شئت ، فإنك غير مسؤول عن شيء قتلت أو سرقته .

أجل ، هناك مذاهب شتى لتحديد القيم الأخلاقية لا يتسع المقام لذكرها .. والذي يهمنا أن نحدد كما هي في نظر الاسلام ، وقد انطلقت أقلام الغيورين تحدد القيم الاسلامية بأنها تهدف إلى تكوين الفرد الصالح في المجتمع الصالح .. وهذا التحديد يحتاج إلى تحديد ، لأن القارئ لا يفهم منه شيئاً واضحاً يلتزمه عند التطبيق والممارسة ، وتجنباً لهذا المحذور نعهد أولاً بذكر بعض الأمثلة ، ثم نستخرج من دلالتها التحديد الواضح الذي يمكن ممارسته في الحياة اليومية .

أمر الإسلام بالصدق والوفاء والبذل والتواضع والصبر والعفو ، وما إلى ذلك ، ولكن قيد وجوبها بحد لا يصبح تجاوزه بحال ، وهو أن لا يؤدي الالتزام بها إلى عكس الغرض المطلوب منها ، فالصدق واجب ، ما دام في مصلحة الانسان ، فإذا تولد منه ضرر كإخبار العدو بالأسرار العسكرية ، أو نقل الكلام بقصد الفتنة كان محرماً ، والكذب محرم إلا في حرب عدو الدين والوطن ، وفي الصلح بين اثنين ، وفي صيانة نفس بريئة ، ومال محرم ، والوفاء باليمين واجب ، ما دام الخالف لا يجد خيراً من يمينه ، وإلا تركها لحديث : « وإذا وجدت خيراً من يمينك فدعها » . وبذل المال في سبيل الله حسن إلا إذا احتاج إليه صاحبه ، والصبر راجع إلا على الظلم والعوز ، والعفو فضيلة إلا إذا كان سبباً للفوضى ونشر الجرائم .

وبهذا يتبين ان قيم الأخلاق في الإسلام تقاس بمدى ما تحققه للإنسان من جلب مصلحة ، أو دفع مفسدة ، ومعنى هذا أنها وجدت من أجل الإنسان: ولم يوجد هو من أجلها ، كي يجب عليه التعمد بها على كل حال . فالقيم الأخلاقية - إذن - هي التي تحصر تصرفات الإنسان في إطار مصلحته ومصلحة الجماعة ، أو عدم الإضرار به أو بغيره على الأقل .

وتسأل : ما هو الضابط لتمييز النافع من الضار ؟.

ونجيب باختصار ان الضابط هو الاحساس والشعور العام بأن هذا ضار، وذاك نافع، ومتى انتهى الأمر إلى هذا الاحساس والشعور ينقطع الكلام، ولا يبقى مجال للسؤال والجواب لأن الشعور العام هو البديهة بالذات.

يؤتون الزكاة وهم راكمون الآية ٥٥ - ٥٦ :

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ *

الاعراب :

الذين يقيمون الصلاة صفة للذين آمنوا ، لأنها بمعنى (المصلون) . وجملة
وهم راكمون حال من واو يؤتون الزكاة .

المعنى :

بعد أن نهى سبحانه عن اتخاذ أعداء الدين أولياء بيّن من الذي يجب اتخاذه

ولياً ، فقال : (انما وليكم الله ورسوله) ولا يختلف اثنان في المراد بولاية الله والرسول وانها التصرف في شؤون المسلمين ، وليس مجرد المحبة والنصرة ، قال تعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم - ٦ الأحزاب » ، والولاية في هذه الآية تفسير وبيان للولاية في الآية التي نحن بصدددها .

(والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راکعون) . أي ان الولاية التي لله والرسول ثابتة أيضاً لمن جمع بين الزكاة والركوع ، ونقل الطبري عن مجاهد وعتبة بن أبي حكيم وأبي جعفر ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ، وفي كتاب غرائب القرآن ورجائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري - من السنة - ما نصه بالحرف : « الآية نازلة في علي باتفاق أكثر المفسرين » . وفي تفسير الرازي ما نصه بالحرف أيضاً :

« روي عن أبي ذر رضوان الله عليه انه قال : صليت مع رسول الله (ص) يوماً صلاة الظهر ، فسأل سائل في المسجد ، فلم يعطه أحد ، وعلي كان راکعاً ، فأومأ اليه بخصره اليمنى ، وكان فيها خاتم ، فأقبل السائل ، حتى أخذ الخاتم بمراءى النبي (ص) ، فقال : اللهم ان أخي موسى سألك فقال : رب اشرح لي صدري إلى قوله : وأشركه في أمري ، فأنزلت قرآناً ناطقاً سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطاناً ، اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك فأشرح لي صدري وبسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري . قال أبو ذر : فوالله ما أتم النبي (ص) هذه الكلمة ، حتى نزل جبريل ، فقال : يا محمد اقرأ انما وليكم الله ورسوله.. الى آخر الآية » .

ولكن الرازي فسر الولاية هنا بمعنى الناصر ، لا بمعنى التصرف ، وقال الشيعة : إن لفظ الجلالة والرسول ومن جمع بين الزكاة والركوع جاء في آية واحدة ، وولاية الله والرسول معناها التصرف فيجب أيضاً أن يكون هذا المعنى بالذات مراداً من ولاية من جمع بين الوصفين ، وإلا لزم أن يكون لفظ الولاية مستعملاً في معنيين مختلفين في آن واحد ، وهو غير جائز .

(ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) . هذه الآية نص صريح لا يقبل التأويل بحال على أن المعنى المراد من ولاية الله والرسول

والمؤمنين واحد لا اختلاف فيه ، وان من حافظ على هذه الولاية ، ولم يفرق بين الله ورسوله ومن جمع بين الزكاة والركوع فهو من حزب الله الغالب بمنطق الحق وحجته .

اتخذوا دينكم هزواً ولعباً الآية ٥٧ - ٥٩ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءاً وَلَعِباً
مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا قَاذَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءاً وَلَعِباً ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ
آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ *

الاهراب :

من الذين أوتوا الكتاب متعلق بمحذوف حال من واو اتخذوا . والكفار قرىء
بالجر عطفاً على (من الذين أوتوا الكتاب) وبالنصب عطفاً على (لا تتخذوا
الذين) . والمصدر المنسبك من (ان آمننا) مفعول تنقمون، أي تنقمون إيماننا .
والمصدر المنسبك من أن أكثركم فاسقون معطوف على (ما) أي آمننا بما أنزل إلينا
وبفسق أكثركم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا

الكتاب والكفار أولياء) . مرة ثانية نهى سبحانه عن اتخاذ أعداء الله أولياء ، ولكنه يبين هنا سبب النهي ، وهو أنهم يتخذون من دين الإسلام ، وصلاة المسلمين مادة للهزء واللاعب ، شأن السفه العاجز عن مجابهة الحجة بمثلها ، ولا يليق بالعاقل أن يوالي السفهاء ، وخاصة الذين يهزأون من دينه وأشرف مقدساته .. وأيضاً زاد سبحانه في هذه الآية انه عطف الكفار على أهل الكتاب ، وهو من باب عطف العام على الخاص ، والقرآن يعطف العام على الخاص كهذه الآية ، والخاص على العام كقوله : « حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى - ٢٣٨ البقرة » . ويعطف التظير على نظيره كقوله : « فسيدخلهم في رحمة منه وفضل - ١٧٥ النساء » .

(واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) . فيه إشعار بأن من يوالي ويؤاخي من يهزأ بالدين فهو أبعد الناس عن الإيمان ، لأن شبيه الشيء منجذب إليه .

(وإذا ناديتكم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً) . تدعو كنائس النصارى أتباعها إلى الصلاة بضرب الناقوس ، وتدعو بيع اليهود أتباعها إلى الصلاة بالنفخ بالبوق ، أما المسلمون فيدعون إلى الصلاة بصوت المؤذن يتنادى بالاستجابة إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى العمل الصالح الفالح : الله أكبر .. لا إله إلا الله .. حي على الفلاح .. حي على خير العمل .. وكان بعض أهل الكتاب ، وما زالوا يسخرون من هذا الأذان ، وهذه الدعوة .. والأولى أن يسخروا من نواقيسهم وأبواقهم .. على أن المعتدلين من النصارى يستحسنون الأذان ، ويفضلونه على ضرب الأجراس ، قال صاحب المنار :

« سمعنا من بعض النصارى المعتدلين في بلدنا - أي لبنان - كلمات الثناء على الأذان وتفضيله على الأجراس .. وقد كان جماعة من نصارى طرابلس يصطافون في بلدنا (القلمون) ، فكان النساء والرجال يهتفون في التوافد لاستماع صوت المؤذن ، وكان ندي الصوت .. وكان بعض صبيانهم يحفظون الأذان ، ويقلدون المؤذن تقليد استحسان ، فتغضب والدته وتنهاه ، أما والده فكان يضحك ويسر لأذان ولده ، لأنه كان على حرية واسعة صدر » .

(ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) . قال المفسرون بما فيهم الرازي وصاحب

الجزء السادس

المنار : ان المراد من قوله تعالى (لا يعقلون) انهم لا يدركون حقيقة الإسلام ، ولو أدركوا حقيقته لم يتخذوه هزواً .

أما نحن فنرى انهم قد عقلوا الاسلام ، وأدركوا أهدافه ، وأن الذين حاربوه إنما حاربوه لأنهم أدركوا خطره على منافعهم وامتيازاتهم .. فلقد أدركوا ان الاسلام ثورة على الظلم والاستغلال ، وعلى الفقر والتخلف ، وعلى تقسيم الناس إلى سيد ومسود ، وأنه لا فضل لمخلوق على غيره إلا بخدمة الناس ، والعمل لصالحهم ومنافعهم .. هذا هو ذنب الإسلام عندهم ، ومن أجله حاربوه بجميع ما يملكون من وسائل ، حتى الهزء والسخرية .

وتتجلى دعوة الإسلام هذه بأكمل معانيها في نداء المؤذن : الله أكبر .. لا إله إلا الله .. فإن معنى الله أكبر انه لا كبير ولا عظيم إلا هو وحده لا شريك له ، ومعنى لا إله إلا الله : ان المال والجاه والأنساب ليست آلهة تعبد ، ولا قوة يخضع لها ، وإنما الخضوع للحق وحده ، والناس فيه سواء ، وان ما من أحد على وجه الأرض له أن يمس حرية إنسان كائناً من كان .. وكفى بهذا ذنباً للإسلام عند ألد أعداء الانسان ، ومن أجل عداوتهم هذه ، لا من أجل جهلهم بحقيقة الإسلام وصفهم العلم الحكيم بأنهم قوم لا يعقلون .

(قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وان أكثركم فاسقون) . أجل ، انهم لا يرضون إلا عن يؤمن بهم وبامتيازهم واستغلالهم .. ان هذا في مقاييسهم قدس الأقداس ، وان كفر بالله ، وجميع الأنبياء والمرسلين .. أما من يكفر بظلمهم وطغيانهم فإنه عندهم شر الأولين والآخرين ، وان كان ولي الأولياء .. ولا شيء أصدق في الدلالة على ذلك من أنهم يتهمون الوطنيين الأحرار منهم ، وبرموتهم بالمروق من الدين ، لا لشيء إلا لأنهم يستكرون السباسة الاستعمارية ، والتفرقة العنصرية .. ومع هذه التهمة الظالمة يزعمون أنهم حماة الدين ، وحراسه من الاتحاد والملحمدين .

وتسأل : ان قولك هذا هو الواقع الذي نراه ونشاهده ، ولكنه لا يصلح تفسيراً للآية ، لأن الظاهر منها انهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون يؤمنون بالله والقرآن والتوراة والانجيل ؟.

الجواب : ان ظاهر الآية يدل صراحة على أن الله سبحانه أمر نبيّه الكريم أن يقول لهم : هل لنا من ذنب يستوجب منكم هذا العداء إلا أننا على حق ، وأنتم على باطل ، تماماً كما يقول - الوطني المخلص لخصمه العميل الخائن - هل تنقم مني إلا أنني وطني ، وانك عميل ؟ .

وليس من شك ان هذا المعنى يتفق مع تفسيرنا للآية ، بل هو أظهر مصاديقها وأفرادها . وقد تنبه إلى ذلك صاحب مجمع البيان ، حيث جاء في تفسيره : « معنى الآية هل تكرهون منا إلا إيماننا وفسقكم ، أي انما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون اننا على حق ، وانكم اقمتم على دينكم لمحبتكم الرياسة ، وكسبكم بها الأموال - ثم قال - ومعنى فاسقون خارجون عن أمر الله طلباً للرياسة » .

وجعل منهم القردة والخنازير الآية ٦٠ - ٦٣ :

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ * وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ * وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ *

اللغة :

المثوبة من ثاب اليه إذا رجع ، والمراد بها هنا الجزاء والثواب . والطاغوت من الطغيان . والسحت الذنيء المحرم . والفرق بين الإثم والعدوان ان الإثم هو الجرم ، وقد يكون مع التعدي على الغير ، وقد لا يكون معه تعدٍ على أحد ، أما العدوان فهو الاعتداء على الغير ، والصنع العمل مع الاشعار بالجودة، يقال : صنع الله لفلان إذا أحسن اليه .

الاعراب :

مثوبة تمييز من شر . ومن لعنه (من) في محل جر بدلاً من شر ، أي هل أنبئكم بمن لعنه الله ، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف ، أي هو من لعنه الله . وعبد الطاغوت (عبد) فعل ماضٍ معطوف على من لعنه الله ، والتقدير هل أنبئكم بشر الناس من لعنه الله ، ومن عبد الطاغوت . وجملة وقد دخلوا حال من الواو في قالوا . وجملة وهم قد خرجوا حال ثانية . والسحت مفعول لأكلهم . ولولا أداة تفضيظ ، وتختص بالمضارع مثل لولا تستغفرون. أو ما في معناه نحو لولا اخرتني .

المعنى :

(قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) . ذلك إشارة إلى حال المنتقمين ، والمثوبة تستعمل في الجزاء بالخير ، والعقوبة في الجزاء بالشر ، وقد وضعت المثوبة هنا موضع العقوبة من باب تحبيثهم السباب ، والمعنى قل يا محمد لأعداء الدين والحق الذين يستهزأون من الإسلام والأذان ، قل لهم : إن كان الإيمان بالله وكتبه شراً يوجب النعمة فأنا أخبركم بشر من هذا ، إن كان هذا شراً .. وهو (من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) وهذه الأوصاف كلها من أوصاف اليهود ، حيث سجل الله عليهم

سورة المائدة

لعتنه وغضبه في أكثر من آية ، ووصفهم بعبادة الجبت والطاغوت ، وقال لهم : كونوا قردة خاسئين ، ومن هذه الآيات :

- ١ - الآية ٤٦ من النساء : « كما لنا أصحاب السبت » .
- ٢ - الآية ٩٠ من البقرة : « فباءوا بغضب على غضب » .
- ٣ - الآية ٦٥ البقرة : « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » . وما قال الله لشيء كن إلا كان .
- ٤ ، الآية ٥١ - النساء : « يؤمنون بالجبت والطاغوت » . وقيل المراد بالطاغوت الشيطان . وقيل : العجل . والصحيح أن كل من أطاع عبداً في معصية الله فهو عبداً له .

وقال الرازي : « احتج أصحابنا - أي الأشاعرة - بهذه الآية على أن الكفر بقضاء من الله ، لأن التدبير وجعل الله منهم من عبد الطاغوت » . والصحيح أن عبداً معطوف على لعنه الله ، لا على جعل منهم القردة ، وإن التدبير هل أنبأكم بشر الناس ، أو بشر من ذلك من لعنه ومن عبد الطاغوت ، كما قلنا في فقرة (الفتنة) ، وعليه فلا يصح الاستدلال بهذه الآية على أن الكفر من الله ، لا من العبد .

(أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل) . أولئك إشارة إلى اليهود ظاهراً وتشمل كل من حاد عن الحق واقعاً ، ولا يجديهم قول لا إله إلا الله محمد رسول الله .. إذ لا إيمان بلا تقوى .

(وإذا جاءوك قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) . كان منافقو اليهود يدخلون على النبي (ص) ، ويقولون له : نحن بك من المؤمنين ، وهم كاذبون في أقوالهم ، وقد عبر سبحانه عن نفاقهم هذا بأنهم دخلوا على النبي بالكفر ، وخرجوا من عنده بالكفر .. ويشعر هذا التعبير بأنهم لو كانوا طلاب حق لخرجوا مؤمنين من عند الرسول بعد أن سمعوا ورأوا البيئات والدلائل . (والله عليم بما يكتمون) من الكفر والتناقض ويمجازيهم عليه بما يستحقون .

(وترى كثيراً منهم يسارعون في الأثم والعدوان وأكلهم السحت لبس ما كانوا يعملون) . المسارعة مفاعلة وتومىء إلى التسابق والتنافس في الأثم والعدوان

وأكل السحت ، أي الحرام ، وهذه سمة لا تفارق اليهود ، ومن أجلها مقتهم الناس قديماً وحديثاً ، إلا من يتخذ منهم أداة للشر ، تماماً كالسم القاتل .. حتى في الولايات المتحدة وكر الصهاينة يوجد جماعة كثير يناهضون اليهود .

(لولا بنهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الأثم وأكلهم السحت لبس ما كانوا يصنعون) . هذا التوبيخ الذي دلت عليه لولا وبس موجه في الظاهر لرؤساء الأديان من أهل الكتاب .. وفي الواقع موجه لكل من عرف الحق ، وسكت عنه .. ان العالم بالله حقاً المخلص له وحده يحتاج على المظالم بشئ الوسائل ، وإذا تبين أن موته في هذه السبيل بنسب الغافلين ، ويردع الظالمين أقدم عليه ، وعبر عن احتجاجه بالاستشهاد ، وتاريخ الشهداء جميعاً هو تاريخ الاحتجاج على جرائم الظلم والعدوان .

قالت اليهود يد الله مغلولة الآية ٦٤ - ٦٦ :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَوُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاكُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ *

سورة المائدة

اللغة :

للبد معانٍ ، منها الجارحة ، أي هذه اليد العادية التي أكتب بها هذه الكلمات ،
ومنها النعمة ، تقول لفلان عندي يد اشكرها ، ومنها القدرة ، ومنها الملك .
وتستعمل في البذل والإمساك حسبما تنسب اليها ، تقول بسط يده إذا أردت البذل ،
وتقول غلّ يده إذا أردت الإمساك . واقامة التوراة والانجيل العمل بما فيها .
ومقتصدة ، أي معتدلة .

الاعراب :

كيف في محل نصب على الحال ، أي ينفق على أي حال يشاء . وكثيراً
مفعول أول ليزيدن ، وطغياناً مفعول ثانٍ . وكلما نصبت على الظرف لأنها مضافة
إلى ما المصدرية الظرفية . وفساداً مفعول لأجله ليسعون .

المعنى :

(وقالت اليهود يد الله مغلولة) . هذه صورة من الصور العديدة التي يرسمها
القرآن لليهود ، ومثلها قولهم : « إن الله فقير ونحن أغنياء » .. وعلى قياسهم
ينبغي أن يكونوا هم الآفة ، والله جلت عظمته (...) وقد تجلت هذه الفطرسه
والواقحة بأقبح معانيها في تحديسهم للرأي العام العالمي باحتلال القدس سنة ١٩٦٧ .

وفي بعض الروايات ان الذي نطق بكلمة الكفر هذه رجل منهم ، اسمه
فنحاص .. وقد تكون الرواية صحيحة ، وصحيح أيضاً ان الواحد لا يعبر عن
رأي الطائفة والجماعة ، وان بعض ضعاف المسلمين يقول هذا حين تحاصره
المصائب ، ولا يجد له مهرباً .. هذا صحيح ، ولكن من اطلع على سيرة اليهود
يعلم انهم يقولون هذا بلسان الحال ، وإن لم ينطقوا به بلسان المقال .. لأنهم
يريدون من الله أن يهب الأرض ومن عليها اليهم وحدهم ، وإلا فهو بخيل مغلول

اليَد (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) . وبما فعلوا من المسارعة إلى الإثم والعدوان وأكلهم المال الحرام .

الصهيانية تواطأوا مع النازيين :

قال صاحب تفسير المنار : (غلت أيديهم) هو دعاء من الله عليهم بالبخل وما زالوا أبخل الأئمة ، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً إلا إذا درّ عليه ربحاً . وقد كان الربح الوحيد عندهم هو المال ، ومن أجله يحل كل محرم ، أما اليوم فلا ربح أفضل من قتل عربي ، حتى ولو كان طفلاً ، والشعار الديني المقدس لهيئاتهم (الخيرية) ، ادفع دولاراً تقتل عربياً ، مسلماً أو نصرانياً .. بل إنهم يسخون بأرواحهم رجالاً ونساء وأطفالاً ليخرجوا الفلسطينيين من ديارهم ويحلّوا محلهم .. وأعرب ما قرأت أن زعماء الصهيانية ، ومنهم وايزمان وموسى شاريت ودافيد بن غوريون تواطأوا مع النازية وزعماء الجستابو على ذبح اليهود والتنكيل بهم لهدفين : الأول دفع اليهود للهجرة إلى فلسطين . الثاني اصطناع المبررات لقيام دولة إسرائيل . (عن كتاب اطلاق الحماة هـ يونيو للمؤلفين : بيلياف وكوبستيشكو وبريماكوف . ترجمة ماهر عسل) .

وإذا تواطأ اليهود مع أعدى أعدائهم، وضحوا بمئات الألوف منهم من أجل دولة اسرائيل فهل يكثر منهم القول : ان الله فقير ونحن أغنياء ، وأن يده مغلولة عن البذل والعطاء ؟ وأية غرابة في قولهم : نحن حماة السلام ، والعرب دعاة الحرب والدمار بعد أن قالوا : ان الله فقير ونحن أغنياء ؟ . وإذا كانت يد الله مغلولة لأنه لم يهبهم الأرض ومن عليها فبالأولى أن يكون العرب طفلة معتدين ، لأنهم لم يعتدروا لليهود عن التقصير ، وعدم عرفان الجميل .. وليس قولي هذا كلاماً شعرياً ، أو إحساساً عاطفياً .. ألم يلع اليهود على اعتراف العرب بإسرائيل ؟ . وأي معنى لهذا الاعتراف في هذا الظرف بالذات إلا الاعتذار وطلب العفو ؟ .

(بل يدها مبسوطتان) . المراد باليد هنا عين المراد بيمينه في الآية ٦٧ من

الزمر : « والسموات مطويات بيمينه » أي بقدرته، وقال يده بالثنية لا بالأفراد لأنها أبلغ شكلاً ، وأقوى محتوى (ينفق كيف يشاء) بإيجاد السبب الموجب : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور - ١٥ الملك » .

أجل ، قد لا تسعف الظروف أحياناً ، ويحجب المسعى . وقوله : « وإليه النشور » تهديد ووعيد لمن يطلب العيش على حساب غيره .

(وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً) . المراد بالكثير الرؤساء والمترفون الذين خافوا على مناصبهم من دعوة الحق ، وزادتهم هذه الدعوة حقداً على صاحبها محمد (ص) لأنه كشف عن عوراتهم وسيئاتهم التي منها تحريف كلام الله عن مواضعه ، وأكلهم المال الحرام ، وعدم التناهي عن المنكر .. ومن شأن الدهي الصلف أن يزداد عتواً وفساداً إذا نُبه إلى عيوبه ومآثمه .

(وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) . قال صاحب تفسير المنار : لا نعرف في التفسير المأثور عن السلف إلا أن الضمير في قوله (بينهم) يرجع إلى اليهود والنصارى في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخلوا اليهود والنصارى أولياء) .. وفي تفاسير المتأخرين احتمال أن يكون الضمير لليهود وحدهم .

ونحن على رأي السلف أولاً : لأنهم أعرف بما يراد من مفردات القرآن والحديث من المتأخرين ، لأنهم أقرب إلى عهد الرسالة ونزول القرآن . ثانياً : لأن العداوة بين اليهود والنصارى عداة ذاتي ، فاليهود يعتقدون أن المسيح مشعوز عتال وابن سفاح - نعوذ بالله - والنصارى يعتقدون أنه ابنه تعالى الله ، بينما يعتقد المسلمون أنه نبي منزله عن الجهل والمعصية .. ومحال أن يزول العداة بين اليهود والنصارى : ما دامت كل طائفة على عقيدتها ، وقد حاول بابا روما عام ١٩٦٥ أن يقرب بين الطائفتين ، ولكن اليهود ما زالوا مصرين على رأيهم بالسيد المسيح (ع) .. أجسل ، ان الأطايع المشتركة قربت ، بل وحدث بين أرباب الشركات لكنتا الطائفتين ، ولكن على أساس تجاري ، لا على أساس ديني .

اليهود وفار الحرب :

(كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) . إن كلمة الحرب وضعت أول ما وضعت للقتال ، واستعملت في هذا المعنى قروناً طويلاً ، وبمرور الزمن تطورت ، حتى أصبحت تدل الآن على ضد السلم والأمن والرخاء ، فأى بلد يخشى على نفسه من احتلال دولة أقوى منه ، أو ارتفعت أسعار المعيشة فيه لقتال في بلد من البلدان فهو في حالة حرب ، وإن لم تسل الدماء على أرضه ، لأنه قد تأثر بذلك القتال ، وأفقده الكثير من أمنه وراحته .

وبعد هذه الإشارة نتساءل : هل المراد بالحرب في الآية خصوص القتال أو ما يشمل الأمن والرخاء ؟ ثم إذا كان المقصود هم اليهود كما قال المفسرون فيهاذا 'بجواب عن حرب ه حزيران سنة ١٩٦٧ التي أوقد اليهود نارها ، ولم تحمد ، حتى الآن ؟

الجواب : أما كلمة الحرب في الآية فلأن المراد منها خصوص القتال ، لأن هذه الكلمة لم تحمل غير هذا المعنى يومذاك . أما حرب ه حزيران فتجيب عنها بما يلي :

١ - اتفق المفسرون على أن المراد باليهود خصوص من كان يهم بالكيّد لرسول الله والمسلمين ، فقد جاء في كتب السيرة النبوية إن يهود المدينة تحالفوا مع المشركين ضد النبي وصحابته ، وأن منهم من سعى لتحريض الروم عليهم ، كما أن بعضهم كان يؤوي أعداءهم ويساعدهم .

٢ - لو سلمنا - جدلاً - أن المراد كل اليهود في كل عصر أخذاً بظاهر العموم فإن حادثة ه حزيران لم تكن حرباً بالمعنى المعروف لهذه الكلمة ، وإنما كانت اغتيالاً وغدر جبان ، فحتى ليلة الغدر كانت تؤكد إسرائيل وواشنطن أنها لم تبدأً بالهجوم ، بل وبعد الغدر أذاعت إسرائيل أن العرب هم البادئون ، ثم ظهرت الحقيقة .. على أن حرب ه حزيران لم تكن بين العرب واليهود ، وإنما كانت في واقعها بين العرب والولايات المتحدة ، فهي مهتدس العدوان ، والأمر به ، ومصدر السلاح والمال، وصانع الخديعة السياسية ، والمحامي والمخبر ، أما إسرائيل فقد مثلت دور الجندي المطيع .

قال مؤلفو كتاب اطلاق الحمامة الذي أشرنا اليه منذ قريب : « نشرت الصحف الفرنسية وألمانيا الغربية أن المخابرات الأمريكية سلمت اسرائيل قبيل العدوان كل ما تجمع لديها من معلومات بالإضافة إلى الدوسيه الخاصة بالشرق الأوسط لدى قيادة الحلف الأطلسي .. وان الذي أصدر الأمر لاسرائيل بالهجوم على العرب باسم الرئيس جونسون هو مستشاره اليهودي الصهيوني « والت روستو » .. وكان الأميرال الأميركي يحمل في جيبه أمراً بتنفيذ الاستعداد للقتال في جميع الوحدات الخاضعة له .. أما عملية ليبرتي سفينة التجسس فقد كانت مدبرة بين الأميركيين والاسرائيلين ، .

٣ - ان نار الحرب التي أوقدتها واشتظن أو عملتها اسرائيل قد أخذها الله ما في ذلك ريب .. فلقد اعترف الذين أوقدوها أكثر من مرات ، وأعلنوا بالصحف والاذاعات أنها لم تحقق الهدف المطلوب منها ، وهو ضرب القيادة التحررية للعرب ، واستسلامهم دون قيد وشرط ، وبالتالي حل مشكلة إسرائيل من الناحية السياسية .. وفي الوقت نفسه كانت حادثة هـ حزينان امتحاناً قاسياً للعرب ، وتأكيداً لضرورة الإصلاح الجذري، وتنبيهاً لهم الى أصدقائهم وأعدائهم.. ولو لم يكن لتلك الحادثة من فائدة إلا افتضاح المتآمرين على بلادهم وأمتهم لكفى. (ويسعون - أي اليهود - في الأرض فساداً) . لأن أهدافهم الأثيمة محال أن تتحقق إلا بالتخريب وإثارة الفتن ، وقد صرح المسؤولون في إسرائيل ان بقاء دولتهم وحياتها رهن بالخلافات القائمة بين زعماء العرب .. فهل من مذكرو؟ (والله لا يحب المفسدين) . ومن ثم تكون عاقبتهم إلى وبال، وإن طال الزمن . (ولو ان أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) . هذه دعوة من الله سبحانه لليهود والنصارى أن يتوبوا ويدخلوا في الإسلام ، وإن استجابوا لدعوته صفح عن جميع ذنوبهم ، وإن عظمت ، لأن الإسلام يحب ما قبله ، كما جاء في الحديث ، وان اتقوا بعد إسلامهم أدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

الرزق وفساد الاوضاع :

(ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم

ومن تحت أرجلهم) . إقامة التوراة والانجيل العمل بهما ، والمراد بما أنزل اليهم التعاليم التي كانوا يسمعونها من الأنبياء ، وهي المعروفة عند المسلمين بالأحاديث النبوية ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم كتابة عن السعة في الرزق ، تماماً كما تقول : فلان غارق في النعم من قرنه إلى قدمه .

وفي معنى هذه الآية آيات كثيرة ، منها الآية ٩٥ من الاعراف : « ولوان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » . والآية ١٢ الرعد : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . والآية ٤١ الروم : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » . والآية ٣٠ الشورى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . وترشدنا هذه الآيات إلى أمرين :

١ - ان ظهور الفساد ، ومنه الفقر والمرض والجهل ، إنما هو من حكم الأرض ، لا من حكم السماء ، ومن أيدي الناس الذين أماتوا الحق ، وأحبوا الباطل ، لا من قضاء الله وقدره ، وان أية جحامة عرفوا الحق ، وعملوا به عاشوا في سعادة وهناء .

٢ - ان التعبير في الآيات الكريمة بقوم وبالناس يدل على ان الشقاء يستند إلى فساد الأوضاع ، وان مجرد صلاح فرد من الأفراد لا يجدي شيئاً ما دام بين قوم فاسدين ، بل يجر صلاحه عليه البلاء والشقاء ، قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة - ٢٥ الأنفال » ، أي ان الآثار السببة لمجتمع سيء تعم جميع أفراد الصالح والطالح .. وليس من شك ان الشعب الكسول الخانع الخاضع للعسف والجور لا بد أن يعيش أفراده في الذل والخوان . وعلى هذا يكون المراد بالإيمان الموجب للرزق هو الإيمان بالله مع العمل بجميع أحكامه ومبادئه ، لا إقامة الصلاة فقط ، بل واداء الزكاة ، وجهاد المستقلين والمحترمين ، وإقامة العدل في كل شيء ، وليس من شك ان العدل متى عم وساد صلحت الأوضاع ، وذهب الفقر والشقاء ، وهذا ما يهدف اليه القرآن .

لقد كشف الإسلام عن الصلة الوثيقة بين فساد الأوضاع ، وبين التخلف وآلام الانسانية بشئ أنواعها ، وسبق إلى معرفة هذه الحقيقة كل عالم من علماء الاجتماع ، وكل قائد من قادة الاشتراكية والديمقراطية وغيرها .. وإذا كان لدى

هؤلاء شيء يذكر فمن الاسلام أخذوا ، ومنه اقتبسوا .. ولكن ما الحيلة فيمن ينفر من كل ما يمت إلى الدين بسبب ، لا لشيء إلا لأن اسمه دين .
(منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) . الضمير في منهم يعود إلى أهل الكتاب المذكورين في الآية صراحة ، وهم اليهود والنصارى ، والمراد بالأمة الجماعة ، ومعنى مقتصدة معتدلة ، والذين أطلق الله عليهم وصف الاعتدال هم من اعتنق الاسلام من اليهود والنصارى بعد أن ظهرت لهم دلائل الحق ، وبيئات الصديق . وقد ذكر أهل التاريخ والسير أسماء كثيرة لمن أسلم من أهل الكتاب ، أما الذين أصروا على الكفر بعد أن استبان لهم الحق فهم المقصودون بقوله تعالى : (وكثير منهم ساء ما يعملون) .

بلغ ما أنزل اليك الآية ٦٧ :

يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ *

المعنى :

يدل ظاهر الآية على ان هناك أمراً هاماً نزل على النبي (ص) ، وقد أمره الله بتبليغه إلى الناس ، فصاح النبي به ذرعاً ، لأنه ثقیل على أنفسهم ، فترث بتحين الظروف والمناسبات تجنباً للاصطدام مع المتحرفين .. ولكن الله سبحانه حثه على التبليغ حالاً ، ودون أن يحسب حساباً لأي اعتبار ، والله سبحانه يتولى حمايته وعصمته من كل مكروه .

ونسأل ، إن قوله تعالى (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) لا يفيد شيئاً بحسن السكوت عليه ، حيث جعل جواب الشرط عين فعله ، تماماً مثل قول القاتل : إن لم تفعل فما فعلت ، وإن لم تبليغ فما بلغت .. فما هو الوجه ؟

الجواب : إن قوله تعالى : (فا بلغ رسالته) يُشعر بأن هذا الأمر الذي تريت النبي (ص) في تبليغه خوفاً من الناس قد بلغ من الأهمية حداً يوازي تبليغه تبليغ الرسالة كلها ، بحيث إذا ترك تبليغه فكأنما ترك تبليغ جميع الأحكام ، تماماً كما تقول لمن كان قد أحسن اليك : إذا لم تفعل هذا فما أنت بمحسن إليّ إطلاقاً، وعليه يكون المعنى إن لم تبليغ هذا الأمر فكأنك لم تؤد شيئاً من رسالتي ، وجازيتك جزاء من كتم جميع أحكامها .

سؤال ثان : ما هو هذا الأمر الذي بلغ من العظمة هذا المبلغ ، حتى أناط الله تبليغ الرسالة جميعاً بتبليغه ، وجعل الرسول يتوقف أو يترث في تبليغه ، وهو الحريص على أن يصدع بأمر الله مما كانت النتائج ؟

الجواب : بعد أن اتفق المفسرون الشيعة منهم والسنة على تفسير الآية بالمعنى الذي ذكرناه ، بعد أن اتفقوا على هذا اختلفوا في تعيين هذا الأمر الذي تريت النبي (ص) في تبليغه ، والذي لم يذكره الله صراحة .

قال الشيعة : إن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ، وإن هذا الأمر الهام هو ولايته على الناس ، وإن النبي (ص) تريت في التبليغ لا خوفاً على نفسه ، كلا ، فلقد جابه صناديد قريش بما هو أعظم ، فسهه أحلامهم ، وسب آهنتهم ، وعاب أمواتهم ، وهم الأشداء الأقوياء ، وأهل العصية الجاهلية .. أقدم النبي على هذا ، ولم يخش فيه لومة لائم يوم لا حول للإسلام ولا طول ، فكيف يخشى من تبليغ حكم من الأحكام بعد أن أصبح في حصن حصين من جيش الإسلام ومناحته ؟ وإنما خاف النبي (ص) إذا نص على علي بالخلافة أن يتهم بالمحاباة والتحيز لصهره وابن عمه ، وأن يتخذ المنافقون والكافرون من هذا النص مادة للدعاية ضد النبي (ص) والتشكيك في نبوته وعصمته .. وبديهة ان مثل هذه الدعاية يتقبلها البسطاء والسطح .

هذا ملخص ما قاله الشيعة ، واستدلوا عليه بأحاديث رواها السنة في ذلك ، ونقل بعضها الرازي وصاحب تفسير المنار .

أما السنة فقد اختلفوا فيما بينهم ، فن قائل : إن النبي سكت عن بعض الأحكام التي تتعلق باليهود ، ومن قائل : إن الحكم الذي سكت النبي عنه يتصل

بقصة زيد وزينب بنت جحش ، وقال جماعة من السنة ان الآية نزلت في فضل علي بن أبي طالب ، لا في خلافته ، ونقل هذا القول الرازي وصاحب تفسير المنار .

قال الرازي : « العاشر - أي القول العاشر - : نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب ، ولما نزلت هذه الآية أخذ النبي بيد علي ، وقال : « من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » فلقبه عمر فقال : هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة ، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي . »

صاحب المنار وأهل البيت :

وقال صاحب تفسير المنار : « أما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فقد رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، والنسائي ، والضياء في المختار ، وابن ماجه ، وحسنه بعضهم ، وصححه الذهبي بهذا اللفظ ، ووثق سند من زاد فيه : اللهم وال من والاه وعاد من عاداه الخ ، وفي رواية انه خطب الناس ، فذكر أصول الدين ، ووصى بأهل بيته ، فقال : « إني قد تركت فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف تخلصوني فيها ، فانهما لن يفرقا حتى يردا علي الحوض ، الله مولاي ، وأنا ولي كل مؤمن ، ثم أخذ بيد علي وقال - الحديث - أي من كنت مولاه فعلي مولاه . »

ثم أطال صاحب تفسير المنار الكلام ، وقال فيما قال : المراد بالولاية في الحديث ولاية النصرة والمودة .. ولكنه أتبع هذا التفسير بقوله : « إن مثل هذا الجدل فرق بين المسلمين ، وأوقع بينهم العداوة والبغضاء ، وما دامت عصبية المذاهب غالبية على الجماهير فلا رجاء في تحريم الحق في مسائل الخلاف . » هذا صحيح بقره كل عاقل ، ولولا التعصب للباطل لم يقع الخلاف بين المسلمين ،

١ انظر تفسير الآية .. من هذه السورة .

وعلى افتراض حصوله فإنه لا يستمر هذا الأمد الطويل، ولم تؤلف عشرات الكتب في مسألة واحدة .

ثم قال صاحب تفسير المنار : « أما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فنحن نهتدي به ، ونوالي علياً المرتضى ، ونوالي من والاهم ، ونعادي من عاداهم ، ونعد ذلك كمواة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ونؤمن بأن عترته (ص) لا تجتمع على مفارقة الكتاب الذي أنزله الله عليه ، وأن الكتاب والعرة خليفتا الرسول ، فقد صح الحديث بذلك في غير قصة الغدير ، فإذا أجمعوا على أمر قبلناه واتبعناه، وإذا تنازعوا في أمر رددناه إلى الله والرسول .

اقامة التوراة والانجيل الآبة ٦٨ - ٦٩ :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *

الإهراق :

الصابئون مبتدأ والخبر محذوف ، أي والصابئون كذلك ، ومثله : « فاني وقيارٌ بها لغريب » أي اني لغريب ، وقيارٌ كذلك ، أو غريب ، والنصارى عطف على الصابئين . من آمن بالله بدل بعض من كل ما تقدم من الأصناف .

المعنى :

(قل يا أهل الكتاب لستم على شيء) من دين الحق ، ولا تنفعكم هذه المظاهر الدينية (حتى تقبموا التوراة والإنجيل إلخ .. تقدم تفسيره في الآية ٦٤ من هذه السورة) .
(إن الذين آمنوا والذين هادوا إلخ .. تقدم تفسيره في الآية ٦٢ من سورة البقرة ج ١ ص ١١٦ وما بعدها .

ميثاق بني اسرائيل الآية ٧٠ - ٧١ :

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلِّمًا جَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُونَ
فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمَّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ
وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *

اللفظ :

المراد بالفتنة هنا العقوبة .

الإعراب :

لقد اللام واقعة في جواب القسم المحذوف ، أي والله لقد . ولا تكون تامة .
وفتنة فاعل ، والمصدر المنسبك من أن وما بعدها مفعول حسبوا ، أي حسبوا
عدم الفتنة . وكثير بدل من واو عموا وصموا .

المعنى :

(لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل) . سبق تفسير قوله تعالى في الآية ١٢ من هذه السورة : « ولقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً » . والآية ١٣ : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم » . وقال المفسرون : ان الله سبحانه كرر أخذ الميثاق من اليهود ، ونقضهم إياه بقتلهم الأنبياء وتكذيبهم - كرر ذلك تأكيداً لعنهم وشدة تمردهم .. ونضيف نحن إلى ذلك ان الله جل ثناؤه قد أراد أيضاً من هذا التكرار - وهو أعلم بما أراد - أن يحذر ذراري المسلمين من ذراري اليهود ، حيث سبق في علمه تعالى ان المسلمين سيفترقون إلى طوائف وينقسمون إلى دويلات ، وان اليهود سيستغلون هذا الانقسام لإنشاء دولة لهم في قلب البلاد الإسلامية ، ويكون منها ما كان .

(وأرسلنا اليهم رسلاً) بينوا لهم طريق الحق والهداية ، ولكن (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون) . فهوى النفس وحده هو الأمر الناهي عند اليهود ، ولا جزاء لمن خالفهم - وان كان نبياً - إلا القتل ان قدروا عليه ، أو التكذيب ان عجزوا عن القتل .. وهذا الوصف لا يختص باليهود ، وان كان الحديث عنهم ، فكل من اتخذ لهواه بفعل مثل ما فعلوا ، يهودياً كان ، أو مسلماً ، أو نصرانياً .

(وحسبوا الا تكون فتنة) . المراد بالفتنة هنا شدائد الأمور ، كسלט الأقوياء عليهم بالقتل والتخريب والتشريد ، أي ظن اليهود أنهم لا يَغْلِبون أبداً لأنهم شعب الله المختار بزعمهم .. وقد اعتمدوا على هذا الزعم فيما مضى ، أما اليوم فلأنهم يعتمدون على القوى الاستعمارية ، والعناصر الرجعية ، والشركات الاحتكارية ، وعلى إثارة الفتن والخلافات ، ونشر الفساد والانحلال .

(فعموا وسموا) . كل من كره شيئاً عمي عن محاسنه ، وقد كره اليهود كل شيء إلا ما تهوى أنفسهم ، لذا تعاموا عن منهج الحق ، وتصاموا عن صوت العدل ، فسلط الله عليهم البابليين ، فقتلوا رجالهم ، ونهبوا أموالهم ، وسبوا نساءهم وأطفالهم (ثم تاب عليهم) بعد أن تابوا ، لشدة ما أصابهم في أسر يختصر من المدة والمهانة (ثم عموا وسموا كثير منهم) . أي أن الله سبحانه

بعد أن أنجاهم من عذاب الأسر عاود كثير منهم الكرة إلى البيه والفساد ، قتلوا زكريا ويحيى ، وكذبوا السيد المسيح (ع) وحاولوا قتله ، وقالوا فيه وفي أمه قولاً عظيماً ، فسلط الله عليهم الفرس والروم ، وفعلوا بهم ما فعله بختنصر . (والله بصير بما يعملون) من سفك الدماء ، وتزييف الحقائق ، وتدبير المؤامرات وتنفيذ الخطط التي بضع تصميمها كل طاغٍ وياغٍ .. ان الله سبحانه يعلم ذلك منهم ، وهو مجازيهم عليه بالخزي والخذلان في الدنيا قبل الآخرة . وهذا الوصف الذي حكاه الله عن اليهود ينطبق تماماً على من يتظاهر بالإسلام ، ثم يدور في فلك الذين يساندون اسرائيل ، ويناصرونها على العرب والمسلمين .

دعوة المسيح الى بني اسرائيل الآية ٧٢ - ٧٥ :

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَا كَلَابِ الطُّغَمَاءِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ *

اللغة :

الصديقة مبالغة في الصديق . والافك الكذب .

الإعراب ؟

ثالث خبر إن . وثلاثة مجرور بالإضافة ، ولا يجوز ثلاثة بالنصب على انه مفعول لثالث ، كما يجوز لك أن تقول : ضاربٌ زيداً على أن يكون زيد مفعولاً لضارب ، لا يجوز ذلك في ثلاثة ، إذ يصير المعنى الثالث جعل الثلاثة ثلاثة ، وهذا باطل وغير مراد ، لأن المعنى المراد واحد من ثلاثة ، لا جاعل الثلاثة ثلاثة .. أجل ، إذا قلت : رابع ثلاثة يجوز أن نجر ثلاثة بالإضافة ، وأن تنصبها مفعولاً لرابع على معنى جاعل الثلاثة أربعة . ما من إله (من) زائدة . وإله مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي ما إله موجود إلا الله . ولفظ الجلالة بدل من إله ، أو من الضمير في موجود . ليمس اللام واقعة في جواب قسم محذوف ، ويمس ساد مسد جواب القسم وجواب ان الشرطية . ومنهم متعلق بمحذوف حالاً من الدين . وجملة كانا يأكلان الطعام مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، ولا يصح أن تكون صفة للمسيح وأمه ، لأن كلاً منها جاء في جملة مستقلة ، ولو قال : المسيح وأمه مخلوقان كانا يأكلان لصح إعراب الجملة وصفاً . وكيف نبين (كيف) مفعول مطلق لنبيين ، لأن المعنى أي بيان نبين ، ولا يجوز أن تكون كيف مفعولاً لأنظر، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله . وأنتى بمعنى كيف ، وهي مفعول مطلق ، والمعنى أي افك يوثقون .

المعنى :

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) . غالى اليهود في تحقير عيسى وأمه ، وغالى النصارى في تعظيمهما ، حتى ارتفعا بهما إلى مكان الآفة ، والغلو في نظر الإسلام كفر بشق صورته وأشكاله . قال الإمام علي (ع) : « سيهلك في صفتان : محبة مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق ، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق ، وخير الناس في حالاً النمط الأوسط فالزموه . » (وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم لأنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) . المسيح من بني إسرائيل

سورة المائدة

وأندلر أول من أندلر قومه ، فأمرهم بعبادة الله وحده معترفاً بأنه ربه وربهم ، ومنلراً من يشرك بالله بأليم العذاب، ولكن النصارى أبوا إلا القول بربوبية عيسى (ع) ومن جحد بها فقد جحد بخالق الكون في عقيدتهم .

(لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) . أنكر سبحانه على النصارى أولاً تأليه السيد المسيح (ع) ، ثم أنكر عليهم في هذه الآية جعلهم الله واحداً من ثلاثة ، وقولهم : إن الله هو الأب والمسيح هو الابن ، ثم حل الأب في الابن واتحد به فكون روح القدس ، وكل واحد من هؤلاء الثلاثة هو عين الآخر، وهو غيره . وتقدم الكلام في ذلك عند تفسير الآية ١٧ من هذه السورة، والآية ١٧٠ من سورة النساء .

(ما من إله إلا الله) . سئل الإمام علي (ع) عن التوحيد والعدل ، فقال: التوحيد ان لا تتوهمه ، والعدل أن لا تنتهمه . أي من توحيد الله ان لا تتصوره بوهمك ، لأن كل موهوم مخلود والله لا يُحمد بوهم ، والعدل ان لا تنتهم الله بحكمته ، وانه فعل ما لا ينبغي أن يفعل .

(وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) . وتساءل: ان (منهم) في الآية تدل بظاهرها ان النصارى فيهم الكافر والمؤمن ، مع العلم بأنهم جميعاً يقولون بالوهمية عيسى والله سبحانه يقول : (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) ؟

وأجاب المفسرون بأن (منهم) أخرجت من تاب وأسلم ، وأبقت من أصر على الكفر .. ويلاحظ بأن من أسلم لا يُعذب منهم ، والمصحح ان النصارى ظلوا على عقيدة التوحيد ، والإيمان بنبوة عيسى أمداً غير قصير ، ثم انقسموا إلى طائفتين : إحداهما تؤمن بالتوحيد ، والأخرى تقول بالتعدد .. وعلى طول الأمد اتفقت كلمة الجميع على التثليث ، وعلى هذا فلفظ (منهم) اخرج الطائفة البائدة التي كانت تؤمن بنبوة عيسى ، لا بالوهميته . وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٧ من هذه السورة .

(أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) . ما أوضح هذا الكلام. ورغم هذا اللوضوح أبى بعض المفسرين إلا أن يفسره ويقول : « هنا فصل

محنوف ، والتقدير أفلا يسمعون ما قلنا فيتوبون ، وهكذا يأتي الشيء جامداً بارداً إذا كان في غير محله .

(ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) . كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم ، وقد أظهر الله المعجزات على أيديهم كما أظهرها على يد عيسى ، فالقول بربوبيته من دونهم ترجيح بلا مرجح (وأمه صديقة) . ويثبت الله معنى الصديقة بقوله : « وصدقت بكلمات ربها وكتبه ، وكانت من القانتين - ١٢ التحريم » .

(كانا يأكلان الطعام) . كل من افتقر إلى شيء ، أي شيء ولو إلى مكان أو زمان فهو مخلوق ، لأن الافتقار وصف لازم له ، ولا ينفك عنه محال ، وإلا كان مخالفاً غير مخلوق .. كما ان الغنى عن كل شيء وصف لازم للمخالق ، ومحال أن ينفك عنه ، وإلا كان مخلوقاً .. وبديهة أن من يأكل الطعام فهو في أشد الحاجة إليه .. إذن ، هو مخلوق وليس بمخالق .. وغريب أن تخفى هذه البديهة الواضحة على عاقل .. ولهذا المنطق ونصاعته عقب سبحانه على موقفهم بقوله - مستكراً - (انظر كيف نبين لهم الآيات) . ومن هذه الآيات ان المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام ، فكيف يكونان إلهين ؟ (ثم انظر اننى يؤفكون) . أي معرضين عن الحق مكذبين له تمرداً وعناداً .

لا يملك لكم ضرراً ولا نفعا الآية ٧٦ - ٨١ :

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ * لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ

عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ
يَتَزَلَّلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا
أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ *

اللفظ :

الناهي تفاعل ، أي كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً ، ويستعمل في الكف عن
الشيء ، يقال تنهى عن كذا ، أي كف عنه .

الاعراب :

غير الحق صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي لا تظفوا غلواً غير الحق . ومن
بني اسرائيل متعلق بمحذوف حالاً من الذين كفروا . وبئس ما كانوا (بئس)
فعل ماضٍ بمعنى الذم ، و (ما) اسم نكرة بمعنى شيء محل نصب على التمييز .
وفاعل بئس مستتر بفسره ما ، أي الشيء شيئاً فعلهم ، وقد تصيدنا من يفعلون
مصدرأ جملناه المخصوص بالذم . وهو مبتدأ وخبره بئس وما بعدها ، أو خبر
لمبتدأ محذوف ، أي هو فعلهم .

المعنى :

(قل أنعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع
العليم) . يستعمل القرآن الكريم (ما) فيما لا يعقل ، قال تعالى : « وما تلك
بيمينتك يا موسى » . وفيمن يعقل : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » .

وفيها معاً : « له ما في السموات وما في الأرض » . ومنه قوله تعالى في هذه الآية : « ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً » فإن المراد من (ما) كل ما اتخذ معبوداً من المخلوقات فيندرج فيه عيسى ومريم والأصنام .. أجل ، ان استعمال (ما) فيما لا يعقل أكثر من استعمالها فيمن يعقل : على العكس من استعمال (من).

أما وجه الاحتجاج على النصارى بهذه الآية فلأن الإله المعبود هو الذي يملك لعباده ضرراً ونفعاً ، أما العاجز فبحال أن يكون الهاً .. وقد ذكرت الأناجيل ان عيسى الذي يدعون له الألوهية قد أمين وصلب ودُفن بعد أن وضعوا اكليل الشوك على رأسه ، ومن لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً فبالأولى أن لا يملكهما لغيره .. ومن كان هذا شأنه لا يعبد عاقل ، قال ابراهيم (ع) لأبيه : « يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً - ٤٢ مريم » . وكان لاعرابي صنم يقده ويعبد ، وجاءه ذات يوم ليسجد له كعادته فرأى ثعلباً بالقرب منه ، فظن ان الثعلب قصده ليتبرك به ، وحين أراد السجود له رأى قدارة الثعلب على رأسه ، فتاب اليه رشده ، وأخذ يحطم الصنم ، ويقول :

ارب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالث عليه الثعالب

(قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق) . هذا الخطاب موجه بظاهره إلى أهل الكتاب، وفي واقعه يشمل أهل الأديان جميعاً .. والمظهر الأصيل المميز للإسلام انه يحصر النفع والضرر بيد الله وحده ، ويضع الإنسان أمام خالقه دون وسائط روحية أو مادية : « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً - ١٢٢ النساء » .

(ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) . المراد بالقوم رؤساء الدين الذين يتاجرون به، ويحرفونه كما يشتهون.. وقد وصفهم جل ثناؤه بالضلال في أنفسهم أولاً ، وبإضلال أتباعهم ثانياً ، ثم بين نوع الضلال والإضلال بأنه انحراف عن قصد السبيل (وضلوا عن سواء السبيل) . وسواء السبيل هو الاعتدال وترك الغلو في الدين .. وهذا هو الإسلام في واقعه ، دين قويم ، وصراط مستقيم ، وكيلا يقول المسلمون في محمد(ص)

سورة المائدة

ما قاله النصارى في المسيح (ع) أمر الله نبيه أن يقول للمؤمنين به : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إليكم إله واحد فمن كان منكم يرجو لقاء الله فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً - ١١١ الكهف » .

ودخل رجل على رسول الله ، فارتجف من هيئته ، فربت على كتفه في حنان وقال : « هوّن عليك ، أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » .

(لعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم) . قال المفسرون : نهى داود بني إسرائيل عن صيد الحيتان يوم السبت بوحى من الله ، ولما عتوا عن أمره لعنهم ، ودعا عليهم ، فصاروا قردة . أما عيسى فقد طلب منه خمسة آلاف رجل أن ينزل عليهم مائدة من السماء ، فبأكلوا منها ، ويؤمنوا به ، ولما نزلت أكلوا ونكلوا ، فقال عيسى : اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت .

ولا شيء في الآية يوصى إلى هذه التفاصيل ، والمعنى الظاهر أن داود وعيسى لعنا من كفر من بني إسرائيل (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) . وسكت الله سبحانه عن نوع العصيان والاعتداء ، ولم يسكت عنه جهلاً ولا نسياناً ، ونحن نسكت عما سكت الله عنه ، وفي الوقت نفسه نؤمن بأن لعنة الله وتقمته نصيب كل من عصى واعتدى ، سواء أكان إسرائيلياً ، أو هاشمياً .

(كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) . تشعر هذه الآية بأن عمل المنكر لم يكن عملاً فردياً في المجتمع اليهودي ، وإنما كان عمل الجماعة كلها ، وإن المنكر قد تفشى بينهم ، حتى صار عادة من عاداتهم المألوفة التي اصطلاح عليها الكبير والصغير ، ولذا لم يوجد فيهم من يستنكر المنكر ، وينهى عنه . وعن صحيح مسلم البخاري أن رسول الله قال : « لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القلدة بالقلدة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فن ؟ » القلدة إحدى ريش السهم .

(نرى كثيراً منهم يتولون الدين كفروا) . ضمير منهم يعود إلى اليهود ، والمراد بالدين كفروا - هنا - مشركو العرب ، وكان كثير من اليهود يفتنون مع المشركين ضد النبي (ص) ، ويحرضونهم عليه ، بل كانوا أشد منهم عداوة

له ، مع ان النبي (ص) يؤمن بالله ، وبنبوة موسى (ع) ، وما أنزل اليه من ربه، والمشركون يعبدون الأوثان، ولا يؤمنون بموسى، ولا بكتاب من كتب الله، فكان الأولى باليهود ، وهذه هي الحال ، أن يقفوا مع المؤمنين ضد الوثنيين ، لا مع الوثنيين ضد المؤمنين .

ولكن اليهود كانوا وما زالوا يعملون على أساس الربح والتجارة، لا على أساس الدين، كان يهود المدينة يسيطرون على التجارة الداخلية ، ومشركو العرب يسيطرون على التجارة الخارجية ، فعمل النبي على تحرير الناس من السيطرتين ، فالتقت مصلحة اليهود مع مصلحة المشركين فتكاتفوا معهم وتضامنوا لحسد المؤمنين ، تماماً كما التقت اليوم مصلحة اليهود مع مصالح أرباب الشركات الاستثمارية من المسيحيين ضد الشعوب والمستضعفين .. وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٥١ من هذه السورة .

(لبش ما قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون). هذه نتيجة فسادهم واعتدائهم ، سخطه وعذابه ، وكل امرئ مجزي بما أسلف، وقادم على ما قدم ، مسلماً كان أو مشركاً .

(ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي - موسى - وما أنزل اليه ما انخلوهم أولياء) . ذكر سبحانه في الآية السابقة أن اليهود، أو الكثير منهم كانوا يتولون المشركين ، ويؤلبونهم على المسلمين ، مع ان المسلمين أقرب اليهم ديناً من المشركين . ثم بين سبحانه في هذه الآية ان أولئك اليهود لم يؤمنوا بالله ، ولا بموسى ، ولا بما أنزل في التوراة كما يدعون ، ولو صدقوا في دعوهم ما انخلوا المشركين أولياء من دون المؤمنين ، لأن ذلك محرم في شريعة التوراة ، (ولكن كثيراً منهم فاسقون) . أي ان المسألة عندهم ليست مسألة دين وعقيدة ، وإنما هي مسألة مصلحة ومنفعة ، كما قدمنا .

الجزء السابع

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ
مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ
إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ
يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ* وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا
جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ*
فَأَنذَرَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ*

الكلمة :

الفرق بين القسيس والراهب ان القسيس من أهل العلم يدين النصارى وكتبهم.
والراهب المنقطع في دير أو صومعة للعبادة ، مع الزهد بالزواج والولد وسائر
ملذات الدنيا .

الإعرا ب :

عداوة تميز ، ومثلها مودة . واليهود مفعول ثان لتجدن . وجملة تفيض
حال من أعينهم ، ولا يصح أن تكون مفعولا ثانيا ل ترى ، لأن ترى هنا من

رؤية العين لا تعمل إلا في مفعول واحد . وما لنا مبتدأ وخبر . وجملة لا تؤمن حال من ضمير الخبر المحذوف الذي تعلق (لنا) به . وما جاءنا (ما) في محل جر عطفاً على لفظ الجلالة . والمصدر المنسبك من أن يدخلنا مجرور بفي محذوفة ، أي في أن يدخلنا ، والمجرور متعلق بنطمع .

المعنى :

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) . أي إن اليهود والمشركين أشد الناس عداوة للمسلمين .. وكثيراً ما يستشهد بهذه الآية على أن دين النصارى أقرب إلى الإسلام من دين اليهود .. وهذا خطأ إن أريد دين اليهود والنصارى قبل التحريف ، لأن الدين عند الله وأنبياؤه واحد من حيث العقيدة وأصولها ، وإن أريد دينها بعد التحريف فهذا فيه سواء : « ان الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم - ١٩ آل عمران » .

والصحيح ان عداوة اليهود والمشركين تتصل اتصالاً وثيقاً بالتصادم بين طبيعة الدعوة الإسلامية ، وطبيعة النظام الذي كان سائداً في جزيرة العرب أول البعثة .. كان هذا النظام يقوم على أساس التسابق لاقتناء المال والعبود عن طريق السلب والنهب ، والربا والغش ، وما إنبه من أسباب القهر والمكر ، وقد انعكست طبيعة هذا النظام على الكبار من مشركي مكة الذين كانوا يسيطرون على التجارة الخارجية ، كما انعكست على زعماء اليهود في المدينة الذين كانوا يسيطرون على الصناعة والتجارة الداخلية .

وانطلقت دعوة محمد (ص) تنادي بالعدل ، ونرفض الظلم والاستغلال بشقي صورته وأشكاله ، وتصدت للمستغلين من اليهود والمشركين بالذات ، وعلى هذا الصعيد التقت مصلحة الطرفين ، وتحالفوا على ما بينها من التباعد في الدين والعقيدة ، تحالفوا وتكاتفوا بدأ واحدة على حرب محمد (ص) العدو المشترك .. وبهذا نجد تفسير قوله تعالى: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) .

وبتعبير أوضح ان عداوة اليهود والمشركين للمسلمين كانت بدافع دنيوي ، لا بدافع ديني ، ولكن تستر اليهود باسم الدين رياءً ونفاقاً ، تماماً كما يفعل اليوم أصحاب الكسب غير المشروع .. هذا ، إلى أن كلاً من اليهود والمشركين يشتركون في العصبية الجنسية ، والحمية القومية .. ولكن مشركي العرب كانوا على جاهليتهم أرق قلباً ، وأكرم بدأ ، وأكثر حرية في الفكر ، ومن هنا آمن أكثرهم برسول الله (ص) ، وما آمن به من اليهود إلا قليل .

من هم أقرب مودة للمسلمين ؟

(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) . يتخذ البعض من هذه الآية وما بعدها مادة للتحمية بأن القرآن الكريم يرجع أحد المعسكرين المتطاحنين - في أيامنا هذه - على المعسكر الآخر .. وهذا ما يدعونا إلى أن نشرح هذه الآيات الأربع ، ونوضحها بما لا يترك مجالاً لاستغلال الانتهازيين والمتحرفين .

ان من تأمل هذه الآيات لا يعثره أدنى ريب بأنها متكاملة يتم بعضها بعضاً ، وانه لا يصح بحال أن تُفسر واحدة منها مستقلة عن أخواتها ، وانها صريحة واضحة في ان الله سبحانه لم يفاضل بين النصارى على وجه العموم ، وبين غيرهم من الطوائف في البعد أو القرب من المسلمين ، وإنما أراد سبحانه فئة خاصة من النصارى بدليل انه تعالى لم يقف عند القول : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون) بل عقبه بقوله :

(وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) . ومعنى هذا ان من النصارى من عرفوا الاسلام ، ودخلوا فيه طوعاً ، وعن قناعة وإيمان ، والتاريخ يثبت ذلك ، كما شهد التاريخ أيضاً بالأحقاد الصليبية على الإسلام والمسلمين ، وبإبادتهم من الأندلس ، وبفظائع الايطاليين في طرابلس الغرب ، والفرنسيين في الجزائر وتونس والمغرب وسورية ، وبفظائع الانكليز في مصر والعراق والسودان وغيرها .. واليوم تتحالف الولايات المتحدة مع اليهود على إبادة شعب فلسطين، وتسليح هؤلاء

القراصنة بأحدث الأسلحة فيعتدون، ثم يزعمون أنهم المعتدى عليهم فتدعم الولايات المتحدة هذا الزعم ، وتذب عنه بحماس في مجلس الأمن وهيئة الأمم ، ويهاجم اليهود وبيطشون ، ثم يدعون أنهم معرضون للبطش والمهجوم ، وتقول الولايات المتحدة : نعم هذا هو الصدق والعدل .. فهل بعد هذا ، وكثير غير هذا يقال : ان النصارى ، كل النصارى أقرب الناس مودة للمسلمين ؟ ان مثل هذا لا يفوه به إلا جاهل أو مضلل ، ثم ماذا يصنع هذا المضلل بقوله تعالى : (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) . ان الحق الذي جاءهم وآمنوا به هو الذي بشر به عيسى : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد - ٦ الصف ه . » ويؤكد هذا ، وينفي عنه كل ريب قوله تعالى بلا فاصل : (فأناهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) . فشهادة الله لهذه الفئة من النصارى بالاحسان وجزاؤها بالجنات - دليل قاطع على اسلامها ، وأنها هي وحدها المقصودة بوصف الاحسان والثواب عليه .

أما النصارى الذين أنكروا الحق بعد أن عرفوه ، أو أعرضوا عنه ، دون أن ينظروا إلى دلائله وبياناته ، أما هؤلاء فقد هددهم الله سبحانه وتوعدهم بقوله : (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) . وتساءل : ان قوله : (والذين كفروا وكذبوا الخ) يشمل كل من كفر وكذب فما هو وجه التخصيص بالنصارى ؟ .

الجواب : ان سياق الكلام يدل على ان الله سبحانه بعد أن وعد من آمن من النصارى بالجنة توعد من أصر على الكفر منهم بالنار ، وأطلق اللفظ ليشمل التهديد كل من خالف الحق وعانده ، وهذا لا يتنافى مع ما قلناه .

والخلاصة ان هذه الآيات صريحة في ان المقصود منها فئة خاصة من النصارى وهم الذين عرفوا الحق ، وآسوا به ، وان الله سبحانه قد أدخلهم الجنة بسبب إيمانهم وصالح أعمالهم ، وإذا افترضنا - جدلاً - ان قوله تعالى : (ولتجدن أقربهم مودة الخ) يشمل كل من قالوا إنا نصارى ، إذا افترضنا هذا فيجب أن نصرف الآية عن ظاهرها ، ونخصصها بمن آمن منهم لأمرين :

الأول : إن الله سبحانه ذكر في العديد من آياته أن النصارى جعلوا لله

الجزء السابع

شركاء ، وكنتموا اسم محمد (ص) عن علم ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم آلهة من دون الله ، ثم نهى جل ثناؤه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » . وإذا عطفنا هذه الآية وما إليها على قوله : (ولتجدن أقربهم مودة) يكون المعنى ان النصارى منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ، كما جاء في الآية ٦٧ من سورة المائدة .

الثاني : إن أهل التفاسير قالوا : إن الآيات التي نحن بصددنا نزلت في النجاشي ملك الحبشة ، وكان نصرانياً ، لأن النبي (ص) لما رأى ما حل بأصحابه من أذى المشركين في بدء الدعوة أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، وقال لهم : إن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، فذهبوا إليه ، وكان من بينهم جعفر بن أبي طالب ، فوجدوا عند النجاشي الأمان ، وحسن الجوار ، وكان ذلك في السنة الخامسة من مبعث الرسول (ص) .

وقد تواترت الأخبار ان النجاشي وبطافته من رجال الدين والدنيا أسلموا على يد جعفر بن أبي طالب بعد أن تلا عليهم آيات من الذكر الحكيم ، وذكر محاسن الإسلام . وإن أعينهم فاضت من الدمع عندما سمعوا آيات الله .

وبعد ، فإن من يستشهد بقوله تعالى : (ولتجدن أقربهم مودة) على أن النصرانية والنصارى بوجه عام أقرب من غيرهم إلى الإسلام والمسلمين ، ويسكت عن الآيات المثمة لهذه الآية ، ان من يفعل هذا فهو جاهل بكتاب الله ، أو مراءٍ يتزلف إلى النصارى على حساب الإسلام والقرآن ، أو خائن بسم أفكار السذج من المسلمين ليصدقوا مزاعم أعداء الدين الذين يتاصرون إسرائيل ويباركون علوانها على العرب والمسلمين .

لا تحرموا الطيبات الآية ٨٧ - ٨٨ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ *

الإعراب :

حلالاً حال من (ما) ، أو صفة لمفعول مطلق محذوف، أي رزقاً حلالاً .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) . قالوا : إن هذه الآية نزلت في قوم من الصحابة غلب عليهم الخوف من الله ، فحرموا على أنفسهم النساء وطيبات الطعام واللباس ، وانقطعوا إلى قيام الليل ، وصيام النهار . فدعاهم رسول الله (ص) وتلا عليهم الآية ، وقال : أما أنا فأقوم وأناام ، وأصوم وأفطر ، وآتي النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني . وقوله تعالى : (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) يشعر بأن تحريم الحلال ، تماماً كتحليل الحرام ، كل منها ظلم واعتداء .

(وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً) . تقدم تفسيره في الآية ١٦٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٨ .

اللغو في الإيمان الآية ٨٩ :

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ
الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ

أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ .
ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيَّمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *

اللغة :

اللفو في اللغة ما لا يعتد به ، ولغو اليمين الخلف من غير قصد ، كما لو سبق اللسان بقول : لا والله ، وبلى والله . وعقد الإيمان قصدها . والكفارة من الكفر بفتح الكاف ، وهو السر والتغطية ، ثم استعملت الكفارة في الأعمال التي تكفر الذنوب ، أي تغطيها وتخفيها . والمراد بالطعام الأوسط الأغلب من المأكول .

الإعراب :

الضمير في كفارته يعود إلى (ما) في قوله (بما عقدتم الإيمان) . وكذلك (الكاف) بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي يبين الله لكم نبيانا مثل ذلك ، وذلك مجرور بالاضافة .

المعنى :

(لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) . بيمين اللغو هي ان ينطلق اللسان بها من غير قصد ، مثل قولك : لا والله . لمن سألك : هل رأيت فلاناً ؟ . أو قولك : بلى والله . لمن قال لك : لا تريد كذا وكيت .. وهذه لا عقاب عليها ، ولا كفارة لها ان خالفت الواقع لقوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) . ولازم ذلك ان قائلها لا يعد كاذباً فيها ، وليس لأحد أن يقول : حلفت بالله

سورة المائدة

كاذباً إذا تبين العكس . وبكلمة ان هذه لا يترتب عليها شيء من آثار اليمين لأنها ليست منها في شيء إلا في الصورة ، ومع ذلك فإن الأولى تركها مع التنبيه وعدم الغفلة .

(ولكن بؤاخذكم الله بما عقدتم الأيمان) . أي ان اليمين الشرعية التي يجب الوفاء بها ، وبؤاخذ الخالف على حثها هي التي يحلفها البالغ العاقل عن قصد وتصميم ، واردة واختيار .

واتفقوا على ان اليمين تتم وتنعقد إذا كان الحلف بالله ، أو باسم من أسمائه الحسنى ، كالخالق والرازق . وقال الشيعة الإمامية وأبو حنيفة : لا تنعقد اليمين بالمصحف والنبي والكعبة ، وما إليها ، لحديث : « من كان منكم حالفاً فليحلف بالله أو ليذر » . وقال الشافعي ومالك وابن حنبل : تنعقد بالمصحف . وتفرّد ابن حنبل بأنها تنعقد بالنبي أيضاً .

(فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) . إذا حلف وحنث ، أي فعل ما حلف على تركه ، أو ترك ما حلف على فعله ، إذا كان كذلك وجبت عليه الكفارة غيراً بين خصال ثلاث :

الأولى : أن يطعم عشرة مساكين وجبة واحدة لكل واحد بالجمع بينهم ، أو التفريق ، على أن تكون الوجبة من الطعام الغالب الذي يأكله هو وأهله ، ويجوز أن يعطي المسكين مداً من الطعام بدلاً من الوجبة ، والمراد بالمسكين الفقير الذي تحمل له الزكاة ، والمد أكثر من ٨٠٠ غرام بقليل .

الثانية : أن يكسو عشرة مساكين ، ويجزي كل ما يسمي كسوة في العرف ، لأن الشرع ورد بها مطلقاً ، فتحمل على المعنى المعروف من غير فرق بين الجديد والعتيق ، ما لم يكن الثوب بالياً أو ممزقاً .

الثالثة : أن يعتق عبداً ، ولا عبيد اليوم .

(فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) . أي فإن عجز عن الحصول الثلاث المتقدمة صام ثلاثة أيام ، وإن عجز عن الصوم استغفر الله ورجا عفوّه . (ذلك كفارة إيمانكم إذا حلقتن) . ذلك إشارة إلى الطعام والكسوة والعتيق والصوم بعد العجز

الجزء السابع

عن الخصال الثلاث ، وبديهة إنما تجب على النحو المتقدم إذا حلف وحث .
(واحفظوا إيمانكم) من الابتذال ، فإن لليمين بالله حرمتها وعظمتها ، قال تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم - ٢٤٢ البقرة » . وفي الحديث : « إن نبي الله موسى أمر أن لا يحلفوا بالله كاذبين ، وأنا آمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين ولا صادقين » .

(كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) . قال الرازي : « المعنى ظاهر » . أجل ، ولكن الله سبحانه أراد أن ينبهنا إلى نعمة المعرفة بأحكامه ، كيلا تصبر عن غيرها .

الخمر والميسر الآية ٩٠ - ٩٢ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ
مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ
يُوَفِّعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ
ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَبِهُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرُّسُلَ وَآحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ *

اللفظ :

الميسر القمار . والأنصاب الأصنام . والأزلام قطع من الخشب على هيئة السهام
كان أهل الجاهلية يستقسمون بها ، وتقدم شرحها في الآية ٣ من هذه السورة .
والرجس الشيء المستقذر .

الإعراب :

من عمل الشيطان متعلق بمحذوف صفة لرجس . وفي الخمر والميسر متعلق بيوقع . وفهل أنتم متتهون أمر من صيغة الاستفهام ، وهو أبلغ من الأمر بصيغة أفعل .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) . تكلمنا مفصلاً عن تحريم الخمر والقمار عند تفسير الآية ٢١٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٨ . وعن الأنصاب والأزلام عند تفسير الآية ٣ من هذه السورة : « وما ذبح على النصب وان تستقسموا بالأزلام » . ونسب سبحانه شرب الخمر ، ولعب القمار ، وعبادة الأصنام ، والاستقسام بالأزلام ، نسب هذه إلى الشيطان لأنه يحبذها ويفري بها . (فاجتنبوه لعلكم تفلحون) . ضمير اجتنبوه يعود إلى الرجس ، وهو أمر بالاجتناب ، والأمر يدل على الوجوب ، بخاصة عند بيان السبب ، وقد بين هنا ان سبب وجوب الاجتناب هو الفلاح .. ولو لم يكن من دليل على تحريم الخمر إلا مساواتها مع عبادة الأصنام لكفى . فكيف إذا عطفنا عليها الآية ٢١٩ من سورة البقرة ، والآية ٣٢ من الاعراف ، والأحاديث المتواترة ، وإجماع المسلمين من عهد الرسول (ص) إلى اليوم ، وإلى آخر يوم .

(إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) . بعد أن أكد سبحانه تحريم الخمر والميسر ، وقرنها بعبادة الأصنام ، وجعلها رجساً من عدو الانسان ، وبين ان اجتنابها سبيل إلى الفلاح - بعد هذا أشار جل ثناؤه الى أن فيها مفسدين : احدهما اجتماعية ، وهي قطع الصلات ، وإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس . وثانيها دينية ، وهي الصد عن ذكر الله وعبادته ، ثم طلب سبحانه الانتهاء عن الخمر والميسر بأبلغ تعبير : (فهل أنتم متتهون) . والإسلام يحرص كل الحرص على أن يصل

الجزء السابع

الانسان بخالفه وبعجمته ، وأن يكون عند الله والناس في مكان الرضا والتكريم .
(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) في ترك الخمر والميسر وغيرهما من المحرمات
(واحذروا) ما يصيبكم من عذاب الله إذا خالفتم أمره وأمر رسوله . قال
الإمام علي (ع) : انصح الناس لنفسه أطوعهم لربه ، وأغشهم لنفسه أعصاهم
لربه . (فإن توليتم فاعلموا انما على الرسول البلاغ المبين) . وقد أداه كاملاً ،
وأقام الحجة على الناس ، وخرج عن عهدة التبليغ ، ومن خالف فهو وحده
المسؤول .

اتقوا وآمنوا الآية ٩٣ :

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا
وَأَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

المعنى :

اتفق المفسرون على انه لما نزل تحريم الخمر قال بعض الصحابة لرسول
الله (ص) : كيف باخواننا الذين ماتوا ، وقد شربوها ؟ فترلت هذه الآية ،
وهي تدل بمجموعها على أن من شرب الخمرة قبل بيان حكمها فلا بأس عليه
إذا كان من المؤمنين المتقين ، ومن هنا اتفق الفقهاء على ان كل شيء مطلق ،
حتى يرد فيه نهي .

وبعد أن اتفق المفسرون على أن هذا المعنى هو المقصود من الآية ، اختلفوا
في السبب الموجب لتكرار التقوى ثلاث مرات ، حيث ذكرت أولاً مع الايمان
والعمل الصالح ، وثانياً مع الايمان فقط ، وثالثاً مع الإحسان .. ونقل الرازي

سورة المائدة

في ذلك خمسة أقوال . وقال صاحب مجمع البيان : المراد بالانتقاء الأول انتقاء شرب الخمر بعد تحريمها ، وبالانتقاء الثاني الدوام على ذلك ، وبالانتقاء الثالث انتقاء جميع المعاصي مع ضم الإحسان . وقال بعض المفسرين الجلد : لم نسترح نفسي لشيء من التفاسير ، ولم يفتح الله عليّ بشيء .

والذي نحتمله ، والله أعلم ، ان الغرض من هذا التكرار أن يبين الله سبحانه ان المتضي حقاً هو من اتقى الله في جميع أطواره وحالاته ، شاباً وكهلاً وشيخاً ، وفي السراء والضراء ، وان من مات على ذلك فهو في أمن وأمان .

لا صيد في الحرم ولا مع الاحرام الآية ٩٤ - ٩٦ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ لَكُمُ اللَّهُ شَيْءٌ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَفَّةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *

اللغة :

الابتلاء الاختبار . والغيب ما غاب عن الحواس الخمس . والحرم جمع حرام للذكر والأنثى ، تقول : رجل حرام ، وامرأة حرام بمعنى محرم ومحرمة . والنعم الإبل والبقر والضأن . والعدل بفتح العين المساوي للشيء قيمة من غير جنسه ، وبكسرها المساوي له مثلاً ، أي من جنسه . والوبال الثقيل المكروه ، ومنه طعام وبيل وماء وبيل . والبحر الماء الكثير بجرأ كان أو نهراً أو غديراً أو بئراً أو بركة . والسيارة جماعة المسافرين ..

الإعراب :

ليعلم منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور بها ومتعلق بيلوكم . وبالغيب في موضع الحال من فاعل يخافه ، أي يخاف الله حال غيابه عن الناس . وأنتم حرم الجملة حال من واو لا تقتلوا . وفجزاء مبتدأ ، وخبره محذوف ، أي فعله جزاء . ومثل صفة لجزاء . وهدياً حال من الضمير في (به) . وبالف صفة لهدى . وكفارة عطف على جزاء . وطعام بدل من كفارة . وصيماً تمييز من عدل ذلك . والمصدر المنسبك من أن يسدوق مجرور باللام ، ومتعلق بصيام . ومثاعاً مفعول لأجله لأحل لكم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم) . المراد بشيء من الصيد نوع منه ، وهو صيد البر فقط ، وقوله : تناله أيديكم ورماحكم كناية عن صيده بلا مشقة ، والمعنى إن الله سبحانه حرّم صيد البر في الحرم ، وحال الأحرام ، وهو سهل تناول ، تماماً كما حرّم على بني إسرائيل صيد الحيتان يوم السبت ، وهي بمرأى منهم (ليعلم الله من يخافه بالغيب) أي إن الله ابتلاكم بتحريم الصيد في هذه الحال ليميز بين من يخافه ويطيعه في السر

كما يطيعه في العلانية ، وبين من يتظاهر بطاعته والخوف منه أمام الناس ، ويعصيه في الخفاء (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) أي من خالف أمر الله بالصيد بعد هذا البيان وإقامة الحجة - استحق عذاب الله وعقابه .

معنى الاختيار من الله :

وتسأل : إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فما هو الوجه لقوله تعالى : ليلوكنكم الله . وقوله : ليعلم الله من يخافه ؟

الجواب : إن الله سبحانه لا يختبر عبده ليعلم منه ما لم يكن يعلم .. كلا ، فإنه أعلم به من نفسه ، وإنما يختبره لأمر :

« منها » : أن يترجم العبد ما هو كامن في نفسه إلى عمل ملموس ، حيث اقتضت حكمته جل ثناؤه أن لا يحاسب الناس على ما يعلمه منهم ، ولا على ما هو كامن في نفوسهم من القوى والفرائض ، وإنما يحاسبهم على ما يقع منهم من أعمال .. إن الفرائض النفسية من حيث هي لا تستدعي حساباً ولا عقاباً ، ما دامت كامنة في باطن الانسان ، ولا يظهر لها أثر يرى بالعين ، أو يسمع بالأذن . قال الإمام علي (ع) : يقول الله : « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة » . ومعنى ذلك إنه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخطين لرزقه والراضين بقسيمه ، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب .

و « منها » : أن يتميز الخبيث من الطيب ، وتظهر حقيقته أمام الناس ، فيعاملونه بما يستحق : « ونيمحس الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ١٤٠ آل عمران » . وكثيراً ما يقع هذا في حياة الناس - مثلاً - أنت تعلم ان زيدا من أهل العلم والمعرفة ، وصادف وجوده بين قوم لا يعرفون منه ما تعرف ، وأردت أن يعلموا مكانه من الوعي والعلم ، فتسأله بمحضر منهم ليتكلم ويعرف .. أو تعلم انه سخييف جاهل ، وهم يظنون انه عالم حكيم ، فتمثل نفس الدور لتظهر لهم سخيفه وجهله .

الجزء السابع

و « منها » : إن كثيراً من الناس يجهلون حقيقة أنفسهم ، ويقولون : لو سمحت لنا الظروف لكنا كذا وكيت ، فيمنحهم الله الاستطاعة ليلقي الحجّة عليهم ، ويُعرفهم بحقيقتهم وواقعهم : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون - ٧٧ التوبة » .

وطلب بنو إسرائيل من موسى (ع) أن يجعل لهم يوماً للراحة والعبادة ، فجعل الله لهم يوم السبت ، وأخذ عليهم العهد أن لا يفعلوا فيه شيئاً ، كما طلبوا .. ولكن ساق اليهم الحيتان في هذا اليوم ، حتى إذا ذهب السبت اخضت الحيتان ، فاحتال بنو إسرائيل لصيدها ونقضوا العهد .

وعلى الوجه الأول ، أي ظهور الأفعال التي بها يُستحق الثواب والعقاب ، على هذا يحمل قوله تعالى : ليلونكم الله .. وقوله : ليعلم الله من يخافه .. وقوله : وليعلم الله الذين آمنوا ، ونحو هذه من الآيات .

(يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) . اتفق الفقهاء على أن الصيد في الحرم لا يجوز للمحل ولا للمحرم على السواء ، أما خارج الحرم فيجوز للمحل ، دون المحرم ، ولو ذبح المحرم الصيد يصير ميتة ، ويحرم أكله على جميع الناس .

وجاء في كتاب فقه السنة للسيد سابق : أن حد الحرم المكي من جهة الشمال مكان يدعى « التنعيم » وبينه وبين مكة ٦ كيلومترات . ومن الجنوب « ارضاء » وبينها وبين مكة ١٢ كيلومتراً . ومن جهة الشرق « الجعرانة » وبينها وبين مكة ١٥ كيلومتراً .

(ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً) . إذا قتل المحرم أو المحل في الحرم شيئاً من الصيد البري ، وكان للمقتول مثلٌ من الأنعام الأهلية الثلاثة ، وهي الإبل والبقر والضأن ، أن كان الأمر كذلك تخير القاتل بين أن يذبح مثل المقتول ويتصدق به ، وبين أن يقوّم المثل بدراهم يشتري بها طعاماً ، ثم يتصدق بالطعام على المساكين لكل مسكين مدان ، أي ١٦٠٠ غرام

سورة المائدة

على التقريب ، وقيل : مد ، وبين أن يصوم يوماً عن كل مدتين ، أو عن كل مد على قول . ومعنى قوله : « يحكم به ذوا عدل » أن يشهد اثنان من أهل العدالة بأن هذا الحيوان الأهلي هو مثل الحيوان الوحشي المقتول . ومعنى « هدياً بالغ الكعبة » أن يذبح المائل في جوار الكعبة ، ويفرق لحمه على المساكين . وإن لم يوجد المائل من النعم قوم المائل الأهلي من غير النعم ، واشترى بشمه طعاماً ، وتصدق به ، أو صام على التفصيل المتقدم .

(ليدوق وبال أمره) أن الصيد في الحرم ، أو في حال الاحرام هناك لحرمات الله فعوقب الصائد عليه بالكفارة المذكورة ، ومعنى وبال أمره عاقبة فعله السيئ (عفا الله عما سلف) من الصيد قبل التحريم (ومن عاد) إلى الصيد (فينتقم الله منه) لاصراره على الذنب .

(أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيرة) . الضمير في طعامه يعود إلى البحر ، لأن فيه ما يؤكل غير الصيد ، ويجوز أن يعود إلى الصيد ، ويكون المعنى أن الله سبحانه أحل صيده ، وأحل أكله أيضاً .

والمراد بالسيارة المسافرين غير المحرمين (وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً) . أي أن صيد البحر حلال مطلقاً ، أما صيد البر فهو حلال في غير الحرم ، وغير حال الاحرام . قال الإمام جعفر الصادق (ع) : لا تستحل شيئاً من الصيد - أي البري - وأنت حرّام ، ولا أنت حلال في الحرم ، ولا تدلن عليه محلاً ، ولا محرماً ، فيصطاده ، ولا تشر إليه ، فيستحل من أجلك ، فإن فيه فداء لمن تعمد . (واتقوا الله الذي إليه تحشرون) . أي اجتهدوا في طاعته وطلب مرضاته ، ليجزيكم يوم الحشر بالإحسان احساناً .

البيت الحرام الآية ٩٧ - ٩٩ :

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * إَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَنْبَاءُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا
تَكْتُمُونَ *

اللغة :

القيام والقوام بمعنى واحد وفعله قام ، والمراد به هنا تأدية العبادة ومناسك
الحج . والهدي ما يُذبح في الحرم من الأنعام . والقلائد أي ذوات القلائد لأنهم
كانوا يقلدون الهدي بما يدل عليه .

الإعراب :

البيت الحرام بدل من الكعبة . وقياماً مفعول ثانٍ لجمعل . وذلك مبتدأ ،
والمصدر المنسبك من لتعلموا متعلق بمحذوف خبر ، ويجوز أن يكون ذلك مفعولاً
لفعل محذوف ، أي فعلنا ذلك من أجل اعلامكم .

المعنى :

(وجعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد).
قياماً للناس ، أي عملاً للعبادة ومناسك الحج ، والشهر الحرام جنس يشمل الأشهر
الأربعة ، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وقد حرم سبحانه القتال
فيها وفي حرمه إلا دفاعاً عن النفس أو المال ، قال تعالى : « ولا تقتلواهم عند
المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه - ١٩٠ البقرة » . وقال : « الشهر الحرام بالشهر
الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم
- ١٩٣ البقرة » .

والهدي ما يُهْدَى إلى الكعبة من الأنعام ، والقلائد الهدي الذي وضعت في عنقه علامة تدل على انه للكعبة ، كي لا يتعرض أحد له . وعلى هذا يكون عطف القلائد على الهدي من باب عطف الخاص على العام ، والقصد من ذكر الهدي مع البيت الحرام والأشهر الحرم ان الهدي يجب أن يكون آمناً هو ومن يسوقه . لأنه قاصد الحرم الشريف ، بل ان الله سبحانه قد أَمَّن الطيور والحيوانات ، حرمة ما دامت في حرمة إلا الخدأة - نوع من الطير - والغراب والفأر والعقرب والكلب العقور .. وكل مؤذٍ في رأينا .

(ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وان الله بكل شيء عليم) . بعد أن بيّن سبحانه حرمة الكعبة والأشهر الحرم والهدي أشار إلى أن الحكمة من هذا التشريع ان يعلم الناس ان الله يعلم تفاصيل الأمور في الأرض والسماء ، ومنها التي تصلح الناس في دينهم وديارهم ، وأية مصلحة أعظم من تأمين الانسان على حياته وماله ، ولو في وقت من الأوقات ، أو في زمن من الأزمان .. وقد رأينا الدول الكبرى المتطاحنة في هذا العصر تنفق فيها بينها على أن تكون بعض البلاد منطقة محايدة ، لا يجوز للدول المتنازعة أن تشاركها في أحلافها العسكرية ، ولا أن تتخذ من أرضها مقراً لقواعدها الحربية ، ولا ممراً لجيوشها المقاتلة .

(اعلموا ان الله شديد العقاب وان الله غفور رحيم) . قرن سبحانه العذاب بالرحمة والمغفرة ليكون العبد خائفاً من نعمته ، راجياً لرحمته . لأنه إذا خاف ابتعد عن المعصية ، وإذا رجا اجتهد في الطاعة . قال الرازي - ونعم ما قال - : « ذكر سبحانه أنه شديد العقاب ، ثم عقب بوصف الرحمة والمغفرة ، وهذا تنبيه على دققة ، وهي ان ابتداء الخلق والايجاد كان لأجل الرحمة ، والظاهر ان الخلق لا يكون الا على الرحمة » .. هذا هو الصحيح .

(وما على الرسول الا البلاغ) ولا يُطلب منه أكثر من ذلك ، حيث لا عذر بعد البلاغ لمن أهمل وفرط ، أما الحساب والعقاب فعلى الله وحده : « فلنمّا عليك البلاغ وعلينا الحساب - ٤١ الرعد » . (والله يعلم ما تبدون) من الأقوال والأفعال (وما تكتمون) . هذا تهديد لمن يسكت عن الحق ، وبالأولى لمن يتاجر به مستتراً باسم الدين والوطنية .

كثرة الخبيث الآية ١٠٠ :

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *

المعنى :

هذه الآية ترادف قوله تعالى : « لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون - ٢٠ الحشر » . وكثرة الخبيث ما يملكه من جاه ومال . والعاقلة لا يستوي لديه الخبيث والطيب ، وإن كثر ماله ، واتسع جاهه ، لأن الجاه والمال لا يجعلان الخبيث طيباً ، ولا الفقر وخول الذكر يجعلان الطيب خبيثاً .

والرجل الخبيث في مقياس الدين من عصى أحكام الله في كتابه وسنة نبيه ، والخبيث في عرف الناس من يخافون من شره ، ولا يأمنونه على أمر من أمورهم ، ولا يصدقونه في قول أو فعل .. وبدية أن من كانت هذه صفاته فهو خبيث عند الله أيضاً ، قال رسول الله : أشرف الإيمان أن يأمنك الناس . أما الطيب فعلى عكس الخبيث في جميع أوصافه .

هل الرزق صدقة أو قدر ؟

وتسأل : إذا كان الخبيث مفضوباً عليه عند الله ، والطيب مرضياً لديه تعالى ، فلماذا ينجح الخبيث في هذه الحياة ، وينعم بالجاه والثراء ، ويرسب الطيب ، ولا يكاد يتحقق له مطلب ، حتى قال من قال : « هذا الذي ترك الأوهام حائرة » ؟

الجواب : إن للحياة منتناً وقوانين تجري عليها ، ولا تتخطاها بحال ، لأن تصور القوضى في الكون يرفضه الحس والمشاهدة .. وهذه السنن والقوانين من

صنع الله تعالى ، لأنه هو خالق الطبيعة وما فيها . وبدية ان قوانين الطبيعة تأبى أن "تخطر السماء مالا" وصحة وعلماً ، وإنما تأتي هذه وأمثالها من طرقها وأسبابها الطبيعية .. فاعلم من التعلم ، والصحة من الغذاء والوقاية ، والمال من العمل ، فمن تعلم علم ، ومن اتقى أسباب الداء سلم ، ومن انتحر مات ، ومن زرع حصد ، سواء أكان طيباً أم خبيثاً ، مؤمناً أم كافراً ، فالطيبة أو الايمان لا ينبت قحاً ، ولا يشفي داء ، ولا يجعل الجاهل عالماً .. كل هذه وما أشبه تجري على سنن الطبيعة ، وسنن الطبيعة تجري على مشيئة الله ، ما في ذلك ريب ، لأنه هو الذي جعل التعلم سبباً للعلم ، والوقاية سبباً من أسباب الصحة ، والزراعة سبباً للحصاد .. انه خالق كل شيء ، واليه ينتهي كل شيء .

أجل ، ان لكسب المال سبلاً وأبواباً كثيرة ، وقد أحل الله بعضاً ، وحرم بعضاً ، أحل الله سبحانه التجارة والزراعة والصناعة، وحرم الربا والغش والرشوة والسلب والنهب والاحتكار والاتجار بالمبادئ فمن يكسب المال من حله يُنسب كسبه اليه ، لأنه قد جد واجتهد في طلبه ، وأيضاً ينسب إلى الله ، لأنه هو السفي أوجد هذه الأسباب ، وأباحها لكل راغب طيباً كان أو خبيثاً ، أما من يكسب المال من غير حله كالربا والسلب فان كسبه يُنسب إلى كاسبه ، وإلى الأوضاع التي مهدت له ، ولا يُنسب إلى الله ، لأنه تعالى قد حرّم هذه السبل على الطيب والخبيث .

وتقول : هذا صحيح ، ولكنه لا يجيب عن السؤال ، ولا يحل المشكلة .. فلقد رأينا كلاً من الطيب والخبيث يسلك الطريق المشروع للرزق ، ويطلبه من السبل الذي أحله الله ، وأمر به ، ومع ذلك يتسع الرزق على الخبيث، ويضيق على الطيب ، وربما بذل هذا من الجهد أضعاف ما بذله ذاك ، بسل قد يأتي الرزق للخبيث من حيث لا يتوقعه ، ولا يؤمله له استعداداً وجهاده .. ويمتنع عن الطيب من حيث يتوقعه ، ويؤمله له جهاده واستعداده .

الجواب : إن بعض الناس يلجأون في تفسير ذلك إلى الصدفة أو الحظ ، وإن دل هذا على شيء فانما يدل على عجزهم عن التفسير الصحيح ، وإلا لم يلجأوا إلى ما يخطط خبط عشواء ، ويرمي عن غير قصد وتصميم .

الجزء السابع

لذلك نغني نحن الحظ والصدقة من كل المسؤوليات والتبعات .. ونؤمن إيماناً قاطعاً بأن هناك إرادة عليا قد تدخلت لأسباب نجعلها ، لأن العلم فيها وفي أمثاله لا يزال في مراحل طفولته ، وجهل العلم بها لا يعني أنها غير موجودة .. والذي يؤكد إيماننا هذا قوله تعالى : « والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق - ٧١ النحل » . وقوله : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر - ٢٧ الرعد » . وجاءت هذه الآية بنصها الحرفي أحياناً في سورة الإسراء رقم ٣٠ . وفي القصص ٨٢ . وفي العنكبوت ٦٢ . وفي الروم ٣٧ . وفي سبأ ٣٦ و ٣٩ . وفي الزمر ٥٢ . وفي الشورى ١٢ .

ولكن ليس معنى يبسط الرزق ، ويفضل في الرزق، انه تعالى يمطر من السماء مالاً على من يشاء .. كلا ، بل يبسط الرزق من طريقه المعروف المألوف ، ويقدر أيضاً عن هذا الطريق ، فيمهد ويوسع على بعض ، ويجعله عسيراً ضيقاً على البعض الآخر .. ولكن لا علاقة بين الضيق في الرزق، وبين الخيـث ومعضبة الله ، فلقد كان الرسول الأعظم (ص) يربط على بطنه حجر المجاعة ، وقال موسى : « ربي إني لما أنزلت إليّ من خير فقير » .. وأيضاً لا علاقة بين السعة في الرزق ، وبين الطيبة وطاعة الله ، فقد نادى فرعون في قومه : أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم - أي بل - أنا خير من هذا الذي هو مهين - يشير إلى موسى - ولا يكساد بيني، فلولا ألقى عليه اسورة من ذهب - ٥٣ الزخرف .

وعلى هذا ، فن قال أو يقول : إن الله أغنى فلاناً لأنه طيب فانه يتكلم بمنطق فرعون ، ويزن بميزان الشيطان .. لقد شاءت حكمته جل ثناؤه أن يثب على الحسنة ، ويعاقب على السيئة في الدار الباقية ، لا في هذه الدار القانية ، إن هذه دار أعمال ، وتلك لنقاش الحساب عليها .. هذا ، إلى أن كثرة الخبيث قد تكون وبالاً عليه ، وسبباً لشدة عذابه وعقابه : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون - ٣ الحجر » . « يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم - ١٢ محمد » .

والخلاصة ان الرزق يستند الى أمرين : السعي وإرادة الله معاً ، فن ترك

سورة المائدة

السعي عاش كلاً على الناس ، ومن سعى رزقه الله من سعيه ان شاء كثيراً ،
وان شاء قليلاً ، وتكمن هذه الحقيقة في فطرة الانسان ، وعامرسها تلقائياً ،
ودون أن يلتفت اليها .. فالتاجر يسأل الله سبحانه أن يرزقه بروج بضاعته واقبال
الناس عليها ، والفلاح يسأله أن ينزل الغيث على زرعه ، ولا يسأله أن يثبت
له الزرع بلا غيث ، وها أنا أدعو الله لولدي بالتوفيق في دراسته والنجاح في
امتحانه ، ولا أدعوه أن يلهم الجامعة لتقدم له الشهادة بلا دراسة وامتحان ..
وفي الأمثال « من سعى رعى » وربما خاب السعي وطاش السهم .. ومع ذلك
ينبغي لإحكام التخطيط ، ومضاعفة الجهد ، لأن مضاعفة الجهد ، واتقان العمل ،
والصبر على المشاق سبب لمشقة النجاح منه جل وعلا .

لا تسألوا عن أشياء الآية ١٠١ - ١٠٢ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُونَ وَإِنْ
تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ
حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ *

الإعراب :

قال أبو البقاء : الأصل في أشياء عند الخليل وسيبويه شيئاء بهزتين بينها
ألف ، وهي فعلاء من لفظ شيء ، وهزتها الثانية للتأنيث ، وهي مفردة في
اللفظ ، ومعناها الجمع ، مثل قصباء وطرفاء ، ولأجل همزة التأنيث منعت من
الصرف ، ثم ان الهمزة الأولى التي هي لام الكلمة قدمت ، فجعلت قبل الشين
كراهية وجود هزتين بينها ألف ، فصارت أشياء .
ونحن لا نؤمن بالتعليلات النحوية والصرفية ، ولا نقلد أهل التفسير فيما يقولون ..

الجزء السابع

ولكن قد يرغب بعض القراء في معرفة ما قاله النحاة في أشياء ، فروينا له ما روي عنهم .. والصحيح عندنا ان أشياء ممنوعة من الصرف لأنها وردت كذلك في كتاب الله وعلى لسان العرب .. ومن المفيد أن نشر الى أن كلمة شيء تطلق على المذكر والمؤنث ، وانها تجمع أيضاً على أشاوى وأشايا وأشياوات .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم) . ان قوله تعالى : (لا تسألوا) يرمي الى أن بعض الصحابة كانوا يلحفون في الاستفسار عن أمور لا ضرورة لكشفها ، وربما أدى الجواب عنها الى ما يسوء السائلين . وفي رواية : ان رجلاً قال للنبي (ص) : من أبي ؟ قال له : أبوك فلان . فقال آخر : يا رسول الله أين أبي ؟ قال : في النار . فترلت الآية . وفي رواية ثانية : ان النبي قال : كتب الله عليكم الحج ، فحجوا ، فقالوا : أفي كل عام يا رسول الله ؟ فسكت . فأعادوا السؤال ، فقال : لا . ولو قلت : نعم لوجبت . فترلت الآية . وهذه الرواية أرجح من تلك لقوله تعالى :

(وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) . أي لا تتكلفوا السؤال عن أشياء الا بعد أن ينزل فيها القرآن ، ففي ابتداءكم ، واقتضى الأمر الشرح والتوضيح سألتهم النبي (ص) فييدي لكم ما سألتهم عنه . وبهذا يتضح ترجيح رواية السؤال عن الحج في سبب النزول على رواية السؤال عن آباء الصحابة وسلفهم ، لأن القرآن يبتدأ النزول بالعقيدة والشريعة ، ولا يبتدئ بآباء الصحابة وسلفهم . وفي الحديث : « ان الله حدد حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وترك أشياء في غير نسيان ، ولكن رحمة منه بكم فاقبلوها ، ولا تبحثوا عنها » .

(عفا الله عنها) . أي عن مسألكم السابقة ، فلا تعودوا إلى مثلها . وقيل : عفا الله عنها ، أي أمسك وكف عن ذكر الأشياء التي سألتهم عنها ، فكفوا أنتم ، ولا تتكلفوا السؤال عنها ، وكل من التفسيرين محتمل ، لا يآباه ظاهر

سورة المائدة

اللفظ . (والله غفور حلیم) يصفح عن المخطيء إذا رجع عن خطاه .

(قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) . بعد أن نهاهم سبحانه عن السؤال عن أشياء هم في غنى عنها ضرب لهم مثلاً بمن كان قبلهم ، سألوا وشددوا على أنفسهم بالسؤال ، ولما بين الله لهم كرهها وتمردوا فاستحقوا العذاب ، ولو تركوا السؤال لكان خيراً لهم .. وقد أطال المفسرون الكلام في بيان المراد من القوم الذين سألوا ثم أصبحوا كافرين بسبب السؤال ، ولكن الآية اهتمت ولم تبين .. ومع ذلك لنا أن نقول : إن القوم الذين سألوا وكفروا هم بنو إسرائيل لقوله تعالى حكاية عنهم : « فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة - ١٥٢ النساء » .

لا بحيرة ولا سائلة الآية ١٠٣ - ١٠٥ :

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ*

الاعراب :

من بحيرة (من) زائدة ، وبحيرة مفعول جعل التي هي بمعنى شرع .

الجزء السابع

وحسبنا مبتدأ ، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ، أي كافيتنا، والخبر (ما وجدنا) .
وعابكم أنفسكم (عليكم) اسم فعل بمعنى احفظوا ، وأنفسكم مفعول .

المعنى :

(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) . البحيرة بفتح
الباء الناقة المشقوقة الأذن ، وكان أهل الجاهلية يفعلون بها ذلك إذا أنتجت عشرة
أبطن ، وقيل : خمسة ، ويدعونها لا ينتفع بها أحد . والسائبة الناقة ينزلونها
للآلهة ، ويتركونها ترعى حيث تشاء ، لا قيد لها ، ولا راعي عليها ، تماماً
كالبحيرة . والوصيلة الشاة تلد ذكراً وأنثى معاً ، وقد كان من عادتهم إذا
ولدت ذكراً يجعلونه للآلهة ، وإذا ولدت أنثى فهي لهم ، وإذا ولدتهما معاً لم
يذبحوا الذكر ، ويقولون : وصلت أخاها . والحامي الفحل يولد منه عشرة أبطن
فيدعوونه لا يمنع من ماء ولا مرعى ، ويقولون : حى ظهره .

وقد بيّن سبحانه أن ذلك ليس من دينه في شيء ، وإن الفحل والناقة والشاة
يفعلون بها ما يفعلون تبقى على الحل ، كما كانت من قبل ، ولا تحرم بهذه
الأباطيل والأساطير .

(ولكن الدين كفروا بفطرون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) . كان
أهل الجاهلية يعترفون بوجود الخالق بدليل أنهم نسبوا إليه تحريم الحامي والسائبة
والبحيرة والوصيلة ، ومع ذلك فقد نعتهم الله بالكفر ، لأنهم نسبوا إليه التحريم
كذباً وافتراء . وعليه فكل من نسب إلى الله ما لا دليل عليه من كتابه أو سنة
نبيه فهو كافر ، شريطة أن يعتمد النسبة مع علمه بعدم الدليل ، ويسمى هذا
بلسان أهل الشرع بدعة ، وفي الحديث : « كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في
النار » . والحق أن هذا الافتراض بعيد الوقوع ، ومن الذي ينسب إلى الله
حكماً من الأحكام ، مع علمه بعدم الدليل عليه ؟ .. أجل ، قد يظن الشيء
دليلاً ، وما هو بدليل .

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا

عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) . قال الرازي :
« المعنى معلوم ، وهو رد على أصحاب التقليد » . وتكلمنا مفصلاً عن التقليد
عند تفسير الآية ١٧٠ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٩ .

(يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله
مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون) . ذكر الرازي ثمانية أوجه لتفسير هذه
الآية ، وكتب بعض المفسرين الجدد ٣٣ صفحة عند تفسيرها .. والذي دعا
هذين ، وغيرهما من المفسرين إلى التطويل والتأويل هو أن الأمر بالمعروف
واجب ، وظاهر الآية يدل على عدم وجوبه ، وإن على المرء أن يهتم بنفسه
لنفسه ، أما غيرها من الأنفس فصاحبها وحده هو المسؤول عنها، ولا يجب على
أحد رده ولا إرشاده .

والصحيح في تفسير الآية ان على المرء أن يأمر بالمعروف ، فان نفع أمره
فذاك هو المطلوب ، وإلا فقد أدى الأمر ما عليه ، ولا يضره ضلال من ضل ،
والمسؤول بعد الأمر هو الفضل ، وليس الأمر .. وهذا التفسير يؤكد وجوب
الأمر بالمعروف ولا ينفيه .

في آيات الوصية الآية ١٠٦ - ١٠٨ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ
الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ
فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ
بِاللهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ
شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ * فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ
يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ

لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتَيْهَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِلَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ
أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ
أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *

اللفظ :

ضربتم في الأرض سافرتهم . وتحبسونها تمنعونها من الحرب . وارتبتم شككنم
في صدقها . وعثر على الشيء اطلع عليه .

الإعراب :

شهادة مبتدأ ، وخبره اثنان على حذف مضاف ، أي شهادة بينكم شهادة
اثنين . وذوا عدل صفة لاثنين . ومنكم متعلق بمحذوف صفة للعدلين . ولا نشري
به الضمير في (به) يعود الى القسم بالله ، وجملة لا نشري جواب يقسمان بالله .
وجواب ان ارتبتم محذوف ، والتقدير ان ارتبتم فاحبسوها . ولو كان ذا قربي
اسم كان محذوف ، وجواب لو محذوف ، والتقدير ولو كان المشهود له ذا
قربي لم نشتر به ثمنًا . فأخران خبر لمبتدأ محذوف ، أي فشاهدان أخران ،
أو فاعل لفعل محذوف ، أي فليشهد أخران . والأوليان تثنية الأولى بمعنى الأحق
أي الأحقن بالميت ، وهما أي الأوليان فاعل استحق ، وقيل : خبر لمبتدأ
محذوف ، أي هما الأوليان . والمصدر المنسبك من أن يأتوا مجرور بلى محذوفة
متعلق بأدنى . وعلى وجهها متعلق بمحذوف حالاً من الشهادة .

المعنى :

هذه الآيات الثلاث من آيات الاحكام ، وتدخل في باب الوصية والشهادة ،

وفيهما الأحكام التالية :

١ - (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) . يريد جلت عظمته ان من أحس بدنو أجله ، وأراد أن يوصي بمسا أحب استحضر عدلين من المسلمين ، وأشهدهما على وصيته .. وتجدد الإشارة إلى أن الوصية مستحبة ، ولا تجب إلا على من كان عليه حقوق لله أو للناس ، وظهert له دلائل الموت ، وخاف ضياعها من بعده .

٢ - (أو آخران من غيركم ان أنتم ضربتم في الأرض فأصابكم مصيبة الموت تحبسونها من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربي ولا نكنم شهادة الله إننا إذا لمن الآمين) . قال الشيعة الإمامية والحنابلة : إذا أوصى رجل مسلم في السفر ، ولم يكن أحد من المسلمين عنده فله أن يشهد اثنين من أهل الكتاب ، على أن يستحلفا بعد الصلاة بين جمع من الناس لإنهما ما خانا ، ولا كتما ، ولا اشتريا بشهادتهما ولا يقسمها ثمناً قليلاً ، وعندها تقبل شهادتهما كما تقبل من المسلمين ، وتجب عليهما اليمين مع الشك في صدقهما ، أما الآمين فلا يمين عليه . لقوله تعالى : (ان ارتبتم) .

هذا ما أفق به الإمامية والحنابلة معتدين على هذه الآية ، وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي : لا تقبل شهادة غير المسلم على المسلم بحال ، وأولوا الآية بمعنى آخر ، وقال المالكية والشافعية : لا تقبل شهادة غير المسلمين إطلاقاً ، ولو كانت من بعضهم على بعض . (المغني باب الشهادات) .

٣ - (فان عثر على انهما استحقا أثماً فأختران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا انا إذا لمن الظالمين) . جاء في صحاح الشيعة والسنة ان هذه الآية نزلت في ثلاثة نفر خرجوا في سفر للتجارة ، أحدهم مسلم والآخران من النصارى ، وفي الطريق تعرض المسلم ، وأحس بدنو أجله ، فكتب وصيته وذكر فيها كل ما يحصل معه ، ودسها في بعض متاعه ، دون أن يعلم صاحباه بذلك ، ثم أوصى اليها أن يدفعها متاعه الى أهله ، ولما مات أخذوا شيئاً منه ، ودفعوا الباقي الى أهله . ولما عثر أهله على وصيته رأوا فيها ذكر الشيء الذي أخذاه ، فسألوهما

الجزء السابع

فأنكروا ، وقالوا ما دفعه البينا دفعناه اليكم ، وحلفوا على ذلك .. وبعد حين رأى أهل الميت ذلك الشيء مع ثالث ، فقالوا : من أين لك هذا ؟ قال : اشتريته من فلان وفلان ، أي من المتهمين ، فترافعوا الى النبي (ص) .. وقيل : ان المتهمين حين فوجئوا بذلك قالوا : اشتريناه منه . فنزل قوله تعالى : (فان عثر على أنها الخ) . والمعنى فان ظهرت امارات تستدعي الريبة بالمتهمين فالواجب حينئذ أن يقوم رجلان من ورثة ألييت ، ويحلفا بالله انها أصدق من المتهمين ، وأن يقولوا في اليمين : وما اعتدينا انا اذاً لمن الظالمين ، وبعد الحلف يحكم على المتهمين .

وتسأل : لقد طال كلام المفسرين وتضارب حول قوله تعالى : « من الذين استحق عليهم الأوليان » حتى نُقل عن بعض القدامى انه قال : هذه أشكل جملة في كتاب الله من حيث التركيب ، فما هو القول الصحيح في تفسيرها ؟ .

الجواب : ان الذي أوقع المفسرين في الارتباك هو ان ضمير (عليهم) إلى من يعود ؟ والذي نراه انه يعود الى ورتة الميت ، لأن ما كان مستحقاً عليه من الدين ونحوها يصير بعد موته مستحقاً على ورثته ، وعليه يكون المعنى يحلف اثنان من الذين وجب عليهم ما كان واجباً على مورثهم ، والسباق يؤكد هذا ، لأن الآخرين اللذين يقومان مقام المتهمين في اليمين لا بد أن يكونا من ورتة الميت باتفاق المفسرين ولا يجوز أن يكونا من غيرهم بحال ، اذن ، يتعين أن يكون ضمير (عليهم) عائداً اليهم بالذات .

(ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا ان ترد ايمان بعد ايمانهم) . ذلك إشارة إلى الحكم السابق ، وقوله : (أدنى أن يأتوا .. الخ) بيان لعلة الحكم ، أي ان القصد مما شرعناه أن لا يحرف الشهود شهادتهم ، ويحلفوا اليمين الكاذبة ، أو يمتنعوا عن اليمين بالمرة خوفاً أن ترد - بعد الحلف - على الورثة .

وتسأل : إن الله سبحانه حين يبين الحكم ثنتي ، وقال : شهادتهما .. ويقسمان . وحين أشار إلى علة الحكم جمع ، وقال : أن يأتوا بالشهادة ، فما هو الوجه ؟ الجواب : إن الشهود أربعة ، اثنان يشهدان ابتداء ، واثنان يقومان مقامهما إذا ظهر الإثم على الشاهدين الأولين .. هذا ، إلى أن المفروض في علة الحكم

سورة المائدة

أن تكون عامة تشمل المورد المذكور وغيره .

الرسل ويوم الجمع الآية ١٠٩ - ١١١ :

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
عَلَّامُ الْغُيُوبِ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ
وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا
وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ
كَهَيِّئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ
وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ
عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا
سِحْرٌ مُبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا
آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ *

اللفظ :

روح القدس جبريل . والأكمه من 'ولد أعمى' ، ويطلق أيضاً على من عمي
بعد الولادة . والحواريون جمع حوارى ، وهو من أخلص في المودة .

الاعراب :

يوم يجمع (يوم) منصوب بفعل محذوف ، أي اتقوا يوم يجمع . وماذا
كلمة واحدة بمعنى أي شيء ، وهي هنا مجرورة بحرف جر محذوف ، أي بأي
شيء أجبتكم ؟ وإذ قال بدل من يوم يجمع . ويجوز أن يكون على ألف عيسى

الجزء السابع

فتحة إذا أعرب ابن مريم صفة له ، ويجوز أن يكون عليها ضمة إذا أعرب ابن بدلاً من عيسى ، لا وصفاً . وفي المهد متعلق بمحذوف حالاً من ضمير تكلم ، وكهلاً عطف على الحال المحذوف ، أي كائناً في المهد وكهلاً . وإن آمنوا (إن) للتفسير بمعنى أي .

المعنى :

(يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) . قال الرازي : « إن عادة الله تعالى جارية في كتابه الكريم انه إذا ذكر أنواعاً من الأحكام أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء ، وإما بشرح أحوال القيامة ، ليصير ذلك مؤكداً لما تقدم .. ولما ذكر هنا أحكاماً من الشريعة أتبعها أولاً بوصف أحوال القيامة ، ثم أحوال عيسى » .

والمشهد الذي ذكره هنا سبحانه مشهد رهيب ، يحشر فيه الخلائق للحساب والمحاسبة قبل صدور الحكم بالعضو أو الادانة .. انه تعالى يجمع رسله الذين كان قد فرقهم ووزعهم في محافظاته وأقاليمه وقراه .. وبديهة ان قراه تعالى وأقاليمه غير قرانا وأقاليمنا .. انها الأمم والأجناس والأقوام ، ثم يجابه كل أمة وكل قوم برسولهم ويقول له : ماذا قال لك هؤلاء ؟ يريد بهذا السؤال أن يلقي الحجة على عباده ، ويمهد للحكم وحيثياته . ويجب الأنبياء في هذا المشهد : (لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) ومن علم الغيوب فلا تخفى عليه الظواهر .

وتسأل : إن الأنبياء يعلمون من جحد رسالتهم ، وحاربهم من أجلها في حياتهم ، فما هو الوجه لقولهم : لا علم لنا ؟

الجواب : ليس المراد من قولهم هذا نفى العلم اطلاقاً ، بل المراد ان علمهم ليس بشيء في جانب علمه تعالى ، لأنهم يعلمون من أمتهم ما أظهروا وهو يعلم ما أظهروا وأضمروا .

(اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك) . بعد أن استجوب سبحانه أنبياءه بكلمة موجزة (ماذا أجبتم) خص عيسى (ع) من

بينهم بخطاب مطول ومفصل يذكره فيه بنعمته عليه وعلى والدته (اذ أبدتك بروح القدس) وهو جبريل (تكلم الناس في المهد) تنزيهاً لأمك من كل شبهة (وكهلاً) أي ان كلامه في المهد كان مثل كلامه ، وهو كهل (واذا علمتك الكتاب) قبل المراد به الخط لأن الكتاب مأخوذ من الكتابة (والحكمة) الشريعة (والتوراة والانجيل واذا تخلت من الطين كهنة الطير بأذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بأذني وتبرى الاكهم والأبرص بأذني واذا تخرج الموتى بأذني) . مرتفسير نظره في الآبة ٤٩ من سورة آل عمران . وكرر سبحانه بأذني أربع مرات للتأكيد على ان الخلق والأحياء والابرء من الله ، لا من سواه ، وانما أظهر سبحانه هذه الأفعال على يد عيسى (ع) لتكون دليلاً على صدقه ونبوته .

عيسى ونبوة الأطفال :

قد يُظن أو يُموه ان عيسى (ع) نبي صغير .. لأنه تكلم في المهد ، أي في حجر أمه ، وهذا جهل أو تدليس .. لأن عيسى إنما تكلم في المهد تبرئة لأمه من قول الآثمين ، لا لأنه رسول من المرسلين .. وإذا كان الله قد أسقط التكليف الخفيف عن الصبيان فهل يكلفهم بالأحمال والانتقال ؟ .. « انا ستلقي عليك قولاً ثقبلاً » - ٥ المزمل . ومن يسمع له ويطيع ، وهو في المهد ؟ . وهل تقوم الحجة لله على عباده بطفل رضيع ؟ وأين التعاليم التي بلغها للناس عن الله ، وهو يلتقم ثدي أمه ؟ .

إن الأناجيل المعتمدة عند النصارى تنص على ان عيسى بعث في سن الثلاثين ، فقد جاء في إنجيل لوقا الفصل الثالث رقم ٢٣ ما نصه بالحرف : « ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة » . وفي شروح على الأناجيل المقدسة المطبوعة مع الأناجيل الأربعة في المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٣٨ ص ٥١٩ ما نصه بالحرف : « ذكر الانجيلي ان عمر المسيح كان ثلاثين سنة لما ابتدأ حياته العلنية والبطارة بملكوت الله » . وفي بعض كتب المسلمين ما يؤيد ذلك .

وغريبة الغرائب أن تقول أناجيل النصارى : إن دعوة عيسى (ع) ابتدأت

في سن الثلاثين ، ثم يقول انتهازي محترف متزلفاً إلى وجوه النصارى ، يقول هذا المتزلف: « ان عيسى (ع) نبيء طفلاً صغيراً ، على العكس من محمد (ص) الذي بُعث بعد الأربعين » ويستدل على افترائه هذا بأن عيسى تكلم في المهد بنص القرآن ... متجاهلاً أنه إنما تكلم تبرئة لأمه الصديقة الطاهرة ، لا ليبلغ رسالة الله إلى عباده ، وهو متعلق بالثدي .

(واذا كففت بني اسرائيل عنك إذ جثتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين) . جاء في خطبة من خطب نهج البلاعة : « كان عيسى يتوسد الحجر ويلبس الخشن ، ويأكل الجشب ، وكان أدامه الجوع ، وسراجاه بالليل القمر ، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها ، وفاكهته وربحانه ما تُنبت الأرض للبهائم ، ولم تكن له زوجة تفتنه ، ولا ولد يحزنه ، ولا مال يَلْفته ، ولا طمع يذله ، دابته رجلاه ، وخادمه يداه » .

ومع هذا لم يسلم من اليهود ، فحاولوا قتله ، ووصفوه بالكذب والسحر ، وألصقوا بأمه العار ، لا لشيء إلا لأنه نطق بالحق ، ودعاهم إليه ، وأمرهم به .. ولا يختص هذا باليهود ، فإن كثيراً من الناس ينصبون العداة لمن يرشدهم إلى الخير ، ويتنى لهم الهداية .

(وإذا أوحيت إلى الخواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) . يطلق الوحي على معاني ، منها الإلهام ، كما في قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتاً - ٦٨ النحل) . وقوله : « وأوحينا إلى أم موسى ان أرضعيه فإذا خفت عليه فألقه في اليم - ٧ القصص » . وهذا المعنى هو المراد بقوله : (أوحيت الى الخواريين) .

وتسأل : لماذا ذكر الله سبحانه عيسى بنعمه عليه من دون الأنبياء ، مع ان فضله ونعمه عليهم لا يبلغها الاحصاء ؟

الجواب : ان الله سبحانه أجمل الخطاب مع الرسل ، وفصله مع عيسى لأن

١ أراد هذا المتزلف أن يفضل عيسى على محمد بطرف خفي .. ولكن الذين شاهدوا محمداً عرفوا من هو ؟ . انظر فقرة بين حوراهي محمد وحوراهي عيسى عند تفسير الآية التالية ١١٣ .

أتباعه غالوا فيه ، أما اتباع غيره فلم يدعوا الالهية لبيهم ، فجاء التفصيل لاقامة الحججة على الغلاة .

مائدة السماء الآية ١١٢ - ١١٥ :

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ *

الإعراب :

إِذْ قَالَ (إِذ) ظرف متعلق بفعل محذوف ، أي أذكر إذ قال . والمصدر المنسبك من أَنْ يُنْزِلَ مفعول يستطيع . وإن صدقتنا (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف ، أي انه . ولنا عيداً (لنا) متعلق بمحذوف حال . وعيداً خبر تكون ، والجملة في محل نصب صفة لمائدة . لاولنا بدل من لنا . واعذبه الضمير يعود إلى من يكفر . وعذاباً مفعول مطلق بمعنى التعذيب . ولا أعذبه على حذف حرف الجر ، أي لا أعذب به أحداً ، وعليه يكون الضمير عائداً إلى العذاب .

المعنى :

لقد كثر الكلام حول المائدة وطلابها : هل كانوا مؤمنين أو مشككين ؟ وهل نزلت المائدة بالفعل ، أو انها لم تنزل ، لأن الحواريين عدلوا عن طلبها بعد أن هددهم الله بقوله : « فن كفر منكم فاني معذبه عذاباً لا أعذبه أحداً » . ومع افتراض نزولها فعلى أية حال نزلت ؟ وما هي أصنافها وألوانها ؟ ثم هل مسخوها بعدها قرودة وخنازير ، لأن بعضهم سرق منها ؟ .. إلى غير ذلك من القول على الله من غير علم .

ونقف نحن في حديثنا عن هذه الآيات الأربع عند مدلول كلماتها وما يتصل به . الآية الأولى : (إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) . ونسمى هذه الآية إلى أن الحواريين ما كانوا مؤمنين بعيسى عندما طلبوا منه هذه المائدة ، لأنهم في غنى عنها مع التصديق والتسليم ، والذي يؤكد ذلك قولهم : (هل يستطيع ربك) فانه يشعر بالتشكيك في قدرة الله .. مع ان الآية السابقة قد شهدت لهم بالايمان (وإذ أوحيت إلى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا) .. هذا ، إلى أن لفظ الحواريين يدل بنفسه على إيمانهم بعيسى واخلاصهم له ، فإنا هو وجه الجمع بين الآيتين ؟

وأجاب كثير من المفسرين بأن سؤالهم هذا لا يتنافى مع إيمانهم ، لأن القصد منه الايمان عن طريق الحس والعيان بعد الايمان عن طريق العقل والبرهان ، وبكلمة القصد تقوية الايمان وتثبيتته ، تماماً كما قال ابراهيم الخليل (ع) : « ولكن ليطمئن قلبي » .. وقد أفصح الحواريون عن هذا القصد بدلالة قوله في الآية الثانية : « وتطمئن قلوبنا » جواباً على قول عيسى لهم : « اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » . أما قولهم : « هل يستطيع ربك » فعناه هل يستجيب ربك إن سألته أن ينزل علينا مائدة السماء .

الآية الثانية : (قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين) . يريدون أن يأكلوا ليؤمنوا ويعلموا ، أو يريدون أن يأكلوا ليقوى ويرسخ الايمان في قلوبهم ، والعلم في عقولهم ، كما قدمنا ، ثم

يخبروا من لم يحضر المائدة من قومهم ، فيؤمن الجاحد ، ويطمئن المؤمن - وإن لم يأكل .

بن حواري محمد وحواري عيسى :

كان لمحمد (ص) حواريون ، كما كان لعيسى (ع)، ولأبي نبي من الأنبياء، ولكن صحابة محمد ما سأله أن يطعمهم من جوع بآياته ومعجزاته كما فعل أصحاب عيسى الذين قالوا له : نريد أن نأكل منها، ولا أن يؤمنهم من خوف كما فعل أصحاب موسى، بل قالوا له في بعض معاركه بلسان المقداد بن الاسود : « امض يا رسول الله لما أرادك الله ، فنحن معك ، ولا تقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون، ولكن تقول : اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه ، حتى تبلغه . »

وكانوا يتساقطون شهداء بين يديه ، وهم يقولون : فزنا ورب الكعبة ، وروى عنهم التاريخ في ذلك ما يشبه الأساطير . قاتل حمارة بن يزيد يوم أحد ، حتى أنخسته الجراح ، ولما أبقيت بالموت رمى برأسه على قدمي رسول الله ، ولم يرفعه ، حتى فارق الحياة سعيداً بهذه الخاتمة .

وسقط سعد بن الربيع شهيداً في أحد ، فقال لأحد أصحابه : قل لرسول الله يقول لك سعد بن الربيع : جزاك عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وابلغ قومك عني السلام ، وقل لهم : ان ابن الربيع يقول لكم : انه لا عذر لكم عند الله إنخلص إلى نبيكم ، ومنكم عين تطرف .

وكان عمرو بن الجموح أخرج ، وأراد الخروج مع النبي إلى حرب أحد ، فحاول أولاده أن يمنعه من الخروج ، فاشتكى لرسول الله ، وقال : اني أرجو أن أعرج القيلة إلى الجنة . فأذن رسول الله له ، وقتل هو وأولاده الأربعة ، وشقيق زوجته ، فجاءت أرملة بعد المعركة ، وحلت زوجها وأخاها وأولادها الأربعة على جمل ، وذهبت بهم إلى المدينة، فقابلتها النساء يسألنها عن الأخبار .

الجزء السابع

قالت : أما رسول الله فيخبر ، وكل مصيبة بعده تهون . فسألنها : وما هذه الجثث ؟ قالت : هؤلاء أولادي وزوجي وأخي أكرمهم الله بالشهادة ، وأحلهم لأدفنهم .

هذه أمثلة تقدمها للدلالة على مدى الفرق بين حواريسي محمد، وحواريسي غيره من الأنبياء . ولا نبالغ إذا ما قلنا : ان ما من نبي على الإطلاق ظفر بما ظفر محمد رسول الله (ص) من أصحاب صدقوا ما عاهدوه عليه . أما السر فيمكن في شخصيته ، وعظمة رسالته .

الآية الثالثة : (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) . لما رأى عيسى منهم الاصرار ، وعلم أنهم لا يقصرون العنت والتعجيز دعا الله سبحانه بدعاء العبد الخاضع المتضرع لسيدته ، منادياً : يا ربنا .. ومنك .. وانت .. الخ دفعا لكل شبهة وتكديبا لكل زاعم ان لعيسى فيها يداً ، وأنها من صنعه ، لا من صنع الواحد الأحد .. والمراد بالآية المعجزة ، وبالعبد الفرحة والسرور .

الآية الرابعة : (قال الله اني منزلا عليكم فن كفر بعد منكم فلاني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) . استجاب سبحانه لتضرع عيسى ليزداد أصحابه ثقة به ، وإيماناً بنبوته ، وتلزمهم الحجة إذا خالفوا ، ويستحقوا أشد العقاب الذي لا يعاقب الله به أحداً ممن جحد وكفر ، لأنهم هم الذين اقترحوا المائدة ، وطوبوا بالذات ، ومن استجيب الى طلبه تقوم عليه الحجة وتنقطع منه كل معلرة إذا خالفت ونكص .

عيسى والناس الآية ١١٦ - ١١٨ :

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ
آلِهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ

لِي بَيِّنَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

اللغة :

تستعمل النفس في معانٍ ، منها ما به حياة الانسان والحيوان ، وهي التي عناها الله بقوله : « كل نفس ذائقة الموت » . ومنها ذات الشيء ، مثل هذا هو نفسه . ومنها الغيب ، تقول : انا أعلم نفس فلان ، أي غيبه ، وهذا هو المقصود من النفس في الآية ، أي تعلم ما أخفيه في نفسي ، ولا أعلم ما تخفيه من علومك .

الإعراب :

اتخذوني تتعدى الى مفعولين ، لأنها بمعنى صبروني ، والمفعول الأول الياء ، والثاني إلهين ، وأمي مفعول معه . ومن دون الله متعلق بمحذوف صفة لإلهين . وقال صاحب مجمع البيان : من زائدة هنا . وهذا اشتباه لأن من تزداد بعد النفي ، ولا نفي هنا . والمصدر المنسبك من ان أقول اسم يكون ، ولي متعلق بمحذوف خبراً ليكون . وبحق الباء زائدة وحق خبر ليس ، واسمها ضمير مستتر يعود الى ما . والمصدر المنسبك من ان اعبدوا الله بدل من ضمير (به) . ولا يجوز أن تكون (ان) هنا مفسرة لأن حروف القول قد صرح بها . وأنت ضمير فصل لا محل له من الإعراب .

المعنى :

(ولإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) . ان الله سبحانه لم يقصد بهذا السؤال عيسى بالذات ، لأنه يعلم ما قال عيسى للناس ، وإنما قصد به إقامة الحججة على من ادعى لعيسى وأمه هذه الدعوى الكافرة (قال سبحانه) أنت منزّه عن الشريك (ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) لأنه نبي ، والنبي معصوم عن الزلل ، وقد بعث لمحاربة الشرك ، والدعوة إلى التوحيد ، فكيف يدعي الألوهية لنفسه ، ويدعو الناس لعبادته .

(ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب) . استشهد على براءته من شركهم بعلم الله ، وكفى به شاهداً . (ما قلت لهم إلا ما أمرني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم) . جاء في الإنجيل متى الفصل الرابع ما نصه بالحرف :

« حيثئذ خرج يسوع الى البرية من الروح ليُجرب من إبليس ، فصام أربعين يوماً وأربعين ليلة ، وأخيراً جاع فدنا اليه المجرب - أي إبليس - قائلاً ان كنت ابن الرب فر أن تصير هذه الحجارة خبزاً ، فأجاب قائلاً مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله ، حيثئذ أخذه إبليس الى المدينة المقدسة وأقامه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فألق بنفسك إلى أسفل لأنه مكتوب انه يوصي ملائكته بك فتحملك على ايديها لئلا تصدم بحجر رجلك فقال له يسوع : مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك ، فأخذه إبليس أيضاً الى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها ، وقال له : أعطيك هذه كلها ان خررت ساجداً لي ، حيثئذ قال له يسوع : اذهب يا شيطان » .

هل يصوم الإله ؟ ولمن يصوم ؟ وهل يجوع ، وهو الرزاق ؟ وكيف يجربه إبليس ، وهو علام الغيوب ؟ وكيف استطاع حمله يتنقل به من جبل الى جبل وهو خالقه ، وخالق الكون بكامله ؟ .

(إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) . جاء في بعض التفسير ان قول عيسى (ع) لله جل وعز : (ان تعذبهم فانهم عبادك) يومئذ إلى أن عيسى طلب لهم من الله المغفرة بتأدب ورجاء ، لأن قوله : فانهم عبادك، يتضمن هذا الطلب ، تماماً كما تقول لمن أراد القسوة على ولده : انه ولذلك . أي ارفق به .. ولكن بعض المتزمين أبى إلا أن يتمحل ويقول : ان المعنى ان تغفر لهم بالتوبة .

ونجيب هذا القائل بأن المغفرة مع التوبة لا تحتاج إلى شفاعاة ووساطة ، لأن الله قد كتبها على نفسه لكل تائب .. ثم أي مانع يمنع عيسى ومحمد أن يطلبوا من الله الرحمة والمغفرة لعباده ، فقد طلبها ابراهيم من قبل لمن عصاه : « فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم - ٣٦ ابراهيم » . هذا ، إلى أن العفو عن المسيء حسن على كل حال : « أهم يقسمون رحمة ربك - ٣٢ الزخرف » .

صدق الصادقين الآية ١١٩ - ١٢٠ :

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

الاعراب :

هذا مبتدأ ، ويوم خبر ، والجملة مفعول قال ، وجملة ينفع مجرورة باضافة يوم ، ويجوز نصب يوم على انه ظرف متعلق بمحذوف ، والمحذوف خبر هذا ، والتقدير هذا واقع يوم ينفع .

(قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً) . بعد أن حكى عن عيسى أنه قال لقومه : (اعبدوا الله ربي وربكم) ، بعد هذا عقب بالثناء على الصادقين بوجه العموم ، وإن من صدق في هذه الحياة ينتفع بصدقه في الحياة الثانية ، ويجازى بجنات تجري من تحتها الأنهار، وفي هذا التعقيب شهادة منه تعالى بصدق عيسى في أقواله وأفعاله ، وأنه أدى رسالة ربه على وجهها الأكمل ، وإن من كفر وأشرك فعليه وحده تقع التبعة والمسؤولية .

(رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم) . ورضى الله عن عبده جنات ونعيم ، ومقام كريم ، ورضى العبد عن ربه أن يفرح بما آتاه الله من فضله . قال الرازي : « في رضي الله أسرار عجيبة تخرس الأفلام عن مثلها ، جعلنا الله من أهلها » . ولن يكون أحد من أهلها إلا بعد أن يدفع الثمن ، والثمن أن يكون شعار المشتري « لا إله إلا الله » في كل شيء ، أي أن لا بغضه في شيء ، حتى ولو قُرِض بالمقاريض ، ونُشِر بالمناشير ، تماماً كما قال سيد الكونين : إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، وكما قال سبطه الحسين الشهيد : رضي الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ، ويوفينا أجور الصابرين . (لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير . ومن كانت له هذه المقدرة ، وهذا الملك أعطى من يرضى عنه بغير حساب .

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

سُورَةُ الْاِنْقَامِ

١٦٥ آية مكية ، ما عدا بضع آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خلق السموات والارض الآيه ١ - ٣ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى
أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ * وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَنَجْوَاهُمْ كُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ *

الآية :

للمدل معان شتى ، تختلف باختلاف الموارد ، تقول : عدل القاضي في حكمه ، أي لم يظلم المحكوم عليه ، وعدلت الشيء فاعتدل ، أي قومه فاستقام ، وعدلت عنه ، أي أعرضت ، وعدلت به غيره ، أي جعلته مساوياً له ، وهذا المعنى هو المراد من قوله تعالى : (برهم يعدلون) . والأجل الوقت المضروب . وقضاء الأجل انتهاؤه ، والمرية والامتراء الشك .

الإعراب :

خلقكم من طين على حذف مضاف ، أي خلق أصلكم ، وأجسل مبتدأ ، ومسمى صفة له . وعنده متعلق بمحذوف خبراً للمبتدأ . وهو مبتدأ أول ، والله مبتدأ ثانٍ ، وجملة يعلم خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منه ومن خبره خبر المبتدأ الأول . وفي السموات والأرض متعلق بعلم .

المعنى :

(الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) . هذه الآيات الثلاث من الآيات الكونية الدالة على وحدانيته وعظمته ، وتشير الآية الأولى إلى خلق السموات والأرض ، والظلمات والنور ، والثانية إلى خلق الإنسان وبعثه بعد الموت ، والثالثة إلى علم الله واحاطته بكل شيء .

ومعنى الحمد الثناء ، وقوله تعالى : الحمد لله يريد به التعليم ، أي قولوا يا عبادي الحمد لله ، والثناء على الله حسن على كل حال ، حتى عند الضراء ، لأنه أهل للتقديس والتعظيم .. فإن أصابتك مصيبة ، وقلت عندها : الحمد لله فانك تعبر بذلك عن صبرك على الشدائد ، وإيمانك القوي الراسخ الذي لا يزعه شيء ، ويتأكد حسن الحمد ورجحانه عند السراء ودفع البلاء ، لأنه شكر لله على ما أسبغ وأنعم .

ووصف الله سبحانه نفسه بخالق السموات والأرض والظلمات والنور لينبه العقول إلى أنه لا شريك له في الخلق والألوهية ، فيكون هو وحده الجدير بالحمد والاختصاص له في العبودية (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) . ومحل التعجب والغرابة أن هذا الكون العجيب بأرضه وسماؤه ، وهذه البيئات الواضحة ، والدلائل القاطعة لم تحترق ذاك الظلام الكثيف على عقل المشرك وقلبه الذي أعماه عن الحق ، وصور له أن الله مساوياً في استحقاق الحمد والعبادة .

(هو الذي خلقكم من طين) . أي خلق أصلكم ، وهو آدم ، وآدم من تراب وماء ، أو خلق مادة كل فرد من البشر من طين ، لأنه من لحم ودم ،

الجزء السابع

وهما من النبات ولحم الحيوان المتولد من النبات ، والنبات من الطين (ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) . للفضاء معانٍ ، منها الحكم والأمر : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه » أي أمر .. ومنها الإخبار والإنهاء : « وقضينا إلى بني إسرائيل ، أي أنهينا . ومنها الحتم الذي لا مفر منه : « وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » وهذا المعنى هو المراد هنا .

والله سبحانه قضى لكل فرد من عباده أجلاًين : أحدهما ينتهي بموته ، وبعده يُعرف كم عاش . وثانيهما لاعادته وبعثه بعد الموت ، وعلم هذا عند الله وحده ، ولا يُطلع عليه أحداً من خلقه ، كما دلت على ذلك كلمة (عنده) . (ثم أنتم تموتون) . أي تشكون ، والمعنى : أبعد ان قامت الدلالة على قدرة الله في الخلق الكبير ، وهو الكون ، وفي الخلق الصغير ، وهو خلق الانسان وموته وبعثه ، أبعد هذا تشكون في وجود الله ووحدانيته وعظمته ! .. وخبر تفسير لهذه الجملة قول علي أمير المؤمنين (ع) : عجبت لمن شك في الله ، وهو يرى خلق الله ، وعجبت لمن نسي الموت ، وهو يرى الموت ، وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى ، وهو يرى النشأة الأولى .

(وهو الله في السموات والأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) . ذكر سبحانه في الآية الأولى انه خالق السموات والأرض ، والنتيجة الحتمية لهذا انه موجود في السموات والأرض ، ومعنى وجوده فيها وجود آثاره ، وذكر في الآية الثانية انه خالق الانسان ومبته ومعبيده ، واللازم القهري لذلك انه يحيط علماً بسرّه وجهره ، وما يكسبه من إيمان وكفر ، وإخلاص ونفاق ، وأقوال وأفعال تعود عليه بالخير أو الشر .

الحجود بآيات الله الآية ٤ - ٦ :

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ *

سورة الأنعام

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّا فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
تُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَافًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ *

اللغة :

جاء في تفسير الرازي : « قال بعضهم : القرن ستون سنة . وقال آخرون :
سبعون . وقال قوم : ثمانون . والأقرب انه غير مقدر بزمان معين لا يقع فيه
زيادة ولا نقصان ، بل المراد أهل كل عصر فاذا انقضى منهم الأكثر قبل :
انقضى القرن ، والدليل قول الرسول الأعظم (ص) : « خير القرون قرني » .
والتمكن في الشيء جعله متمكناً من التصرف فيه . وأرسلنا السماء ، أي المطر
بالنظر إلى انه يتزل من السماء ، والمدار الغزير .

الاهراب :

من آية (من) زائدة ، وآية فاعل . ومن آيات متعلق بمحذوف صفة لآية .
وكم استخهام في موضع نصب بأهلكنا . ومن قبلهم بيان لها . وجملة مكناهم
في محل جر صفة لقرن الذي معناه الجهاة . ومدار حال من السماء .

المعنى :

أصول العقيدة ثلاثة : التوحيد والنبوة والبعث ، والآيات الثلاث السابقة
تعرضت للتوحيد ودلائله ، وتعرضت هذه الآيات إلى النبوة، وحال المكذبين بها .
(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) . المراد بالآية
هنا الحجة القاطعة على وجود الله ووحدانيته ، وعلى البعث ونبوة محمد ، والمعنى

ان الكافرين يرفضون دليل الحق ، ويعرضون عنه ، دون أن ينظروا اليه .. ولو كانوا من طلاب الحقيقة لَنظروا إلى الدليل وتدبروه بإمعان ، وعملوا بمؤداه ، أما الرفض والاعراض قبل النظر والدرس فعناد ومكابرة .

لا دكتاتورية في الأرض ولا في السماء :

اختلف المفسرون في تعيين المراد من الآية التي أعرض عنها ، واستهزأ بها المكذبون : هل هي القرآن ، أو غيره من معجزات رسول الله (ص) ، أو ان المراد بالآية جميع ما أتى به من المعجزات ؟ . وتنبهت ، وأنا أتابع هذا الاختلاف ، إلى أن الآية التي فسرناها ، وما جاء في القرآن من أمثالها تتضمن معنى أجل مما اهتم المفسرون بشرحه ، أنها تتضمن الدلالة على ان الاسلام يقوم على حرية العقل والرأي ، وأنه لا يحق لأحد ، كائناً من كان ، أن يطلب من غيره التسليم والاذعان لأقواله تسليماً أعمى ومن غير دليل ، حتى خالق الكون جلت كلمته لا يفرض على عباده الإيمان به وبكتبه ورسله فرضاً ومن غير دليل ، انه تعالى يقيم الحجة على ما بقوله ويدعو اليه ، ويطلب من كل عاقل أن ينظر فيها وتدبرها بإمعان ، شأنه في ذلك ، تعالى الله علواً عظيماً ، شأن كل عالم منصف وان بعد القياس والتشبيه بين الخالق والمخلوق .

قال تعالى : « أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق - ٨ الروم » . وقال : « أقلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف يبتناها وزيناها وما لها من فروج - ٦ ق » . وقال : « كذلك نفصل الآيات لقوم يفتكرون - ٢٤ يونس » .

ان هذه الآيات وما إليها تدل دلالة قاطعة على انه تعالى يقيم الدلائل والبيئات على دعوة الحق ، ويدعو الى تدبرها والنظر فيها ، فإذا أعرض من لا يؤمن إلا بما يريد فهو وحده المسؤول عن جحوده وانكاره .

(فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون) . قد يتجاهل الانسان الحق غير مكرث به ، لا يؤمن به ، ولكن لا يؤيده ولا يحاربه ، كما هو شأن اللاهالي ، وقد يقف منه موقف المكذب ، وهذا مكابر ،

سورة الأنعام

ان كذب عن علم بالحق ، وان كذب واستهزأ فهو محارب للحق ، والأول أخف جرماً من الثاني ، لأنه أشبه بمن يمتنع عن الاقتراع ، والثاني أخف ذنباً من الثالث ، لأنه ضم صوته إلى صوت المكذبين ، أما الثالث فقد كذب وأبدى نشاطاً ضد الحق ، وهذا الثالث هو المقصود بالتهديد والوعيد ، وأنه سيلقي جزاء عناده واستهزائه .

(أو لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم) . كان عرب الجاهلية يعرفون الكثير عن قوم عاد وثمود ولوط وغيرهم ، وكانوا يمدحون في رحلاتهم بآثارهم ، فيشاهدونها ويتحدثون عنهم وعنهما ، ويعرفون ان الله سبحانه أهلكهم ، لأنهم كذبوا بالحق الذي جاء به أنبياءهم من عند الله . وهذه الآية تحض الذين كذبوا محمداً (ص) ان يعتبروا بهلاك الأجيال الغابرة ، وقد كان لهم من أسباب الملك والقوة والسلطان ما لم يكن للمخاطبين من عرب الجاهلية .

(وأرسلنا السماء عليهم مدراراً) . أي المطر الغزير ينشئ الخصب في حياتهم ويفيض عليهم الأرزاق (وجعلنا الأنهار من تحتهم) كناية عن الرخاء وكثرة الانتاج (فأهلكناهم بذنوبهم) ولم يغن عنهم المال والسلطان (وأنشأنا من بعدهم قوماً آخرين) والعاقل من اتعظ بغيره قبل أن يتعظ الغير به .

ولو نزلنا عليك الآية ٧ - ١١ :

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَآَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا
مَلَكًا لَفُضِّيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا
وَلَلَبِيسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يُلَبِّسُونَ * وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْه بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ

بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ* قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ*

اللغة :

القرطاس (مثلث القاف) الورق الذي يكتب فيه . واللبس السر والتغطية .
وحاق به ، أي أحاط به .

الاعراب :

لولا أداة طلب بمعنى هلا . وما يلبسون (ما) بمعنى الذي وهي مفعول
لبسنا . وكيف خبر مقدم لكان ، وعاقبة اسمها ، ولم تؤنث كان لأن تأنيث
العاقبة غير حقيقي .

المعنى :

(ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس) . أقام النبي (ص) بمكة ثلاث عشرة
سنة منذ نزول الوحي عليه إلى أن هاجر إلى المدينة ، وكان يدعو أهلها طوال
هذه المدة إلى التوحيد والعدل ، وينهاهم عن الشرك والجور ، وكان أسلوبه في
الدعوة الحكمة والموعظة الحسنة ، فاستجاب له أقلهم ، وامتنع أكثرهم ، ولم
يكثفوا بالامتناع ، بل تألبوا عليه ، وجعلوا يؤذونه بأيديهم نارة ، وبألسنتهم
أخرى ، وكان يصبر على أذاهم ، ويحرص على إيمانهم ، ولكن الله سبحانه
قال له : ه وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين - ١٠٣ يوسف ه . وقال :

(ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان
هذا إلا سحر مبين) . أي لو نزلنا عليك يا محمد الكتاب جملة واحدة في

سورة الأنعام

صحيفة واحدة ، فأروه ولسوه وشاهدوه عياناً لظعنوا فيه ، وقالوا : انه سحر . وهذا النموذج من الناس موجود في كل جيل ، بل في عصرنا الذي نعيش فيه فئة كبيرة لا تكفي بانكار الملموس المحسوس ، حتى تسمي هذه الأشياء بأضدادها فتعبر عن الذئب بالحمل ، وعن الأفعى بحمالة السلام ، فهذه الولايات المتحدة تقوم بعملية حرب الإبادة في فيثنام ، وتقول : أنا أبني وأعمل للحياة .. وتلك إسرائيل تعتدي ، وتقول : أنا المعتدى عليه ..

(وقالوا لولا انزل عليه ملك) . لولا بمعنى هلا ، والضمير في (عليه) يعود إلى محمد (ص) وفي قالوا إلى مشركي قريش ، فقد سألوا النبي (ص) أن يبعث الله معه ملكاً يشهد بما يدعيه ، ويكون له عوناً على تنفيذ رسالته ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً » - ٧ الفرقان .

(ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون) . أي لو أن الله أنزل اليهم ملكاً لما اتوا ، ولا يؤخرون طرفة عين . وتسال : وأية ملازمة بين إنزال الملك اليهم ، وبين هلاكهم عاجلاً ؟ .

وأجاب بعض المفسرين بأن الناس إذا شاهدوا الملك ترهق أرواحهم من هول ما يشهدون .. ولا يعتمد هذا القول على أساس .

وقال آخرون : لقد سبق في حكمة الله أن يهلك كل من يخالف الملك .. وهذا أسوأ من سابقه ، لأن الله سبحانه لم يهلك الذين يخالفونه في هذه الحياة ، وليس الملك بأعظم شأنًا منه تعالى علواً كبيراً .

والصحيح في الجواب ان وجه الملازمة سر لم يظهره الله لعباده ، ولا يدرك هذا السر بالعقل ، فيجب السكوت عما سكنت الله عنه .

(ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً) . لو أرسل الله إلى الناس ملكاً فلا يخلو : اما أن يبقى على صورته ، واما أن يتمثل في صورة البشر .. ومحال أن يبقى على صورته ، وفي الوقت نفسه يكون رسولاً إلى الناس ، لأن طبيعة الملائكة غير طبيعة الانسان ، وتبليغ الرسالة يستدعي المعاشرة والمؤانسة ، وهي لا تحصل مع تباين الخلق والطباع .. هذا ، إلى أن الملائكة لم يخلقوا للحياة على هذا الكوكب .

الجزء السابع

ولو تمثل الملك على صورة البشر لقالوا له نريد ملكاً رسولاً ، ولا نريده بشراً .. إذن ، فالملك بصورته لا يمكن أن يبلغ الرسالة ، وبصورة البشر لا يؤمن به مشركو مكة ، فبقى مشكلتهم من غير حل .. وتجدد الإشارة إلى أن هذه الآية صريحة الدلالة على أن الله سبحانه قد جادل المكذبين بالأسلوب والمنطق الذي يستعمله أهل المعقول لافحام خصومهم .

(ولليسا عليهم ما يلبسون) . أي لو جعل الله الملك في صورة البشر لظن الناس أنه بشر في حقيقته ، وعليه يكون الله جل ثناؤه قد موّه في أفعاله ، تماماً كما موّه الناس بعضهم على بعض ..

(ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون) . أي هوّن عليك يا محمد ما تلقى من استخفاف قومك ، فإن الاستخفاف بالأنبياء والمصلحين ليس وليد الساعة ، بل كان موجوداً منذ القديم ، والله سبحانه قد عاقب المستهزئين بأنبيائهم ، وسيحل بمن استهزأ بك ما حل بمن كان قبلهم ، وفعل فعلهم .. وهكذا كان ، فإن الله سبحانه قد أهلك من سخر بمحمد (ص) ، وامتن الله عليه بهلاكهم ، حيث خاطبه بقوله : **وَإِنَّا كَفِينَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ - ٩٥ الحجر ،** .

(قل سبروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . تقدم تفسيره في الآية ١٣٧ من آل عمران .

كتب ربكم على نفسه الرحمة الآية ١٢ - ١٦ :

قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلُوبٌ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ
لِيَجْمَعَنَّهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ* وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ*

سورة الأنعام

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُضْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ *

اللفظ :

كتب على نفسه ، أي أوجب عليها إجاباً . وفاطر السموات مبدعها على غير مثال سابق .

الإعراب :

لمن ما في السموات (لمن) متعلق بمحذوف خبر مقدم و (ما) مبتدأ مؤخر، والجملة مفعول لقل . والله متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف ، أي قل هو كائن لله . الذين خسروا مبتدأ ، وفهم مبتدأ ثان ، ولا يؤمنون خبر للمبتدأ ، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول . أغير الله (غير) مفعول أول لاتخذ ، ولياً مفعول ثان . وفاطر صفة لله .

المعنى :

(قل لمن ما في السموات والأرض قل لله) . أمر الله نبيه الأكرم أن يسأل مشركي العرب : من يملك السموات والأرض ؟ ثم أمره أن يجيب عنهم بأن الله وحده هو مالك الملك ، وجاز أن يكون هو السائل والمجيب لأن كلاً من المسؤول والسائل متفقان على الجواب .. فان مشركي العرب كانوا يؤمنون بأن

الجزء السابع

الله خالق الكون ومالكه : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون - ٦١ العنكبوت » .

وتسأل : ما دام الأمر كذلك فأني جدوى من السؤال ؟ .

الجواب : ان القصد من السؤال وجوابه استدراج الخصم إلى الاعتراف بإمكان النشر والحشر ، وإقامة الحجة عليه ، لأن الله سبحانه إذا كان هو خالق الكون ومالكه فهو - إذن - قادر على التصرف فيه فناء وإعادة .

(كتب على نفسه الرحمة) . وأعاد سبحانه هذه الجملة في الآية ٥٤ من هذه السورة . قال المفسرون : أوجب الله على نفسه الرحمة لإيجاب فضل وكرم .. ونحن نؤمن بأن الله ذو فضل وكرم ، وفي الوقت نفسه نؤمن بأن رحمته نتيجة حتمية لغناه في ذاته عن كل شيء ، وافئدة كل شيء إليه تعالى ، لأن المخلوق مفقر بطبعه إلى عناية الخالق ورحمته افتقار المعلول إلى علته ، والمسبب إلى سببه.. فرحة الله بعباده لا تنفك عن ذاته وكماله ، وعلى هذا يكون معنى (كتب على نفسه الرحمة) ان رحمته حتم لذاته القدسية ، تماماً كالقدرة والعلم .

(ليجمعنكم إلى يوم القيامة) . وهذا الجمع حتم أيضاً ، ولذا وصفه جل ثناؤه بقوله : (لا ريب فيه) . لأن فيه يقتصر للمظلوم من الظالم ، ويجازي المسيء على السيئة بمثله ، والمحسن على الحسنة بأضعاف مضاعفة من أمثالها ، ولولا هذا اليوم لذهب الحق هدرأ ، وكان «الأقدر» هو صاحب الأمر والنهي ، وليس خالق الكون ومالكه .

(الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) . قال الزمخشري : لقد اختار الكافرون الحسران ، فهم لذلك غير مؤمنين . والزمخشري من أهل الاعتزال القائلين : الانسان غير ، لا مسير . وقال السرازي : إن الله هو الذي قضى بخسرانهم ، ولهذا امتنعوا عن الإيمان . والرازي من الأشاعرة القائلين : الانسان مسير ، لا غير . وقال آخرون : امتنع الكفار عن الإيمان تغليداً لأبائهم .

وفي تصورنا ان الآية تشير إلى حقيقة الانسان، وانها تتكون من نفسه وجسمه ، وان كلاً منها جزء متمم للآخر ، وان الانسان لا يحيا حياة صحيحة إلا إذا عمل لها معاً ، وان من عمل للروح دون المادة ، أو للمادة دون الروح فقد خسر

سورة الأنعام

كيانه من الأساس ، ومن خسر كيانه لا يكون من الإيمان في شيء .

(وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم) . أي انه تعالى هو المالك لكل شيء . وتساءل : لقد دل على هذا المعنى قوله تعالى في الآية المتقدمة : « قل لمن ما في السموات والأرض قل لله » فما هو الوجه لهذا التكرار ؟

وأجاب المفسرون بأن الآية الأولى استقصت الخلق من حيث الزمان ، والثانية من حيث المكان ، وهما ظرفان لكل موجود مادياً كان ، أو معنوياً ، فحصل العموم والشمول بالآيتين جميعاً ، وعقب سبحانه بصفتي السمع والعلم تأكيداً لهذه الاحاطة .

وتقدم أكثر من مرة ان التكرار في القرآن غير عزيز، ولكن المفسرين يحاولون أن يأتوا بشيء ، وإن لم تدع الحاجة اليه .

(قل أغير الله اتخذ ولياً) ؟ وكيف استعين بغيره ، وهو (فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم) . ومن دونه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً (قل اني أمرت أن أكون أول من أسلم) . لأن محمداً (ص) هو الداعي الأول إلى الإسلام ، فيكون هو المسلم الأول من أمته ، والا كان من الذين يأمرون ولا يأتمرون .. حاشا من اصطفاه الله لرسالته . (ولا تكونن من المشركين) . ومحال أن يكون منهم ، وإنما صح هذا النهي لأنه موجه من الأعلى إلى من هو دونه ، كما قلنا أكثر من مرة .

(قل اني أخاف ان عصبت ربي عذاب يوم عظيم) . المعصية من النبي محال لمكان المعصية ، ولكن فرض المحال ليس بمحال .. والفرض تقرير أو تأكيد مبدأ المساواة بين الناس جميعاً أمام الله ، وانه خلق تعالى الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً ، والنار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشياً .. ويأتي الخوف من الله سبحانه على قدر العلم بعظمته : « إنما يخشى الله من عباده العلماء - ٢٨ فاطر » وبالأولى الأنبياء .

(من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز العظيم) . كل من يخاف الهول الأكبر يرى النجاة منه رحمة كبرى ، وفوزاً لا شيء أعظم منه .

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ *
قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ *

الإعراب :

فلا كاشف (كاشف) اسم لا ، وله خبر ، والتقدير لا كاشف موجود له ، وهو بدل من الضمير في موجود . وفوق عباده متعلق بمحذوف حالا من القاهر ، أي هو القاهر مستعليا فوق عباده ، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً . وشهادة تمييز . ومن بلغ في محل نصب عطفاً على مفعول انذركم . وإنما (ان) مكفوفة عن العمل بما ، وهو مبتدأ ، وإله خبر ، وواحد صفة لإله .

المعنى :

(وان يمسك الله بضرب فلا كاشف له إلا هو) . تدل هذه الآية على ان الضر كالفقر والمرض ونحوهما من صنع الله ، لا من صنع الناس ، وكذا كشفها والخلاص منها ، اذن ، لماذا السعي والعمل ؟ .
الجواب : أولاً ان السعي واجب عقلاً ونقلاً ، أما العقل فلأن الحياة لا تتم

سورة الأنعام

إلا بالعمل ، وأما الثقل فقد تجاوز حد التواتر ، من ذلك قوله تعالى : « فانتشروا في الأرض وابتهغوا من فضل الله - ١٠ الجمعة » . وقوله : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه - ١٥ الملك » . وفي الحديث : « سافروا تغموا » .. « تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء » . وعليه ، فن قصر في السعي ، ومسه الضر فهو المسؤول ، ومن سعى من غير تقصير ومسه الضر تقع المسؤولية على مجتمعه الفاسد في أوضاعه وأحكامه ، وإن كان المجتمع الذي يعيش فيه صالحاً فقد تضرر بقضاء الله وقدره .

ثانياً : إن الله سبحانه لا يريد الضرر لأحد من عباده ، كيف ؟ وهو القائل : « وما أنا بظلام للعبيد - ٢٩ ق » . والقائل : « والله رؤوف بالعباد - ٢٠٧ البقرة » . وفي الحديث : « إن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها » . وعلى هذا يكون المراد بالضرر في الآية ما يجازى به العبد على عمله ، أو امتحاناً لمصلحته وما إلى ذلك مما لا يتنافى مع عدل الله ورحمته . وتكلمنا عن الرزق مفصلاً عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة المائدة ، فقرة « هل الرزق صدفة أو قدر » ؟

(وان يمسك بخير فهو على كل شيء قدير) . أي لا راداً لخيره وفضله ، قال الرازي : ذكر الله في الخير انه على كل شيء قدير ، وفي الضر انه لا كاشف له إلا هو ، ذكر ذلك للدلالة على ان إرادة الله لإيصال الخيرات غالبية على إرادته لإيصال المضار .

(وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) . والقاهر بشير إلى قدرة الله والخبير إلى علمه . وقهر الله عباده بإيجادهم دون إرادة منهم ، وقهرهم أيضاً بالموت والفناء ، قال ابن العربي في الفتوحات المكية : إن الله سبحانه قهر عباده لأنهم نازعوه وخاصموه في مخالفاتهم لأحكامه ، ومن خاصم الله فهو مقهور ومغلوب لا محالة .

(قل أي شيء أكبر شهادة) . جاء في بعض الروايات : ان مشركي مكة قالوا للنبي (ص) : إن اليهود والنصارى لا يشهدون لك بالنبوة ، فأرنا من يشهد لك بها ، فأنزل سبحانه (قل أي شيء أكبر شهادة) . أي سلمهم بإمحمد من

الجزء السابع

هو الذي تعلق شهادته كل شهادة ، ثم أمره تعالى بالجواب عنهم (قل الله شهيد بيني وبينكم) . ولا جواب في الواقع غير هذا الجواب باعتراف الخصوم ، وهو ان الشاهد بيننا هو الله .

(وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) . القرآن هو الشهادة من الله على نبوة محمد ، وهو يتحداهم جميعاً أن يأتوا بسورة من مثله ويدعوا من شاموا ، وقد حاولوا وعجزوا ، وهذا المعجز أكبر شهادة على صدق النبي في رسالته . وقوله : (لأنذركم به ومن بلغ) معناه ان الله سبحانه أوحى إليّ القرآن لأنذركم به يا أهل مكة ، وأنذر به كل من بلغه إلى يوم يبعثون .. قال بعض الصحابة : من بلغه القرآن فكأنه رأى رسول الله (ص)، وتدل هذه الآية على أن من لم تبلغه دعوة محمد (ص) فهو معذور في ترك الإسلام . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١١٥ من آل عمران ، فقرة ٥ حكم تارك الإسلام .

(انكم لتشهدون ان مع الله آفة أخرى) . الاستفهام هنا للانكار والاستبعاد والمعنى كيف تجعلون مع الله إلهاً آخر بعد وضوح الأدلة على وحدانيته جل وعز ، ثم أمر الله نبيه أن يجب بآئنه لا يشهد كما يشهدون : (قل لا أشهد) . ثم أمره بأمر آخر : (قل إنما هو إله واحد وانني بريء مما تشركون) بعبادة الأصنام وغيرها .

يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الآية ٢٠ - ٢٤ :

الَّذِينَ آمَنَّاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ

سورة الأنعام

فَتَنَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا
عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *

الإعراب :

ويوم نحشرهم (يوم) مفعول به لفعل محذوف ، أي اذكر يوم نحشرهم .
وجميعاً حال من ضمير نحشرهم . وأين خبر مقدم ، وشركاؤكم مبتدأ مؤخر .
والذين بدل من شركاؤكم . وتزعمون تحتاج إلى مفعولين ، وهما محذوفان ، أي
تزعمونهم شركاء ، ودل على الحذف سياق الكلام . والمصدر المنسبك من ان قالوا خبر
لم تكن . وكيف مفعول كذبوا . وجملة كذبوا مفعول انظر .

المعنى :

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) . الذين آتاهم الله الكتاب
هم اليهود والنصارى ، وضمير يعرفونه عائد إلى محمد (ص) ، والآية تجابه علماء
أهل الكتاب بأنهم يعرفون خاتم الأنبياء حق المعرفة ، تماماً كما يعرفون أبناءهم ،
ولكنهم يكتنون ما يعرفون وقد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها
قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقاً منهم
ليكتنون الحق وهم يعلمون - ١٤٦ البقرة » . وقوله : « الذين يتبعون الرسول
النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل - ١٥٧ الاعراف » .
« أو لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل - ١٩٧ الشعراء » . ومرة الكلام
عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٤٦ من سورة البقرة ، و ١٦٤ من النساء .
فقرة هل الأنبياء كلهم شرقيون ؟ .

وليس من الضروري ليعرف أهل الكتاب صدق محمد (ص) أن يجدوا اسمه
مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل .. فكل من درس الإسلام دراسة جادة

وفاحصة يؤمن إيماناً لا يشوبه ريب بأنه الحق والصدق ، وإنهما جوهر الإسلام وركيزته وهدفه من كلمة « لا إله إلا الله » التي تمنح المساواة بين الناس الى تقييم الانسان على أساس العمل والاخلاص ، لا على أساس المال والجاه والنسب ، ومن التكافل الاجتماعي ومسؤولية كل راعٍ عن رعيته الى دعوة الأمن والسلام ، والتقدم والرخاء ، الى ما لا نهاية .

(الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) مر تفسيره قريباً في الآية ١٢ من هذه السورة . (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) . المراد بالظلم هنا الكفر ، لأن كل من افترى الكذب على الله فهو كافر .. لا فرق إطلاقاً بين من جعل له شريكاً ، ومن حرف حكماً من أحكامه عن عمد وعلم ، ومن ادعى النيابة عن المعصوم ، أو الشفاعة للخلق عند الحق ، وهو يعلم انه مقرر كذاب - كل هؤلاء كفرة فجرة اجماعاً وكتاباً وسنة . (أو كذب بآياته انه لا يفلح الظالمون) . أشارت الجملة الأولى من الآية الى من يخلق ما لا وجود له ، كمن جعل لله شريكاً أو ولداً . وتشير هذه الجملة الى من ينكر الموجود ، كمن يحجده من الأساس ، وحكم الاثنين واحداً ، كل منها ظالم ، وما للظالمين من حيم ولا شفيع بطاع .

(ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) . المؤمنون بالله على نوعين : منهم من يؤمن بالوحيته وتوحيده ، ويسمون الموحدون ، ومنهم من يؤمن بالوحيته وألوهية غيره ، وهؤلاء أفسدوا إيمانهم بهذه الضميمة ، وصاروا والجاحدين سواء ، لأن جعل المثل لله معناه في الواقع انكار الله من رأس ، إذ المفروض ان الله سبحانه لا شبيه له ولا مثل : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير - ١١ الشورى » .

وسبواجه الله المشركين بهذا السؤال : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، وتستعينون بهم كما تستعينون بالله ، سبواجههم بهذا السؤال على سبيل التوبيخ والتفريع ، لا على سبيل الحقيقة .

وتسأل : لماذا قال تعالى : أين شركاؤكم ، ولم يقل أين شركائي ، مع العلم بأن الكافرين أضافوا الشركاء اليه ، لا اليهم ؟ .

سورة الأنعام

الجواب : إن الاضافة تصح لأدنى مناسبة ، والمشركون هم الذين ابتدعوا الشرك الذي لا عين له ولا أثر في حقيقة الأمر والواقع .

(ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) . المراد بالفتنة هنا شركهم وافتنائهم بالأوثان ، والمعنى كانت عاقبة الشرك الذي ابتدعوه هي عيبتهم الفاجرة أنهم ما كانوا مشركين .

وتسأل : إن قوله تعالى حكاية عنهم : (والله ربنا ما كنا مشركين) يتنافى مع قوله : « ولا يكتمون الله حديثاً » - ٤٢ النساء . هذا ، إلى أن المعروف ان الانسان لا يستطيع الكذب يوم القيامة .

الجواب : إن في القيامة العبد من المواقف ، يستطيع الانسان في بعضها الانكار ، حيث لم يشهد عليه في هذا الموقف بداه ورجلاه بما كان يعمل ، وعلى هذا الموقف يحمل قوله تعالى : (والله ربنا ما كنا مشركين) . وفي بعض المواقف يعترف بما كان منه ، حيث لا مجال للانكار ، وعليه يحمل قوله : (ولا يكتمون الله حديثاً) .

أما القول : إن الانسان يعجز عن الكذب اطلاقاً يوم القيامة فتكذبه الآية ١٨ من سورة المجادلة : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على شيء ألا انهم هم الكاذبون » .

سؤال ثان يتفرع من الجواب عن السؤال الأول ، وهو إذا قدر الانسان غداً على الكذب ، بل والقسم عليه بالله أيضاً ، تماماً كما هو شأنه في هذه الحياة ، اذا كان الأمر كذلك فما هو الوجه لتسمية الآخرة بدار الصدق ، وتسمية دارنا هذه بدار الكذب ؟ .

الجواب : المراد بهذه التفرقة بين الدارين ان الكذب في هذه الدار قد يدفع عن صاحبه ضرراً ، أو يجلب له نفعاً ، أما في الدار الآخرة فلا يغنيه عن الصدق شيء .. وبكلمة ان العجز عن الكذب شيء ، والقدرة عليه مع عدم جدواه شيء آخر .

(انظر كيف كذبوا على أنفسهم) . الخطاب موجه للنبي (ص) ، والمراد به العموم ، وهو تعجب من انكارهم الشرك ، وقد ماتوا عليه .. وكل من

الجزء السابع

أذكر ما هو فيه، أو ادعى ما ليس فيه عامداً متعمداً فقد كذب على نفسه وعلى الله والناس . (وضل عنهم ما كانوا يفترون) . وضل عنهم عطف على كذبوا ، والمعنى انظر يا محمد كيف غاب عن المشركين ما كانوا يرجون نصرته وشفاعته .

على قلوبهم أكنة الآية ٢٥ - ٢٦ :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ *

اللغة :

الأكنة جمع واحدها كنان ، وهو الغطاء . والوقر بفتح الواو ثقل السمع . والأساطير جمع واحدها اسطورة واسطورة ، أي الشيء المسطور في الكتب ولا دليل على صحته ، ونأى عنه بعد وأعرض .

الاعراب :

المصدر المنسبك من أن يفقهوه مفعول لأجله لجعلنا ، أي كراهية ان يفقهوه . وإذا شرط متضمن معنى الظرف ، وهو متعلق بيقول . وجملة يجادلونك حال من الواو في جاموك . وان هذا (ان) نافية بمعنى ما ، ومثلها ان يهلكون .

(ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً) . خاطب الله نبيه بهذه الآية بعد ما أمره أن يقول للمعاندین ما تقوم به الحجة عليهم ، وبعد أن تحدث عن أحوالهم يوم القيامة ، والمعنى ان فريقاً من هؤلاء الجاحدين يستمعون إلى النبي ، وهو يتلو القرآن ، ولكنهم لا يستفهمون به ولا يفهمون من الدلائل والبيانات ، لأنهم صمموا منذ البداية على العناد والمكابرة ، حتى أعمى هذا التصميم عقولهم عن رؤية الحق ، وأصم آذانهم عن سماعه .
وتسأل : ان الآية بظاهرها ان الله هو الذي أعمى قلوبهم ، وأصم آذانهم ، وعليه فلا يستحقون ذمّاً ولا عقاباً ، لأنهم مسيرون غير مخيرين ؟

الجواب : بما ان قلوب المعاندین لم تفقه القرآن ، وتنضج به ، وآذانهم لم تستمع اليه سماع فهم وتدبر صح القول مجازاً : ان على قلوبهم أغلفة ، وفي آذانهم صمم ، وبما ان الله سبحانه هو الذي خلق القلوب والآذان صحت نسبة الصمم والأغلفة اليه مجازاً أيضاً ، أما بحسب الأمر والواقع فالشركون هم المسؤولون ، لأنهم هاندوا الحق عن تصميم واردة .. وتقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٥٣ .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الآية تدل بوضوح على ان الإسلام لا يقبس الشيء عما هو في ذاته ، بل بما هو في نتائجه وآثاره ، فالسمع والبصر منفذان للعقل ، والعقل مخطط للعمل ، فاذا لم يتحقق العمل يكون وجود الحواس وعدمها سواء ظاهرة كانت أو غير ظاهرة . وبكلمة ليس في الإسلام داخلي وخارجي ، ولا براني وجواني ، فالكل وسيلة إلى منفعة الناس في تدبير معاشهم ، وحل مشاكلهم . قال الإمام علي (ع) : يدعي بزعمه انه يرجو الله ، كذب والعظيم ، ما باله لا يتبين رجاءه في عمله ، فكل من رجا عرف رجاءه في عمله .

(وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها) . كشف محمد (ص) عن حقيقة المزيفين من أصحاب الجاه والمال ، فاضطربوا وأحسوا بالخطر على مصالحهم ، فلعجأوا إلى الأكلوبة الكبرى ، وقالوا عن آيات الله : أساطير الأولين ، وهم على يقين ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ولكنهم كانوا يلتصمون أوجه الشبهات والمغالطات ،

ليصرفوا الناس عن أضاليلهم وأباطيلهم ، تماماً كما يفعل اليوم أرباب الأنظمة الفاسدة ، والقوانين الجائرة .

(وهم ينهون عنه ويأثرون عنه) . ضميرهم يعود إلى الذين عاندوا الحق حرصاً على مصالحهم ، وضمير عنه يعود إلى النبي (ص) .. نهى المزيّفون عن اتباع محمد (ص) وأعرضوا عنه ، بل حاولوا إثارة النقمة عليه ، وجمعوا الجيوش لحربه ، لا لشيء إلا لأنه كشف عن أسوائهم ووبائهم . (وان يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) . أرادوا المكيد للإسلام ونبيه ، فدارت دائرة السوء على رؤوسهم ، حيث هلك بعضهم يوم بدر ، واستسلم آخرون أذلاء صاغرين يوم الفتح .. وهذا مصير كل من لجج وتمادى في الغي والعناد .

وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ الْآيَةُ ٢٧ - ٣٢ :

وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَقَالُوا إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقُفُّوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ * وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَّارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ *

سورة الأنعام

اللغة :

وُقفوا على النار الفعل مبني للمجهول ، والمراد به هنا العرض ، أي عرضوا على النار ، وقيل : يجوز اوقف ، ولكنه نادر . والساعة الزمن القصير، والمراد بها هنا يوم القيامة لسرعة الحساب فيه . وبغثة فجأة . والحسرة الندامة. والتفريط التقصير . والوزر لغة الحمل الثقيل : وديناً الإثم والذنب .

الاعراب :

ولو ترى جواب (لو) محذوف ، تقديره لشاهدت أمراً عظيماً . ولا نكذب منصوب بأن مضمره بعد الواو ، ومثله ونكون ، والمصدر المنسبك معطوف على مصدر متصيد من نرد ، والتقدير يا ليت لنا السرد وعدم التكذيب وكوننا من المؤمنين . ان هي إلا حياتنا الدنيا ان نافية ، وهي مبتدأ ، وحياتنا خبر، والدنيا صفة للحياة ، لأنها بمعنى الأولى أو الدنية أو القريبة . وبغثة مصدر في موضع الحال من الساعة ، أي باغثة . وساء فعل ذم والفاعل مستتر ، و (ما) تمييز بمعنى شيء ، والمخصوص بالدم محذوف ، والتقدير ساء الشيء شيئاً وزرهم .

المعنى :

(ولو ترى إذ وُقفوا على النار) . عاد سبحانه إلى الحديث عن أحوال المكذبين يوم القيامة ، وأنهم حين يرون ما أعد لهم من العذاب ، وما أعد للمؤمنين من الثواب يقولون : (يا ليتنا نرد) إلى الدنيا (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) . أي نتوب ونعمل صالحاً .. ولكن الحسرات والعبرات لا تنفي شيئاً إلا إذا كانت خوفاً من الله وعذابه قبل أن يقع ، أما بعد الوقوع فهي بكاء على الأموات ولهفة على ما فات .

(بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) . لا ينجو غداً من عذاب الله إلا من كان واضحاً صريحاً في هذه الحياة ، تنسجم أقواله مع أفعاله ، وهما معاً

انعكاس عن ذاته وواقعه ، حتى كأن الجميع شيء واحد عند الله والناس ، أما الغامض المبهم الذي يعرف الخالق منه ما لا يعرفه المخلوق من الرياء والنفاق ، أما هذا فسوف يبدو له جزءا من رايته ونفاقه ، وتذهب نفسه حسرات على اساءته ، ويتمنى الخلاص بالرد إلى الدنيا ، ولكن هيهات . (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) في قولهم : يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين .. ولقد قرأنا عن عشرات المجرمين انهم تابوا وهم في غياهب السجن ، حتى إذا خرجوا عادوا إلى اجرامهم. وآثامهم ، « وإذا مسك الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا - ٦٦ الإسراء » .

(وقالوا ان هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) . أي لوردوا إلى حياتهم الأولى لقالوا ما قالوه من قبل : لا بعث ولا حساب ولا جزاء .

وتسأل : كيف يتكبرون ، وقد شاهدوا الهول الأكبر ، وعرضوا عليه ، وتوسلوا للخلاص منه ، وقطعوا عهداً على أنفسهم ان لا يعودوا إلى ما كانوا عليه .

الجواب : انهم يعرفون جيداً ان الحساب والعذاب واقع لا محالة ، ولكنهم يعرفون أيضاً أنهم لو أعلنوا الحق وخضعوا له لفاتتهم المغامم والمكاسب ، قال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً - ١٤ النمل » .

(ولو ترى اذ وقفوا على ربهم) بعد أن كذبوا بلفاته (قال اليس هذا بالحق) ؟ . قلنا في تفسير الآية الرابعة من هذه السورة : ان الله يدعو إلى الايمان بالحق ، مع إقامة الدليل عليه ، فإن جحد جاحد لزمته الحجة ، وهذه الآية تؤكد ذلك ، وتذكر بالدلائل والبيئات التي أنكروها وكذبوا بها (قالوا بلى وربنا) . الآن ، وقد فات ما فات ، ولم يبق إلا الجزاء العادل ، والعذاب لمن كفر وأنكر (قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) . هذا جزاء كل من آثر العاجلة على الآجلة ، وكنم الحق لموى في نفسه .

وتسأل : ان قوله تعالى للكافرين: أليس هذا بالحق ، وقوله : ذوقوا العذاب لا يتفق مع الآية ١٧٤ من سورة البقرة : « ولا يكلمهم الله يوم القيامة » ؟ . الجواب : المراد ان الله لا يكلمهم بما يسرهم ، بل بما يسوءهم ، كما في

سورة الأنعام

هذه الآية ، وكما في الآية ١٠٩ من المؤمنين : « قال اخسأوا فيها ولا تكلمون » .
 (قد خسر الذين كذبوا بلفاء الله) وفاز من آمن به (حتى إذا جاءتهم
 الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) . قال الإمام (ع) : ثمرة
 التضرع الندامة ، وثمره الحزم السلامة (وهم يحملون أوزارهم الاساء ما يزررون) .
 الأوزار الذنوب والآثام ، وحملها على الظهر كناية عن ملازمتها لأصحابها ، يقال
 ركبه الشيطان ، أي لا يفارقه ، والمعنى ان المكذبين بالحق هم أسوأ الناس
 حالاً في الآخرة ، قال بعض المفسرين الجدد :

« بل الدواب أحسن حالاً ، فهي تحمل أوزاراً من الأثقال ، ولكن هؤلاء
 يحملون أوزاراً من الآثام ، والدواب تخط عنها أوزارها ، فتذهب وتسترع ،
 وهؤلاء يذهبون بأوزارهم الى جهنم مشيعين بالتأثم » .

(وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) . تقدم نظيره في الآية ١٨٥ من آل عمران
 ج ٢ ص ٢٢٤ .

قد نعلم انه ليحزنك الآية ٣٣ - ٣٧ :

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ
 الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا
 عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ
 جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِنْ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ
 أَنْ تَبْغِي نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ
 اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ
 يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ

عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ★

اللمعة :

النبا الخبر ذو الشأن العظيم . والتفق حفرة نافذة لها مدخل ومخرج . والسلام
الدرج مأخوذ من السلامة .

الأعراب :

قد نعلم مضارع بمعنى الماضي ، أي قد علمنا . وحتى بمعنى إلى ، وإن
مضمرة بعدها ، والمصدر المنسبك مجرور بها ، متعلق بصبروا . وفاصل جاءك
محذوف ، والتقدير جاءك نبأ من نبأ المرسلين . وجواب (إن كان كبير) فإن
استطعت . وجواب (إن استطعت) محذوف أي فافعل . والموتى الواو
للاستئناف والموتى مبتدأ وخبره جملة يبعثهم . ومن ربه متعلق بمحذوف صفة
لآية .

المعنى :

(قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون) . الخطاب للنبي (ص) ، وقد للتحقيق ،
ونعلم بمعنى علمنا ، وضمير يقولون راجع إلى الذين كذبوا النبي (ص) ، أما
الذي يقولون، بل قالوه بالفعل فهو ما أشار إليه سبحانه في الآية ١٤ من الدخان :
« ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » . والآية ٢ من يونس : « قال الكافرون
إن هذا لساحر مبين » إلى غير ذلك من الآيات .

(فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) . كل من حارب

سورة الأنعام

حقاً ، لأنه على حق فقد حارب الحق بالذات ، وكل من استخف برسول ، لأنه يحمل رسالة المرسل فقد استخف بمن أرسله ، لا بشخص الرسول .. وكان مشركو مكة يسمون محمداً (ص) الصادق الأمين قبل الرسالة، ولما جاءهم برسالة الله ، وأقام عليهم الحجة تصدوا لحربه ، وقالوا : ساحر مجنون .. فتكذبيهم له ، والحال هذه ، تكذيب لرسالة الله وآياته ، ولا شيء أدل على ذلك من قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم - ١٠ الفتح » .

(ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وادؤا حتى أتاهم نصرنا) . يقول سبحانه لنبيه : ان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك، وادؤا في سبيل رسالته ، فصبروا على الإيذاء ، حتى أتاهم النصر ، فاصبر أنت كما صبروا ، والله ينصرك كما نصرهم ..

هذا هو المحور الذي تدور عليه الحياة ، صراع بين الخير والشر ، والحق والباطل ، ومحال أن ينصر الحق مناصر ، ولا يلقي الأذى من أعداء الحق .. وأيضاً لا ينتصر الحق إلا إذا وجد أنصاراً يصبرون على الجهاد في سبيله، ويدفعون ثمنه من أنفسهم وأهلهم وأموالهم ، سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وهذا هو معنى قوله تعالى : (ولا مبدل لكلمات الله) .

ولا أعرف عصراً بلغ فيه المبتطلون من القوة كهذا العصر الذي نعيش فيه ، فقد أقاموا في كل بقعة قواعد للحرب ، وأوكساراً للتخريب ، وتسلموا بأشد الأسلحة فتكاً ، وأكثرها دماراً ، وسيطروا على مقدرات الشعوب المستضعفة ، والبنوك والمصارف ، والصحف والمطابع ، ودور النشر والتوزيع إلا ما ندر ، حتى وجد المخلص الأمين نفسه معزولاً منبوذاً لا يستطيع أن ينشر مقالاً حراً ، أو يذيع من وسائل الاذاعة كلمة حق ، أما الخائن فأين انجاة يجد الترحيب والإكبار .

(ولقد جاءك من نبي المرسلين) . أي لقد قصصنا عليك من قبل ما لاقى الأنبياء من أقوامهم ، وكيف صبروا على التكذيب والأذى ، وان النصر في

النهاية كان لهم على المكذبين ، وهذه السنة تجري عليك ، تماماً كما جرت عليهم.. ولا مبدل للكلمات الله .

(وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبغني نفقاً في الأرض أو مسلماً في السماء فتأتيهم بآية) . هذه الآية نظير قوله تعالى مخاطباً نبيه الأكرم : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون - ٨ فاطر » ، كل منها تصور الحرقه والألم الذي كان الرسول الأعظم يعانيه من اعراض المشركين عن دعوته ، وكل منها يهدف الى التخفيف والتسرية عنه صلى الله عليه وآله .. لاقى النبي من قومه ما يذهب بحلم الحليم ، فصبر واحتسب ، ولم يدع عليهم ، بل دعا لهم ، وقال : « اللهم اغفر لقومي ، أنهم لا يعلمون » ومع ذلك كان يتألم ويتوجع لكفرهم ، فخاطبه الله بهذه الآية ليخفف عنه ، ويبأس منهم ، ويصرف النظر عنهم ، ثم ينتظر قليلاً ليرى كيف تكون عاقبة المكذبين .

(ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) . قال الرازي : يدل هذا على انه تعالى لا يريد الايمان من الكافر ، بل يريد ابقائه على الكفر .

وبلاحظ بأن هذا هو الظلم بعينه ، والله سبحانه ليس بظلام للعبيد ، والصحيح في معنى هذه الجملة ان الله سبحانه لا يريد أن يلجئ أحداً الى الايمان به ، بل يدع الخيار له بعد أن يقيم الحجة عليه بالدلائل والبيّنات ، ولو أراد الايمان من عباده بإرادة « كن فيكون » ما كفر واحد منهم ، ولكن شاءت حكمته تعالى أن يتدخل في شؤون الناس كأمر وناصح ، لا كخالق وقاهر . وسبق التفصيل والتوضيح عند تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة ، فقرة التكوين والتشريع ح ١ ص ٧٢ .

(فلا تكونن من الجاهلين) . وكيف يكون الرسول الأعظم من الجاهلين ، وأخلاقه أخلاق القرآن ؟ . وإنما ساء هذا الخطاب لأشرف الخلق ، لأنه من خالق الخلق ، لا من النظير والمثل

(انما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعتهم الله ثم اليه يرجعون) . هذه الآية نظير قوله تعالى : « انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين - ٨٠ النمل » ، والمعنى ان الذين تحرس على هداهم يا محمد لا يسمعون

سورة الأنعام

منك سماع فهم وتدبر ، لأن حب الدنيا جعلهم كالموتى .. والموتى لا ينبغي أن يخاطبوا بشيء ، بل يتركوا وشأنهم إلى يوم القيامة ، حيث يرون العذاب الذي لا يجدون عنه مهرباً .

(وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه) . وتساءل : كيف قالوا هذا ، مع ان الله قد أنزل على محمد (ص) العديد من الآيات والبينات ؟ .

الجواب : ان المراد بالآية هنا المعجزة التي اقترحوها ، وجعلوها شرطاً لإيمانهم بمحمد (ص) ، ولم يريدوا آية تُقنع طالب الحق لوجه الحق ، ولو أرادوها لكانوا في غنى عن قولهم : لولا نزل عليه آية (قل ان الله قادر على ان ينزل آية) من النوع الذي اقترحوه ، ولكنه تعالى لا ينزلها تلبية للشهوات والأهواء ، وانما ينزل الآيات على ما تقتضيه حكمته جل وعلا (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ان الله ينزل الآية حسب حكمته ، لا حسب أهواء الناس .

الدواب والطيور ام الآية ٣٨ - ٣٩ :

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلَكُمْ
مَا فَرَقْنَاهُ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُخْشَرُونَ* وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ
يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ*

اللغة :

الدابة كل ما يذهب على الأرض من انسان وحيوان وحشرة . والأمم واحدها أمة ، وهي كل جماعة ذات خصائص واحدة ، والتفریط التقصير .

الاعراب :

وما من دابة (من) زائدة ، ودابة مبتدأ ، والخبر أمم ، وأمثالكم صفة لأمم . من شيء (من) زائدة وشيء مفعول مطلق لفرطنا ، لأنها واقعة موقع المصدر ، وهو التصريط . والذين كذبوا مبتدأ ، وصم خبر مبتدأ محذوف ، ومثله وبكم ، والتقدير بعضهم صم ، وبعضهم بكم ، والجملة خبر الذين . وفي الظلمات متعلق بمحذوف خبراً ثانياً .

المعنى :

(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمُّ أمثالكم) . بين سبحانه في هذه الآية ان بيننا وبين الدواب والطيور نوعاً من الشبه ، ولكنه لم يصرح بهذا النوع : هل تشبهنا الدواب والطيور في أنها مخلوقة لله ، أو في إيمانها به ، وتسييحها بحمده ، أو في أنها أصناف مصنفة تعرف بأسمائها ، كما تعرف الأسر والقبائل ، أو في تدبير معاشها ، وتصريف الأمور وفقاً لمصالحها ؟ وعلى أية حال ، فقد تفرغ كثير من العلماء لدرس طبائع الحيوانات والحشرات والطيور . وغرائرها وأعمالها ، ووقفوا على أسرار غريبة تشهد بوجود مديبر حكيم ، نذكر منها على سبيل المثال ان الفيلة تعتقد المحاكم للمخالفات التي تقع من بعضها ، وتصدر المحكمة حكمها على الفيل المذنب بالنفي عن الجماعة ليعيش وحيداً في عزله .

والغراب إذا أحس بالخطر على الغراب أنذرهما بصوت خاص ، أما في حال المرح فإنه يخرج صوتاً قريباً من القهقهة .
وتسأل : ما هي الفائدة في قوله تعالى : (يطير بجناحيه) مع ان كلمة طائر بذاتها تدل على ذلك ؟ .

الجواب : لا فائدة - فيما نعلم - سوى فصاحة الكلام .

(ما فرطنا في الكتاب من شيء) . قيل : المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ المشتمل على ما كان ويكون ، وقول ثانٍ : انه كتابة عن علم الله بنوايا الانسان

سورة الأنعام

وأقواله وأفعاله ، وثالث : انه القرآن ، وان الله سبحانه يبين فيه كل ما يجب بيانه للناس من أصول الدين وفروعه ، وما يتعلق بهما ، واختارنا هذا القول في ج ١ ص ٣٨ فقرة القرآن والعلم الحديث .

(ثم الى ربهم يحشرون) . ظاهر الكلام يدل على ان الله يحشر الدواب والطيور يوم القيامة ، تماماً كما يحشر الناس ، وكذلك الآية هـ من التكويد : « وإذا الوحوش حشرت » . وقال كثير من العلماء بذلك استناداً الى ظاهر الآيتين ، وإلى حديث : « ان الله يقتص غداً للجهنم من القرناء » .

ونحن مع ابن عباس الذي قال : المراد يحشر البهائم موتها ، كما ورد في حديث : « من مات فقد قامت قيامته » لأن الحساب والعقاب إنما يكون بعد التكليف ومخالفته ، ولا تكليف إلا مع العقل ، ولا عقل للدواب والطيور فلا تكليف ، وبالتالي فلا حشر للحساب ، ولو حوسب الدواب لحوسب الأطفال بطريق أولى .

أما حديث « يقتص للجهنم » فهو كناية عن عدل الله تعالى ، وانه لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها .. وإذا كان الله يعاقب القرناء إذا تطحنت الجاهم فبالأولى أن يحرم علينا ذبح الحيوان .. أما قول من قال : ان الله يعوض غداً الحيوان عن آلامه فهو قول على الله بغير علم .

(والذين كفروا بآياتنا صم وبكم في الظلمات) . أي انهم كالصم ، لأنهم لا يستمعون إلى دعوة الحق ، وهم كالكم ، لأنهم لا ينطقون بما عرفوا من الحق ، وهم في ظلمات التقليد ، وظلمات الشرك والكفر والفسق والآثام . (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) . تقدم الكلام عن الضلال والهداية عند تفسير الآية ٢٦ من البقرة : فقرة « الهدى والضلال » ج ١ ص ٧٠ ، والآية ٨٨ من النساء فقرة « الاضلال من الله سلبى لا إيجابى » .

قل أرايتكم الآية ٤٠ - ٤٥ :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *

اللفظة :

البأساء من البؤس ، وهو المشقة . والبأس الشدة ، والمراد به هنا العذاب .
والضراء من الضر ضد النفع . ومبلسون جمع مبلس ، وهو المتحسر الآيس .
ودابر القوم آخرهم .

الإعراب :

أرأيتم الصيغة للاستفهام ، والمعنى اخبروني ، والكاف حرف خطاب لا عمل لها من الإعراب ، ومثلها أرأيتك وأرأيكما وأرأيكن . وغير مفعول تدعون . وكذلك إياه . وإذ ظرف منصوب بتضرعوا . وبغته حال من فاعل أخذناهم على معنى مباغتين ، ويجوز من المفعول على معنى مبغوتين . فإذا هم مبلسون إذا للمفاجأة ، وهم مبتدأ ومبلسون خبر .

المعنى :

(قل أرايتكم إن أناكم عذاب الله أو أنتم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين) . أمر الله سبحانه رسوله الكريم أن يقول للمشركين : أخبروني إن أناكم عذاب الله كالذي نزل بالذين كذبوا رسلهم ، أو جاءكم الموت بسكراته والقيامة بأهوالها ، أندعون في هذه الحال ما كنتم تعبدون من الأصنام والأوثان التي زعمتم أنها تكشف عنكم الخزي والعذاب ؟ والقصد من مجموع هذه الآية إن الكافرين يترأون غداً مما أشركوا ، ويلجأون إلى الله بعد أن يتبين لهم أنه لا حول ولا قوة إلا به وحده لا شريك له .

الله والفطرة :

(بل إياه تدعون) . بعد أن سألهم : أغير الله تدعون يوم الهول الأكبر قرر الجواب بقوله : (بل إياه تدعون) وهذا هو الجواب الذي تؤمن به وتجب ديناً وآخره فطرة الله التي فطر الناس عليها .. وليس معنى فطرة الله أن الإنسان يدرك الخالق تلقائياً ومن غير دليل . كلا ، وإلا لم يكفر أحد بالله ، وإنما معنى هذه الفطرة أن الله أودع في الإنسان غريزة الاستعداد لفهم الدلائل الدالة على وجوده ، وهذا الاستعداد لا يفارق الإنسان بحال ، ومن كفر فلنما يكفر مقصراً ومتهاوناً بالاعراض عن النظر في الدلائل والبيانات ، فاستحق العذاب لهذا الإهمال ، إذ لا فرق أبداً في نظر العقل بين من ترك العمل بعلمه متعمداً ، وبين من ترك الحق واتبع الباطل جهلاً بهما ، مع قدرته على معرفتهما والتمييز بين الهدى والضلال ، ولكنه ترك تهاناً واستخفافاً . أجل قد يحتجب هذا الاستعداد ، وهذا الإدراك الفطري وراء ستار من التقليد والريبة والشهوات ، تماماً كما تحتجب الشمس وراء السحاب ، فيُخِيلُ للجاهل المحجوب أنه كافر بالله لعدم الدليل ، والدليل كامن في ذاته وفطرته التي فطره الله عليها . ويوم القيامة تزول الحجب الطارئة ، وتظهر الحقيقة واضحة للعيان ، ولا يبقى مجال للشك والانكار .

(فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) . ضمير إليه يعود إلى الكشف ، وهو

الجزء السابع

مصدر متصيد من يكشف ، والمعنى أنهم يدعون الله الى كشف العذاب عنهم :
« اكشف عنا العذاب - ١٢ الدخان ، والله سبحانه يكشف عنهم ان شاء »
وان لم يشأ لم يكشف (وتنتون ما تشركون) أي انكم أيها المشركون تتركون
يوم القيامة دعوة الأصنام التي كنتم تعبدونها في الدنيا ، وتدعون الله وحده ،
حيث يظهر كل شيء على حقيقته .

(ولقد أرسلنا إلى أم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) .
ان الله سبحانه لا يعاقب عباده إلا بعد أن يرسل اليهم رسولا يرشدهم الى طريق
الهداية ، فلن لم يهتدوا منحهم الفرصة ليراجعوا أنفسهم ، وامتنعهم بالبلاء
ليتضرعوا ويتوبوا ، ولكنهم أصروا على المعصية ، كما قال تعالى في الآية التالية :

(فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما
كانوا يعملون) . يقول جسر ثناؤه : أنهم لم يتضرعوا حين جاءهم بأسنا في
الدنيا ، ولم يتذلّلوا لله ، ويتزلّوا عن عنادهم ، بل أصروا على الكفر ، وكان
الشيطان من ورائهم يزيّن لهم ما هم فيه من ضلال وفساد .

وتدل هذه الآية على ان الله سبحانه يقبل كل من لجأ اليه ، حتى ولو كان
التجاؤه لضغط الشدائد والنوازل .. وهذا هو شأن الكريم والعظيم ، لا يرد سائلا
ولا يخيب أملا ، مهما كانت دوافعه .

(فلما نسا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما
أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) . أنذرهم أولا بالقول على لسان الأنبياء
وثانياً بالفعل ، حيث امتنعهم بالبلاء والضراء ، ولما أصروا على الكفر والعناد
فتح عليهم أبواب الرزق والرخاء لاقاء الحجة والاستدراج بالنعم بعد الامتحان
بالنقم ، ولما فرحوا بالرخاء ، وازدادوا بطرا وكبرا ، ولم يأبوا إلى رشد
أخذهم الله بالعذاب ، من حيث لا يحتسبون ، فتحسروا على التضييق ، وآيسوا
من النجاة .

والخلاصة ان الله سبحانه عاملهم بالضراء تارة ، وبالسراء أخرى حبا لمجهودهم
تماما كما يفعل الوالد الشفوق بولده طلبا لصلاحه .. ولكنهم لم يشكروا الرخاء ،
ولم يعظّموا بالبلاء ، فاستأصلهم عن آخرهم ، ولم يُبق منهم واحدا ، ليعتبر بهم

سورة الأنعام

من يأتي من بعدهم (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)
على انعامه على المؤمنين ، ونصرهم على أهل الكفر والفساد .

ان اخذ الله سمعكم وابصاركم الآية ٤٦ - ٤٩ :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ
إِلَهُ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ*
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ
آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ*

اللقية :

نصرَفُ الآيات نكرها على وجوه مختلفة . ويصدفون يُعْرِضُونَ .

الاعراب :

من مبتدأ ، وإله خبر ، وغير الله صفة لإله ، وجملة يأتيكم صفة ثانية .
والضمير في (به) يعود إلى معنى المأخوذ ، وهو السمع والبصر . وكيف حال
من ضمير نصرَفُ . وبغته حال من ضمير أتاكم . ومبشرين ومنذرين حال من
المرسلين . وبما كانوا (ما) مصدرية والمصدر المنسبك مجرور بالباء متعلق
بهم .

المعنى :

(قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به) . الانسان بسمعه وبصره وقلبه ، فلو زالت هذه عنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، وكان الحيوان خيراً منه .. وليس من شك ان الله قادر على أخذها لأنه خالقها ، والقصد من هذه الإشارة أن يذكر سبحانه الكافرين ان ما يتخذون من دونه آلهة وأولياء لا يدفعون عنهم ضرراً ، ولا يجلبون لهم نفعاً : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له - ١٢ الرعد » .

(أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون) . أي أقننا عليهم الحجة تلو الحجة بأساليب شتى ، ليتعظوا ويعتبروا ، وقطعنا لهم كل معذرة ليذعنوا ويؤمنوا ، فما زادتهم الدلائل القاطعة إلا تمادياً في الكفر والغي والعتاد .

(قل أرأيتم ان أناكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون) . مرة ثانية يعظمهم الله ويهددهم باتيان العذاب الذي لا يستطيعون له دفعاً ، سواء أجهاهم بغتة ومن حيث لا يحتسبون ، أو جهرة من حيث هم متأهبون له ، مرة ثانية في هذه الآيات يعظمهم الله ويهددهم ليتقوا العذاب قبل وقوعه، ويثوبوا إلى رشدهم ، ولكن قست القلوب ، فلم تمل لحق ولا هداية .

(وما فرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) . هذه هي وظيفة الرسول ، يشير الطائع ، وينذر العاصي ، وهذه الوظيفة على بساطة تحديدها ، ووضوح مفهومها هي من أشق الوظائف ، وأكثرها صعوبة ، لأنها تمس حياة الطفلة مباشرة ، وتعارضهم في مصالحهم ومنافعهم . وتنتهي وظيفة الرسول بثواب من آمن وعمل صالحاً ، وعقاب من كفر وكذب بآيات الله (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . لأن المجرم هو الذي يخاف ويحزن، أما البريء فهو في أمان واطمئنان. (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون) . الفسق أعم من الكفر ، فكل كافر فاسق ، ولا عكس ، والمراد بالفسق هنا الكفر بدليل قوله تعالى : (كذبوا بآياتنا) .

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ
إِنِّي مَلَكَُ إِنِّ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ * وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ
لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ
وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ *
وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا
أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ
سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَكَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِّلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ *

اللغة :

الغداة والغدوة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . والعشي من المغرب
إلى العشاء . وفتننا ابتلينا . والسلام من أسماء الله تعالى ، وسلام عليكم تحية بالدعاء
لمن نحييه أن يسلم من كل سوء ، ويأمن من كل أذى . والجهالة السفه .

الإعراب :

جملة يريدون حال من الواو في يدعون . ومن شيء (من) زائدة، وشيء مبتدأ ، وعليك خبر ، ومن حسابهم حال من شيء ، ومثله: وما من حسابك عليهم من شيء . وفتطردهم منصوب بأن مضمرة لأنه جواب للنهي ، وهو ما عليك . وفتكون مثله لأنه جواب للنهي ، وهو لا تطرد . سلام عليكم مبتدأ وخبر ، والجملة مفعول القول . والمصدر المنسبك من انه (من عمل) بدل من الرحمة، أي كتب انه من عمل . وكذلك (الكاف) بمعنى مثل في محل نصب صفة لمصدر محذوف ، أي تفصل الآيات تفصيلاً مثل ذلك .

المعنى :

(قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ان اتبع إلا ما يوحى إليّ) . طلب المشركون من النبي (ص) أن يخبرهم بالغيب ويفجر ينبابيع . ويأتي بالملائكة ، ويرقى إلى السماء ، ويسقطها عليهم، وما إلى ذلك مما لا يمت إلى موضوع الرسالة بصلة ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، وأمره النبي أن يقول لهم : انه ليس بإله ، ولا ملك ، وإنما هو بشر يوحى اليه وكفى .

وبتعبير ثان ان للإله صفات تخصه ، ومنها انه قادر على كل شيء ، عالم بكل شيء ، وأيضاً للملك صفات تخصه ، ومنها انه يرقى إلى السماء، ولا يأكل الطعام ، ولا يمشي في الأسواق ، أما الرسول فهو بشر كسائر الناس ، وإنما يمتاز عنهم بتزول الوحي عليه من ربه ، مبشراً من استجاب له بحسن الثواب ، ومنذراً من أعرض بسوء العقاب ، وليس من موضوع الرسالة واختصاصها أن يتنبأ بالغيب ، ويأتي بالخوارق ، فالخلط بين صفات الله وصفات ملائكته ورسله جهل وعي .

(قل هل يستوي الأعمى والبصير) . أي فرقٌ بعيد بين الجاهل الضال الذي لا يفرق بين صفات الله وصفات الرسول ، وبين من يعرف ان الرسول بشر

سورة الأنعام

يجري عليه ما يجري على غيره من الناس إلا انه يوحى اليه (أفلا تتفكرون)
في ان الرسول ليس إلهاً ولا ملكاً ، وانه بشير ونذير ، فتتصفوا من أنفسكم ،
وتؤمنوا بلا إله إلا الله محمد رسول الله ٩.

(وأنذر به الذين يخافون ان يحشروا إلى ربهم) . الضمير في (به) يعود
إلى القرآن الذي تقدمت اليه الإشارة في قوله تعالى : (ان أنبئ إلا ما يوحى إلي) .
واختلف المفسرون في المراد من قوله : (الذين يخافون ان يحشروا إلى ربهم) :
هل هم المؤمنون ، أو الكافرون بالنظر إلى أن بعضهم كان يتأثر من تخويف
النبي وإنذاره ، كما جاء في تفسير الرازي .

وفي رأينا ان النبي (ص) بعد أن أنذر الناس بما تقوم به الحجة عليهم أمره
الله سبحانه في هذه الآية أن يستمر ويتابع إنذار المؤمنين بالقرآن ليزدادوا إيماناً
وعلماً بالدين وأحكامه ، وأيضاً أن ينذر به غير المؤمنين ممن ترجى هدايته بمتابعة
الإنذار وتكراره .

(ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون) . أي حين تنذرهم
يا محمد يستمعون اليك ، ويتنفعون بإنذارك لهم ، ويدركون انه لا ولي ينصرهم
من دون الله ، ولا شفيع يشفع عنده إلا باذنه .

(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من
حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء) . الغداة والعشي كناية عن
مداومة ذكرهم لله وعبادتهم له ، كما تقول : الحمد لله بكرة واصيلاً ، ووجه
الله كناية عن الله ، لأنه تعالى ليس كمثله شيء ، وضمير حسابهم وعليهم
وتطردهم يعود إلى المؤمنين الذين يدعون ربهم ، ومعنى ما عليك من حسابهم
ان حسابهم وحساب غيرهم لا يدخل في موضوع النبوة ، ولا هو من شؤونها ،
وانما حسابهم على الله وحده ، تماماً كحسابك أنت يا محمد ، لا فرق بينك
وبينهم من هذه الحيثية .

ان المسلم يؤمن بإيماناً قاطعاً بأن محمداً (ص) أشرف الخلق على الإطلاق ،
وفي الوقت نفسه يؤمن بأن عظمة محمد لا تحول له أن يحاسب أحداً ، أو يعاقبه
أو يبيحه ، ان الحساب والجزاء لله ومن الله وحده لا شريك له ، وبهذه الفضيلة

امتاز الاسلام عن جميع الأديان ، بنفي السبيل للانسان على انسان كائناً من كان وبها نمتز نحن المسلمين ونفاخر الاشتراكيين والشيوعيين والقوميين والديمقراطيين ، وجميع أهل الأديان والمذاهب

وذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية ان المترفين من قريش مروا برسول الله (ص) ، وعنده عمار بن ياسر وخباب وبلال وغيرهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا يا محمد أَرْضَيْتَ هؤلاء ؟ هؤلاء نَكُونُ تبعاً ، فنَحْنُهم عنك ، حتى نَخْلُوا بك ، ثم إذا انصرفنا فأَعِدْهم إلى مجلسك ان شئت .. وقيل ان النبي (ص) أراد أن يَجْبِيهم إلى ما طلبوا فَنَزَلَتِ الآية .

وظاهر اللفظ لا يأبى ذلك ، بخاصة قوله : (فَنَطْرُدْهم فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ) لهم حيث انهم أولى بمجلسك والاستفادة منك ، وبتعبير ثانٍ ان النبي أراد أن يقرب الأغنياء لِيَسْتَفِيدُوا منه ، فقال له الجليل : الفقراء أولى بالاستفادة ، فإن تركت هذا الأولى ظلمت الفقراء المؤمنين من حيث الاستفادة .

وتسأل : الا يتنافى ترك الأولى والأرجح مع العصمة ؟

الجواب : ان ترك الأولى جائز ، وليس محرماً ، حتى يتنافى مع العصمة .. هذا ، إلى أن النبي لم يحاول طرد الفقراء استنكافاً من فقرهم ، بل حرصاً وطمعاً في اسلام الرؤوس ، فنبه سبحانه النبي الى أن الاسلام غني عن هؤلاء المتكبرين الطغاة ، وان لهم يوماً يستسلمون فيه أذلاء صاغرين ، كما حدث بالفعل .

(وكذلك . فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) . معنى الفتنة هنا الاختبار ، واختبار الله لعبده أن يظهره للملأ على حقيقته عن طريق أفعاله وأعماله ، كما بينا ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٩٤ من سورة المائدة ، فقرة : معنى الاختبار من الله . والسلام في ليقولوا للعاقبة ، أي اختبرنا الأغنياء بالفقراء ، ليشكروا الله على نعمته عليهم ، قال أمرهم الى التكبر والاستعلاء ، قال الإمام علي (ع) :

« لا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد جهلاً بمواقع الفتنة والاختبار في مواضع الغنى والافتقار ، وقد قال سبحانه : « أحسبون أننا نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون - ٥٦ المؤمنون » . فان الله سبحانه

سورة الألعام

يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعيانهم . واقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون (ع) على فرعون ، وعليها مدارع الصوف ، وبأيديهما العصي ، فشرطا إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه ، فقال : ألا تعجبون من هذين بشرطان لي دوام العز وبقاء الملك ، وهما بما ترون من حال الفقر والذل ؟ . فهلا القي عليهما اسارة من ذهب ؟ . - إلى قوله - : ولكن الله سبحانه جعل رسله أولى قوة في عزائمهم ، وضعفة فيما ترى الأعين من حالهم .

السلام عليكم ورحمة الله :

(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة). قال رسول الله (ص) : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » . وأي أدب كأدب خالق السموات والأرض ؟ . وأية نفس ينمو ويثمر فيها الأدب الإلهي كتفس محمد؟ . لقد أدب سبحانه هذه النفس الطيبة الزاكية ، ليؤهلها لرسالته ، رسالة الرحمة للعالمين التي بها وبصاحبها تمت مكارم الأخلاق .. أدب الله محمداً في العديد من آياته ، ومنها هذه الآية ، وهي تعلّم رسول الله وخير خلق الله كيف يسلك ويعامل الضعفاء والمساكين .. فكان يلقاهم بالبشاشة والرحاب ، ويقول : سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ، ويحبس نفسه معهم ، ما داموا في مجلسه ، حتى يكونوا هم الذين ينصرفون .

وإذا كان النبي مقصود الله بهذا التأديب فنحن مقصودون بالتأسي والافتداء به ، فلا نكرم أحداً لمال أو جاه أو جنس ولون ، وإنما نكرم ونحترم للدين والخلق الكريم ، قال بعض المفسرين الجلد : « كانت الحياة البشرية قبل محمد (ص) في الحضيض ، فرفعها محمد إلى القمة ، وتراجعت الآن عن القمة السامقة ، وانحدرت في نيويورك وواشنطن وشيكاغو ، حيث العصبيات التنتة ، عصبيات الجنس واللون » .

أجل ، لا جنس ولا لون ، ولا جاه ولا ثراء ، لا فضل في الإسلام إلا بالتقوى ، وفي هذا المبدأ الإسلامي الإلهي يكمن السر لتواضع المراجع الكبار من

الجزء السابع

علماء المسلمين .. يصل اليهم الصغير والكبير على السواء ، دون بواب وحجاب ، ويخاطبهم على سجيته بما شاء ، ودون تكلف وتحفظ .. أما البابا ومن اليه من رؤساء الأديان فلا يحلم بمجالسته ومخاطبته إلا وزير وكبير ، على أن يُحدد له من قبل وقت المقابلة وأمدّها .

وعوداً إلى قوله تعالى : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) . السلام عليكم ورحمة الله، هذه هي تحية الإسلام ، دعاء بالنجاة لمن تحييه من كسل سوء ، والعيش بأمان واطمئنان ، وبرحمة الله ورضوانه ، إذ لا نجاة ولا أمان مع غضبه جل وعلا ، أما إذا عطفت بركات الله على رحمته فقد دعوت لصاحبك بالرزق الواسع ، والعطاء الجزيل .. وأين « مرحباً وصباح الخير ونهارك سعيد » من هذه التحية الإلهية الإسلامية ؟! . وسبق قوله تعالى : (كتب على نفسه الرحمة) في الآية ١٢ من هذه السورة ، وقلنا في تفسيرها : ان رحمته تعالى لا تنفك عن ذاته القدسية ، تماماً كقدرته وعلمه .

(انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم) . المراد بالجهالة هنا السفاهة ، أما التوبة فقد عقدنا لها فصلاً خاصاً بعنوان « التوبة والافترة » عند تفسير الآية ١٨ من سورة النساء (فانه غفور رحيم) هذا هو الرب الذي نعبده ، يغفر لمن أناب ، ويرحم العباد ، وكل من رحم الناس وعمل لصالحهم فقد عبّد الله في عمله ، وان جحدته بلسانه ، وكل من اعتدى على حق من حقوقهم فقد كفر بالله - عملياً - وإن هلك وكبّر .

(وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) . ذكر سبحانه في كتابه صفات الصالحين ، وأيضاً ذكر صفات المجرمين ، ليظهر كل فتنة بساتها .. هذا، إلى أن معرفة إحدى الفئتين تستدعي معرفة الأخرى، تماماً كالمهداية والضلالة .

لا اتبع أهواءكم الآية ٥٦ - ٥٨ :

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ

سورة الأنعام

أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَفْصِلُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ * قُلْ لَوْ أَنَّنِي عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفَضِّيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ *

اللغة :

القصص تتبع الأثر ، أو ذكر الخبر ، وهذا المعنى هو المراد هنا . والفصل القضاء والحكم .

الاهواب :

اذأ، معناها الجزاء ، أي ان اتبعت أهواءكم فقد ضللت . وضمير به يعود إلى ربي . وكذبتم به يجوز أن تكون الواو للاستئناف ، ويجوز للحال على اضمار قد قبل كذبتم ، لأن المقرون بالواو لا يكون حالاً إلا مع قد ظاهرة أو مضمرة .

المعنى :

(قل اني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله) . في الآية السابقة أشار سبحانه إلى سبيل المجرمين ، وفي هذه بيّن هذا السبيل ، وانه عبادة غير الله (قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت لذن وما أنا من المهتدين) . لأن دعوتهم لا مصدر لها إلا الهوى والضلال ، فكيف يتبعها الرسول الأعظم ؟ . (قل انني على بينة من ربي وكذبتم به) . أي اني أعبد الله عن علم ، وأنتم كفرتم به ، وعبدتم الأصنام عن جهل ، وفي أي منطق يكون العالم تابعا للجاهل ، والمبطل قائدا للمحق .

(ما عندي ما تستعجلون به) . لما دعاهم رسول الله إلى الإيمان قالوا له : « فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فأمره الله سبحانه أن يقول لهم : (ما عندي ما تستعجلون به) بل هو عند الله ينزله في الوقت الذي يريد ، ولا قدرة لي على تقديمه أو تأخيره (ان الحكم إلا لله) في تنزيل العذاب وتقديمه وتأخيره ، وفي كل شيء (بقص الحق) أي يقول الحق (وهو خير الفاصلين) لا يظلم أحداً في فصله وقضائه .

(قل لو كان عندي ما تستعجلون به) من العذاب (لفضي الأمر بيني وبينكم) باهلاك من ظلم منكم غضباً لله تعالى (والله أعلم بالظالمين) يجعل أو يؤجل العذاب على ما تقتضيه حكمته .

وعنده مفاتيح الغيب الآية ٥٩ - ٦٢ :

وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ *

اللغة :

مفاتيح جمع مفتاح بفتح الميم ، وهو المخزن ، وبكسرهما المفتاح الذي تفتح

سورة الأنعام

به الأقفال ، ومفاتيح جمع مِفْتَاح . وجرحتم أي كسبتم من جوارح الانسان ، وهي أعضاؤه التي يكسب بها الأعمال . والأجل المسمى الأمد المعلوم . والمراد بالحفظة الملائكة الذين يحفظون على الانسان أعماله .

الاعراب :

جملة لا يعلمها إلا هو حال من مفاتيح . ومن ورقة (من) زائدة وورقة فاعل تسقط . إلا في كتاب مبین لا يجوز أن يكون استثناء من وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، إذ بصير المعنى انه تعالى يعلم كل شيء إلا الموجود في كتاب مبین فإنه لا يعلمه، تماماً كما تقول : لا شيء إلا أنا عالم به إلا ما في الصندوق، وعليه يمين ان يتعلق في كتاب مبین بخبر محذوف لابتداء محذوف ، تقديره إلا هو موجود في كتاب مبین . بالنهار الياء بمعنى في . ومولاهم صفة لله . والحق صفة ثانية .

المعنى :

(وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبین) . مفاتيح الغيب خزائنه ، والمعنى ان الله يعلم الكون وما حدث ويحدث فيه كلياً كان أو جزئياً ، مادياً كان أو معنوياً ، ولا يتقيد علمه تعالى بزمان أو مكان أو بحال دون حال ، لأن علمه ذاتي لا كسبي ، وليس لداته زمان ومكان ، ولا هي تتغير بتغير الأحداث والأحوال . وفي الحديث : « ان مفاتيح الغيب خمس : » ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيب ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت - ٣٤ لقمان . وقال الفيلسوف الملا صدرا : « إن جميع الأشياء الكلية والجزئية فائضة عنه ، وهو مبدأ لكل موجود عقلياً كان أو حسياً ، ذهنياً كان أو عينياً ، وفيضاً عنه لا ينفك عن انكشافها لديه . »

الجزء السابع

وقال العلامة الحلي المتكلم : « كل موجود سوى الله فهو ممكن مستند إليه ، فيكون عالماً به ، سواء أكان جزئياً أم كلياً ، وسواء أكان موجوداً قائماً بذاته أم عرضاً قائماً بغيره ، وسواء أكان في الأعيان أم في الأذهان ، لأن وجود الصورة في الذهن من الممكنات أيضاً ، فيستند إليه ، وسواء أكانت الصورة الذهنية صورة أمر وجودي ، أم عدمي ممكن أم ممتنع ، فلا يعزب عن علمه شيء من الممكنات ولا من الممتنعات » .

(وهو الذي يتوفاكم بالليل) . الوفاة والموت بمعنى واحد في مفهوم العرف ، وهو عدم الحياة ، وتستعمل كل من الكلمتين في النوم مجازاً ، لأن الحواس تتعطل عن أعمالها بسببه ، ومنه قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى - ٤٢ الزمر » ، أي ان الله يقطع صلة الأرواح بالأبدان ظاهراً وواقعاً حين الموت ، ويمسكها عنده ، ويقطع هذه الصلة ظاهراً لا واقعاً حين النوم ، وعند اليقظة ترجع الصلة كما كانت وتبقى إلى الوقت المضروب للموت الحقيقي .. فالتائم ميت وحي في آن واحد ، والمراد بالوفاة في الآية الموت المجازي ، قال الإمام علي (ع) : « تخرج الروح عند النوم ، ويبقى شعاعها في الجسد ، وبذلك يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عادت الروح بأسرع من لحظة » .

(ويعلم ما جرحتم بالنهار) . يريد ما كسبت جوارحكم من أعمال (ثم يبعثكم فيه) . ضمير فيه يعود إلى النهار ، ومعنى يبعثكم يوقظكم من النوم . وقال المفسرون : إن هذا الكلام دليل على صحة البعث والقيامة ، لأن النوم يشبه الموت ، واليقظة تشبه الحياة بعده . (ثم ينبثكم بما كنتم تعملون) من خير وشر في ليلكم ونهاركم .

والخلاصة ان كل إنسان يموت بانتهاء أجله المكتوب ، ثم يبعثه الله بعد الموت ، تماماً كما يوقظه من النوم ، ثم يجزي يوم البعث كل نفس بما كسبت ، وهم لا يظلمون .

وإذا قال قائل : لماذا خصت الآية النوم بالليل ، والعمل بالنهار ، مع ان الانسان قد ينام نهاراً ، ويعمل ليلاً ؟ قلنا له : إن الآية وردت مورد الغالب .

سورة الأنعام

(وهو القاهر فوق عباده) . وكفاهم قهراً ان يأتوا إلى هذه الحياة مسيرين ويركوها مكرهين .. قال الإمام علي (ع) : « لا شيء إلا الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها » .

(ويرسل عليكم حفظة) . وهؤلاء الحفظة من الملائكة ، قال تعالى : « وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون - ١٣ الانقطار » . ونحن نؤمن بذلك ، لأن الوحي أخبر عنه ، والعقل لا يأباه ، ولم يرد في كلام الله ، ولا في كلام الرسول بيان لصفة الكاتب والكتابة ، والعقل لا يلزم بالبحث والسؤال عنها ، فندعها لعلم الله تعالى . أما من شبه الملائكة الكاتبين برجال البوليس السري ، كما في تفسير المنار والمراغي ، أما هذا التشبيه فهو من قياس الغيب على الشهادة ، والسماء على الأرض ، مع وجود الفارق البعيد .

(حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) . ونجد تفسيره في قوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم - ١١ السجدة » ، وهذا أيضاً من الغيب الجائر عقلاً ، الثابت وحياً ، تماماً كالحفظة الكاتبين . (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) ليقضي فيهم بحكمه (ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) يحاسب ويحكم وينفذ في أقصر أمد ، لأن الحق جلي ، والحكم مبرم ، والجزاء معد ، وكل شيء يتم بمجرد الإرادة .

قل من ينجيكم الآية ٦٣ - ٦٧ :

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْفَاقِدُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا

وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَفْقَهُونَ * وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ *
لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ *

اللمعة :

المراد بالظلمات هنا الشدائد والأهوال ، يقال لليوم الذي فيه شدة يوم مظلم .
ولبس عليه الأمر إذا لم يبينه ، وخلط بعضه ببعض . والشيع الفرق ، وكل
فرقة شيع على حدة . والفقه فهم الشيء بدليله . والمستقر مكان استقرار الشيء
أو زمانه .

الاهواب :

جملة تدعونه حال من مفعول ينجيكم . ونضرعاً مصدر في موضع الحال، أي
متضرعين . ومن فوقكم متعلق بمحذوف صفة لعذاب . وشيعاً حال من مفعول
يلبسكم . وكيف مفعول نصرف . وبوكيل الباء زائدة ، وبوكيل خبر ليس ،
وعليكم متعلق بوكيل . ولكل خبر مقدم ، ومستقر مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية) . ظلمات
البر والبحر كناية عما يلاقيه الانسان من الشدائد والآلام في حله وترحاله برأ
وبحرأ ، ونعطف عليها جواً بعد أن صرنا في عصر الفضاء ، وهو أكثر خطراً
من البر والبحر ، والمعنى : سل أيها الرسول المشركين والجاحدين ، سلمهم : لمن

سورة الأنعام

يلجأون في ساعة العسرة ، ويتضرعون في سرهم وعلايتهم ، هل يلجأون الى الله ، أو إلى من يعبدون من دونه ؟.

وقننا عند تفسير الآية ٤١ من هذه السورة : ان الفطرة تترك خالقها تلقائياً ، ولكن حجاب التقليد والأهواء يمنع شعاعها عن العيان ، وعند الشدائد يتقشع هذا الحجاب ، وينطق الانسان بفطرته النقية الصافية . ولا أحد ينجو من هذه الشدائد كائناً من كان ، حتى المعافى يخشى الفوائل ، ويخاف من سوء العاقبة إذا كان عاقلاً ، قال الإمام علي (ع) : ما المبلى الذي اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء .

(لئن أنجانا من هذا لنكونن من الشاكرين) . أي انهم يخلصون لله وحده عند الشدة والخوف ، ويقطعون العهد على أنفسهم أن يوحداوا الله ويشكروه إذا انجسهم من ظلمات البر والبحر ، فإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية اشركوا وبغوا ، وقد أثبت العلم ان ضعف الشخصية والارادة يتكيف مع الظروف، تماماً كالماء يتلون بلون الاناء .

(قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) فكان عليكم أن تعظموا نعمة الله وتشكروها (ثم أنتم تشركون) ولكنكم بعد أن انعم عليكم بالنجاة بدلتم نعمة الله كفراً وشركاً .

(قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) كالصواعق والظوفان (أو من تحت أرجلكم) كالخسوف والزلازل (أو يلبسكم شيعاً) أي يخلطكم أو يجعلكم أحزاباً متطاحنة لا تقوم لكم معها قائمة ، أو يجعل الواحد منكم في حرب وخصام مع نفسه يرضى مساء عما غضب عليه صباحاً ، وبالعكس ، فتضطرب حاله ، ولا يستقيم له أمر (ويذيق بعضهم بأساً بعض) . أي يقتل بعضهم بعضاً (انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) . ان الله سبحانه يقيم للناس الحجج والدلائل الواضحة على الحق من الحس والعقل والوجدان ، ويضرب الأمثال من هذه بشئ الأساليب، ليعرفوا الحق فيتبعوه ، والباطل فيجتنبوه ، ومن خالف قامت عليه الحجة ، واستحق العذاب .

(وكلب به قومك وهو الحق) . الخطاب للنبي (ص) ، وضمير به يعود

إلى القرآن الناطق بالدلائل والبيّنات ، وبعذاب من كذب بها (قل لست عليكم بوكيل) . بل بشير وندبر يبلغ ما أرسل به ، ويترك أمر الحساب والعقاب لله وحده .

(ولكل نبي مستقر) . يجوز أن يكون المستقر موضع استقرار الشيء ، أو وقت استقراره ، والمعنى ان لكل خبر يخبره الله زماناً أو مكاناً بقص فيه من غير خلف (ولسوف تعلمون) أو ان وقوعه ، وفيه تهديد ووعد على تكذيب الحق .

حتى يخلصوا في حديث غيره الآية ٦٨ - ٧٠ :

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَقْنُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَقَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ *

الآية :

خاص في الماء دخل فيه ، وخاص في الحديث استمر في قول الباطل .

سورة الأنعام

والذكرى تُستعمل في التذكر ، وهو المراد من (بعد الذكرى) وتستعمل في التذكير ، وهو المراد من (ولكن ذكرى) . والبسل الحبس والمنع ، يقال شجاع باسل ، أي يمنع نفسه ويحبسها عن خصمه ، وإن تبسل نفس ، أي تحبس وترتهن بما كسبت . وإن تعدل العدل بمعنى القداء . والحميم الشديد الحرارة .

الاعراب :

الضمير في غيره يعود إلى معنى الآيات ، وهو القرآن . ومن شيء (من) زائدة ، وشيء مبتدأ وخبره على الذين ، ومن حسابهم متعلق بمحذوف حالاً من شيء ، والتقدير شيء كائناً من حسابهم ، وضمير حسابهم يعود إلى الخافضين الذين دل عليهم يخوضوا ، وذكرى مفعول مطلق ، أي ذكروا تذكيراً . ودينهم مفعول أول لا تخذوا ، ولعباً مفعول ثانٍ . والدنيا صفة الحياة . وتسبك ان تبسل بمصدر مفعولاً من أجله لذكر به . وولي اسم ليس ، ولها خبرها ، ومن دون الله في موضع الحال من ولي . وكل عدل مفعول مطلق ، لأن كلاً تُعطى ما تضاف إليه . وأولئك الذين أبلسوا مبتدأ وخبر ، وجملة لهم شراب حال من الواو في أبلسوا .

المعنى :

(وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) . مر تفسيره في الآية ١٣٩ من سورة النساء .
(وأما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) . الخطاب للنبي ظاهراً ، والمقصود غيره واقعاً ، لأن النبي معصوم عن المعصية والخطأ والنسيان ، والا لم يكن قوله وضعه وتقريره حجة بالغة ، ودليلاً قاطعاً ، لا يقبل الجدل والنقاش .
(وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون) .

أي ليس على المؤمنين المتقين شيء من تبعة الكافرين الذين يخوضون في آيات الله ولكن يذكروهم وينهونهم لعلهم يحذرون الخوض في آياته تعالى .

أما الآية التالية ففيها أمور :

١ - (وذُر الذين اتَّخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا) وذُر الأمر موجه ظاهراً للنبي ، وواقعاً له ولمن تبعه من المؤمنين ، أمرهم الله سبحانه أن يتركوا معاشرَةَ الذين اتَّخذوا دينهم لعباً ولهواً، ولم يأمرهم بإهمالهم وعدم انذارهم، لأن قوله تعالى : (وذكّر به) أمر بالانذار .

وكل من انتسب الى دين من الأديان، ولم يحترم ويقدر جميع مبادئه وأحكامه فقد اتخذ دينه لعباً ولهواً ، فن تكسّب بالدين ، أو وصف حكماً من أحكامه بما يدعو إلى الهزل والسخرية فهو من المعنّين بقوله تعالى : (اتَّخذوا دينهم لعباً ولهواً) . وليس من شك أن من لا يدين بدين خير ممن ينتسب الى دين يهزل بأحكامه ومبادئه ، لأن هذا في واقعه قد اتخذ اللعب واللهو بالدين ديناً له .

٢ - (وذكّر به ان تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع) . بعد أن أمر سبحانه النبي والمؤمنين أن لا يعاشرُوا الذين اتَّخذوا دينهم لعباً ، أمرهم أن يذكروا بالقرآن أولئك الذين يخوضون في آيات الله ، ويتلاعبون بالدين كيلاً يؤخذوا بما كسبت أيديهم من الجرائم والآثام في يوم لا يجدون فيه ناصرأ ينصرهم من دون الله ، ولا شفيعاً يشفع لهم عند الله (وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) . العدل هنا الفدية ، والمعنى انه كما لا يمجّد الكافر ولياً ولا شفيعاً يسوم القيامة كذلك لا تُقبل منه الفدية بالغة ما بلغت ، قال الرازي : « إذا تصور الانسان كيفية العقاب على هذا البرجّه يكاد يرعد اذا أقدم على معاصي الله » .

٣ - (أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم) . أولئك اشارة إلى الذين اتَّخذوا دينهم لعباً ، وأبسلوا بما كسبوا ، أي صاروا مرتنين بأعمالهم، أما قوله : (لهم شراب من حميم وعذاب أليم) فهو بيان للعذاب على كفرهم وعصيانهم .

قل ادعوا من دون الله الآية ٧١ - ٧٣ :

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا
بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ
أَصْحَابٌ يَدْعُوْنَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا
لِّنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُخْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ
كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالَمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ *

اللفظ :

الاعقاب جمع عقب ، وهو مؤخر الرجل ، وتقول العرب فيمن عجز بعد
قدرة : نكص أو ارتد على عقبيه . والحيران الغائه الذي لا يدري ما يصنع ؟ .
والصور في اللغة القرن ، وقد ثقب الناس قرون الوعول وغيرها ، وجعلوا منها
أبواقاً ينفخون فيها .

الإعراب :

كالذي الكاف بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي
نُرد رداً مثل رد الذي استهوته . وحيران حال من ضمير استهوته . وله أصحاب
مبتدأ وخبر ، والجملة صفة لحيران . ولنسلم اللام بمعنى كي ، وإن مقصورة

بعدها ، والمصدر المنسبك مجرور بها متعلق بأمرنا ، والتقدير أمرنا بذلك للإسلام .
وان اقيموا الصلاة عطف على لنسلم . ويوم يقول (يوم) منصوب بمعنى « قوله الحق » . وفاعل كن فيكون ضمير مستتر يعود على الشيء المحذوف ، أي يقول للشيء كن فيكون . وعالم الغيب خبر مبتدأ محذوف ، أي هو عالم الغيب ، ويجوز أن يكون صفة للذي خلق السموات والأرض .

المعنى :

(قل اندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا) . دعا الرسول الأعظم (ص) المشركين الى عبادة الله ، فدعوه بدورهم الى عبادة أصنامهم ، وقبل : اقترحوا عليه أن يعبد معهم آلهتهم ، ويعبدوا معه ربه لقاء عبادته لأصنامهم ، ومهما كان ، فإن الله سبحانه أمره في هذه الآية ان يقول لهم مستكراً : كيف ترك عبادة الله النافع الضار الى عبادة ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرراً ؟ . (وزد على أعقابنا بعد أن هدانا الله) . الرد على الأعقاب كلمة تقال لمن يرجع القهقري ، ولا أحد أكثر تأخراً ، ورجوعاً إلى الوراء ممن أعرض عن الحق الى الباطل ، وعن التوحيد الى الشرك .

(كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى) . هذا مثال ضربه سبحانه لمن أعرض عن التوحيد الى الشرك أو الإلحاد ، ويتلخص بأن مثل هذا كمثل رجل كان مع قافلة تسير على طريق الأمن والسلامة فتركها ، وهام على وجهه في الضلوات ضالاً ، لا يبتدي إلى شيء ، تماماً كالذي يتخطه الشيطان من المس ، فأشفق رفاقه عليه ، ونادوه : هلم الينا .. هذا هو طريق النجاة ، ولكنه لم يستجب لذهوله وحيرته ، فكانت نهايته الوبال والهلاك .

(قل ان هدى الله هو الهدى) . هذا التركيب البياني يفيد ان هدى الله لا يتطرق اليه الشك ، كما يفيد حصر الهداية بالله وحده في كل شيء ، في العقيدة والتشريع والأخلاق والأوضاع .. وأية عقيدة أو فكرة ، أو أي عمل لا يلتقي مع هدى الله فهو جهالة وضلالة (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) . هذا من باب

سورة الأنعام

ذكر الخالص بعد العام ، لأن هدى الله يدخل فيه كل ما أمر الله به ، ونهى عنه ، والقصد من ذكر الاسلام بالخصوص التنبيه الى عظمته (وان اقيموا الصلاة) . اذ لا هداية ، بل ولا اسلام إلا بها ، فانها عمود الدين ، ان قبلت قبل ما سواها ، وان رُدَّت رُدَّ ما سواها ، (واتقوه) : الضمير يعود الى رب العالمين ، وأمر سبحانه بالتقوى بعد الأمر بالصلاة ، لأنه لا صلاة ولا إيمان صحيحاً بلا تقوى ، فعبادة الله حقاً هي السير على منهاجه ، وطاعته في جميع أحكامه ، لا في بعض دون بعض .

(وهو الذي اليه تمحشرون) . قال تعالى : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد - ٢١ ق » ، سائق يسوقها إلى محشرها ، وشاهد يشهد عليها بما أعدت لهذا اليوم .

(وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق) . الحق هنا إشارة إلى أن لتكون قوانين تحكمه ، وسنناً يسر عليها باطراد ، تحول دون الفوضى التي لا يستقيم معها شيء على الإطلاق .. وفي هذا دلالة بالغة على وجود من يدير الأمر ، ويجزي كل نفس بما كسبت .

(ويوم يقول كن فيكون قوله الحق) . في الكلام حذف وتقديم وتأخير ، وأصله هكذا : وقوله الحق يوم يقول للشيء كن فيكون ، ومعناه ان قول الله واقع لا محالة ، ويظهر ذلك جلياً واضحاً للبيان يوم يقول للشيء كن فيكون ، سواء أقال هذا القول يوم بدأ الخلق ، أم يوم يعيده ، وبكلمة : ان قول الله عين فعله في إيجاد الشيء من لا شيء ، وفي إعادته إلى ما كان عليه بعد انحلاله وتفريق أجزائه (وله الملك يوم يُنفخ في الصور) . والنفخ في الصور كناية عن بعث من في القبور ، ومعنى ملكه لهذا البعث انه هو الذي يعيد الموتى إلى الحياة .

مع أهل التصوف :

(عالم الغيب والشهادة) . الغيب هو الشيء الخفي المستور ، كالملائكة والبعث وما بضميره الانسان في نفسه ، والشهادة ما كان ظاهراً كالأرض والسماء ، وما

يفعله الانسان علانية ، وهذا التقسيم صحيح بالنسبة إلى الانسان ، أما بالنسبة إليه تعالى فلا غيب عنه ، لا في الأرض ولا في السماء .

أجل ، ان أهل التصوف يدعون لأنفسهم الكشف عن الغيب ، قال ابن العربي في الفتوحات المكية ، الباب الثاني وثلاثه : « إن لأهل الله أعياناً يبصرون بها ، وآذاناً يسمعون بها ، وقلوباً يعقلون بها ، وألسنة يتكلمون بها غير هذه الأعين والآذان والقلوب والألسنة ، فبتلك الأعين يشهدون ، وبتلك الآذان يسمعون ، وبتلك القلوب يعقلون ، وبتلك الألسن يتكلمون ، فكلامهم مصيب .. (وهو الحليم الخبير) وحده لا شريك له في تدبير الخلائق على مقتضى حكمته ، وفي العلم بالخفايا والأسرار .. فليثق الله من يزعم ان له قلبين ولسانين وأربعة أعين ومثلها من الآذان .

ابراهيم مع ابيه وقومه الآية ٧٤ - ٧٩ :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آذَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْسَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْتَنِي لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *

اللغة :

ملكوت الله سلطانه وعظمته . وجنه الليل ستره . والأفول غياب الشيء بعد ظهوره . وبزوغ الشيء ابتداء طلوعه . وفطر السموات والأرض أخرجهما الى الوجود على غير مثال سابق . والحنيف المائل عن الضلال .

الإعراب :

واذ قال ابراهيم ، أي اذكر اذ قال . وآزر بـدل من أبيه ، وهو ممنوع من الصرف لوزن الفعل والعجمة أو العلمية . وكذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب مفعولاً مطلقاً لنري ابراهيم ، أي نري ابراهيم مثل ما رأى أباه وقومه . وليكون الواو للاستئناف ، ويكون منصوبة بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور باللام ، ومتعلق بفعل محذوف ، والتقدير ولجعلله من الموفين أريناه . وبازعاً حال من القمر ، ولا يصح أن يكون مفعولاً ثانياً لرأى ، لأن الرؤية هنا بصرية ، وليست قلبية ، ومثله بازعة .

المعنى :

(وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إنني أراك وقومك في ضلال مبين) . ظاهر الآية يدل صراحة على ان آزر أب حقيقي لإبراهيم الخليل (ع) وأنه كان مشركاً يعبد الأصنام، وان ابراهيم نهاء عن الشرك ودعاه الى التوحيد .. هذا هو مدلول الآية الذي يتبادر الى فهم العالم والجاهل على السواء ، من غير شرح وتفسير ، ومع هذا فقد أطال المفسرون الكلام واختلفوا : هل آزر أب حقيقي لابراهيم ، أو أب مجازي ؟ وهذا الاختلاف يتفرع عن اختلاف آخر هو : هل جميع آباء محمد (ص) وأجداده يجب أن يكونوا موحدين ، ولا يجوز أن يكون فيهم مشرك واحد ، أو يجوز أن يكون فيهم المشرك والموحد؟ وبعض العلماء ألفوا رسائل خاصة في ذلك .

قال الشيعة : جميع آباء محمد وأجداده موحدون لحدث : « ما زلت انتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات ، حتى أخرجني الله إلى عالمكم هذا . وقالوا : الأب الحقيقي لإبراهيم اسمه تارح ، وإن آزر أخو أبيه ، أو جده لأمه ، وأطلق عليه لفظ الأب مجازاً . وقال الألوسي في تفسيره : وعلى هذا جم غفير من السنة ، أي أنهم يقولون بمقالة الشيعة .

ولكن صاحب تفسير المنار والرازي قالا : ان السنة لا يوافقون الشيعة على رأيهم هذا ، ويجيزون أن يكون في أجداد النبي مشرك أو ملحد .. وظاهر القرآن مع السنة ، خاصة قوله : « واذكر في الكتاب إبراهيم انه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً - ٤٢ مريم » .

وعلى أية حال ، فلا جدوى من هذا التراجع ، وبسط الكلام فيه تكثير له من غير طائل ، لأنه لا يمت إلى عقيدة الإسلام بصلة ، فإن المطلوب من المسلم الإيمان بنبوّة محمد (ص) وعصمته ، وأنه سيد الأنبياء وخاتمهم ، أما الإيمان بأن جميع آباءه وأجداده موحدون ، وأنه آزر عم إبراهيم لا أبوه ، أما هذا فليس من عقيدة الإسلام في شيء .

(وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) . المراد بذلك ان الله سبحانه كما كشف لإبراهيم عن ضلال قومه في عبادتهم الأصنام فقد كشف له أيضاً عن عجائب السموات والأرض ليستدل ببديع نظامها وغريب صنعها على وجود الله ووحدانيته وعظمته (وليكون من الموقنين) فيؤمن عن حجة ودليل ، وتدل هذه الآية على أمرين :

الأول : ان عقيدة الاسلام تقوم على حرية الرأي والعقل ، لأن الله سبحانه ما أوجب الإيمان به إلا بعد أن أقام الدليل عليه ، ودعاهم الى النظر فيه .

الثاني : ان الدليل الذي أقامه على وجوده ميسور وسهل على جميع الافهام

١ لقد تواتر ان عبد المطلب جد النبي (ص) حلف اذا رزق عشرة بنين أن يفسى بواحد منهم ، وإن السهم خرج على عبده أبي محمد (ص)، وهذا يتنافى مع القول : ان جميع أجداد النبي كانوا على دين إبراهيم .

سورة الأنعام

لا يحتاج الى جهد ، ولا إلى علم وفلسفة ، فيكفي أن ينظر الانسان إلى عجائب الكون والنظام الذي يحكمه ليهتدي إلى خالقه وصانعه المبدع .

(فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي) . كان قوم ابراهيم يعبدون الكواكب من دون الله ، فأراد أن يستدرجهم إلى الحق ، ويلفتهم الى منطق العقل والفطرة برفق ولين ، فانتظر حتى جن عليه الليل ، وسر الأرض بظلامه ، ورأى كوكباً مما يعبدون ، فقال محاكاة لزرعهم : هذا ربي . فاطمأنوا اليه ، ولما أفل الكوكب وغاب تحت الأفق أيقظ عقولهم ، ولقت نظرهم إلى أن الآلهة لا تتقلب وتتغير ، ولا يحجبها شيء .

(فلما رأى القمر بازغاً قال) استدرجاً لهم واستهواء لقلوبهم : (هذا ربي) لأنه أسطع نوراً وأكبر حجماً من الأول (فلما أفل قال لئن لم يهتدي ربي لأكونن من القوم الضالين) ، يشير إلى أنه غير مطمئن النفس لهذه الكواكب ، وانه لم يهتد بعد إلى الطريق ، وطلب من الله أن ينقذه من هذه الحيرة .

(فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون) . لقد مضت التجربة الأولى والثانية والثالثة ، وبقي الشك كما كان ، اذن ، لا بد من البراءة من عبادة الكواكب ، لأنها لا تستأهل العبادة ، ولا تستحق الاحبار ، وبعد أن أعلن البراءة من آلهتهم توجه بقلبه إلى خالق الكون ، وقال : (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) . هذه هي النتيجة الحتمية للنظرة الفاحصة ، والتفكير الحنيف في أي شيء من أشياء هذا الكون ، نظرة واحدة لا غير بتجرد وتدبر إلى آية صورة من صور هذا العالم تؤدي حتماً إلى اليقين الجازم بأن الله وحده هو فاطر السموات والأرض .

اتحاجوني في الله الآية ٨٠ - ٨٣ :

وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالِ اتَّحَاجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ

بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ *
وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ
يُنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *
الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *
وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *

الآفة :

تطلق الحجة على الدليل المثبت للحق ، وتطلق على ما يحتاج به المدعي على
إثبات دعواه ، أما الحاجة فهي المجادلة والمبالغة في إقامة الحجة . والسلطان
البرهان . ولم يلبسوا لم يخلطوا .

الاعراب :

ما تشركون به ضمير به يعود إلى الله . وتسبك ان يشاء ربي بمصدر في
عمل نصب على الاستثناء المنقطع ، أي لا أخاف إلا مشيئة الله . وعلماً تميز .
وكيف تكون خبراً للمبتدأ إذا وقعت قبل ما لا يستغنى عنه نحو كيف أنت ،
وحالاً أو مفعولاً مطلقاً إذا كانت قبل ما يستغنى عنه ، كما في الآية ، وعليه
يكون عملها النصب على أنها مفعول مطلق على معنى أي خوف أخاف ، أو حال
أي على أي حال أخاف والذين آمنوا مبتدأ أول ، وأولئك مبتدأ ثان ، والأمن
مبتدأ ثالث ، ولهم خبره ، وهو مع خبره خبر الثاني ، وهذا مع خبره خبر الأول .
وتلك حجتنا مبتدأ وخبر . وجملة آتيناهما حال . ودرجات مجرورة بإلى محذوفة .

(وحاجه قومه) بعد أن أورد إبراهيم (ع) على قومه الحجة الدامغة من منطق العقل والقطرة ، وأثبت به فساد عبادتهم للأوثان والكواكب ، بعد هذا أوردوا عليه حججهم الواهية ، وقالوا له فيما قالوا : « وجدنا آباءنا لما عابدين » وخوفوه من بطش آلهتهم به ، فأجابهم إبراهيم (قال اتحاجوني في الله وقد هذان) . أي ما هذا الحجاج في الله ، وقد هداني إلى معرفته من نفسي ومن الكون ، وتقدم في الآية ٧١ (ان هدى الله هو الهدى) الذي لا يتطرق اليه الشك ، وان ما عداه جهالة وضلالة .

أما التخويف من آلهتهم فقد أجاب عنه بقوله : (ولا أخاف ما تشركون به) من دون الله ، لأنه لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع (إلا أن يشاء ربي شيئاً) وذلك بأن يسقط الله شيئاً على رأسي يشجه ، أو كسفاً من شهب الكواكب يحرقني .. اذن ، فيجب أن أخاف من الله وحده ، لا من الأصنام والكواكب . (وسع ربي كل شيء علماً) فلا أخاف أن يصيبني مكروه من غير علمه وارادته (أفلا تتذكرون) ان آلهتكم ليست بشيء ، وان الله وحده هو الضار النافع ، لأنه خالق كل شيء .

(وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً) . المراد بما أشركتم الأوثان والكواكب التي يعبدون ، والمراد بأشركتم بالله جعلهم لله شركاء ، والمعنى أريدوني أن أخاف آلهتكم المخلوقة العاجزة ، وأنتم لا تخافون زعمكم وجعلكم لله شركاء .. هذا الزعم الذي هو افتراء محض ، لا حجة له ، ولا دليل عليه .. وبعبارة أوضح ان إبراهيم قال لهم : اتخوفوني مما لا حول له ولا قوة ، وتأمنون أنتم ، وقد افترنتم واعتديتم على من له القوة والعزة جميعاً !.. (فأَي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون) الفريق الذي يؤمن بالله القوي العزيز ، ويكفر بالشريك الضعيف ، أو الفريق الذي يؤمن بالضعيف للدليل ، ويكفر بالقوي العزيز !..

(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) . هذا بيان للفريق الناجي من الفريقين ، وأنهم الذين أخلصوا لله في إيمانهم ولم يخلطوا

بهذا الإيمان شركاً في عقيدة ، ولا في طاعة هوى مخلوق كائناً من كان .. هؤلاء وحدهم هم الآمنون المهتدون .

(وتلك حجتنا آييناها ابراهيم على قومه) . أي ان تلك الحجج الدامغة التي أفحم بها ابراهيم قومه — نحن الممناء اياها .. وفي هذه الآية دلالة واضحة على ان الأنبياء ، ومن اهتدى بهديهم من العلماء هم لسان الله وبيانهم ، وان الراد عليهم راد على الله بالذات ، كما جاء في الحديث . (نرفع درجات من نشاء) تجميد تفسيره في قوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات — ١١ المجادلة » . فالسبب لرفعة الانسان عند الله هو الإيمان والعلم ، ولكل منها درجات ، ربيع وأرفع ، وقد بلغ ابراهيم (ع) أرفعها ، حتى صار للرحمن خليلاً (ان ربك حكيم عليم) حكيم منزّه عن العبث والشهوة ، عليم بما يستحقه كل انسان من المراتب والدرجات .

ووهبنا له إسحق ويعقوب الآية ٨٤ - ٩٠ :

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ

فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُوَ لَا فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْماً لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ *
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِئْسَ الْفِتْنَةُ قُلْ لَا أَتَأَلَّمُ عَلَىهِ أُجْراً إِنْ
هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *

الإعراب :

كلاً هدينا (كلاً) مفعول هدينا . ونوحاً مثله . وضمير ذريته يعود إلى
نوح ، لأنه أقرب ذكراً من ابراهيم ، ولأن من جملة الأنبياء الآتية أسماءهم
لوط ، وهو ابن أخي ابراهيم ، وليس من ذريته . وداوود مفعول لفعل
عُلوّف ، أي ومن ذريته هدينا داوود وسليمان الخ . وكذلك بمعنى مثل صفة
لمصدر محذوف ، أي ونجزي جزاء مثل ذلك . وكل من الصالحين مبتدأ وخبر ،
والجملة معترضة لا عمل لها من الإعراب . وكلاً مفعول لفضلنا . ومن آباؤهم
عطف على كلاً ، أي وفضلنا كلاً من آباؤهم . والباء في بكافرين زائدة ،
وكافرين خبر ليسوا . وبهداهم متعلق باقتده ، والهاء في اقتده للوقف ، ونسب
هاء السكت .

المعنى :

ذكر سبحانه في هذه الآيات ١٨ نبياً بما فيهم ابراهيم ، وأشار إلى بعض
آباؤهم وذرياتهم وأخوانهم ، ووصف الجميع بالاحسان والصلاح والهداية ، وأنه
تعالى من على الأنبياء المذكورين بالحكمة والنبوة ، ومن على بعضهم بتنزيل
الكتاب ، والقصد من ذلك أن يحتج محمد (ص) على العرب بأن جدهم ابراهيم
وكثيراً من أبنائه كانوا موحدين ، وأيضاً أن يتخذ الرسول الأعظم ممن تقدمه
من الأنبياء قدوة في الدعوة إلى الله ، والصبر على الأذى في سبيلها . هذا ملخص
ما تضمنته الآيات السبع ، وهي واضحة لا تحتاج إلى التطويل في البيان والشرح ، ولكن

الجزء السابع

بعض المفسرين أبى إلا التطويل ، فخرج عن موضوع التفسير إلى ما لا يمت إليه ولا إلى الحياة بصلة .

وتجدر الإشارة إلى أن أسماء الأنبياء المذكورين في الآيات لم تأت على حسب الترتيب في الزمان أو الفضل ، كما أنهم ذكروا على سبيل المثال ، دون الحصر .

(ووهبنا له اسحق ويعقوب) التفسير في (له) يعود الى ابراهيم ، واسحق ابنه لصلبه مباشرة ، واسمه سارة ، ويعقوب ابن اسحق ، وابن الابن ابن ، قال تعالى : « فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب » - ٧١ هود . (وكلاً هدينا) من اسحق ويعقوب (ونوحاً هدينا من قبل) لأنه أقدم من ابراهيم ، (ومن ذريته) التفسير عائد الى نوح لأنه أقرب في الذكر ، وقيل : الى ابراهيم . (وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون) أي وهدينا هؤلاء كما هدينا نوحاً واسحق ويعقوب (وكذلك نجزي المحسنين) لأن الله سبحانه يجزي المحسن بالحسن ، نبياً كان أو غير نبى ، كما يجزي المسيء بعمله أبيض كان أو أسود .

(وزكريا ويحيى وعيسى والياس) هؤلاء أيضاً ممن هداهم الله (كل من الصالحين) وكل من استغل مواهبه لخيره وخير الناس فهو صالح ، ومصلح أيضاً .

الحسن والحسين ابنا رسول الله :

قال الرازي في تفسير هذه الآية : « انها تدل على ان الحسن والحسين من ذرية رسول الله (ص) لأن الله تعالى جعل عيسى من ذرية ابراهيم ، مع انه لا يتسب الى ابراهيم إلا بالأم ، فكذلك الحسن والحسين من ذرية رسول الله ، وان انتسبا اليه بالأم .. ويقال : ان أبا جعفر الباقر استدل بهذه الآية عند الاحتجاج ابن يوسف » .

وقال صاحب تفسير المنار : « أقول في الباب حديث أبى بكره عند البخاري مرفوعاً : (ان ابني هذا سيد) يعني الحسن ، ولفظ ابني لا يجري عند العرب على أولاد البنات ، وحديث عمر في كتاب معرفة الصحابة لأبى نعم مرفوعاً :

سورة الأنعام

(وكل ولد آدم فان عصبتهم لأبيهم خلا ولد فاطمة فاني أنا أبوهم وعصبتهم)
وقد جرى للناس على هذا ، فيقولون في أولاد فاطمة أولاد رسول الله (ص)
وأبنائهم وعترته وأهل بيته .

ومعنى هذا الكلام ان ولد فاطمة (ع) ليسوا أبناء رسول الله (ص) لغة ،
ولكنهم أبنائهم شرعاً لقول الرسول : « أنا أبوهم وعصبتهم » وأيضاً هم أبنائهم
عرفاً ، لأن الناس قد جروا على القول : ان ولد فاطمة هم أولاد رسول الله
وأبنائهم وعترته وأهل بيته .. وقد أجمع علماء السنة والشعبة قولاً واحداً على
ان الشرع في مداليل الألفاظ مقدم على العرف واللغة ، وان العرف مقدم على
اللغة ، لأن الحكيم يخاطب الناس بما يتبادر الى افهامهم ، لا بما هو مسطور في
قواميس اللغة ، فإذا أوردت كلمة في آية أو رواية ، ووجدنا معناها تفسيراً
خاصاً في كتاب الله أو السنة النبوية فتحمل الكلمة على هذا المعنى الخاص ،
ويسمى بالمعنى الشرعي ، ويهمل المعنى اللغوي والعرفي ، وإذا لم نجد لها تفسيراً
في الكتاب والسنة فتحمل على ما يفهمه الناس منها ، ويسمى بالمعنى العرفي ،
فلن لم يفهم الناس منها معنى معيناً فتحمل على المعنى الموجود في قواميس اللغة .
وعلى هذا يأتي المعنى الشرعي في الدرجة الأولى، والعرفي في الثانية، واللغوي في
الثالثة ، وقد ثبت شرعاً وعرفاً ان الحسن والحسين ابنا رسول الله فيتعين ذلك ،
وتهمل اللغة ، لأنها محكومة بالشرع والعرف .

أما السر في ان الحسن والحسين ابنا رسول الله ، مع انها ليسا من أبنائه
لغة ، أما هذا السر فيجده الباحث في صفات الحسين وشمالهما، انها عين صفات
الرسول الأعظم وشماله .. وحسب الباحث من سيرة الحسن ان معاوية بن أبي
سفيان لم يسهه الملك الذي كان فيه ، وفي الحسن عرق ينبض ، وحسب الباحث
من سيرة الحسين ان يزيد بن معاوية ضاقت به الدنيا مع وجود الحسين ، كما
ضاقت بأبيه معاوية من قبل ، مع وجود الحسن .

(واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً) هديناهم أيضاً (وكلاً فضلنا على
العالمين) في زمانه (ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم) من ، هنا للتبويض ، أي
وفضلنا البعض من كل صنف من هؤلاء ، لأن من ذرياتهم واخوانهم كانوا

الجزء السابع

كافرين، بل لم يكن لعبسى ويحيى نسل وذرية (واجتنبناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) هذا المديح والثناء تمهيد لقوله تعالى : (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده) . أي ان الهدى الذي يجب اتباعه هو ما جاء به الأنبياء ، ولا يتبع هذا الهدى إلا من شمله الله بلطفه وتوفيقه (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) . أي ان هؤلاء الأنبياء على فضلهم وعظيم قدرهم لو صدر منهم أدنى شيء يشعر بالشرك لبطلت جميع أعمالهم ، وذهبت سدى ، والغرض من هذه الإشارة التنبيه إلى أن الله سبحانه يعامل الناس بأعمالهم لا بمناصبهم ، وبالنهاية التي عليها يموتون ، لا بالسابقة التي ابتدأوا بها حياتهم .

(أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) . أولئك إشارة إلى من تقدم ذكرهم من الأنبياء ، والكتاب جنس يشمل جميع الكتب السماوية السابقة على القرآن ، كصحف إبراهيم والتوراة والزبور والانجيل ، والمراد بالحكم معرفة القضاء وكل ما شرعه الله من الحلال والحرام (فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين) . هؤلاء، إشارة إلى مشركي قريش الذين أنكروا نبوة محمد (ص) ، ونصبوا له العداء ، وضمير بها يعود إلى النبوة ، والمراد بالقوم الذين ليسوا بها بكافرين المهاجرون والأنصار الذين آمنوا بمحمد وناصروه.

(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) . أولئك إشارة إلى الأنبياء الذين تقدم ذكرهم، وقد أمر الله نبيه الأكرم محمداً (ص) أن يسر على طريقهم في الدعوة إلى الحق ، والصبر على الأذى في سبيلها (قل لا أسألكم عليه أجراً) لأن للدين لم يشرع للكسب والاتجار به (ان هو إلا ذكرى للعالمين) ضمير هو يعود إلى القرآن ، وفي الكلام دلالة واضحة على ان محمداً أرسل للناس كافة في كل زمان ومكان .

وما قدرُوا الله حق قدره الآية ٩١ - ٩٢ :

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ

سورة الانعام

قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ
تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ
وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَذَا كِتَابُ
أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ *

اللفظ :

قدر الشيء بسكون الدال مبلغه ومقداره . وقراطيس جمع قرطاس ، وهو
ما يكتب فيه من ورق وجلد وغيرهما . وأم القرى مكة .

الاعراب :

حق صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي وما قدروا الله قدراً حق قدره . واذا
في محل نصب بقدروا . ومن شيء (من) زائدة وشيء مفعول لأنزل . ونوراً
حال من الكتاب ، أي منيراً . وجملة أنزلناه صفة كتاب ، وكلذا مبارك ومصديق .
وأم القرى على حذف مضاف ، أي أهل ام القرى .

المعنى :

(وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) . تدل
هذه الآية على انه كان في عهد رسول الله (ص) قوم ينكرون الوحي من الله
على أحد من الناس : ويقولون ما بعث الله بشراً رسولاً .. ولكن الله سبحانه

لم يبين مَنْ الذين أنكروا وقالوا ذلك ، ومن أجل هذا اختلف المفسرون فيمن هو المعنى بقوله تعالى : (اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء) هل المراد بهم مشركو العرب أو يهود الحجاز ؟ .

قال فريق من المفسرين : انهم مشركو العرب . ويرد هذا القول أولاً : ان الله أمر رسوله محمداً أن يواجه المنكرين بهذا السؤال : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس) . وبديهة ان هذا السؤال انما يتجه لمن يعترف بنبوة موسى والتوراة ، والمعروف ان مشركي العرب لا يعترفون بموسى وتورانه ، وإلا كانوا من أهل الكتاب .

ثانياً : ان الله سبحانه وبّخ المنكرين بقوله : (تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً) . أي انكم حرفتم التوراة ، فأبدىتم ما يتفق مع أهوائكم ، وأخفيتم ما لا يتفق معها ، ومعلوم ان الذين حرفوا التوراة هم اليهود ، لا مشركو العرب .

وذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء هم اليهود ، واستدلوا بأمرين : الأول ان الله أمر رسوله محمداً أن يرد على من قال هذا بنبوة موسى والتوراة .. وهو رد صحيح ومفهم ، ثم أكد هذا الرد بلفتهم الى تحريفهم التوراة ، وخاطبهم تعالى موجهاً : (تجعلونه - أي كتاب التوراة - قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً) .

وهذا القول أقرب الى ظاهر الآية من القول الأول . (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) . هذا الخطاب موجه إلى اليهود أيضاً ، والمعنى كيف تقولون - أيها اليهود - ما أنزل الله على بشر من شيء ، مع انكم تعتقدون ان موسى بشر ، وان التوراة نزلت عليه ، وقد علمتم منها ما كنتم تجهلونه من قبل انتم وآباؤكم ، ومن ذلك انكم كنتم تقرأون في التوراة صفة محمد قبل بعثه ، ولا تعرفون بالتفصيل من هو المقصود ، ولما بعثه الله ، وعرفتم انه هو المقصود بالذات حرفتم وحذفتم ما يدل عليه مكابرة وعناداً

(قل الله) . هذا جواب عن السؤال السابق ، وهو (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى) . وهذا الجواب هو المتعين ، ولا مفر منه ، لأن

سورة الأنعام

اليهود يعترفون بأن التوراة من عند الله ، ومن أجل اعترافهم هذا تقوم الحججة والرد على قولهم : ما أنزل الله على بشر من شيء (ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) . أي قل الحق - يا محمد - ودع اليهود في باطلهم ، ولا تنهم بعنادهم ومراهم .. وفي هذا تهديد لهم ووعيد، كما فيه استخفاف بهم واستهانة .

وتسأل : ان اليهود يعترفون بنسبة موسى (ع) وانزال التوراة عليه ، كما قدمت - اذن - كيف نسب الله اليهم انكار الوحي والبعثة من الأساس ؟ .
الجواب : انهم انكروا الوحي والبعثة في الظاهر ، دون الواقع عناداً ومكابرة لمحمد (ص) : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً - ١٤ النمل » .

أنبياء الله وعلماء الطبيعة :

وبالمناسبة نشير إلى أن أكثر علماء الطبيعة في هذا العصر ، أو الكثير منهم يؤمنون بوجود الله لأنهم رأوا ان هذا الكون الذي يتعاملون معه يسير وفقاً لقوانين ثابتة وصريحة تتحكم به ، ولا تخيد عنه بحال ، ومن أجل هذا أمكن رصداه بقياسها والاستفادة منها ، وهذا يحتم وجود قوة عليا وراء الكون تهندس وتبني وهذه القوة هي الله .

وبتعبير ثانٍ ليس من الضروري ليكون الانسان عالماً بوجود الشيء أن يجربه في العمل ، ويراه رأي العين ، بل يكفي أن يعلم علماً لا يتطرق اليه الشك والاحتمال ، سواء أجهاه هذا العلم والجزم من التجربة والبيان ، أم من الاستنتاج العقلي البديهي . وصاحب الفكر والنظر اذا تأمل هذا الكون تأملاً علمياً مجرداً عن كل شائبة ينتهي حتماً إلى العلم بوجود الله .. ولكن علماء الطبيعة الذين آمنوا بالله عن علم نفوا أن يكون له رسل من بني الانسان يوحى اليهم ، وقالوا : ان الطبيعة وحدها هي كتاب الله ، وليس التوراة والانجيل والقرآن .

ولست أشك ان هؤلاء العلماء لو أعطوا لدراسة القرآن قليلاً من الوقت الذي أعطوه لدراسة الطبيعة لاقتنعوا بأن لله كتابين : الكون والوحي ، وانه لا غنى للانسان بأحدهما عن الآخر ، فن كتاب الكون يعلم ملكوت الله ، ويؤمن به ،

ومن كتاب الوحي يعلم شريعة الله التي تنير له طريق الحياة ومدارج التقدم فيها ، وتجنبه المهالك والمشاكل التي تعرقل سيره إلى الأمام .

لقد خلق الإنسان ليعمل في هذه الحياة ، ولا بد لكل عامل من منهج يسير عليه في عمله ، لأن القوضى لا تؤدي إلى خير ، والله سبحانه خلق الإنسان ، ويعلم سره وجهه ، وقوته وضعفه ، وما ينفعه ويضره ، فيتحنن ، والحال هذه ، أن يكون هو المرجع الأول للمنهج الذي يجب أن يسير عليه في عمله ، تماماً كما هو الشأن في مخترع السيارة والطائرة وغيرها من الأدوات والآلات ، حيث يتحنن الرجوع إليه في استعمالها وطريق الاستفادة منها ، لأنه أعلم بما يصلحها ويفسدها ، وليس من شك أن تبليغ المنهج الإلهي لعباده وإعلامهم به ينحصر بالأنبياء والرسل ، لأنهم لسان الله وبيانه ، وهذا هو الوحي بالذات . ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا : الإسلام والعقل ، قسم النبوة والعقل .

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه) . هذا ، إشارة إلى القرآن الكريم ، والمعنى كما أنزلنا التوراة على موسى كذلك أنزلنا هذا القرآن على محمد (ص) ، وهو كثير النفع والفائدة لمن علم أحكامه وأسراره ، وعمل بها ، وهو أيضاً يصدق الكتب السماوية التي نزلت من قبل على أنبياء الله . قال الإمام علي (ع) : « تعلموا القرآن ، فإنه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه ، فإنه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره ، فإنه شفاء الصدور ، واحسنوا تلاوته ، فإنه أحسن القصص » .

(ولتنذر أم القرى ومن حولها) . وأم القرى هي مكة ، وسميت بذلك ، لأن فيها أول بيت وضع للناس لعبادة الله .. وزعم بعض المستشرقين ، ومن قبلهم اليهود أن محمداً (ص) أرسل للعرب فقط ، واحتجوا بهذه الآية ، ونجأهموها الآية ١٠٧ الأنبياء : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . والآية ٢٨ سبأ : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . ومصدر القرآن واحد ، وكلامه يفسر بعضه بعضاً ، وهاتان الآيتان بيان لقوله تعالى : (ولتنذر أم القرى ومن حولها) وإن المراد به أن تبدأ دعوة الإسلام أول ما تبدأ في بلد صاحبها مكة : حتى إذا صار لها أتباع وأنصار بشروا بها في أرجاء

سورة الانعام

العالم ، كآية دعوة عامة تبتدىء ، حيث تولد ، ثم تنطلق الى سائر الأقطار .
 هذا ، الى أنه قد ثبت بطريق التواتر ان رسول الله (ص) قد كتب الى جميع
 الملوك والرؤساء يدعوهم الى الاسلام ، وفي طليعتهم كسرى ملك الفرس ،
 وقبصر امبراطور الروم ، والمستشرقون يعلمون ذلك، ولكن البعض منهم يكتمون
 ما يعلمون .

(والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) . الضمير في (به) يعود الى القرآن..
 وما قرأ القرآن أحد يتجرد وإمعان إلا خرج منه بشيء ، فإن كان مؤمناً بالله
 ورسوله واليوم الآخر ازداد إيماناً، وإن كان مؤمناً بالله فقط آمن بالوحي والبعث،
 وان كان مؤمناً بالله والبعث دون الوحي آمن بالأنبياء والكتب المنزل من السماء،
 بخاصة نبوة محمد والقرآن ، وان كان كافراً بالله آمن به ، لأن القرآن يعرض
 الدلائل على ذلك ، ويبحث على النظر فيها ، وهي بطبعها تؤدي بالباحث المنصف
 الى العلم والإيمان (وعلى صلاتهم يحافظون) . ليعملوا على صلة دائمة وثيقة
 بالله .. ونخص الصلاة بالذكر ، دون العبادات لأنها عمود الدين ، وقوام الإيمان،
 ومن شأنها ان تردع المصلي الخاشع عن الفحشاء والمنكر .

الافتراء على الله الآية ٩٣ - ٩٤ :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ
 شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ
 فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ
 تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ
 عَنْ آيَاتِهِ تَسْكِبُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ
 مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ

الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمْ
مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ*

اللفظة :

الغمرات جمع غمرة ، وهي الشدة . والهون بضم الهاء بمعنى الذل والهوان ،
وبفتحها بمعنى اللين الهين .

الاعراب :

افترى على الله كذباً (كذباً) مفعول مطلق مثل جلست فعوداً . ومن قال سأنزل
محطوف على ممن افترى ، أي ومن قال سأنزل . وإذا الظالمون (اذ) ظرف في
محل نصب بترى ، والظالمون مبتدأ ، وفي غمرات متعلق بمحذوف خبراً للمبتدأ .
والملائكة مبتدأ ، وباسطو أيديهم خبر . وجملة اخرجوا أنفسكم مفعول لقول
محذوف ، أي يقولون اخرجوا . وفرادى حال من الواو في جثمتونا ، وهو
ممنوع من الصرف تشبيهاً له بثلاث ورباع . وكما خلقناكم الكاف في (كما) بمعنى
مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي عجيباً مثل عجبتكم أول مرة .
وتقطع فاعلها محذوف دل عليه سياق الكلام ، أي تقطع الوصل ، وبينكم ظرف
منصوب بتقطع .

المعنى :

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) . وافتراء الكذب على الله أن يخلق
عليه تعالى أشياء لا مصدر لها من كتاب الله ، أو سنة نبيه ، أو من العقل
البيهي ، ويكون ذلك بأمور : منها أن يحلل ما حرم الله ، أو يحرم ما أحل ،

ومنها أن يصف الله - متعمداً - بما ليس فيه ، أو يجعل له شركاء وأنداداً ،
وبنن وبنات ، ومنها أن يدعي النبوة وما هو بنبي ، واليه أشار سبحانه بقوله :
(أو قال أوحى إليّ ولم يوح اليه شيء) وهذه الجملة معطوفة على قوله تعالى :
(افترى على الله كذباً) وهي من باب عطف الخاص على العام ، ومثلها قوله
سبحانه : (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) . أي ان هذا اللعين يدعي
القدرة على تأليف كتاب يضاهي القرآن في عظمته ، وقيل : هو عبدالله بن
سعد بن أبي سرح ، وقال آخر : بل هو النضر بن الحارث .

والخلاصة ان كل من نسب إلى الله شيئاً ، دون أن يستند إلى قول الله
والرسول ، أو بدبهة العقل فهو مفترٍ كذاب يستحق التوبيخ والعذاب .

(ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم) . غمرات
الموت سكراته وآلامه ، واختلف المفسرون في المراد بيسط أيدي الملائكة : هل
المراد به مدّها حقيقة إلى الانسان حين الاحتضار ، أو هو لمجرد التمثيل والكناية
عن أهوال الموت ؟ ونحن لا نرى مبرراً لهذا النزاع ، لأن العقل لا ينفي وجود
الملائكة ، ولا أن يكون لهم أيدي يسيطونها ، وألسنة يتكلمون بها ، وقد ورد
الوحي بذلك فيجب التصديق . وهذا الأصل يعتمد عليه جميع علماء المسلمين في
اثبات العقيدة والشريعة .

(اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق
وكنتم عن آياته تستكبرون) . هذا كله من كلام الملائكة يخاطبون به المفترين
ساعة فراقهم لهذه الحياة ، وهو تأنيب وتوبيخ على افتراءهم وتكبرهم للحق ..
وفي الحديث : « من مات فقد قامت قيامته » . ومن هنا قال بعض العارفين :
ان للانسان قيامتين : صغرى ، وهي الموت ، وكبرى ، وهي البعث . وتوبيخ
الملائكة لمن افترى على الله كذباً عند القيامة الصغرى انذاراً له بما سيلاقه من
الأهوال في القيامة الكبرى . قال الإمام علي (ع) : « الموت للمؤمن كترع
ثياب وسخة ، وفك قيود وأغلال إلى أفخر الثياب ، وآس المنازل ، وهو للكافر
كخلع ثياب فاخرة إلى أوسخها وأخشنها ، ومن المنازل الأنيسة إلى أوحشها وأعظم
العذاب » .

الجزء السابع

(ولقد جثتمونا قرادى كما خلقناكم أول مرة) . جثتمونا بصيغة الماضي ، ومعناها المستقبل ، أي تجثثونا ، والمعنى ان الانسان يلقي ربه غداً كما خرج من بطن أمه ، لا يحمل معه شيئاً .. ويا حبذا لو دخل في جوف الأرض كما خرج منها ، لا له ولا عليه .. انه خرج منها ، لا سائلاً ولا مسؤولاً ، ويعود اليها مسؤولاً عما قدمت يداه ، ولكن السائل ، والحمد لله ، عادل لا يظلم أحداً ، ويعامل كل واحد بما عامل الناس في حياته الأولى ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

واختلف القائلون بالحشر : هل يحشر الانسان بروحه فقط ، أو بروحه وجسمه معاً ، وظاهر قوله تعالى : (كما خلقناكم أول مرة) يدل على الحشر روحاً وجسماً ، لأنه خلق بهما معاً : و كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا انا كنا فاعلين - ١٠٤ الأنبياء .

(وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) . يعود الانسان الى الأرض تاركاً الأهل والأصحاب ، والمال والسلطان. (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء) الله كالأصنام والكواكب وغيرها مما كنتم تعبدون وتوالون من أهل الفساد والضلال . (لقد تقطع بينكم) ، أي لم تبق لكم أية صلة بشيء من أشياء الدنيا (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) من الدعاوى الكاذبة للذين توهمتم انهم شركاء أو شفعاء عنده ، وخاب أمكم بعد أن تكشفت لكم الحقيقة .. والسعيد من فاز برضوان الله ومغفرته .

يخرج الحي من الميت الآية ٩٥ - ٩٩ :

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ

لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ
وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ* وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ
مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ النَّخْلِ قَتُونٌ ذَانِيهُ وَجَنَاتٍ مِنْ
أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا
أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ*

اللفظ :

فلقه فلقاً ، وفرقه فرقاً ، وفتقه فتقاً بمعنى واحد ، أي شقه شقاً .
والإصباح مصدر سمي به الصبح ، ومعنى فلقه أخرجه من الظلمات . والسكن
المسكون فيه كالبيت مأخوذ من السكون ضد الحركة . والحسان بضم الحاء لعد
الأشياء والأوقات . والمستقر موضع القرار ، والمستودع موضع الوديعة . ومتراكب
أي بعضه فوق بعض مأخوذ من الركوب كترابك حبوب القمح والشعير في
سنابلها ، وحبوب الرمان والصنوبر في ثمارهما . والطلع أول ما يخرج من النخلة
في اكتماله . وقنوان جمع قنو ، وهو العنقود من الثمر . ودانية قريبة سهلة
التناول . والمشتبه والمتشابه بمعنى واحد ، وهو أن بعض النبات يشبه بعضاً في
اللون والطعم والصورة ، ومنه ما ليس كذلك . والينع النضج ، يقال : أبينت
الثمرة إذا أدركت ونضجت .

الاعراب :

الشمس مفعول أول لفعل محذوف ، وحسباً مفعول ثان ، أي وجعل الشمس والقمر حسباً ، ومستقر مبتدأ والخبر محذوف ، أي فنها مستقر ، ومثله ومستودع . وضمير (منه) الأولى يعود الى النبات ، وضمير (منه) الثانية الى الخضر . ومتركباً صفة للحب . ومن النخل متعلق بمحذوف خبراً لقنوان . ومن طلعتها بدل من النخل بإعادة الحافض . ودانية صفة لقنوان . وجنات منصوبة عطفاً على نبات كل شيء ، أي وأخرجنا جنات من أعناب . ومن أعناب متعلق بمحذوف صفة لجنات . والزيتون والرمان عطف على نبات ، أي وأخرجنا به الزيتون والرمان . ومشتبهاً حال من كل ما تقدم من النبات .

المعنى :

في هذه الآيات أمثلة من عجائب الخلق التي لا يملك صنعها إلا الله وحده ، ولا تفك عن الدلالة على وجود الله وعظمته ، وجاء ذكر الأمثلة على الترتيب التالي :

١ - (ان الله فائق الحب والنوى) . إذا وضعت حبة من الحنطة ، أو نواة من نوى التمر في الأرض - مثلاً - انفلقت كل من الحبة والنواة من أسفلها وأعلاها ، وخرج من الشق الأسفل عروق تهبط في الأرض ، ومن الشق الأعلى شجرة تمتد في الهواء ، ثم تذهب الحبة والنواة ، ويصير المجموع جسماً واحداً ، بعضه في الأرض وبعضه في الهواء ، وليس من شك ان هذه العملية تستند مباشرة إلى أسبابها الطبيعية ، كالتربة والماء ، والشمس والهواء ، ولكنها تنتهي الى الله وحده ، لأنه خالق الطبيعة ، ومسبب الأسباب ، وموجد المادة الأولى بكلمة « كن فيكون » .

من أين جاءت الحياة ؟

(يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون) .

سورة الأنعام

لا غرابة أن يتولد من الكائن الحي حي مثله ، وأن يتفصل من الجهاد جهاد ، وإنما العجب أن يتولد الجهاد من الحي ، وبالعكس . وقال قائل : إن الحياة تتولد من القوى الطبيعية .

ونسأل هذا القائل ، ومن الذي أوجد الطبيعة وقواها وتفاعلها ؟ وإذا كان مجرد التفاعل كافياً وافياً لإيجاد الحياة ، دون أن تتدخل العناية الإلهية، فلماذا عجز علماء الطبيعة أن يصنعوا الحياة في معاملهم ، كما يصنعون أدوات المطبخ وما إليها مع أنهم قد حاولوا وأوجدوا ألف تفاعل وتفاعل ، وبعد اليأس أعلنوا ان صنع الحياة أصعب منالاً من رجوع الشيخ إلى صباه وطفولته .

ولنسلم جدلاً أنهم ينجحون في خلق خلية حية ، فهل ينجحون في صنع حشرة تعمل بنظام كما تعمل أنفه الحشرات ؟ ولندع الانسان ودماغ الانسان ، والحيوان وعجائبه في خلقه ، ونضرب أمثلة من الحشرات التي نفهر منها، ونستعمل المبيدات لها .. يقول المتخصصون بدراسة الحشرات :

« إن بعضها يعيش في درجة ٥٠ مئوية تحت الصفر ، وبعضها يعيش هذه الدرجة فوق الصفر ، وبعضها يعيش في الهواء السام ، وبعضها في آبار البترول ، ولها نظم متقنة في حياتها وأعمالها ، وإذا اخترع الانسان الصواريخ والأقمار الصناعية والعقول الألكترونية فمن المؤكد انه لا يستطيع أن يصنع في المعمل جناح بعوضة ، ولا خلية من جناحها ، فالعقل الانساني عظيم ، ولكن عظمته تصبح عجزاً مطلقاً أمام القدرة المائلة التي خلقت بعوضة أو نملة أو نحلة !! وكل هذه بدهيات .. ولكن المصيبة الكبرى اننا ننسى فلا ننظر إلى ما في أعماقنا ، إلى مظهر من مظاهر القدرة الإلهية الحكيمة ، فاذا نظرنا ازدادنا إيماناً بما هو أكبر ، ومن هو أكبر ، وكل ما نحتاج اليه هو الايمان ، وكل ما يحتاج اليه إيماننا هو العقل ، لأن الايمان بغير عقل كالوجه بلا عينين » .

أجل، نحن بحاجة إلى الايمان بقدرة الله لنفسر بها ما تعجز عن تفسيره عقول العباقرة .. وقد اصرفت هذه العقول بالعجز عن تفسير الحياة بالطبيعة ، والتجأ الكثيرون من أربابها إلى ما وراء الطبيعة ، إلى قدرة حكيمة عليمه يفسرون بها أصل الحياة (ذلكم الله فأنى تؤفكون) . قال اينشتين : « ان بصيرتنا الدينية

هي المنيع الموجه لبصيرتنا العلمية . وعلّق الأستاذ توفيق الحكيم على هذا في كتابه « فن الأدب » بقوله : « هذا الاعتراف ولا شك كسب للدين ، فما من أحد فيها مضى - أي منذ قرن من الزمان - بتصور العلماء يقولون عن الدين مثل هذا القول » .

ونعلّق نحن على قول الحكيم بأن السر الوحيد لاعتراف علماء القرن العشرين من أمثال اينشتين بأن البصيرة الدينية هي الأصل والمنيع للبصيرة العلمية، ان السر لهذا الاعتراف هو تقدم العلم في هذا القرن ، وتأخره فيما مضى ، وكلما تقدم العلم اكتسب الدين أنصاراً من أمثال اينشتين يعترفون بعظمته، ويؤمنون بأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(فائق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباً ذلك تقدير العزيز العليم) . ذكر سبحانه في الآية المتقدمة مثلاً على عظمته بوجود الحياة على الأرض ، وذكر في هذه الآية ثلاثة أمثلة سماوية : الأول انه تعالى أخرج الصبح من الليل ، وهو كناية عن وجود النهار الذي يسمى فيه الانسان لرزقه وتدبير شؤونه . الثاني انه تعالى أوجد الليل الذي يسكن فيه ، ويستريح من العمل بالنهار . الثالث انه سبحانه أوجد الشمس والقمر بمقدار مخصوص من السرعة والبطء بحيث يكون للأرض حركتان : حركة تتم في ٢٤ ساعة ، وعليها مدار حساب الأيام ، وحركة تتم في سنة ، وبها توجد الفصول الأربعة ، وعليها مدار حساب السنة ، قال تعالى : « هو الذي خلق الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب - ٥ يونس » .

وتسأل : على هذا يكون وجود الليل والنهار نتيجة لدوران الأرض ، فما هو الوجه لاسنادها إلى الله ؟ .

الجواب : لأنه هو خالق السموات والأرض ، وإليه تنتهي الأسباب بكاملها ، وعلى أية حال ، فان المقصود الأول من كل ما جاء في هذه الآيات انه لا شيء من أشياء الكون قد وجد صدفة وجزافاً ، وإنما صدر عن عليم حكيم أعطى كل شيء خلقه ، وقدره تقديراً (ذلك تقدير العزيز العليم) .

٤ - (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد

سورة الأنعام

فصلنا الآيات لقوم يعلمون) . النجوم هنا ما عدا الشمس والقمر من النيرات ، كما يدل عليه سياق الكلام ، وفي كتاب : القرآن والعلم الحديث ، يقول حجة الفلك في العالم السير جيمس جينتز : انه إذا أردنا أن نعرف مكان بيت في المدينة فاننا نسأل عن اسم الشارع الذي يحتويه ، ثم رقه ، فيقال رقم كذا بشارع كذا ، وكذلك الحال في النجوم ، فإن منها ما هو معروف بأسماء خاصة.. وهي أهم علامات يهتدي بها الملاح في سفينته ، والراكب في سيارته ، والمرئحل على دابته ، وكم قوافل في البحر سارت على خريطة السماء ومواقع النجوم عندما تعطلت البوصلة .

هـ - (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) . والنفس التي نشأ الكل منها هي الانسان الأول السلي تسلسل منه سائر الناس ، وهو آدم ، وتكلمنا على ذلك مفصلاً عند تفسير الآية الأولى من سورة النساء . وذكر الرازي لتفسير قوله تعالى: فستقر ومستودع ستة أقوال: وأكثر المفسرين على ان المستقر هو استقرار النطفة في أصلاب الذكور، والمستودع جعلها في أرحام الأناث .. وليس في الآية ما يدل على هذا المعنى ، ولا على واحد من بقية المعاني التي نقلها الرازي .

وروي عن الإمام جعفر الصادق (ع) انه قَسَمَ المؤمن إلى قسمين : مؤمن إيماناً صادقاً مستقراً حتى الموت ، وهو الذي تتفق أقواله مع أفعاله ، ومؤمن إيماناً متزلزلاً ومستودعاً يفارقه قبل الموت ، وهو الذي تخالف أقواله أفعاله (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) . ومن لا يفقه ويفهم هذه الدلائل الكونية على عظمة الخالق المبدع فهو من الذين عناهم الله بقوله : (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) .

(وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء) . المطر مصدر الماء العذب ، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة ، وأسند سبحانه انزال الماء اليه لأنه مسبب الأسباب ، منه تبتدىء ، واليه تنتهي مهما امتدت حلقاتها (فأخرجنا منه خضراً) ضمير منه يعود الى النبات ، والمراد بالخضر الغض والطراوة ، أي تشعب من النبات أغصان غضة طرية .

الجزء السابع

وقيل الخضر هنا بمعنى الأخضر (نخرج منه حباً متراكباً) ضمير منه يعود الى الخضر ، أي يخرج من الأغصان سنابل كسنابل القمح ونحوها كثر الرمان الذي يركب بعض حبوبه بعضاً (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) طلعها بدل اشمال من النخل بإعادة حرف الجر ، أي ونخرج من طلع النخل قنواناً، والقنوان جمع قنو بالكسر ، وهو من النخل كالعنقود من العنب ، ودانية سهلة التناول ، أو ان بعضها قريب من بعض لكثرتها .

(وجنات من أعناب والزيتون والرمان) . أي ونخرج من النبات هذه الأصناف الثلاثة ، وذكرها سبحانه على سبيل المثال ، ومنها تعرف البواقي (مشتبهاً وغير متشابه) ان من النبات والشجر ما يشبه بعضه بعضاً في الشكل والطعم ، ومنه ما لا يشبه بعضه بعضاً فيها (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وبنعه) . أي اعتبروا كيف يخرج الثمر أول ما يخرج صغيراً لا ينتفع به ، ثم ينتقل من حال إلى حال ، حتى يبلغ النضوج ، فيصير لذيذاً نافعاً (ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) . ليس المراد بقوم يؤمنون بالفعل فقط ، بل والذين يستجيبون لدعوة الإيمان ، ويتفكرون بالدلائل والبيّنات ، أما أصحاب القلوب المغلقة فيمرون بها مرور البهائم والسوائم .

والخلاصة ان المقصود الأول من هذه الأمثلة الأرضية والسموية هو التنبيه إلى أن أشياء هذا الكون ، وما فيها من ابداع وتدبير - محال أن تأتي صدفة ودفلة ، في نظر الفطرة والعقل ، فهي بحكمها قاطعاً بأن كل ما في الوجود قد صدر عن ارادة وتصميم ، ولحكمة بالغة يعرفها العالم والجاهل ولا شيء أدل على بطلان الصدفة ، كمبدأ ، من تكرار الحادثة الواحدة كلما تكرر سببها .

وجعلوا لله شركاء الآية ١٠٠ - ١٠٧ :

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ

سورة الأنعام

لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *
 ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ
 اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ
 وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ * وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ
 وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ
 رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
 أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ *

اللفظ :

خرقوا له بنين أي ابتدعوا له كذباً . وبديع السموات والأرض خالقها على
 غير مثال سابق . والوكيل الحافظ . والادراك اللحاق والوصول ، يقال : أدرك
 الغلام إذا بلغ ولحق الرجال ، وأدركته بصري لحقه بصري . وبصائر جمع
 بصيرة ، ولها عدة معانٍ ، والمراد بها هنا البينة والحجة التي يبصر بها الشيء
 على ما هو عليه . ونصرف الآيات تأتي بها بأساليب شتى . ودرست أي قرأت
 وتعلمت .

الاعراب :

شركاء مفعول أول لجلعوا والجن مفعول ثانٍ . وبغير علم متعلق بمحذوف
 حالاً من الواو في خرقوا . وبديع السموات خبر مبتدأ محذوف أي هو بديع

الجزء السابع

السموات . وأنى بمعنى كيف، وهي في محل نصب حالاً من ولد ، ويكون تامة والفاعل ولد . وذلك مبتدأ والله بدل وربكم خبر ، وجملة لا إله إلا هو خبر ثان ، وخالق كل شيء خبر ثالث . وفلنفسه متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف ، أي فإبصاره كائن لنفسه ، ومثله فعلها أي فعساه كائن عليها . وكذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف، أي نصرّف الآيات تصريحاً مثل ذلك . وليقولوا : اللام للعاقبة أي ان أمرهم يصير الى هذا القول . ولتبيين اللام للتعليل ، وان مضرة بعدها والمصدر المنسبك معطوف على المصدر المنسبك من ليقولوا أي للقول والبيان .

المعنى :

(وجعلوا لله شركاء الجن) . المشركون على أنواع، منهم من جعل الأصنام آلهة مع الله ، وآخرون أشركوا معه الكواكب ، ومنهم من عبد إبليس ، ومنهم من آله الظلمة ، وفريق جعلوا الجن شركاء لله ، والله سبحانه أخبر عن وجود الجن ، كما أخبر عن وجود الملائكة ، وانه خلقهم من مارج من نار ، وفي الآية التي نحن بصدددها أخبر الله سبحانه عن الفريق الذين جعلوا الجن شركاء له جل ثناؤه ، ولكنه لم يبين نوع هذا الجن المعبود للمشركين : هل هو جن الوهم والخيال ، أو غيرهم ، ولأجل هذا اختلف المفسرون ، فمنهم من قال : انه إبليس . وقال آخر : هو الظلمة، إلى غير ذلك مما لا يستند إلى أساس من علم .

وأباً كان ، فان الله قد رد على هؤلاء المشركين بكلمة واحدة هي : (وخلقهم) . وضمير خلقهم عائد الى الجن لأنه أقرب ، ويجوز الى المشركين واليهما معاً ، لأن الله خالق الجن والانس ، والمعنى كيف يكون لله شركاء ، وهو خالق كل شيء .

(وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) . خرقوا أي اختلقوا وابتدعوا كذباً وافتراء .. قال مشركو العرب : الملائكة بنات الله . وقالت اليهود : عزيز ابن الله . وقالت النصارى : المسيح ابن الله . وكل هذه الأقوال رجم بالغيب،

سورة الأنعام

وزعم بلا علم (سبحانه وتعالى عما يصفون) من المستحيلات عليه .
(بديع السموات والأرض) . أي خالقها على غير مثال سابق (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة) ، من جنسه ، ولا من غير جنسه ، لأنه ليس كمثله شيء ، وهو الغني عن كل شيء ، وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٥٠ من سورة النساء (وخلق كل شيء) . والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق (وهو بكل شيء عليم) ومع هذا لا يعلم بأن له ولداً، ولو كان لعلم به ، فعدم العلم بالشيء لا يدل على عدم وجوده واقعاً بالنسبة الى غير الله ، أما بالنسبة اليه تعالى فان علمه لا ينفك عن وجود المعلوم .

(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه) . الخطاب موجه للمشركين ، والمعنى ان الله استجمع صفات الوجدانية ، وخلق الكون بما فيه ، وتدير الأمور كلها فهو جدير بأن تفرده بالعبادة ، ولا تشاركوا معه أحداً من الانداد ، ولا تنسوا له الصاحبة والأولاد .

(لا تدركه الأبصار) . تكلمنا عن رؤية الله مفصلاً عند تفسير الآية ٥٥ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٧ (وهو يدرك الأبصار) وغيرها ، لأنه بكل شيء محيط (وهو اللطيف الخبير) . لطيف بعباده ، خبير بأعمالهم ومقاصدهم .
(قد جاءكم بصائر من ربكم) . المراد بالبصائر هنا الدلائل والبيّنات على وجود الله ووحدانيته ، ومنها ما سبق ذكره تعالى فائق الحب والنوى ، وخالق الليل والنهار ، والناس من نفس واحدة ، ومترل الماء الذي أحيا كل شيء .. واطلاق البصائر على الدلائل من باب اطلاق المسبب على السبب ، لأن البصائر جمع بصيرة : وهي الادراك الحاصل بالقلب ، وهذا الادراك ينشأ من الأدلة والبراهين .

(فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها) . بعد أن أقام الدليل القاطع على الحق قال : من اتبعه فإلى نفسه أحسن : ومن خالفه فإليها أساء : و ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها - ٧ الاسراء ، (وما أنا عليكم بحفيظ) بل بشير ونذير ، والله وحده هو الوكيل والرقيب .

(وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه للناس) . كان العرب

الجزء السابع

في الجاهلية أمة أمية ، لا شيء عندهم من العلم ، ولما استمعوا الى القرآن ، ورأوا فيه من فنون البيان ، وأنواع الأدلة والبراهين الدامغة لهم ولما يخلصون ، ومع ذلك رفضوا الإيمان والهداية ، لما كانت هذه حالهم لجأوا الى التعليقات الكاذبة ، وقالوا : يا محمد هذا القرآن الذي جئنا به قد درست وتعلمته من غيرك ، وليس هو وحياً من الله .

وبهذا التمهيد يتبين معنا ان قوله تعالى : (وكذلك نصرف الآيات) معناه لقد أنزلنا في القرآن ألواناً من الدلائل والبيانات بقصد أن يهتدي بها المشركون ، ويرجعوا عن غيهم ، فكانت عاقبة ذلك ان قالوا للنبي : انك درست هذه الآيات وتعلمتها من غيرك ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : (ليقولوا درست) . أما قوله : (ولنبيته لقوم يعلمون) فعناه اننا صرفنا الآيات في القرآن لينتفع بها الذين يعلمون معانيها ، فتقودهم الى الإيمان بالحق ، أما أهل الجاهلية والضلالة فلا رجاء بهديتهم ، وغاية الأمر ان هذه الآيات تقطع معارفهم ، وتكون حجة عليهم .

(اتبع ما أوحى اليك من ربك لا إله إلا هو واعرض عن المشركين) . هذا أمر من الله لنبيه الأكرم أن ينذر ويبشر بالقرآن ، ويداوم على ذلك ، ولا يبالي بمحود المشركين وتكذيبهم واستهزائهم .. وغريب قول من قال : ان هذه الآية منسوخة بآية القتال ، ان هذا القول غريب لأن الله سبحانه لم يأمر النبي (ص) بترك قتال المشركين في هذه الآية كي يقال : انها منسوخة بالآية الأمرة بقتلهم ، وانما أمره بمتابعة الدعوة الى الحق ، وعدم المبالاة بتكذيب المشركين .. ويدل على ان الأمر بمتابعة الدعوة مع عدم المبالاة شيء ، والأمر بالقتال شيء آخر .. وأول شرط للنسخ أن يتحد الموضوع .

(ولو شاء الله ما أشركوا) . أي انه تعالى لم يرد لإجاءهم الى الإيمان ، وقهرهم على ترك الشرك بكلمة « كن فيكون » الذي خلق بها الكون ، ولو أراد إيمانهم بإرادته التكوينية هذه ما أشركوا . أنظر تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة ، فقرة « التكوين والتشريع » ج ١ ص ٧٢ . (وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل) . الجملة الأولى والثانية بمعنى واحد ، أو متقاربتان في

سورة الأنعام

المعنى ، ولا نفهم أي غرض من ذلك سوى التأكيد ، بل وهذا التأكيد تأكيد أيضاً لقوله تعالى : (واعرض عن المشركين) لأنه لو كان وكيلاً وحفظاً عليهم لما جاز الاعراض عنهم : « ان الينا اياهم ثم ان علينا حسابهم - ٢٥ الفاشية » .

لا تسبوا الآية ١٠٨ - ١١٠ :

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنَقَلَبُ أَمْنَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ *

اللغة :

عدواً أي ظلماً وعدواناً . والجهد بفتح الجيم المشقة ، والمراد به المبالغة ، وبضمها الطاقة . والعمه التردد والحيرة .

الإعراب :

عدواً مفعول من أجله ليسبوا . والكاف من كذلك بمعنى مثل صفة المصدر محذوف ، أي زيننا لكل أمة مثل ما زيننا هؤلاء . وجهد مفعول مطلق لا قسموا

لأنه مضاف الى الإيمان ، وهي بمعنى القسم . وما يشعركم (ما) استفهام في موضع رفع بالابتداء ، ويشعركم خبر . وأول مرة ظرف زمان متعلق بلم يؤمنوا به .

المعنى :

(ولا تسبوا الذين يدهون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) . قالوا : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فيجيهم الكفار بسب الله جل ثناؤه ، وهذا القول ليس ببعيد ، فكثيراً ما يقع ذلك بين المختلفين في الدين ، ولفظ الآية لا ياباه ، بل روي عن الإمام جعفر الصادق (ع) : انه سئل عن قول النبي (ص) : ان الشرك أخفى من ديب النمل على صفوانة سوداء في ليلة ظلماء ٩ . قال : كان المؤمنون يسبون ما يعبد المشركون من دون الله ، فكان المشركون يسبون من يعبد المؤمنون ، فنهى المؤمنين عن سب آلهتهم لكيلا يسب الكفار إله المؤمنين ، فكان المؤمنين قد اشرکوا من حيث لا يعلمون .. وقوله تعالى : بغير علم . اشارة إلى جهالة المشركين وسفاهتهم .. وفي الآية دلالة واضحة على ان ما كان ضره أكثر من نفعه فهو محرم ، وان الله لا يطاع من حيث يعصى .

(كذلك زيننا لكل أمة عملهم) . المعنى الظاهر من هذه الجملة ان الله سبحانه كما زين للمسلمين أعمالهم كذلك زين لغيرهم أعمالهم ، حتى المشركين .. وليس من شك ان هذا المعنى غير مراد ، لأن الشيطان هو الذي يزين للمشركين والعاصين الشرك والعصيان بنص الآية ٤٣ من الأنعام : « وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » . بالاضافة إلى أن الله سبحانه لا يأمر عبده بالكفر ويزينه اليه ، ثم يعاقبه عليه ، بل العكس هو الصحيح ، قال تعالى : « ولكن الله جيب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسق والعصيان - ٧ الحجرات » .

ومن أجل هذا نرجع حمل الآية على ان الله خلق الانسان على حال يستحسن معها ما يأتيه من أعمال ، ويجري عليه من عادات ، ووهبه عقلاً يميز به بين الأعمال الحسنة والقيحة ، ولو خلقه على حال يستقبح معها جميع أعماله لما عمل

سورة الأنعام

شيئاً .. وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : (زيننا لكل أمة عملهم تماماً كمعنى قوله : (كل حزب بما لديهم فرحون - ٥٣ المؤمنون) . وقولنا : كل انسان راضٍ عن عمله .

(ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) . اذن ، فليدع المؤمنون سب آلهة المشركين ما دام الله سيعاقبهم عليه .

وتسأل : ان من سب الله أو رسوله يجب قتله ، وهذه الآية تشعر بأن أمره متروك الى حسابه وعذابه يوم القيامة ؟.

الجواب : ان هذه الآية نزلت بمكة يوم كان المسلمون ضعافاً لم يؤذن لهم بقتال ، لأن القتال كان آنذاك بالنسبة اليهم أشبه بعملية الانتحار ، أما مع قوة الاسلام وسلطانه فيجب تنفيذ حكم الاعداء بالساب ، ولا يجوز وقفه وتمطيله .

(واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) . أيّد الله سبحانه رسوله محمداً (ص) بالأدلة الكافية على نبوته بما لا يدع مجالاً للشك عند من يطلب الحق لوجه الحق، ولكن مشركي قريش اقترحوا على محمد (ص) معجزات خاصة ، وجعلوها شرطاً لإيمانهم به ، وأقسموا أغلظ الإيمان أن يصدقوا محمداً إذا استجاب لاقتراحهم ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم : (انما الآيات عند الله) . ينزل منها ما تقوم به الحجة على الجميع ، وما زاد فينزله أو يمنعه بحكمته وقضائه .. وتمنى المؤمنون ان يستجيب الله لطلب الكافرين رغبة منهم في سلمهم وإيمانهم ، فخاطب الله المؤمنين بقوله : (وما بشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون) أي من أين علمتم ان الله سبحانه اذا أنزل الآية المقترحة يترك الكافرون كفرهم وعنادهم ؟ وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٣٤ - ٣٧ من هذه السورة ، وفي ج ١ ص ١٨٩ .

(ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) . نقلب أفئدتهم وأبصارهم كناية عن علم الله تعالى بحقيقتهم ، وضمير به يعود الى محمد أو الى القرآن ، والمعنى ان الله يعلم بأن المشركين لا يؤمنون بعد نزول الآية التي اقترحوها ، وانهم يبقون مصرين على ضلالهم الأول الذي كانوا عليه قبل نزول

الجزء السابع

الآية المقترحة .. انهم طلاب باطل وضلال ، وليسوا طلاب حق وهداية .
(ونلزمهم في طغيانهم يعمهون) . أي بعد أن أصروا على الضلال رغم
إقامة الحجة عليهم ندمهم وشأنهم ، حتى يأتي اليوم الذي يلاقون فيه جزاء عملهم ،
وقد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها : « فلزمهم بخوضوا ويلعبوا
حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون - ٨٣ الزخرف » .

الجنَّةُ الثَّامِنُ

وكلمهم المولى الآية ١١١ - ١١٣ :

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ *
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِتَرْضَوْهُ وَلِيَلْقَتَهُ فَوَا مَاهُمْ مُقْتِرُونَ *

اللغة :

القبل بضم القاف والهاء ، والمراد به هنا المواجهة والمعاناة ، وقيل : هو جمع قبيل بمعنى الجماعة والصنف أي حشرنا عليهم من كل صنف جماعة . والزخرف الزينة . يقال : زخرفه إذا زين . والغرور الخداع بالباطل . واقترب المال اكتسبه ، والذنب اجتريحه .

الإعراب :

قبلاً حال من كل شيء ، ولا يلتفت إلى قول النحاة : ان صاحب الحال يجب أن يكون معرفة ، لأن العبرة بصحة المعنى ، لا بالتعليقات النحوية . إلا ان يشاء الله المصدر المنسبك في محل نصب على الاستثناء المنقطع ، أي ما كانوا ليؤمنوا إلا مع اكراه الله لهم على الإيمان . وجعلنا، متعدياً إلى مفعولين : الأول عدوًّا ، والثاني لكل نبي ، وشياطين بدل من عدو ، وكلمة عدو تطلق على

سورة الأنعام

المفرد والجمع والمثنى والمذكر والمؤنث . وغروراً مفعول من أجله ليوحى . والهاء في فعلوه عائد إلى زخرف القول . وما يفترون (ما) بمعنى الذي مفعولاً معه للزهم . والمصدر المنسبك من لتصفى معطوف على غرور، ومثله لبرضوه وليفتروا، أي يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول للفرور بزخرف القول ، والاصفاء إليه والرضا به واقتراف ما هم مقترفون .

طراز من الناس :

(ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله) . قلنا في تفسير الآيات السابقة : ان جماعة من المشركين اقترحوا على النبي (ص) أن يأتيهم بآية معينة ، وان المؤمنين تمنوا لو استجاب الله الى طلبهم ، وان الله سبحانه أجاب المؤمنين بقوله : (وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون) وبعد هذه الاشارة أوضح جل ثناؤه لنبيه الأكرم بأن هؤلاء المشركين الذين اقترحوا عليك يا محمد ما اقترحوا من الخوارق لا يؤمنون بك بحال ، حتى ولو أنزلنا عليهم الملائكة من السماء ، وأحيينا الموتى وشهدوا لك جميعاً بلسان عربي مبين انك نبي مرسل ، بل لو شهد لك الكون بأرضه وسماؤه ما صدقوك ولا اتبعوك (الا أن يشاء الله) أي بلجئهم إلى الايمان بك بالقوة والقلبة .

وتسأل : هل هذا الفرض صحيح ، وهذا الطراز من الناس يمكن أن يوجد بحسب المعتاد - ؟ وكيف تكذب فئة قليلة الكون بما فيه ؟ وهل من المتصور أن يكذب الانسان سمعه وبصره ، فيرى الموتى تحيياً وتقوم من قبورها الدارسة منذ آلاف السنين ، وهي تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله، وبرى الملائكة تنزل من السماء أفواجا ، تشهد لمحمد بالرسالة ، ويسمع الحيوانات والطيور والأممك والأشجار والأحجار وجميع الكواكب تنادي بأعلى صوتها : أشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، هل من المتصور أن يوجد انسان يكذب بجميع هذه الخوارق والمعجزات ؟ ان هذا لشيء عجاب .

الجزء الثامن

الجواب : إن هذا الفرض غير صحيح ، بل هو محال في حق الذين يتأثرون بالحق ودليله ، ويسبرون بوحى من منطق العقل وفطرة الله التي فطر الناس عليها لأن هذه الخوارق دلائل قاطعة لا تبقي مجالاً للرب ، أما هذا الفرض في حق الذين تسيطر على جميع مشاعرهم المصالح الخاصة ، ويرونها هي العقل وانقطرة والحق والعدل ، أما هذا الفرض في حق هؤلاء فصحيح ، لأن هذا الطراز من الناس موجود بالفعل ، وهم المستعمرون والمحكرون ، ومن اليهم من الذين يعيشون على السلب والفساد .

والذين يستبعدون هذا الفرض لم يتنبهوا إلى واقع هذه الفئة ، وخلطوا بين منطق العقل ، وبين الموجه الأول للمتفعين والانتهازيين .. إن العقل من حيث هو ليس إلا مرشداً يأمر وينهى ، ولا يصغي إليه إلا من طلب الحق لوجه الحق ، أما الموجه والقائد للمتفعين فهو النفع الشخصي ، وهو وحده الذي يقودهم في أعمالهم وسلوكهم ، وهو دينهم وعقلهم ، بل كيانهم وحياتهم ، ومن أجل هذا لا يجدي معهم أي منطق إلا منطق القوة الذي أشار إليه سبحانه بقوله : (لا أن يشاء الله) .. (ولكن أكثرهم يجهلون) ولا يتنبهون إلى أنهم الفئة الباغية التي لا يجدي معها منطق العقل والفطرة ، ولا منطق الدين والانسانية ، ولا شيء إلا القهر والغلبة ، فمن الخطأ والضياح أن يُخاطب هؤلاء بلغة العلم والانسانية .

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن). شيطان الإنس معروف ، وهو كل من يغري الناس بالباطل ، ويلبسه ثوب الحق .. أما الجن فهو من غيب الله ، ونحن به من المؤمنين اجيالاً ، ومن حيث المبدأ ، ولا تعيننا التفاصيل لأننا غير مسؤولين عنها ، تماماً كما هو الشأن في الملائكة ، ولا غرابة في عداوة الأشرار للأنبياء السابقين واللاحقين ، لأنه من مظاهر العداوة بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل .

وتسأل: إذا كان الله سبحانه هو الذي جعل للأنبياء أعداء من الأشرار، كما يظهر من الآية ، فلماذا يعاقبهم على عدائهم للأنبياء ؟ أيضاً كيف أمر باتباع الأنبياء ، ثم جعل لهم أعداء يقاومونهم ، ويفرون الناس بالكفر بهم ويرسالتهم ؟.

الجواب : ان الله سبحانه بعث الأنبياء ، وجعل مهمتهم الدعوة إلى التوحيد

سورة الأنعام

والعدل ، ونبذ الظلم والوثنية ، وهذه المهمة بطبيعتها تستدعي التناقض والصراع بين الأنبياء وبين عبدة الأوثان والمستظليين ، فالله سبحانه سبب البعثة ، والبعثة سبب العداء ، وبهذا الاعتبار نسب العداء إليه مجازاً . جل ثناؤه . قال حكاية عن نوح : « رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزددهم دعائي إلا فراراً - ه نوح ه . فالفرار يستند إلى دعوة نوح ، ودعوته تستند إلى أمر الله . وزيادة في التوضيح نضرب هذا المثال : رجل ترك ثروة لولده ، فسيبت له عداوة الحساد ، فيقال مجازاً : خلق له والده حساداً .

(يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) . زخرف القول هو الكلام المموه الكاذب ، ظاهره الرحمة ، وباطنه العذاب ، والمعنى ان الأشرار يوسوس بعضهم إلى بعض بالباطل المموه بالحق بقصد الإغراء بعمل القبيح ، ومعاندة الحق وأهله (ولو شاء ربك ما فعلوه) ضمير فعلوه يعود إلى عملهم القبيح ، أي عداوة الأنبياء ، وإيحاء بعضهم إلى بعض ، والمعنى ان الله لو أراد أن يمنهم جبراً وقهراً عن القبيح ما كان منهم ذلك العداء ، ولا هذا الإيحاء ، ولكن حكمته اقتضت أن يتركهم وشأنهم ، وأن يكونوا مختارين غير مسيرين ، فيحاسبون على ما يفعلون ، ويعاقبون بما يستحقون (فذرهم وما يفترون) من الكذب ، فعليك البلاغ ، وعلينا الحساب والجزاء .

(ولتصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) أي يوحى الأشرار بعضهم إلى بعض زخرف القول ليستمع إليه الكفار (وليرضوه) بعد ان استمعوا إليه ، ويعملوا به بلا بحث وتمحيص . وهاء يرضوه تعود إلى ما عادت إليه هاء ما فعلوه . (وليتقروا ما هم مقترون) من المعاصي والآثام ، ويتميز المؤمن عن الكافر ، والمخلص عن المنافق .

والخلاصة ان الأبالسة الأشرار يزخرفون القول لبيخدعوا به ضعاف النفوس ، وعملوا إليه ، ويقتروا الذنوب ، قال أبو حيان الأندلسي : هذا الكلام في غاية البلاغة ، لأنه أولاً يكون الخداع ، فيكون الميسل ، فيكون الرضا ، فيكون الاقتراف ، وكأن كل واحد مسبب عما قبله .

الفجر الله أبتغي حكماً الآية ١١٤ - ١١٧ :

أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَتَّبِعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ
مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ *

اللمعة :

المتمترين المترددين الشاكين . والمراد بكلمة ربك هنا القرآن أو الاسلام .
والحرص بفتح الحاء الكذب ، يقال : نخرص واخلرص أي افترى وكذب ،
والحرص الكلاب .

الاعراب :

غير مفعول أول لأتبعي ، وحكماً مفعول ثانٍ ، لأن معنى أبتغي اتخذ، وهي
تتعدى إلى مفعولين . وصدقا وعدلا مفعول من أجله لتتمت . واعلم من يضل
(من) في محل نصب بترع الخافض ، أي اعلم بمن يسئل واعلم بالمهتدين ،
ويجوز أن يكون أعلم بمعنى يعلم ، ومن مفعول : بل هو الأرجح عندنا .

المعنى :

(أفغفر الله ابغني حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً) . الحكم بفتح الحاء والكاف هو الحاكم الذي يحكم ويفصل بين الناس ، وتتصل هذه الآية بالصراع والعداء بين النبي والمشركين الذين اقترحوا عليه الخوارق ، والمعنى ان النبي (ص) قال للمشركين انكم تتحكمون في طلب المعجزات ، وتقترحون علي الاقتراحات ، وليس لي أن أنعدى حكم الله ، وقد أنزل عليكم القرآن كافياً وافياً بما نحتاجون من معرفة الحق والحلال والحرام ، مغنياً عن غيره بمبادئه وتعاليمه ، مثبتاً لصدقه بأسلوبه المعجز ، وشريعته الخالدة ، وأخبره عن كثير من المغيبات ، فطلبكم المزيد ، والحال هذه ، إن هو إلا عناد ومكابرة .

(والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) . أي ان المنصفين من علماء اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين بصدق القرآن ونبوة محمد(ص). وممر نظيره في الآية ١٤٦ من سورة البقرة ج ١ ص ١٣٣ (فلا تكونن من المترين) معنى الامتراء الشك ، وقال كثير من المفسرين : الخطاب للنبي ، والمراد به غيره على طريق التعريض ، أما نحن فترى ان الخطاب للنبي ، وهو المراد دون غيره ، مع علمنا بأن النبي لا يشك في القرآن ، بل ومحال عليه أن يشك ، وصح توجه الخطاب اليه على عصمته لأنه من الأعلى الى من هو دونه ، من الله لا من سواه . وتقدم ذلك أكثر من مرة .

(وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) . المراد بكلمة الله هنا القرآن أو الإسلام الذي أظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون ، وهذا هو المراد بآيائه ، أما معنى (صدقاً وعدلاً) فهو ان القرآن صادق في كل ما قال ، عادل في كل ما حكم وشرع (لا مبدل لكلماته) لأنها صدق وعدل، وكل ما هو صدق وعدل فهو من صلب الواقع ، ولا شيء يقال له صدق وحق وعدل اذا لم يكن له أساس واقعي ، وهذا الأساس لا يتغير ولا يتبدل ، أي لا تفك عنه الآثار والنتائج المترتبة عليه (وهو السميع) لما يقولون (العليم) بما يفعلون ويضمرون . (وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن

وان هم الا يحرصون) . كل من دان يدين فانه يؤمن بصدقه ايماناً مطلقاً ، ويتعصب له تعصباً أعمى ، وكل من رأى رأياً فانه يعتقده بصوابه ، وبأن ما عدها وهم وخيال ، وإذا أحصينا جميع الآراء والمعتقدات ، وقسناها بمقياس الله وميزاته جاءت النتيجة ان أكثر الناس يتبعون الظن الخاطيء ، والحدس الكاذب .. ومن أجل هذا أمر الله نبيه ان لا يستمع إلى الناس ولا يقرهم على عاداتهم وتقاليدهم ، وان عليه أن يتبع ما أوحاه الله اليه ، لأنه هو طريق الحق والهداية .

وإذا كان أكثر الناس على خطأ فيما يرون ويدنون فلا وزن - اذن - لأقوالهم وأحكامهم على هذا بالهداية ، وذلك بالضلال ، وانما الحكم في ذلك لله وحده ، أي لما بينه من الأصول والضوابط في كتابه الحكيم ، وهذا هو المقصود بقوله تعالى : (ان ربك أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) . ومن تلك الأصول الإلهية التي يتميز بها المحقون عن المبطلين قوله تعالى : « ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين - ٣٣ فصلت » .

التسمية على الديبحة ١١٨ - ١٢١ :

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ
أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ
إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ * وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنَّمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ
يَكْسِبُونَ الْإِنَّمِ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ * وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ
يُذَكِّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَئِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ
لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ *

الإعراب :

ما لكم (ما) استفهام مبتدأ : ولكم متعلق بمحذوف خبر المبتدأ . والمصدر المنسبك من ألا تأكلوا مجرور بنفي محذوفة ، والمجرور متعلق بما تعلق به لكم . وقد فصل الجملة حال من اسم الجلالة . وإلا ما اضطررتم (ما) في محل نصب بالاستثناء من (ما حرم عليكم) . وانكم لمشركون على حذف الفاء الواقعة في جواب الشرط أي وان أطمعتموهم فانكم لمشركون .

المعنى :

(فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين) . كان العرب في الجاهلية يأكلون الميتة ، ويذكرون على ذبائحهم أسماء ما يعبدون من الأصنام ، فحرم الله ذلك على المسلمين ، وأباح لهم أكل الذبائح ، شريطة أن يذكروا عليها اسم الله لا اسم سواه .

وتسأل : ان جواز الأكل من الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها غير منوط بالإيمان بالله وآياته ، اذ يجوز للكافر أن يأكل منها ، كما ان الإيمان بالله غير منوط بالأكل من الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها ، حيث يكون المؤمن مؤمناً وان لم يأكل منها .. وظاهر الآية يُشعر بأن الإيمان شرط لحلية الأكل من هذه الذبيحة ، لأن معناها كلوا منها إن كنتم مؤمنين .

الجواب : ان قوله تعالى : ان كنتم بآياته مؤمنين ليس شرطاً لحلية الأكل من الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها ، وإنما هو اشارة الى ان من يذكّر اسم غير الله على الذبيحة فقد جعل لله شريكاً ، لأنه توجه في عمله هذا الى غير الله ، كما كان يفعل مشركو العرب ، وان من ذكر اسم الله على الذبيحة فقد آمن بالله ونفى عنه الشريك ، لأنه توجه اليه وحده .

(وما لكم الا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) . يظهر من هذا ان بعض المسلمين قد امتنع عن أكل الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها لشبهة دخلت عليه ، وهي كيف يجوز للانسان أن يذبح الحيوان بيده ويذكر اسم الله عليه ثم يأكل

الجزء الثامن

منه ، ولا يجوز له أن يأكل من الحيوان الذي أماته الله حتف أنفه ! فأنكر الله ذلك على هؤلاء ، وقال : (ما لكم الا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه) . يشير تعالى بقوله : وقد فصل لكم الخ ، يشير الى الآية رقم ١٤٥ من هذه السورة ، ويأتي الكلام عنها ، وإلى الآية ١٧٣ من سورة البقرة ، وتكلمنا في تفسيرها عن المحرمات ، وعن حكم المضطر ج ١ ص ٢٦٤ .

(وان كثيراً يضلون بأهوائهم بغير علم) . أي يحللون ويحرمون من غير دليل ، ووفقاً لشهواتهم ، من ذلك أن مشركي العرب حللوا أكل الميتة وحرّموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وسبق الكلام عن ذلك في الآية ٣ من سورة المائدة (ان ربك أعلم بالمعتدين) الذين يحللون ويحرمون بأهوائهم وشهواتهم ، وانه سيعاقبهم بما يستحقون .

(وذروا ظاهر الإثم وباطنه) . المراد بالإثم فعل الحرام الموجب له ، وظاهره ارتكاب المعصية علانية ، وباطنه ارتكابها سراً ، وقد نهى سبحانه عن اقتراف جميع المعاصي ما ظهر منها ، وما بطن (ان الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) من اتباع الأهواء بغير علم ، ولا يتركون سدى من غير حساب وعقاب .

(ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق) . ضمير انه يعود إلى الأكل ، وهو مصدر متصيد من لا تأكلوا ، والفسق المعصية .. بعد أن أحل سبحانه ما ذبح على اسمه تعالى حرم ما لم يذكر اسمه عليه . واستناداً إلى ذلك أجمع الفقهاء ، ما عدا الشافعية على ان الذابح إذا ترك التسمية عمداً حرمت الذبيحة ، تماماً كالهيئة .. وبكفي مجرد اسم الله ، مثل : الله . الله أكبر . الحمد لله . بسم الله . لا إله إلا الله ، ونحو ذلك . واختلفوا إذا تركت التسمية سهواً . قال الحنفية والشافعية والحنابلة : لا تحرم الذبيحة . وقال المالكية : تحرم . وقال الشافعية : لو ترك التسمية عمداً لا تحرم الذبيحة ، فبالأولى لو تركها سهواً .

(وان الشياطين ليرحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) . المراد بالشياطين هنا أبالسة

سورة الأنعام

الأنس الذين يموهون الحقائق ، ويزخرفون الأقوال ، يخدعون بها السليج البسطاء . من ذلك ان بعض المشركين وأبالستهم كانوا يقولون لأتباعهم : اسألوا أصحاب محمد (ص) كيف تأكلون الحيوان الذي قتلتموه وذبحتموه بأيديكم ، ولا تأكلون الحيوان الذي قتله الله وأمانته حثف أنفه ، مع ان قتل الله أولى بالأكل من قتلهم ؟ هذه هي مجادلتهم التي أوحى بها الشياطين لأوليائهم بقصد أن يلقوا الشبهة في قلوب ضعاف المسلمين ، ويفتنوهم عن دينهم .

فقال سبحانه هؤلاء الضعاف من المسلمين : (وان أطعموهم انكم لمشركون) . أي من استمتع إلى المشركين ، وأحل أكل الميتة كما أحلها فهو مشرك مثلهم . وهذا الحكم لا يختص بأكل لحم الميتة ، فكل من جحد حكماً شرعياً ، علماً بشئونه فهو كافر .

أو من كان ميتاً الآية ١٢٢ - ١٢٤ :

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمًا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ *

اللمعة :

القرية المكان الذي يجتمع فيه الناس قتلوا أو كثروا ، ولكن كثر استعمالها في البلد الصغير فتغلبت عليه . والصغار بفتح الصاد للذل والهوان .

الإعراب :

أو من (من) بمعنى الذي مبتدأ ، وخبره كمن . ومثله مبتدأ وخبره في الظلمات ، والجملة صلة كمن . ليس بخارج منها الجملة حال من الضمير في مثله . وأكابر مفعول أول لجعلنا . وفي كل قرية متعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً ، ومجرمها مجرور بإضافة أكابر . الله أعلم حيث يجعل رسالته (أعلم) هنا بمعنى يعلم ، لأن التضاضل بين الله وغيره محال ، ومعنى حيث موضع الرسالة ، أي محمد (ص) ، وعليه تكون حيث في محل نصب مفعولاً به لأعلم ، والمعنى ان الله يعلم ان محمداً أهل لرسالته .

المعنى :

(أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) . هذا مثل ضربه الله تعالى للمقارنة بين المؤمن والكافر ، وتوضيحه ان المقارنة بينها تماماً كالمقارنة بين الموت والحياة ، والنور والظلام ، فالكافر ميت ، فإذا آمن بُعث من جديد وعادت اليه الحياة ، وإيمانه نور يمشي به في حياته على بصيرة من أمره ، ومن بقي على الكفر والشرك فهو كمن يتخبط في الظلمات ، يسير مسلي غير هدى ، ولا يصل إلى خير مدى حياته كلها .

المسؤولية والسائل الأعلى :

قد يقول القائل : ان الآية شبهت الإيمان بالحياة ، والكفر بالموت ، مع أن

سورة الأنعام

الكافرين والملحدین فی هذا العصر أكثر ثراء ورفاهية من المؤمنین والعابدين ؟ .
الجواب: ليس المراد بالحياة فی هذه الآية أن يعيش الانسان فی النعم والرفاهية ،
فیأكل طیباً ، ویلبس ثمیناً ، ویشرب سائغاً .. ان الرفاهية لا تناط بالكفر ولا
بالإیمان، والا كان المؤمنون سواء فی الشرق والغرب من حیث الحضارة والرفاهية ،
وكذلك الملحدون والكافرون ، ان للرفاهية أسباباً وملايسات لا تمت إلى الإیمان
والکفر بسبب .. وانما المراد بالحياة فی الآية الإیمان والشعور الدینی الذي یدفع
بصاحبه الى القيام بالواجب کإنسان مسؤول عن سلوكه ، بحاسب علیه وبكافأ
على إحسانه بالثواب ، واساءته بالعقاب .

ولو كان الإنسان غیر مسؤول عن شيء لكانت الشرائع والقوانين ألقاظاً بلا
معان .. ومتى سلمنا بأن الانسان مسؤول ، ولا یترك سدى یلزمنا حیماً أن نسلم
بأنه مسؤول أمام من لا یسأل عما یفعل وهم یُسألون .. ولو كان هذا السائل
مسؤولاً لوجب وجود سائل له ، وهكذا إلى ما لا نهاية .

ومن كفر بوجود السائل الأعلى الذي یسأل ولا یُسأل فقد كفر بالمسؤولية
ونفاها من الأساس ، لأنه لا مسؤولية من غیر سائل ، ومن كفر بالمسؤولية فقد
کفر بالحياة الاجتماعية .

وتقول : أجل ، ان الانسان مسؤول ، ولكن ليس من الضروري أن يكون
السائل هو الله ، فللناس أن یختاروا هیئة منهم يكون الانسان مسؤولاً أمامها ..
ونسأل بدورنا : إذا أخطأت هذه هیئة فمن یسألها وبحاسبتها ، وان قيل :
الوجدان ، قلنا : أولاً الوجدان أمر معنوي لا عیني . وثانياً : ان الوجدان مشاع
یدعيه کل واحد ، فلماذا یترك هذا لوجدانه دون ذاك ؟ اذن ، لا سائل غیر
مسؤول إلا الله وحده ، فمن آمن بالله وألزم نفسه بشریعته وأحكامه فقد سار
على بصيرة من أمره فی عقیدته وسلوكه وإلا كان مثله كمن یمشي فی الظلمات
ليس بخارج منها .

(كذلك زین للکافرين ما كانوا یعملون) . أي مثل ما زین للمؤمنین
أعمالهم أيضاً زین للمشرکین أعمالهم، والفرق أن تزین أولئك انعکاس عن الواقع ،
وتزین هؤلاء وهم وخیال .

(وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها) . المراد بالقربة كل مجتمع من الناس قلّ أو كثر ، والمعنى انه كما وُجد في مجتمعك يا محمد رؤوس للإجرام تمكر وتنصب العداء لدين الله كذلك وُجد في المجتمعات السابقة ، ويوجد في اللاحقة أيضاً رؤساء يمحرون بأمتهم ، ويقفون موقف العداء للحق وأهله .

وتسأل : ظاهر الآية يدل على ان الله سبحانه هو الذي جعل أكابر المجرمين يجرمون ويمكرون بأهل الحق ، مع العلم بأنه تعالى ينهى عن المكر والإجرام ، ويعاقب عليها ، فما هو التأويل ؟ .

الجواب : ان القصد من هذه النسبة اليه جل ثناؤه هو الاشارة إلى أن مشيئة الله قضت بأن تقوم السنن الاجتماعية على أساس التناقض بين المحقّقين والمبطلين ، بين أرباب السلطان المعتدين ، وبين الناس المعتدى عليهم ، ولا مفر من هذا التناقض والصراع إلا بالقضاء على المجرمين ، ولا بد أن يتم ذلك ، وتعلو كلمة الحق على أيدي دعاة العدل والصلاح ، مهما تضخم الباطل واستطال ، وقد سجل سبحانه ذلك في كتابه ، حيث قال عز من قائل : « ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن نجد لسنة الله تبديلاً » ولن نجد لسنة الله تحويلاً - ٤٣ فاطر . ان هذا التكرار تأكيد قاطع بأن العقاب للمتقين على المجرمين ، مهما طال الزمن ، وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » .

(وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله) . اختلف المفسرون في معنى هذه الآية على قولين : الأول ان أكابر المجرمين من العرب اقترحوا على محمد (ص) أن يأتيهم من المعجزات مثل ما أوتي موسى من فلق البحر ، وعيسى من إحياء الموتى . القول الثاني : انهم قالوا له : لن نؤمن حتى ينزل علينا الوحي كما نزل على الأنبياء . وقال السرازي : « هذا القول مشهور بين المفسرين » . ونحن نرجحه على الأول لأن سياق الآية يدل عليه ، حيث رد سبحانه على أكابر المجرمين بقوله : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) . بالاضافة إلى أن طلبهم أن ينزل الله الوحي عليهم يتلاءم مع حسدهم لرسول الله .

سورة الأنعام

قال تعالى في الآية ٥٤ من سورة النساء : و أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . وفي مجمع البيان وغيره ، ان الوليد بن المغيرة قال للنبي (ص) : لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك ، لأنني أكبر منك سنّاً ، وأكثر منك مالاً .

ومعنى قوله : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) واضح ، وهو انه تعالى يختار لرسالته من يصلح لها من خلقه ، ومحمد أكرم خلق الله وأشرفهم .
(سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله) لأنهم استعلوا وتعاضموا ، فاستحقوا الجزاء بالاحتقار والاذلال ، وفي بعض الروايات : ان المتكبرين يحشرون في صورة النمر يطأهم الناس بأقدامهم جزاء على تعاضمهم في الدنيا (وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) . فالصغار جزاء التكبر ، والعذاب جزاء المكر والخداع ، وبكلمة ان الله سبحانه يعامل أرباب النوايا الخبيثة ، والأهداف الفاسدة بعكس ما بقصدون ويهدفون .

يشرح صدره للإسلام الآية ١٢٥ - ١٢٧ :

فَن يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ * لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

الله :

الحرج أضيق الضيق . ودار السلام هي دار السلامة من المنغصات والكروب ، والمراد بها هنا الجنة . والولي من يتولى الأمور .

الإعراب :

صدره مفعول أول ليجعل ، وضيقاً مفعول ثانٍ ، وحرماً صفة لضيق لأنه بمعنى شديد الضيق . ومستقيماً حال من صراط ربك ، والعامل فيه هاء التنبيه في هذا أو الإشارة لأنهما بمعنى الفعل . ولهم دار السلام مبتدأ وخبر ، وهو وليهم مثله ، وعند ربهم متعلق بمحذوف حالاً من الضمير في لهم .

المعنى :

(فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) . قال الرازي : « تمسك أصحابنا - يريد السنة الأشاعة - بهذه الآية في بيان ان الضلال والهداية من الله تعالى . أما أصحابنا فيقولون : لو كان الضلال والهداية من الله لسقط التكليف ، وبطل الحساب والجزاء ، لأنه تعالى أعدل من أن يفعل الشيء ، وبحاسب غيره عليه ، كيف ؟ . وهو القائل : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » أما الآية التي نحن في صدد تفسيرها فلا ندل على دعوى الرازي وأصحابه ، لأنها لم ترد لبيان مصدر الضلال والهداية ، وانه من الله أو من غيره ، وإنما وردت لبيان ان الناس فريقان :

الفريق الأول : تنسج صدورهم للحق ، ويتفاعلون معه ، ويطمئنون اليه ، لوعيمهم وتجردهم عن الأغراض والأهداف الشخصية ، وتحررهم من التقاليد والأهواء ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب - ١٨ الزمر » . فقوله هم أولو الألباب يشعر بأن الله هداهم لأنهم من أولي الألباب ، وانه تعالى يمد العبد بهدايته لحكمة في ذات العبد نفسه .. وأيضاً هم المعنيون بقوله « وانا لما سمعنا الهدى آمنا به - ١٣ الجن » . وقوله : « ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان ان آمنوا بربكم فآمنا - ١٩٣ آل عمران » . ولما علم سبحانه الخير من هذا الفريق زادهم الله هدى ، وأمدهم بتوفيقه وعنايته ، قال تعالى : « ويزيد

سورة الأنعام

الله الذين اهتدوا هدى - ٧٦ مريم . وقال : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآثاهم تقواهم - ١٧ محمد » . وهكذا يهتم الاستاذ بتلميذه ويشجعه إذا علم منه الذكاء والنشاط .

الفريق الثاني : لا تتسع صدورهم للحق لجهلهم وضيق أفقهم ، أو لتناقضه مع منافعهم وأرباحهم ، أو عاداتهم وتقاليدهم ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله - ٢٢ الزمر » . وقوله : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون - ٢ الأنبياء » . وقوله : « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون - ٢٣ الأنفال » . فالله سبحانه يعرض عن العبد ، ويؤكله الى نفسه إذا لم يعلم الخير منه ، كما يهمل الاستاذ تلميذه بعد اليأس من نجاحه . انظر تفسير الآية ٨٨ من النساء ، فقرة : الاضلال من الله سلبى لا ايجابى ج ٢ ص ٣٩٩ .

(كأنما يصعد في السماء) . كان الناس فيما مضى يضربون المثل للمنتع بالصعود الى السماء ، حيث لا وسيلة اليه بحال ، والنشبيه في الآية يتفق مع العصر الذي نزلت فيه ، والقصد منه ان فريقاً من الناس - وهم الفريق الثاني الذي أشرنا اليه - يجردون الضيق والعسر لو كلفوا باتباع الحق ، تماماً كما لو أمروا بالصعود الى السماء (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) . المراد بالرجس هنا العذاب ، لأنه جزاء الكافرين ، والمعنى ان الذين وقعوا في الضيق والخرج من اتباع الحق في الدنيا كذلك غداً يقعون في العذاب الذي هو أشد وأعظم عليهم ضيقاً وحرماً من اتباع الحق : « وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرأ - ٨١ التوبة » .

(وهذا صراط ربك مستقيماً) . هذا إشارة الى الإسلام الذي تشرح له وتستريح به صدور الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، والإسلام هو الصراط الذي لا عورة فيه ولا اعوجاج (قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) . أي أقمنا الدلائل والحجج الواضحة الكافية على صحة الإسلام وصدقه في القرآن وآياته ، وبها ينتفع الذين يعرفون دلائل الحق وبه يعملون (لهم دار السلام عند ربهم) . والذين يقيمون في دار الله هذه لا يحسمهم سوء ، ولا هم يحزنون ، لأن الله

كافلهم (وهو وليهم بما كانوا يعملون) من الخيرات والطاعات .

ويوم نحشرهم جميعاً الآية ١٢٨ - ١٣٢ :

وَيَوْمَ نَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ
أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي
أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *
يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ
مُهِلِكَ الْقُرَىٰ ظَلْمًا وَأَهْلَهَا غَافِلُونَ * وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ
بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ *

اللغة :

المعشر مثل القوم جمع أو اسم جمع لا واحد له من لفظه . واستكبر من
الشيء أخذ الكثير منه . والمثوى المكان . ويقصون عليكم أي يتلون عليكم .

الإعراب :

يوم مفعول لفعل محذوف ، أي أذكر يوم نحشرهم . وجميعاً حال . وخالدين

سورة الأنعام

حال من ضمير المخاطب في مثوأكم . والا ما شاء الله (ما) في محل نصب بالاستثناء من خالدين . وجملة يقصون في محل رفع صفة لرسول . وذلك خبر مبتدأ محذوف ، أي الأمر ذلك . وان لم يكن (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، أي لأنه لم يكن . ولكل درجات مبتدأ وخبر ، أي درجات كائنة لكل واحد . وما عملوا متعلق بمحذوف صفة للدرجات . وربك مبتدأ ، وغافل خبر والباء زائدة اعراباً .

المعنى :

(ويوم يحشرهم جميعاً) أي الانس والجن ، ونقول : (يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس) أي استكثرتم من اغوائهم واضلالهم (وقال أولياؤهم من الانس) الضمير في (أولياؤهم) يعود الى الجن ، أي ان الانس الذين تولوا الجن وأطاعوهم قالوا لله تعالى : (ربنا استمتع بعضهم ببعض) أي ان الجن استمتعوا بالانس ، والانس استمتعوا بالجن ، ويبين الرازي وجه هذا الاستمتاع بقوله :

« كان الانس يطيعون الجن ، فصار الجن كالرؤساء .. فهذا استمتاع الجن بالانس ، أما استمتاع الانس بالجن فهو ان الجن كانوا يدلون الانس على أنواع الشهوات والطيبات ، ويسهلونها عليهم . »

(وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) ما زال الكلام للانس الذين أطاعوا الجن ، والمعنى ان استمتاع بعضنا ببعض كان إلى أجل معين ، ووقت محدود ، وهو اليوم الذي كان فيه فراقنا للحياة الدنيا .. وها نحن بين يديك نعترف بذنوبنا ، فاحكم فينا بما تشاء . (قال النار مثوأكم خالدين فيها إلا ما شاء الله) هذا هو الحكم الفاصل ، والجزاء العادل (ان ربك حكيم عليم) بمضي قضاؤه بالناس على أساس الحكمة والعلم .

(وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) . لما ذكر سبحانه في الآية المتقدمة ١٢٧ انه هو ولي المؤمنين ذكر هنا ان الكافرين من الجن والانس

الجزء الثامن

بعضهم أولياء بعض ، لأنهم شركاء في الكفر والظلم ، ويوم القيامة يكونون شركاء أيضاً في العذاب والعقاب .

(يا معشر الجن والانس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسَلٌ مِنْكُمْ بِقُصُوفٍ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِيلُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا . هَذَا السُّؤَالُ بِوَجْهِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ غَدَاً لِلْأَشْرَارِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، وَهُوَ لِلتَّائِبِ وَالتَّوْبِخِ ، وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِهِ وَحَقِيقَتِهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَ لَهُمْ رَسُولاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ : « وَانْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ — ٢٤ فاطر » . (قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا) حَيْثُ لَا مَجَالَ لِلانْكَارِ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ .. وَفِي مَوْقِفٍ آخَرَ أَفْصَحَ لَهُمُ الْمَجَالَ فَكَذَّبُوا ، وَ « قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » وَسَبَقَ الْكَلَامُ عَنْ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ ٢٣ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

(وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ هُمْ اغْتَرَوْا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، لِأَنَّ الدُّنْيَا مَا خَبَأَتْ شَيْئاً مِنْ عِظَاتِهَا وَتَقْلِبَاتِهَا (وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَوَّلًا أَنَّهُمْ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ، ثُمَّ عَقِبَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَالْقَصْدُ مِنْ هَذَا التَّأْكِيدِ الرَّدْعُ وَالزَّجْرُ عَنِ الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ ، لِأَنَّ مَنْ حَاوَلَ أَنْ يَقْتَرِفَ ذَنْباً إِذَا أَبْقَى أَنَّهُ سَيُضْطَرُّ إِلَى الْاعْتِرَافِ بِهِ أَحْجَمَ وَلَمْ يَقْدَمْ ، إِنْ كَانَ عَاقِلًا .

(ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) . ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَالْمَعْنَى إِنْ كَانَ اللَّهُ عَادِلًا لَا يَظْلِمُ أَحَدًا ، وَلَا يَعْاقِبُ إِلَّا بِعَدْوٍ أَنْ يَرْسِلَ رَسُولًا بِأَمْرٍ وَيَنْهَى ، فَإِنْ لَمْ يَأْتِ الْعَبْدَ وَيَنْتَهَ أَخْبَرَهُ الرَّسُولُ بِمَا يَحِلُّ بِهِ إِذَا لَمْ يَتَبَّ وَيُرْتَدَعْ ، فَإِنْ أَصْرَ عَاقِبَهُ اللَّهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ (وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا) فَلِلْمُسِيئِينَ دَرَجَاتٍ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ مِنَ السَّخَرِيَّةِ بِالْغَمَزِ إِلَى نَهْبِ الشُّعُوبِ أَقْوَاتِهَا وَلِلْقَاءِ الْقُنَابِلِ الذَّرِيَّةِ عَلَى الْأُلُوفِ ، وَلِلْمُحْسِنِينَ دَرَجَاتٍ وَفَقْ أَعْمَالِهِمْ مِنَ التَّحِيَّةِ إِلَى الْاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَالصَّالِحِ الْعَامِّ (وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) فَكُلُّ شَيْءٍ مُسْجَلٌ كَبِيرًا كَانَ أَوْ صَغِيرًا ، حَسَنًا أَوْ قَبِيحًا .

وَيُجَدَّرُ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا سَبَقَ مَرَارًا مِنْ أَنَّ نَوْْمَ بُجُودِ الْجِنِّ أَجْمَالًا ، لِأَنَّ الْوَحْيَ أَثْبَتَهُ ، وَالْعَقْلُ لَا يَنْفِيهِ ، تَمَامًا كَمَا هُوَ الشَّانُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ : أَمَّا التَّفَاصِيلُ فَمَا زَالَتْ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ .

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ * إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ بِمُغْضِيزِينَ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *

اللغة :

يذهبكم أي يهلككم . والانشاء الابتداء ، انشا الله الخلق ، أي ابتدأه . ومكانة الانسان الحال التي هو عليها .

الإعراب :

كما أنشأكم الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي يستخلفكم استخلاقاً مثل أنشأكم . ان ما توعدون (ما) اسم ان ولأت خبرها .

المعنى :

(وربك الغني ذو الرحمة) بعد أن ذكر سبحانه انه بحاسب الناس وفق أعمالهم ، ولكل درجات مما يعملون ، أشار إلى انه غني عن العالمين ، لا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى ، وان العالم كله بحاجة إلى رحمته لأنه تعالى هو السبب الأول لوجوده (ان يشأ يذهبكم) لأنه غني عنكم (ويستخلف من بعدكم ما يشاء) فيبدل بكم غيركم يكونون أطوع إليه منكم ، ولكنه أمهلكم

تفضلاً منه وكرماً (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أي كما هان عليه إيجادكم من جيل مضى يهون عليه إيجاد جيل جديد منكم أو من غيركم .. والقصد من هذه الآية أن ينذر جل ثناؤه الكافرين المعاندين بالهلاك والدمار ، تماماً كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود .

(ان ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) بعد أن خوفهم سبحانه من عذاب الدنيا خوفهم من القيامة وعذابها وانها آتية لا ريب فيها ، ولا مهرب منها إلا اليه وحده .

(قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون) . بعد أن دعا النبي (ص) عرب الجاهلية إلى الإسلام ، واستجاب له منهم من استجاب ، وعاند من عاند أمره الله جل وعز أن يقول للمعاندين : اعملوا على شاكلتكم التي أنتم عليها ، وأنا عامل بهداية ربي ، وبعد حين تعلمون لمن تكون العاقبة الحسنى ، تماماً كما تقول لمن يرفض النصيحة : ابق على طريقتك ، وسرى عاقبة أمرك .

(انه لا يفلح الظالمون) لأنفسهم بالكفر ، أو لغيرهم بالعدوان ، ولو أفلح الظالم لكان العادل أسوأ حالاً من الظالم، وكانت ألفاظ القيم ترادف النفاق والرياء.

فقالوا هذا الله الآية ١٣٦ - ١٤٠ :

وَجَعَلُوا لِلَّهِ عِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا لِسُرَّكَانِنَا فَمَا كَانَ لِسُرَّكَانِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى سُرَّكَانِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ سُرَّكَاؤُهُمْ لِيُرْثُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرُ لَا يَطْعَمُهَا

سورة الأنعام

إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِغْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ
 اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا
 فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ
 يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ
 خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ
 افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ *

اللفظ :

ذراً أي خلق على وجه الاختراع والابداع . ويلبسوا يخلطوا . وحجر أي
 محجور وممنوع .

الإعراب :

سواء ما يحكمون ، سواء فعل ماضٍ ، وما مصدرية ، والمصدر المنسبك فاعل
 أي قبح حكمهم : وحجر صفة للأنعام والحرج ، ويستوي فيه الواحد والكثير ،
 والذكر والأنثى . وافتراء مفعول لأجله ليذكرون . وما في بطون (ما) في محل
 رفع بالابتداء ، وخالصة خبر ، وانت لفظ خالصة على معنى الأنعام ، وذكر
 لفظ محرم حملاً على لفظ (ما) . واسم يكن ضمير مستتر يعود إلى ما في بطون.
 وافتراء مفعول لأجله لحرموا .

المعنى :

(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) . الواو في جعلوا يعود إلى مشركي العرب ، وذراً خلق ، والحرث الزرع ، والانعام المواشي ، والنصيب السهم ، والشركاء الأصنام .

وحصل المعنى ان الله سبحانه بعد أن أبطل في الآيات السابقة عقيدة المشركين بمنطق العقل والفطرة تعرض في هذه الآيات الى بعض ما كان مشركو العرب يزاولونه في أموالهم وأولادهم، وهذه الآية التي تفسرها تعرضت لشأنهم وتقاليدهم في ثروتهم المادية ، وهي الزرع والماشية ، وكانوا - كما في كتب التفسير - يعينون شيئاً من زرعهم وانعامهم لله ، ويصرفونه الى الصبيان والمساكين ، و شيئاً لأصنامهم ، وينفقونه على سدنة الأصنام وحراسها ، وكانوا يبالغون ويجهلون في تنمية نصيب الأصنام ، ليأتي نتاجه أكثر وأوفر من نصيب الله ، لأن الله غني ، وفي الأصنام فقر، وكانوا إذا خالط شيء مما جعلوه لله ما جعلوه للأصنام تركوه لها ، وإذا خالط شيء مما جعلوه للأصنام ما جعلوه لله ردوه الى الأصنام ، وأيضاً إذا أصابهم الجذب أكلوا من نصيب الله ، وتركوا نصيب الأصنام .. وهذه الصورة أوضح تفسير للآية الكريمة (ساء ما يحكمون) في اشارة أصنامهم على الله تعالى علواً كبيراً .

(وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم) . تقدم ان المراد بالشركاء في الآية السابقة الأصنام ، أما في هذه الآية فالمراد بهم الكهنة وسدنة الأصنام بطبيعة الحال ، لأن الأصنام لا تشعر ولا تنطق ، فكيف تزين وتغري ؟ . والمعنى ان المشركين كما جعلوا في أموالهم نصيباً لله ، ونصيباً للأصنام كذلك زين لهم السدنة والكهنة ، ومن اليهم من الرؤساء ، زينوا لهم قتل أولادهم .

وتسأل : إن تصرف المشركين في أموالهم وأولادهم على النحو المتقدم كان بوحى من عرف الجاهلية ، ومعلوم ان العرف ، يضعه الناس للناس ، فإذا قتل واحد منهم ابنه خشية الفقر والاملاق ، أو وأد ابنته خوف

سورة الأنعام

العار، كما نسب الى قيس بن عاصم، قلده من هم على شاكلته في السفاهة والجهالة ..
اذن ، فما هو الوجه في نسبة ذلك إلى الأصنام ، أو القائمين عليها ؟
الجواب : أجل ان تصرف المشركين كان بوحى من التقاليد ، ولكن السدنة
والرؤساء قد زينوا هذه التقاليد وجعلوها ، وهم الناطقون باسم الأصنام فصحت
النسبة اليها .

(ليردوهم وليليسوا عليهم دينهم) الواو يعود الى الكهنة ومن اليهم، وضمير
(هم) يعود الى المشركين ، والرد هنا معناه الهلاك ، والليس الخلط ، والسلام
للعاقبة والمعنى ان الكهنة زينوا للمشركين أعمالهم ، فكانت نتيجة هذا التزين هلاك
المشركين ، وضياعهم عن الحق والدين القويم (ولو شاء الله ما فعلوه) أي
لو شاء الله أن يمنعه عن ذلك جبراً وقهراً ما تصرفوا في أموالهم وأولادهم
ذاك التصرف القبيح ، ولكنه تركهم وشأنهم بعد أن هداهم النجدين . (فذرهم
وما يفترون) من اضافة ما يحللون ويحرمون الى الله .. والأمر بتركهم وافتراهم
جاء لتهديد المشركين ووعيدهم ، وليس على وجهه وحقيقته ، تماماً كالأمر في
قوله تعالى : واعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير ٤١ فصلت .
ثم ذكر سبحانه في الآية التالية ان المشركين قسموا زرعهم وانعامهم الى
ثلاثة أقسام :

القسم الأول (وقالوا هذه أنعام وحرث حجير لا يطعمها إلا من نشاء
بزرعهم) . الحجير الحرام ، أي ان المشركين كانوا يقطعون قسماً من زرعهم
ومغارهم وماشيتهم ، ويحرمون التصرف فيه إلا على من يختارون .. ولم يبين
سبحانه الذين يختارهم المشركون لهذا القسم ، ولكن بعض المفسرين قالوا : هم
الكهنة وخدم الأصنام ، وقال آخرون : هم الرجال دون النساء .
القسم الثاني (وأنعام حرمت ظهورها) فلا تُركب ، ولا يُحمل عليها ،
وتقدم ذكرها في الآية ١٠٣ من المائدة .

القسم الثالث (وأنعام لا يذكرن اسم الله عليها) في الذبح ، بل يذكرن
اسم آلهتهم ، وتقدم التفصيل عند تفسير الآية ١٢١ من هذه السورة (افتراء
عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون) أي انهم نسبوا هذا التسميم إلى الله كذباً
وافتراء ، والله معاقبهم عليه .

الجزء الثامن

(وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة للذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن مينة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم) . قال الرازي : « هذا نوع رابع من أنواع قضاياهم الفاسدة - ونقدم ذكر الأقسام الثلاثة في الآية السابقة - كانوا يقولون في اجنة البحائر والسوائب : ما ولد منها حياً فهو خالص للذكور ، لا تأكل منه الاناث، وما ولد ميتاً اشترك فيه الذكور والاناث. سيجزيهم وصفهم ، والمراد الوعيد (انه حكيم عليم) ليكون الزجر واقعاً على حد الحكمة وبحسب الاستحقاق » .

(قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم) . وأي شيء أكثر سفاهة من اقدام الوالد على ذبح ولده بمديته ، أو دفنه حياً تحت التراب ، وقوله بغير علم تأكيد للسفاهة ، أما خسارتهم في الدنيا فتتمثل في قتل أولادهم ، وفساد حياتهم الاجتماعية ، وخسارتهم في الآخرة أدهى وأمر (وحرّموا ما رزقهم الله) من الأنعام والحارث التي زعموا انها حجر (افترأ على الله) لأن التحريم منهم وليس منه (قد ضلوا وما كانوا مهتدين) إلى شيء من الخير والرشاد .

قال الرازي : ذكر الله أموراً سبعة ، وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم ، وهي الخسران ، والسفاهة ، والجهل ، وتحريم ما أحل الله ، والافترأ عليه ، والضلال عن الرشد ، وعدم الاعتناء .. ثم قال الرازي : « فثبت انه تعالى ذم الموصوفين بقتل الأولاد وتحريم ما أحله الله تعالى لهم بهذه الصفات السبعة الموجبة لأعظم أنواع الذم ، وذلك نهاية المبالغة » .

ونقول للرازي : إذا كان الله قد ذمهم على الضلال بأعظم أنواع الذم ونهايته فكيف تدعي ان الله هو الذي خلق فيهم الضلال ؟ وأي منطق يجيز أن يعاقب البريء ويؤذم على شيء فعله الذي ذمه وعاقبه ؟ لقد تكرر ذلك من الرازي في تفسيره الكبير عدة مرات ، منها ما قاله منذ قريب عند تفسير الآية ١٢٥ من هذه السورة .

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ *
وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهَا مَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَمَائِنَهُ أَزْوَاجٌ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّاكِرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإِثْنَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِثْنَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّاكِرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإِثْنَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِثْنَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *

اللغة :

الجنات البساتين والكروم . والمعروشات التي تُرفع فروعها على دعائم، كالعنب، وغير المعروشات تُترك على الطبيعة كالنخل، والأكل بضم الهزة والكاف ما يؤكل . ومتشابه بالنظر ونحوه، وغير متشابه بالطعم وغيره . والحمولة ما يحمل عليه الاتمال . والفرس ما يفرس للذبح من الضأن والمعز وصغار الإبل والبقر ، أو ما يتخذ الفرس من صوفه وشعره ووبره .

الإهراب :

معروشات صفة لجنات ، والنخل الزرع أي وثمرة النخل ، وحب الزرع ، ومختلفاً حال منها ، وأكله فاعل مختلفاً ، والزيتون والرمان عطف على جنات أي وأنشأ الزيتون والرمان ، ومتشابهاً حال ، ومن الانعام حولة أي وأنشأ من الانعام حولة ، وثمانية أزواج بدل من حولة وفرشاً ، واثنين بدل بعض من ثمانية ، والدكرين مفعول حرم ، ام كنتم شهداء (أم) بمعنى بل .

المعنى :

بعد أن بين سبحانه في الآيات السابقة ان المشركين حرموا ما حرموا من الزرع والانعام افترأ على الله - بين في هذه الآيات انه خلق الزرع والانعام ليتنعم الانسان بها ، قال عز من قائل : (وهو الذي أنشأ جنات معروشات) مرفوعة فروعها على دعائم (وغير معروشات) متروكة على الطبيعة (والنخل والزرع) عطف على جنات من باب عطف الخاص على العام (مختلفاً أكله) فالجبوب على أصناف ، ولكل صنف طعم ، والثمار أشكال ألوان طعماً ورائحة ، والبقول كذلك (والزيتون والرمان) أيضاً عطف على جنات (متشابهاً وغير متشابه) فثمر الرمان يشبه بعضه بعضاً ، ولكن منه الحلو ، ومنه الحامض ، وكذلك الليمون ، وثمر الزيتون منه الجيد ومنه الرديء (كلوا من ثمره إذا أنعم) لأنه خلق من أجلكم (وآتوا حقه يوم حصاده) قيل : المراد بحقه الزكاة . وقيل : الصدقة المستحقة ، وكلا القولين خلاف الظاهر ، والمتبادر الى الذهن أن يُجمع ولا يترك عرضة للتلف والضبايح (ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين) الاسراف تجاوز الحد ، وقد نهى الله عنه ، سواء أكان في الانفاق على النفس ، أم الاعطاء إلى الغير .

(ومن الانعام حولة وفرشاً) أي وأنشأ من الانعام ما يحملكم ويحمل أنفالكُم كالإبل والبقر ، وما تذبحونه وتنفعون بلحمه وصوفه وشعره ووبره (كلوا مما رزقكم الله) كهذه الانعام وغيرها ، واشكروه على نعمه (ولا تتبعوا خطوات

سورة الأنعام

الشيطان) بتحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحله ، وبالإسراف والتبذير (انه لكم عدو مبين) يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون .

(ثمانية أزواج) . كلمة الزوج تطلق على كل واحد له قرين ، كأحد الزوجين من الذكر والأنثى ، وأحد النعلين ، ويقال للثنين معاً : زوجان (من الضأن اثنين) الذكر والأنثى ، وكلمة الضأن تختص بالغنم كما نص أهل اللغة ، ولا تشمل المعز بدليل عطفه على الضأن (ومن المعز اثنين) الذكر والأنثى ، والمعز جنس له واحد من لفظه ، وهو ماعز للذكر والأنثى ، ويقال للأنثى : ماعزة ومعزة (قل الذكور حرم) الذكر من الضأن والذكر من المعز (أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) أم حرم الأجنة في بطن الانثى من الضأن ، وبطن الانثى من المعز (نبئوني بعلم ان كنتم صادقين) لا بحدس وهوى وتقليد . لأن التحريم يحتاج إلى دليل قاطع ، فأين هو ؟ .

(ومن الإبل اثنين) الذكر والأنثى ، الجمل والناقة ، والإبل اسم جمع كالقوم لا واحد له من لفظه . (ومن البقر اثنين) الذكر والأنثى (قل الذكور حرم) من الإبل والبقر (أم الانثيين) منها (أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) أم الأجنة في بطن الناقة ، وبطن البقرة . (أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا) زعموا ان الله هو الذي حرم ما حرموا من الأنعام والحرث ، فقال لهم : ان الشيء لا يثبت إلا بواحد من اثنين : اما بالعيان ، ولما بشهادة الشاهد الصادق ، وأنتم لم تأخذوا التحريم من الله مباشرة ، ولا بواسطة أنبيائه ورسله ، فمن أين أتيت بهذه الأحكام ؟ . (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) إذا لم تعابنوا ، ولم يشهد لكم شاهد أمين فأنتم - اذن - مقفرون ، والمقفر ظالم آثم ، بل أنتم أظلم من كل ظالم ، لأنكم على الله ، لا على سواء تفترون .. (ليضل الناس بغير علم) يصددهم عن سبيل الله ، وفي الوقت نفسه يزعم انه الهادي الى دين الله . شأن أكثر المعصين في هذا العصر (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) لأنهم قطعوا كل صلة بينهم وبين الله . بل حرموا حلاله ، وحلوا حرامه .

قل لا أجد لها أوحى الي محرماً الآية ١٤٥ - ١٤٧ :

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ *

اللفظة :

طاعم يطعمه ، أي آكل يأكله . والميتة ما مات حتف أنفه . والدم المسفوح يخرج بدفق كدم العروق ، وغير المسفوح يسح سحاً كدم الكبش . والرجس القدر . والاهلال رفع الصوت ، والمراد بأهل لغبر الله ذبح باسم غير الله . والباغي من يرتكب الحرام من غير ضرورة ، والعادي من يتجاوز الحد . وحملت ظهورها علقت بها . والحوايا جمع حاوية ، وهي المصارين والامعاء ، لأنها تحوي الفضلات وقيل : الحوايا كل ما تحويه البطن . وما اختلط بعظم قال الرازي : وهو شحم الآية في قول جميع المفسرين . واختلاطه بالعظم هو اتصاله بالعصعص .

الإعراب :

محرماً صفة لمفعول محذوف ، أي مطعوماً محرماً أو طعاماً محرماً . واسم يكون

سورة الأنعام

ضمير مستتر ، وميته خبر ، والتقدير إلا أن يكون المحرم أو المأكول ميتة ، والمصدر النسب من أن يكون منصوب على الاستثناء المنقطع ، لأنه مستثنى من غير المحرم . أو فسقاً عطف على لحم الخنزير . إلا ما حلت (ما) في موضع نصب على الاستثناء المنقطع من شحومها . وذلك مفعول جزئناهم .

المعنى :

(قل لا أجد فيها أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهلٌ لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم) . الرجس القدر ، والفسق الحرام ، بعد أن بين سبحانه اقتراء المشركين على الله فيها حللوا وحرّموا من المأكولات - بين في هذه الآية المحرمات عند الله سبحانه مما يؤكل ، وهي أربعة : الميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، وما ذبح على غير اسم الله ، ولا يجوز لأحد أن يتناول منها شيئاً إلا المضطر إلى أكلها ، فله ، والحال هذه ، أن يتناول منها ما يدفع به الضرر عن نفسه ، وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٦٤ . وأجبت هناك عن سؤال من سأل أن ظاهر الآية يدل على حصر المأكولات المحرمة بهذه الأربعة ، مع أنها كثيرة ، وأيضاً سبق الكلام عن ذلك بصورة أوسع في أول هذا المجلد عند تفسير الآية ٣ من سورة المائدة .

(وعلى الذين هادوا حرمنا) . الذين هادوا هم اليهود .. حرّم سبحانه الأصناف المذكورة في الآية السابقة على الناس جميعاً اليهود وغير اليهود ، أما المحرم في هذه الآية فيختص باليهود وحدهم بدليل قوله : « وعلى الذين هادوا حرمنا » .

أولاً : (كل ذي ظفر) بجميع أجزائه ، دون استثناء ، وقال الطبري في تفسيره : « ذو الظفر من البهائم والطيور ما لم يكن مشقوق الأصابع - يريد منفرج الأصابع - كالإبل والنعام والأوز والبط » .

الجزء الثامن

ثانياً : (ومن البقر والغنم حرمتا عليهم شحومهما) . لم يحرم على اليهود جميع أجزاء البقر والغنم ، بل اللحم الأبيض ، دون اللحم الأحمر ، بل استثنى من شحوم البقر والغنم ثلاثة أصناف : الأول ما أشار إليه بقوله : (إلا ما حلت ظهورهما) وهو الشحم المتصلق بالظهور . الثاني : (أو الحوايا) وهي المصارين والامعاء ، والمراد ان الشحوم المتصلة بها غير محرمة . (أو ما اختلط بعظم) وهو شحم الألية في قول جميع المفسرين على عهدة الرازي ، أما العظم الذي اختلط به شحم الألية فهو المعصص .

(ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) هذا بيان لسبب حرمان اليهود من هذه الطيبات ، وأنه جزاء على جرائمهم التي لا يبلغها الاحصاء ، ومنها قتل الأنبياء ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وقولهم : الله فقير ، ويده مقلولة .. وفي تفسير الآية ٩٣ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١١٤ ما يتصل بقوله تعالى : وعلى الذين هادوا حرمنا .

(فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) . أي ان كذبوك يا محمد فلا توثسهم من رحمة الله ، وقل لهم : ان الله يقبلكم ويصفح عنكم ان تبتنم وأنبتنم ، كما انه ينتقم منكم إذا أصررتنم على ما أنتم عليه ، وفي هذه الآية وعد ووعد ، رضا الله وغضبه ، رضا عن التجأ اليه طالباً المغفرة ، وغضبه على من أصر على التمرد والعناد : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد - ٧ ابراهيم » .

لو شاء الله ما أشركنا الآية ١٤٨ - ١٥٠ :

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

سورة الأنعام

تَخْرُصُونَ* قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ* قُلْ هَلْ
شُهِدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ
مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يُرَبِّيهِمْ يَغَدِلُونَ*

الإعراب :

ولا آباؤنا عطف على ضمير أشركنا . ومن شيء (من) زائدة ، وشيء
مفعول حرمنا . وهلم معناها الدعاء كنعال ، وهي هنا متضمنة معنى الحضور أي
احضروا شهداءكم . قال أبو البقاء : للعرب في هلم لغتان : أحدهما أن تكون
بلفظ واحد للواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث ، فتكون اسم فعل ، وبُنيت
لوقوعها موقع فعل الأمر . اللغة الثانية أن تُصرف ، فيقال : هلموا وهلمني وهلمن
وهلموا ، فتكون فعلاً .

المعنى :

(سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) .
الذين يتقبلون النصيح ، ويتبعون أحسن القول قليلون جداً ، وأقل منهم من يرون
عيوب أنفسهم ويعترفون بها .. فإن الأكثرية الغالبة يرون عيوبهم فضائل ،
وسبائهم حسنات : « كذلك زين للمصرفين ما كانوا يعملون - ١٢ يونس » .
فإن عجزوا عن تحسین قبائحهم تبرأوا منها ، وأحالوها إلى مشيئة الله ، أو إلى
أي مصدر آخر .. والله سبحانه منزّه عما يصفون .. انه يأمرهم وبنهاهم ، ويجعل
لهم الخيار فيما يفعلون ويتركون ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن
بينة وما لأحد على غيره من سلطان ، حتى الشيطان يقول : « لما قضى الأمر

ان الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم — ٢٢ لإبراهيم .

وفي الآية التي نحن بصددها . حتى سبحانه ادعاء المشركين ان شركهم وشرك آبائهم ، ونحريم ما حرموا من الحرث والانعام إنما كان بمشيئة الله وأمره ، ولو شاء أن لا يشركوا لمنعهم عن الشرك (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا) أي لقد كذب مشركو العرب بمحمد (ص) الذي نهاهم عن الشرك والافتراء على الله ، تماماً كما كذب من كان قبلهم بأنبياء الله ورسله ، ولم يصدقوهم إلا بعد أن نزل بهم العذاب جزاء على تكذيبهم .

وبعد أن حكى سبحانه ادعاء المشركين وانه في الكذب كادعاء أسلافهم أمر رسوله ان يرد عليهم بسؤال يخرسهم ، ويبطل ادعاءهم ، وهو (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) المراد بالعلم هنا الدليل ، وهو من باب اطلاق المسبب على السبب ، لأن الدليل سبب لحصول العلم ، والقصد من هذا السؤال اظهار عجزهم وكذبهم ، لأن معناه لقد زعمتم أيها المشركون ان الشرك كان برضا من الله ، فمن الذي قال هذا ؟ ومن أين علمتم بمشيئته تعالى ؟. انها من غيبه ، ولا يُطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، والرسول لم يقل هذا لكم ولا لغيركم — اذن — كيف يحولونه على الله جل ذكره ؟.

(ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرسون) . ونحن لا نشك أبداً بأن أكابر المجرمين يعلمون انهم يخرسون ويكذبون فيها قالوا ، وانما قالوا عناداً للحق الذي يزهد أباطيلهم ، ويقضي على أغراضهم ومكاسبهم العدوانية .

(قل لله الحجة البالغة) يبين سبحانه في الآية السابقة ان المشركين لا حجة لهم على ما يدعون سوى الظن والتخرس ، وفي هذه الآية يبين ان الحجة القاطعة هي لله وحده عليهم وعلى غيرهم ، ومعنى بالغة انها قد بلغت من القوة ما تقطع بها كل عذر (فلو شاء لهداكم أجمعين) . في المجلد الأول ص ٧٢ ذكرنا ان لله إرادتين : ارادة الخلق والتكوين ، وهي عبارة عن قوله : « كن فيكون » و ارادة الطلب والتشريع ، وهي عبارة عن أمره ونهيهِ ، وانه سبحانه يخلق الكون بإرادته التكوينية ولا يتدخل — ان صح التعبير — بهذه الارادة في شؤون الناس

سورة الأنعام

الاجتماعية ، بل بإرادة التشريع والارشاد ، وهذا يتضح معنى قوله : (فلو شاء لهداكم أجمعين) أي لو أراد أن يتدخل في شؤونكم الاجتماعية بإرادة «كن فيكون» لآمنتم جميعاً ، ولكنه لا يفعل ، لأنه لو فعل لبطل التكليف ، وانتهى الثواب والعقاب .

وبتقرير ثان ادعى المشركون ان شركهم كان بمشيئة الله ، فأبطل سبحانه دعواهم هذه بأنها من غير دليل ، لأن الله لا يتدخل في شؤون عباده بإرادة التكوين سلباً ولا إيجاباً .. ولو سئلتهم - جدلاً - انه يتدخل بهذه الإرادة التي تلجئ الانسان إلى الجلاء ، لو افترض هذا لألجأهم سبحانه إلى الإيمان بوحدايته بطبيعة الحال ، ولم يلجئهم إلى عصيانه والكفر به وجعل الشريك له .

(قل لهم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا) . افترى المشركون على الله الكذب في تحريم ما حرموا من الحرث والأنعام ، وأيضاً افتروا عليه في نسبة شركهم اليه ، فأمر نبيه محمداً في الآية الأولى أن يقول لهم : هل عندكم دليل على ما تدعون ، فتخرجوه لنا ؟ ثم أمره في الآية الثانية أن يقول لهم : ان الدليل القاطع لكل شبهة ملك لله ، لا لكم ، ثم أمره في هذه الآية أن يقول لهم : أروني من يشهد بأن الله أوحى اليه مباشرة ، أو بواسطة نبي من أنبيائه انه تعالى حرم ما حرمتم أيها المشركون ، لأن الشهادة الحقة يشترط فيها العلم القاطع للشك والاحتمال ، ولا وسيلة للعلم بحرام الله وحلاله إلا الوحي ، فأحضروا من يشهد به (فان شهدوا) على سبيل الفرض (فلا تشهد معهم) هذا النهي كناية عن كذبهم في شهادتهم ، لأن النبي محال أن يشهد مع المشركين .. والكناية أبلغ من التصريح .

(ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون) . بعد أن حكم الله عليهم بالكذب والافتراء بين علة حكمه بأمور ثلاثة : الأول انهم يتبعون الأهواء والشهوات ، وعبر عن ذلك بقوله : «ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا» ، لأن النبي محال أن يتبع من كذب بنبوته . الثاني انهم «لا يؤمنون بالآخرة» ، ومن لا يؤمن بالآخرة لا يخشى عاقبة الكذب . الثالث انهم «بربهم يعدلون» أي يجعلون له عدلاً بشاركه في الخلق ، ومن يشرك بالله فلا تقبل له شهادة ، لأنه قد ارتكب أقيع القبائح .

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيَّكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ
وَأَبَائَكُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا
النَفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ*
وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ* وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفْتُرُقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ*

اللغة :

الإملاق الإفلاس ، ومنه الملقq والتملق لأن الملقس يتملق لأرباب المال طمعاً
في العطية . وأشد بغم الشبن قال صاحب مجمع البيان : هو جمع شد ، مثل
الأشر جمع شر، والأضر جمع ضر. وأبأ كان فإن المراد به هنا الإدراك والبلوغ.

الإهراء :

اتل ما حرم (ما) مفعول اتل . وان لا تشركوا (ان) مفسرة بمعنى أي

سورة الأنعام

ولا ناهية، ويجوز أن تكون (ان) ناصبة ولا نافية، والمصدر المنسبك بدل من (ما حرم) . وشيئاً مفعول مطلق لتشركوا لأن المراد به الاشرار . واحساناً مفعول لفعل محذوف أي احسنوا بالوالدين إحساناً ، أو أوصيكم بهما إحساناً . وما ظهر منها وما بطن بدل اشتمال من الفواحش . إلا بالحق في موضع الحال ، أي الا محقين . ذلكم وصاكم به مبتدأ وخبر . ولو كان ذا قرى اسم كان محذوف أي ولو كان المقول له . (وان هذا) المصدر المنسبك من ان وما بعدها مجرور بلام محذوفة ، والمجرور متعلق باتبعوه . ومستقيماً حال من صراطي .

المعنى :

أشار سبحانه في الآيات السابقة الى ان المشركين حللوا وحرّموا بالحدس والأهواء ، وأنهم نسبوا الشرك اليه جهلاً وافتراء ، ورد عليهم بمنطق العقل والظفيرة ، وذكر من المحرمات الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله ، وفي هذه الآيات الثلاث ذكر طرفاً من المحرمات ، وهي التي لا يختص تحريمها بشريعة من الشرائع السماوية ، وذكر الى جانبها بعض الواجبات كالوفاء بالكيل والميزان ، وبعهد الله واتباع العدل .. وبهدية ان كل ما وجب فعله حرم تركه ، وكل ما حرم فعله وجب تركه ، وأطلق بعض المفسرين على محتويات هذه الآيات الثلاث الوصايا العشر .

الوصايا العشر :

- ١ - (قل تعالوا أتتّل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) . ابتداء سبحانه بالأصل الأول من العقيدة ، وهو نفي الشرك الذي يقابله ثبوت التوحيد ، واليه ترجع جميع الأصول والفروع ، ومنه تستمد جميع الحقوق والواجبات ، وبه تقبل الطاعات وعمل الخيرات ، ويتلخص معنى التوحيد بقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال .
- ٢ - (وبالوالدين إحساناً) . قرن سبحانه الوصية بالوالدين ببروبيته المتفردة

الجزء الثامن

إشعاراً بأن الإحسان اليها يجب أن يكون فريداً في بابه .. فكأنه قال : لا تشركوا بالله، ولا تشركوا بالإحسان إلى الوالدين إحساناً . وتكلمنا بشبهه عن البر بالوالدين عند تفسير الآية ٨٣ من سورة البقرة ج ١ ص ١٤١ .

٣ - (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) . بعد ما أوصى الأبناء بالآباء أوصى الآباء بالأبناء . وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١٣٧ من هذه السورة .

٤ - (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . كل ما تجاوز الحد في القبح فهو فحش ، ومنه الزنا واللواط والظلم والتهتك والتبرج ، والكذب والغيبة والنميمة واللؤم والحسد ، وأعظم الفواحش كلها الإلحاد والشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس المحترمة ، وأكل مال اليتيم ، وإنما أفرد الله هذه بالذكر ، مع أنها تدخل في الفواحش للتنبيه إلى أنها قد بلغت الغاية والنهاية من القبح والفحش ، سواء اقتُرفت سراً أم علانية ، وعن ابن عباس أن أهل الجاهلية كانوا يكرهون الزنا علانية ، ويفعلونه سراً، فنهاهم الله عنه في الحالين . وعن رسول الله (ص) أنه قال : إلا أخبركم بأبعدكم مني شيئاً ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : الفاحش المتفحش البذيء البخيل المختال الحقود الحمود القاسي القلب البعيد عن كل خير يُرْجى غير مأمون من كل شر يُتقى .

٥ - (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) . الأصل في قتل النفس التحريم ، ولا يحل إلا بسبب موجب ، وهو واحد من أربعة : نصت السنة النبوية على ثلاثة منها ، وهي قوله (ص) : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » . ونص الكتاب على السبب الرابع في الآية ٣٣ من سورة المائدة : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا » . (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) أي تعرفون قبح الشرك وقتل النفس والفواحش ، وحسن البر بالوالدين .

٦ - (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) . والنهي عن القرب

سورة الأنعام

منه أبلغ من النهي عنه بالذات ، وبعم جميع وجوه التصرف ، كما ان التي هي أحسن أبلغ من التي هي حسنة ، والمعنى المقصود هو التشدد في شأن أموال كل قاصر عن التصرف في أمواله إلا على الوجه المألوف يتباً كان أو مجنوناً أو سفهاً أو غائباً أو صغيراً يتولى أبوه شؤونه المالية ، وان على أولياء هؤلاء أن يحافظوا على أموال القاصرين ، ويدبروها لمصلحتهم ، ومن هنا ذهب جماعة من كبار الفقهاء الى أن تصرفات الولي في مال القاصر لا تنفذ إلا مع الغبطة والمصلحة ، ونحن على هذا الرأي ، حتى ولو كان الولي أباً أو جداً لأب ، ودلينا كلمة « أحسن » . أما حديث : « أنت ومالك لأبيك » فهو حكم أخلاقي لا شرعي بدليل كلمة « انت » فان الابن ليس سلعة يملكها الأب .

وتسأل : ان كلمة اليتيم يختص بمن مات أبوه ، وهو صغير ، فكيف جعلتها عامة تشمل كل قاصر ؟ .

الجواب : نحن نعلم علم اليقين ان السبب المبرر لوجوب التصرف بالتي هي أحسن هو القصور ، وليس اليتيم بما هو يتي ، والقصور متحقق في الجميع من غير تفاوت .

(حتى يبلغ أشده) ونجد تفسيره في الآية ٥ من النساء : « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم » وتقدم تفسيرها في ج ٢ ص ٢٥٦ .

٧ - (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) بعم أو اشترىتم (لا تكلف نفساً إلا وسعها) هذه جملة معترضة ، والقصد منها التنبيه الى ان الوفاء المطلوب بالكيل والميزان هو الوفاء الممكن المعروف بين الناس ، وهم يتسارعون بزيادة ما قس أو نقصانه ، لأن مراعاة الحد العادل فيه نحو من العصر والخرج ، وما جعل عليكم في الدين من حرج . وعلى أية حال ، فإن الأساس في شئ أنواع التجارة هو رضى الطرفين ، سواء أكانت السلعة بما يكال أو يوزن أو يُعد أو يُذرع ، أو يقدر بالفكر كالكتاب ، أو النظر كالقطعة الفنية .

٨ - (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) هذا هو المحك لمن يخاف الله ويخلص له ويشعر أمامه بالمسؤولية ، لا أمام زوجة أو أب أو أم أو ابن

أو صهر .. لا شيء إلا الحق والعدل ، أما من يتكلم باسم الدين ، ثم يعيل به هواه مع قريب أو صديق فإما هو من الدين في شيء .

٩ - (وبعهد الله أوفوا) . وكل ما أمر الله به ، ونهى عنه فهو عهد الله ، أما الوفاء به فامثاله وطاعته (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) ولا تغفلون عن طاعة من لا يغفل عنكم .

١٠ - (وإن هذا صراطي مستقيماً) هذا إشارة إلى كل ما ذكر ، وهو صراط الله المستقيم ، وليس بعده إلا الضياع والضلال (فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) كالشرك والالحاد والأحزاب والأديان الباطلة (فتفرق بكم عن سبيله) . فإبنة سبيل غير القرآن والإسلام فهي من وضع الأهواء ، وليس للأهواء حد ولا ضابط ، فإذا اتبعها الناس تفرقوا شعباً وأحزاباً متناحرة ، أما إذا اتبعوا جميعاً دين الله فتوحدتهم العقيدة الحقة ، والإيمان القويم ، وفي الحديث : إن النبي (ص) خط خطاً بيده ، وقال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، وقال : هذه ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : **وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** .. (ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) سبل الشيطان التي تميل بكم مع الأهواء والشهوات .

ثم آتينا موسى الكتاب الآية ١٥٤ - ١٥٧ :

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يُلْقَاهُ رِجْماً يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

سورة الأنعام

وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ آيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي
الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ *

الاعراب :

تماماً حال بمعنى متمم . ومبارك صفة لكتاب، والمصدر المنسبك من أن تقولوا
يجرور بإضافة مفعول من أجله محذوف ، والتقدير أنزلناه كراهية القول . وإن
كنا (إن) مخففة من الثقيلة مهملة عن العمل . واللام في لغافلين هي اللام الفارقة
بين إن المخففة وإن النافية . وعن دراستهم متعلق بغافلين .

المعنى :

(ثم آتينا موسى الكتاب) حار المفسرون في (ثم) لأن الحديث في الآيات
السابقة كان عن القرآن ، وهذه الآية تحدثت عن التوراة ، وقد نزلت قبل القرآن ،
و (ثم) تدل على التراخي وتأخير ما بعدها عما قبلها زماناً ، فكيف يُعطف
المتقدم على المتأخر في الزمان ؟ وذكر الرازي لذلك ثلاثة وجوه ، وزاد الطبرسي
رابعاً .. ونحن لا نرى مسوغاً للاطالة في ذلك ، لأن الترتيب هنا في القول ،
لا في الزمان ، والعطف من باب عطف خبر على خبر ، لا من باب عطف
معنى على معنى .

(تماماً على الذي أحسن) تماماً بمعنى متمم ، وعلى هنا بمعنى اللام ، كما
هي في قوله تعالى : « ولتكبروا الله على ما هداكم » أي لهدايتكم كما في معنى
ابن هشام ، والمعنى آتينا موسى الكتاب ، وهو يتم نقص الذي أحسن الانتفاع
به ، كقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت
لكم الإسلام ديناً - ٣ المائدة . » (وتفصيلاً لكل شيء) هذه صفة ثانية
لكتاب موسى (ع) وأنه يشتمل على جميع الأحكام التي يحتاج إليها ناس ذاك

الجزء الثامن

العصر . قال تعالى : « وكتبنا له - أي لموسى - في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء » - ١٤٤ الأعراف . (هدى ورحمة) وصفان آخران لكتاب موسى . وباللهى يعرف الناس الحق والخير ، وبالرحمة يحيون حياة طيبة هادئة (لعلهم يلقاه ربهم يؤمنون) ضمير يؤمنون يعود إلى بني إسرائيل والمعنى آتينا موسى كتاباً جامعاً لكل ما ذكرنا من أوصاف ، كي يؤمن قومه بالله وثوابه وعقابه ، ولكنهم أصروا على العناد ، وقالوا فيما قالوا : « يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة - ٥٥ البقرة » . وعلى فرض أن يروا الله جهرة - وفرض المحال ليس بمحال - فانهم يقولون : ما هذا بآله ، لأنه ليس جنبها ولا دولاراً .

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك) هذا إشارة إلى القرآن الكريم ، وهو مبارك لأنه كثير الخير والنفع (فاتبعوه واطقوا لعلكم ترحون) اتبعوا ما أمركم به ، واطقوا ما نهاكم عنه ، كي تشملكم رحمته دنياً وآخرة .

(أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين) . الخطاب في أن تقولوا موجه لمشركي العرب ، والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل ، وبطائفتين أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، وضمير دراستهم يعود إلى أهل الكتاب ، والمعنى يا معشر العرب لقد أنزلنا القرآن بلسانكم ، وعلى رجل منكم وفيكم ، لئلا تعتفروا عن شرككم بأنه لم ينزل كتاب من السماء بلسانكم ، وإنما نزل على اليهود والنصارى ، ونحن كنا غافلين عن دراسة كتابهم وتعاليمه لا ندري ما فيه ، لأن لسانهم غير لساننا .

(أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكانا أهدى منهم) . في الآية السابقة قال تعالى لمشركي العرب : أنزلنا القرآن بلسان عربي مبين لئلا تقولوا غداً : ان التوراة والإنجيل نزلا بلغة كنا عنها غافلين ، لا نعرف شيئاً منها ، وفي هذه الآية قال لهم : أو تقولوا يا معشر العرب : لو نزل الكتاب علينا وبلغتنا لكانا أهدى وأسبق من اليهود والنصارى إلى الإيمان . وبالاختصار ان هذه الآية والتي قبلها أشبه بقول القائل : ان فلاناً يملك ثروة كبرى ، وأنا لا أملك شيئاً ، ولو ملكت لفعلت كذا وكيت . فرد الله عليهم بجواب قاطع لكل عذر : « فقد

سورة الأنعام

جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ، والمراد بالبينية القرآن ، وفيه الدلائل والبيّنات على صدق محمد (ص)، وفيه أيضاً الأحكام والتعاليم التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور .

(فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) أبداً لا أحد أشدّ لؤماً وظلماً لنفسه وللناس ممن كفر بالحق والخير ، وسعى في الأرض فساداً بصدفه عن سبيل الله (منجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) صدف عن الشيء أعرض عنه ، وآيات الله حججه ودلائله ، والمعنى انه جل ثناؤه أقام البرهان القاطع على وحدانيته وعلى نبوة محمد وصدق ما جاء به من ربه ، ولكن المشركين أعرضوا وأبوا أن يتدبروا تلك الحجج عناداً منهم للحق وأهله ، فاستحقوا بذلك الخزي والعذاب الأليم .

لا ينفع نفساً الا إيمانها الآية ١٥٨ - ١٦٠ :

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ*
إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ* مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ*

الآية :

الشيّع جمع واحدها الشيعة ، ومعناها الفرقة ، قال تعالى : ولقد أرسلنا من

قبلك في شيع الأولين ، أي في فرقهم ، وقال : ثم لتترعن من كل شعبة أي من كل فرقة .

الاهراب :

يوم يأتي (يوم) منصوب على الظرفية متعلق بلا ينفع . أمثالها صفة لمحلوف أي عشر حسنات أمثالها .

المعنى :

(هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) . الاستفهام هنا للانكار ، والمراد بينظرون ينتظرون .. بعد أن ذكر سبحانه ان المشركين أعرضوا عن دلائل القرآن ، ورفضوا أن يتدبروها قال في هذه الآية : أنهم لا يؤمنون إلا بأحد أمور ثلاثة : الأول مجيء الملائكة . الثاني مجيء الرب . الثالث مجيء بعض الآيات . ولكنه سبحانه لم يبين أي الملائكة الذين يجب أن تأتيهم ، كي يؤمنوا : هل ملائكة الموت أو غيرهم ، ولا يبين المراد بمجيء الرب : هل مجيئه هو بزعمهم ، أو مجيء أمره ، كما هو الواقع ؟ وأيضاً لم يبين نوع بعض الآيات : هل الآيات التي اقترحوها ، أو علامات القيامة ؟ وقال أكثر المفسرين أو الكثير منهم : ان المراد بالملائكة ملائكة الموت ، وبمجيء الرب مجيء عذابه وانتقامه ، وبعض الآيات اشراط الساعة ، أي أولها والعلامات الدالة عليها .. وهذا التفسير غير بعيد ، لأن الكلام الذي عقب به سبحانه هذه الأمور الثلاثة يشعر بقول المفسرين ويعززه ، وهو قوله تعالى :

(يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً) . بقول عز من قائل : ان التوبة والإيمان عند مجيء أحد هذه الأمور لا يجدي شيئاً ، وانما الذي يجدي هو الإيمان والعمل الصالح الذي يكسبه المؤمن قبل أن يُبلجاً إلباءً إلى ذلك ، إذ لا تكليف حين الترع والاحتضار ، ولا عند اشراط الساعة ، أو نزول العذاب ، ومع عدم التكليف

سورة الأنعام

يكون الإيمان وعدمه سواء ، وقوله تعالى : (أو كسبت في إيمانها خيراً)
يؤمىء إلى أن الإيمان بالله ينجي صاحبه من الخلود في النار ، لا من عذاب
النار ، أما من آمن وعمل صالحاً فلا تمسه النار إطلاقاً . (قل انتظروا) هذه
الأمور الثلاثة (أنا منتظرون) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه
عذاب مقيم - ٣٩ هود .

(ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) . الخطاب في
لست موجه للنبي (ص) . وكما اختلف الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كذلك
المفسرون صاروا شيعاً في تفسير المراد بالذين فرقوا دينهم . قيل : هم المشركون
بالنظر إلى أن بعضهم يعبد الأصنام ، وبعضهم الكواكب ، وبعضهم النور والظلام .
وقيل : هم أهل الكتاب فاليهود افترقوا إلى الصادوقيين والقريسيين والحسدنيين^١
أما النصارى فقسموا الكنيسة إلى شرقية وغربية . وقيل : هم الفرق الاسلامية .
وقيل : كل أهل الملل والنحل بلا استثناء .. وخير ما قرأته في تفسير هذه
الآية ما قاله صاحب تفسير المنار : « ان المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا
شيعاً هم أهل الكتاب ، والمراد ببراءة الرسول منهم تحذير المسلمين من مثل
تفرقة أهل الكتاب وفعلهم ليعلموا أنهم إذا فعلوا فعل أهل الكتاب فإن محمداً (ص)
بريء منهم بطريق أولى » .

(انما أمرهم الى الله) فهو وحده يتولى حساب وعقاب من يعمل على التفريق
بين عباده ، وبشر العداوة والبغضاء في الدين وغير الدين (ثم ينشهم بما كانوا
يفعلون) من الاستجابة الى الدسائس المفتنة : « قالت أئراهم لأولاهم ربنا
هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون
- ٣٨ الاعراف » .

(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم
لا يظلمون) . كل ما فيه لله رضا وللناس صلاح فهو حسنة ، وكل ما فيه

١ من أقوال القريسيين ان الأموات يرجعون الى هذه الدنيا ليشركوا في ملك المسيح الذي سيأتي ، ومن أقوال
الصادوقيين انه لا حياة بعد الموت إطلاقاً لا الى الدنيا ولا الى الآخرة ، ومن أقوال الحسدنيين المساواة بين
الناس . الأسفار المقدسة لملي عبد الواحد واني .

مُخْطِئٌ لِلَّهِ وَفَسَادٌ لِلنَّاسِ فَهُوَ سَيِّئٌ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ عَادِلٌ وَكَرِيمٌ ، وَمَنْ عَدَلَهُ أَنْ يَجْزِيَ فَاعِلُ السَّيِّئَةِ بِمَا يَعَادِلُهَا مِنَ الْعَذَابِ ، وَمَنْ كَرَّمَهُ أَنْ يَعْفُو ، وَأَنْ يَضَاعِفَ لِفَاعِلِ الْحَسَنَةِ اضْغَاعاً تَزِيدُ إِلَى عَشْرَةِ أَمْثَالٍ ، أَوْ إِلَى سَبْعِمِئَةٍ ، أَوْ إِلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ الْعَدُّ وَالْإِحْصَاءُ وَفَقَدْ لَنَوَايَا الْمُحْسِنِ وَصِفَاتِهِ وَأَوْضَاعَهُ . انظر تفسير الآية ٢٦١ من سورة البقرة ج ١ ص ٤١٢ .

ومن أحاديث النبي (ص) في هذا الباب قوله : ان الله تعالى قال : الحسنه عشر أو أزيد ، والسيئه واحده أو عفو ، فالويل لمن غلب آحاده أعشاره . وقال : يقول الله : إذا همّ عبدي بحسنه فاكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً وَأَنْ لَمْ يَفْعَلْهَا ، فَإِنْ فَعَلَهَا فَعَشْرَ أَمْثَالِهَا ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُهَا ، وَإِنْ فَعَلَهَا فَسَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ .

قل انني هداني ربي الآية ١٦١ - ١٦٥ :

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبُغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *

اللغة :

القيم الذي يقوم بأمر الناس .. والحنيف المائل عن الأديان الباطلة الى دين الحق . والنسك العبادة . والوزر الحمل الثقيل والمراد به هنا الذنب . وخلائف جمع خليفة ، وهو الذي يخلف من قبله . والابتلاء الاختبار .

الاهواب :

ديناً بدل من صراط مستقيم على المحل، لأن كل مجرور لفظاً منصوب محلاً، والمعنى هداني صراطاً مستقيماً ، مثل قوله تعالى : (ويهديك صراطاً مستقيماً) . وقيماً صفة للدين . وملة ابراهيم بدل من دين . وحنيفاً حال من ابراهيم . أخير الله (غير) مفعول أول لأبني ، ورباً مفعول ثانياً ، لأن أبني تتضمن معنى اتخذ ، وهي تتعدى إلى مفعولين . ودرجات مجرورة بلى محذوفة .

المعنى :

(قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم) بعد أن ذكر سبحانه الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً - أمر رسوله أن يعلن للمشركين وأهل الكتاب وغيرهم ان الله جل ثناؤه قد هداه بالفطرة الصافية ، والعقل السليم ، والوحي من عنده الى السبيل الذي يبتعد به عن الباطل ، ويوصله الى الحق (دينا قبيحاً ملة ابراهيم حنيفاً) الملة الدين ، والحنيف من ترك الأديان الباطلة ، واتبع دين الحق ، والمعنى ان الصراط الذي هدى الله به رسوله محمداً هو دين ابراهيم خليل الرحمن الذي يعظمه أهل الأديان جميعاً (وما كان من المشركين) بل من أعدى أعداء الشرك وأهله ، وهذا رد على مشركي قريش الذين زعموا أنهم على دين ابراهيم . (قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) . موضوع الآية السابقة أصول الدين والعقيدة بقرينة « وما كان من المشركين » وموضوع هذه الآية فروع الدين والشريعة لمكان الصلاة والنسك ، وعطف النسك على الصلاة

الجزء الثامن

من باب عطف العام على الخاص ، مثل قوله تعالى : « وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم - ٨٣ آل عمران » . والمجاء والمات هنا كتابة عن الثبات والاستمرار ، والمعنى ان عبادة محمد (ص) وجميع ما هو عليه في حياته عقيدة ونية وعملاً يتجه به إلى الله وحده ، ولا يحيد عنه حتى المات .

(لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) . هذه الآية توضيح وتأكيد لما تضمنته الآية السابقة من التوحيد والاختصاص .. ومحمد (ص) أول المسلمين من أمته بطبيعة الحال ، لأنه صاحب الدعوة .

(قل أغير الله أبغي رباً) . ومن طلب هذا الرب فأين يجده ؟! : « فأينما تولوا فثم وجه الله » ومن توهم وجهاً غير وجهه الكريم صدق عليه قول الشاعر :

سوف ترى إذا انجلي الغبار أفرس تحثك أو حمار

(وهو رب كل شيء) . ورب كل شيء واحد لا ضد له ولا ند .

ولا تزر وازرة وزر أخرى :

(ولا تكسب كل نفس إلا عليها) . كل ما يفعله الإنسان من خير أو شر فهو وليد غرائزه وظروفه وأوضاعه ، ومن نسب فعل الإنسان إلى غيره فهو تماماً كمن ينسب الولد إلى غير أمه ، والثمرة إلى غير شجرتها (ولا تزر وازرة وزر أخرى) المراد بالوزير هنا اللذنب ، قال تعالى : « ألا ساء ما يزرون » أي ما يفعلونه من الذنوب والآثام ، وهذه الجملة توضيح وتأكيد للجملة قبلها ، ومعناها ان كل نفس (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) دون ما كسب أو اكتسب غيرها ، وهذا أصل ديني وعقلي لا يمكن نسخه ولا تعديله ، وقد فرع عليه علماء الكلام والفقهاء كثيراً من المسائل والأحكام .

وتسأل : ان هذه الآية تومىء إلى ان الإنسان مسؤول عن نفسه وكفى ، اذن ، أين وجوب الجهاد ، وبذلك النصيح ، والتعاون على البر والتقوى ؟ .

الجواب : ان موضوع الآية خاص بالمواخلة فقط ، وان الإنسان لا يؤخذ

سورة الأنعام

بحريرة غيره ، ولا صلة لها بالجهد والنصح ، ولا يغيرهما من قريب أو بعيد ، لأن عدم المواخذة على ذنب الغير شيء ، ووجوب الجهد واصلاح الفاسد شيء آخر . سؤال ثان : لقد اعتاد الناس أن يبذلوا المال والطعام عن أرواح أمواتهم ، وان يقرأوا سوراً من القرآن ، ويهدوا اليهم ثوابها ، فهل مثل هذا جائز شرعاً ؟ وهل ينتفع به الأموات ؟ كيف ؟ والمفروض ان الأموات لا يعذبون بسببات الأحياء ، فينبغي أن لا يتمتعوا بحسناتهم ؟ .

الجواب : قلنا : ان كلاً من العقل والشرع يأبى أن يؤخذ البريء بجرم المذنب ، وان يشاركه فيما يستحق من العقاب ، أما بالنسبة إلى الثواب فلا مانع في نظر العقل أن يشارك غير المحسن المحسن في الثواب الذي استحقه على عمله ، وقد ورد الشرع بذلك ، فوجب التصديق ، قال رسول الله (ص) : إذا مات الانسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .. وقال : من مات وعليه صوم فليصم عنه وليه .. وقال : من دخل المقابر وقرأ سورة يس خفف عنهم يومئذ ، وكان له بعدد من فيها حسنات . وعن الإمام جعفر الصادق (ع) : ما يمنع الرجل منكم أن يبر والدیه حين وین ؟ . فهذه الأحاديث وغيرها تدل على ان الميت ينتفع باهداء الثواب على عمل الخير والعقل لا يأبى ذلك إطلاقاً ، لأنه يتفق مع فضل الله وكرمه ، ولكن الناس توسعوا كثيراً ، وتجاوزوا الموارد المنصوص عليها ، وقد اتفق الفقهاء على ان كل من أتى بما لا نص فيه بقصد انه راجح شرعاً فقد ابتدع في الدين ، وافترى على الله ورسوله .. فالأولى أن يهدى الثواب إلى الميت رجاء أن ينتفع به من غير قصد الرجحان ديناً وشرعاً .

(ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه مختلفون) دون أن تستندوا إلى عقل أو وحي ، فاعترفتم بما هو معروف عنكم ، لا عند الحق ، وأنكرتم ما هو منكروا عند أهوائكم وشهواتكم .

الأرض والبيت :

(وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم

الجزء الثامن

فيا آتاكم) . خلق الله سبحانه هذه الأرض ، وجعلها مقراً صالحاً لنشأة الانسان بجوها وتركيبها ، وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر ، وجهازها بجميع ما يحتاج اليه الانسان ، حتى وسائل الانس والترفيه ، تماماً كالدار التي حوت خيرات كل شيء ، ثم اسكن الانسان فيها بعد أن زوده بالمؤهلات والاستعداد الكامل للارتفاع بخيرات الأرض وبركاتها ، وشاءت حكمته تعالى أن يتفاوت الناس في تلك المؤهلات ، وأن يكون بعضهم فوق بعض في العقل والعلم وقوة الجسم ، واختلط لهم منهجاً قومياً ليختبر الأقوياء^١ : هل يؤدون شكر هذه النعمة ، ويتجهون بقوتهم ومؤهلاتهم الى صالحهم وصالح اخوانهم من بني الانسان ، أو يتخذون منها أداة للظلم والاستغلال والتعاضم والتكاثر ؟ . وقد دلت هذه الآية ان الله سبحانه قد أوجد الانسان على هذه الأرض للعلم والعمل النافع .

ونسأل : كيف نجمع بين هذه الآية ، وبين الآية التي تقول : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ؟ .

الجواب : لا تنافي بين الآيتين ، لأن العلم والعمل النافع عبادة لله ، بل من أفضل العبادات ، وأكمل الطاعات .

(ان ربك سريع العقاب) ابتلى عباده ليميز الخبيث من الطيب ، فيعاقب هذا ، ويثيب ذاك (وانه لغفور رحيم) وليس لرحمته حد ، ولا لعفوه قيد .. أجل ، ان التوبة تجعل العفو جزاءً وفاقاً ، ويبقى عفو السخاء والكرم ، وعطاء الجود الذي لا موجب له إلا ذاته القدسية ، وهذا هو الدليل : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير - ٣٠ الشورى) . أي كثير مما كسبت أيدينا .

اللهم اننا نستغث بك من أنفسنا ، ونسألك العفو عن أوزارنا .

١ عند تفسير الآية ٩٤ من المائدة بينا معنى الاختيار من الله لعباده .

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

مكية ، وآياتها ٢٠٥ ، وفي مجمع البيان ان قوله تعالى : واسألهم عن القرية - إلى قوله - بما كانوا يفسقون نزل بالمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب أنزل اليك الآية ١ - ٣ :

المصر * كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ *

الله :

الحرج الضيق . والمراد بالذكرى للمؤمنين التذكير النافع لهم مثل هدى للمتقين .

الاعراب :

كتاب خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا كتاب . ولتنذر الفعل منصوب بأن مضمرة بعد السلام ، والمصدر المنبك متعلق بأنزل ، وذكرى عطف عليه .

سورة الأعراف

وأولياء مفعول تتبعوا ، ومن دونه متعلق بمحذوف حالاً من أولياء . وقليلاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي تذكرنا قليلاً ما تذكرون ، وما حرف زائد يؤكد معنى القلة ، وتذكرون أي تذكرون ، حذفت إحدى التائين للتخفيف .

المعنى :

(المص) هكذا تكتب وتُلَفِّظ بأسماء حروفها : ألف . لام . ميم . صاد . ومضى الكلام عن هذه في أول سورة البقرة . (كتاب أنزلناه اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لننذر به وذكرى للمؤمنين) . الخطاب لمحمد (ص) ، والمراد بالكتاب القرآن ، وبالمؤمنين من ينتفع بالقرآن ، سواء أكان سبباً لإيمانه أم لتثبيتهم واستمرارهم على الإيمان ، والمعنى ان الله سبحانه أنزل القرآن إلى النبي (ص) لينذر به الملحدين والمشركين وأهل الأديان الباطلة، ولينتفع به أصحاب الفطرة السليمة .. وهذه مهمة شاقة يلقي النبي (ص) صعباً جساماً من الكافرين الذين يجابههم بالقرآن، لأنه يستهدف لإبطال عقائدهم ، وتغيير تقاليدهم وأوضاعهم التي توارثوها أباً عن جد مئات السنين .. ومن ثم وجد النبي ضيقاً بما يلاقه من عنادهم ومقاومتهم : « ولقد نعلم أنك بضيق صدرك بما يقولون — ٩٧ الحجر » . « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » — « المزل » . وقد أمره الله سبحانه أن يصبر ويمضي يتذكر ويذكر .

(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) . في الآية السابقة أمره الله أن يبلغ ولا يحفل بمقاومة المعاندين ، وفي هذه الآية أمر الناس أن يتابعوا الرسول ، ويعملوا بالقرآن . قال علي المرتضى (ع) : « ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا » والعكس صحيح أيضاً (ولا تتبعوا من دونه أولياء) لأنه ليس دون القرآن إلا الضلال والأهواء (قليلاً ما تذكرون) وتتعلون عواظ الله ونصائحه، لأنكم لا تتورعون عن شيء ولا تخشون العواقب : وإنما يتذكر من يخشى ، وقوله : (الا قليلاً) فيه إيماء إلى قلة من انعط وتذكر منهم .

وكم من قرية أهلكناها الآية ٤ - ١٠ :

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * قَتَا
كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ *
فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ
وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ * وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ
هُمْ الْمُقْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظَاهُونَ * وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ
فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ *

اللفظ :

يطلق البأس على الشجاعة والقوة ، وعلى الضرر والخرج ، يقال : لا بأس
به أي لا ضرر ولا حرج به ، والمراد به هنا العذاب . والبيات الليل . وقالون
من القبلولة في النهار : والمراد بالكلمتين ان الهلاك نزل بهم حين دعوتهم
واستراحتهم . فلنقصن أي نزلون . والوزن مقابلة أحد الشيتين بالآخر . ومعايش
جمع معيشة ، وهي ما يعاش به من الطعام والمشارب .

الإعراب :

كم في موضع رفع بالابتداء ، وجملة أهلكناها خبر . وقيل : ان بياتاً مصدر
في موضع الحال، أي باليتين ، وهم قائلون عطف على بياتاً أي باليتين أو قائلين ،
والأرجح ان بياتاً مفعول فيه لأنها بمعنى (ليلاً) . ودعواهم اسم كان، والمصدر

سورة الأعراف

المنسبك من ان قالوا خبرها . وبعلم في موضع الحال أي عالمين . والوزن مبتدأ ، ويومئذ خبر ، والحق صفة للوزن . وما كانوا (ما) مصدرية تسبك وما بعدها بمصدر مجرور بالباء متعلقاً بخبروا ، أي خسروا أنفسهم بسبب ظلمهم . ومعاش مفعول جعلنا . وقليلاً ما تشكرون (قليلاً) صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي شكراً قليلاً ، وما حرف لتأكيد القلة .

المعنى :

(وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون) . بعد أن أمر جل ذكره النبي الأكرم أن ينذر بالقرآن ، وأمر الناس أن يتبعوه - ذكرهم في هذه الآية بمصارع الغابرين الذين أهلكهم الله بسبب اعراضهم عن ذكره وتكذيبهم لأنبيائه ، وأنه تعالى أنزل العذاب بهم في الليل أو وقت القيلولة في النهار ، حيث الراحة والأمان ، ليكون العذاب أعظم وقعاً عليهم ، وأشد تنكيلاً بهم ، وقال كثير من المفسرين : ان قوم لوط جاءهم العذاب ليلاً .. ولا أدري من أين جاءهم هذا العلم ، والله سبحانه يقول : « ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب - ٨١ هود » .

وقال فريق من المفسرين : ان في الآية قلباً ، لأن الاهلاك يأتي بعد مجيء البأس ، ومن حق التعبير أن يكون هكذا : وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها.. وذكر الرازي لتأويل الآية ثلاثة أوجه ، وزاد الطبرسي رابعاً . والصحيح انه لا يجب ترتيب الكلام حسب ترتيب المعنى في الواقع إذا كان الترتيب الواقعي واضحاً ، ومعروفاً للجميع ، كما هو في الآية ، والفاء كما تأتي للتعقيب فلها تأتي أيضاً زائدة وفي صدر الكلام ومفسرة ، والبأس الذي دخلت الفاء على مجيئه مفسرة لنوع الاهلاك الذي حل بالمشركون .

(فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا إلا ان قالوا انا كنا ظالمين) . كان المشركون يهتفون باسم الأصنام ، وهم آمنون مطمئنون ، ولما رأوا العذاب تبرأوا من آلهتهم ، واتجهوا لله مقربين على أنفسهم بالكفر والشرك ، ولكن بعد أن انقطع التكليف ، وانسد باب التوبة .

الجزء الثامن

(ولنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين) . بعد أن أشار الى اهلاكهم في الدنيا أشار الى أنهم يُسألون في الآخرة ، ويُسأل المرسلون اليهم ، وبشهودون عليهم (فلتقصدن عليهم بعلم وما كنا غافلين) ولا يكفي جل شأنه بسؤالهم وسؤال المرسلين اليهم ، بل هو أيضاً يتلو عليهم كل شيء قالوه وفعلوه : « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد - ٦ المجادلة » . والقصد من ذلك أن تشدد بهم المحنة ، وبشعروا بنقمة الله وغضبه عليهم جزاءً على عصيانهم وتمردهم .

ميزان الأعمال :

(والوزن يومئذ الحق) . كثر الكلام حول حقيقة الميزان الذي يزن الله فيه أعمال الناس ، حتى أن بعضهم قال : إن لهذا الميزان لساناً وكفتين .. والذي نفهمه من هذا الميزان - والله أعلم بمراده - أنه المقياس الذي يميز الطائع من العاصي ، والحبيب من الطيب ، وهذا المقياس هو أمر الله ونهيه ، فإذا جاء أوانُ الحساب يُنظر إلى ما فعل الإنسان وما ترك ، ويُقارن بينهما وبين أمره ونهيه تعالى ، فإذا انطبق فعله وتركه على أمر الله ونهيه فهو من الذين ثقلت موازينهم ، وكان عند الله من المفلحين والراجحين ، وإلا فهو من الذين خفت موازينهم وكان من الظالمين الخاسرين أنفسهم بعذاب الحريق .

وبتعبير ثانٍ : إن لكل شيء في هذه الحياة أصولاً، وضوابط علمياً كان أو أدبياً أو فناً أو غير ذلك ، وبها يتميز الشيء عن غيره ، بل ويعرف جيله من رده ، وتسمى تلك الأصول والضوابط ميزاناً ومقياساً ومنهاجاً وحكماً ، وكذلك الحساب في الآخرة له أصول وضوابط ، وأطلق القرآن عليها كلمة الميزان ، وكلمة الصراط ، وهذه الأصول والضوابط ، أو الميزان لأعمال الناس وأهدافهم هو أمر الله ونهيه ، فشأنها في محاكمة الإنسان غدا كشأن الفقه والقانون في محاكمة المدعى عليه في هذه الحياة .

(فن ثقلت موازينه) وهم الذين مُحصت أعمالهم على أساس أوامر القرآن ونواهيه فجاءت كاملة وافية (فأولئك هم المفلحون) لأنهم لم يعثروا في الامتحان

سورة الأعراف

(ومن خفت موازينه) وهم الذين ظهر البعد والتباين بين أعمالهم ، وبين أحكام الله وتعاليمه (فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) . قال كثير من المفسرين : ان المراد بالظلم هنا الكفر ، والصحيح انه التكذيب بآيات الله مطلقاً ، كما هو ظاهر الآية ، سواء أدلت تلك الآيات على وحدانية الله ، أم على رسالة رسله ، أم البعث ، أم على حلاله وحرامه .

(ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون) . بعد أن أمر سبحانه المشركين بقوله : واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، وخوفهم من عذاب الدنيا بقوله : « وكم من قرية أهلكناها ، ومن عذاب الآخرة بقوله : « فلنسألن الذين أرسل إليهم ، بعد هذا كله ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم ، وانه هو الذي مكنتهم في هذه الأرض ، وأعطاهم القدرة على تطويعها واستخدامها في مصالحهم ، قال أحد المفسرين الجدد :

« لولا تمكن الله للإنسان في هذه الأرض ما استطاع هذا المخلوق الضعيف أن يقهر الطبيعة .. وإلا كيف يمضي ، والقوى الكونية الهائلة تعاكس اتجاهه ، وهي بزعم الملحدين والماديين التي تصرف نفسها بنفسها ، ولا سلطان وراء سلطانها . »

ولقد خلقناكم الآية ١١ - ١٨ :

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ *

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدُنِي مِنْ
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ *

اللفظة :

المهبط الانحدار والسقوط . والصغار الذلة والموان ، والصاغر الذليل .
والإنظار والإمهال والتأخير والتأجيل بمعنى واحد . وذأم الشيء عابه ، والذام
والذم أشد العيب . والمدحور المطرود .

الاهراب :

ما منعك (ما) استفهام انكاري ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وجملة منعك
خبر . وان لا تسجد (لا) زائدة ، والمصدر المنسبك من أن والفعل مجرور
بمن محذوف ، والتقدير ما منعك من السجود ؟ وقيل : صراطك منصوب بترع
الخافض ، أي لأقعدن لهم على صراطك . وملذوماً حال ، ومدحوراً مثله .
لمن اتبعك اللام للابتداء ، ومن شرطية مبتدأ ، ولأملأن اللام واقعة في جواب
قسم محذوف وأملأن جواب القسم ، وسادة مسد جواب الشرط ، وهو «من» ،
والجملة من القسم والجواب خبر المبتدأ .

حول أصل الانسان :

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم) . الخطاب لبني آدم ، ومعنى خلقناكم انه جل

سورة الاعراف

ثناؤه أنشأ أصلنا الأول من تراب، وأنشأنا نحن من النطفة التي تنتهي إلى التراب، والمراد بصورتناكم انه جعل المادة الأولى التي خلقنا منها بشراً سوياً على الهيئة التي هو عليه : « أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً » - ٣٧ الكهف ، فالفرق بين الخلق والتصوير ان خلق الشيء معناه إيجادها وإنشاؤه ، أما التصوير فهو اعطاء الشيء صورة خاصة بعد إيجادها .

وتسأل : ان أتباع دارون يقولون : إن الإنسان وجد أول ما وجد على غير صورته هذه ، ثم انتقل من نوع إلى نوع ، حتى انتهى إلى ما هو عليه الآن ؟
الجواب : نحن مع الدليل العلمي الذي لا يقبل الشك ، والاحتمال المضاد ، لأنه متى طرأ الاحتمال بطل الاستدلال ، وهذه حقيقة يقينية بدئية ، لا ينكرها حتى التجريبيون الذين حصروا مصدر المعرفة بالخبرة الحسية .. وأهم الأدلة التي اعتمدها أصحاب نظرية النشوء والارتقاء هي الحفريات ، حيث كشفت عن وجود أنواع من الحيوان بعضها أرقى من بعض ، وان زمن الأرقى متأخر عن زمن الأدنى ، وان بينها وبين الانسان شبيهاً في كثير من المزايا .

ونحن لا ننكر هذه الكشوف ، ولكنها لا تثبت نظرية دارون ، لأنها لا تحتم أن يكون الأرقى متطوراً من الأدنى في بقين لا يقبل الشك ، بل لا يجوز ذلك ويجوز أن يكون كل من الأرقى والأدنى نوعاً مستقلاً بذاته عن الآخر أوجدته ظروف ملائمة له ، ثم انقرض حين تغيرت ظروفه ، كما انقرض غيره من أنواع الحيوان والنبات .. وإذا جاز الأمران ، فالأخذ بأحدهما دون الآخر تحكم .

وقرأت فيما قرأت ان كثيراً من العلماء ، وفيهم الملحدون ، كانوا يؤمنون بالنظرية الداروينية ، ولما تقدموا في ميدان العلم عدلوا عنها ، لما ذكرنا ، ولأن في الانسان خصائص عقلية وروحية تجعله مستقلاً عن جميع المخلوقات وأنواعها .

(ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) .
تقدم نظيره في الآية ٣٤ سورة البقرة ج ١ ص ٨٢ .

(قال ما منعك ان لا تسجد إذ أمرتك) . و (لا) هنا زائدة ، وبدل على زيادتها سقوطها من الآية ٧٥ من سورة ص : « قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ، ولأن المعنى لا يستقيم مع وجودها اللهم إلا أن تكون

الجزء الثامن

كلمة متمك متضمنة معنى حملك ، ويكون تأويل الكلام هكذا : ما حملك على ترك السجود ، والمراد بالسجود سجود التحية ، لا سجود العبادة، وهو طاعة الله تعالى ، لأنه بأمره .

(قال خلقتني من نار وخلقته من طين) . وما فعل ابليس فعلة إلا ابتدع لها مبرراً ، والشرط الأساسي لكل مبرر في منطق أن يخالف إرادة الله ومرضاته ، هذا هو الأصل الأول الذي يعتمد عليه ابليس في جميع أقواله وأفعاله .. يجتهد الفقيه في البحث ليهتدي الى ما شرع الله من أحكام، أما ابليس فيشرع أحكاماً ترتكز على « قال الله .. وأقول » .. أمره الله بالسجود لآدم فرفض ولم يعتذر ، بل اعترض بجملة وصلافة ، وقال : كيف اسجد لمن أنا خير منه ؟! وكأنه يقول لله تعالى علواً كبيراً : كان الأولى ان تأمر آدم بالسجود لي ، دون أن تأمرني بالسجود له .. وابتدع مبرراً لهذه الأولوية ، وهو افتخاره بخلقه ، وتعصبه لأصله : « خلقتني من نار وخلقته من طين » .

فالعزة والكرامة في منطق ابليس بالتعصب للأصل ، لا بتقوى الله وطاعته ، وعند الله بالفعل والتقوى ، لا بالأصل ، والعلم عند ابليس هو القياس والأهواء ، وعند الله هو الوحي وحكم العقل الذي لا يختلف فيه اثنان لبداهته ووضوحه . فن تعصب لأصله ، أو قاس الدين برأيه فقد اقتدى بإبليس ، من حيث يريد أو لا يريد ، قال صاحب تفسير المنار : « روي عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده ان رسول الله (ص) قال: أول من قال قاس أمر الدين برأيه ابليس ، قال الله تعالى له : اسجد لآدم ، فقال : أنا خير منه الخ . ثم قال جعفر : فن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس » .

وتسأل : تدل هذه الآية على ان الحياة توجد من النار ، ومثلها الآية ١٥ من سورة الرحمن : « وخلق الجان من مارج من نار » . المارج الشعلة ذات اللهب الشديد .. وكيف يجتمع هذا مع قوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ؟ .

الجواب : ان الكائنات الحية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم على أنواع ، منها عالم الملائكة ، ومنها عالم الجان ، ومنها ما يعيش في هذه الأرض ، وهذا

سورة الأعراف

النوع الثالث منه ما يحيا بالماء كالحيوآن والنبات والآنسان ، وهو المقصود من التعميم بقوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ومنه ما يحيا بالنار .. وبكلمة ان الماء ضرورة حياة الانسان - بموجب طبعه وتكوينه - وكذلك سائر أفراد الحيوان وأنواعه، والنبات وأصنافه ، وهذا لا يمنع أن يكون هناك مخلوقات تكون النار ضرورة لحياتها ، قال أهل الاختصاص بعلم الحشرات : ان نوعاً منها لا يحيا إلا بالهواء السام ، وآبار البترول .

(قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين). قيل : ضمير منها يعود الى الجنة . وقيل : إلى السماء .. ونحن لا نهم بالتفاصيل إذا لم يرد لها ذكر في الكتاب أو السنة ، ونكتفي بالاجمال ، وسياق الكلام يدل على ان الضمير يعود الى الدرجة الرفيعة عند الله ، والمعنى ان الله سبحانه طرد ابليس من رحمته الى لعنته جزاء على تكبره وامتناعه عن طاعته ، فان السجود لآدم بأمر الله هو طاعة لله ، وليس لآدم .. وكل من يرى لنفسه الحق في ان يرفض حكم الله فقد حقت عليه الالعة الى يوم الدين .

(قال انظرنى الى يوم يبعثون) . لحاجة في نفس ابليس - سيصرح بها - طلب الامهال إلى يوم يبعثون (قال - تعالى - انك من المنظرين) . قيل : ان ابليس طلب الامهال الى اليوم الذي تحيا فيه جميع الأموات للحساب والجزاء ، فرفض الله طلبه هذا ، وأمهله الى اليوم الذي تموت فيه جميع الأحياء ، وهو المشار اليه بالآية ٣٨ من الحجر : « قال فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » وهذا اليوم هو ساعة النفخ في الصور الذي دلت عليه الآية ٦٨ من الزمر : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض » .

(قال فيها أغويني لأفعلن لهم صراطك المستقيم) . قطع ابليس عهداً على نفسه انه سينتقم لمأساته من هذا المخلوق الذي كان السبب لطرده من رحمة الله الى لعنته: ويبتن نوع هذا الانتقام بأنه سيقعد على الطريق المؤدية الى الله وطاعته ، ويصد عنها آدم وذريته .

(ثم لأنينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا نجد أكثرهم شاكرين) . وإتيانه لهم من هذه الجهات الأربع كتابة عن وسوسته ،

وجده في اضلالهم واغوائهم ، بحيث لا يدع معصية إلا أغراهم بها ، ولا طاعة إلا ثبطهم عنها .. فان أمرهم الله بالجهاد والتضحية بالنفس حبب إبليس اليهم الحياة ، وان حثهم سبحانه على بذل المال في سبيله خوَّفهم اللعين من الفقر ، وان نهاهم الجليل عن الخمر والزنا والميسر ونحوه زين لهم الخبيث الملهذات وحب الشهوات ، وان توعدهم الله بالنار ، ووعدهم بالجنة قال لهم عدو الله وعدوهم : لا جنة ولا نار .. وهكذا يعد لكل حق باطلاً ، ولكل قائم مائلاً .. وتنطبق هذه الصورة كل الانطباق على الذين باعوا دينهم للشيطان ، يبررون أعمال المستعمرين ، وقتل النساء والأطفال ، وتشريد الآمنين من ديارهم .

(قال فاخرج منها مذووماً مدحوراً) . الذم العيب والاحتقار ، والدحر الطرد ، وقد خص الله بها إبليس ، حيث أنزله الله سبحانه من المقام الذي كان فيه ، أما جهنم فانها له ولحزبه الذين أطاعوه ، وعصوا أمر الله (لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) ونحو هذه الآية قوله تعالى : « لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » .

وهنا تساؤلات تطلب أجوبتها ، وهي أولاً : هل كان خطاب الله لإبليس بواسطة أو بلا واسطة ؟ ثانياً : ان قول إبليس : (فيها أغويتني) يدل على ان اغواءه كان من الله ، فكيف يعاقبه عليه ؟ ثالثاً : لماذا أمهل سبحانه إبليس وهو يعلم فساده وفساده ؟ .

ونجيب عن هذه التساؤلات الثلاثة بإيجاز شديد .. فعن التساؤل الأول : نحن نؤمن بوجود هذا الحوار ، لأن الوحي دل عليه ، والعقل لا يأباه ، وما علينا أن نبحث عن هيبته وكيفيته ، ما دام الوحي لم يصرح به .

وعن التساؤل الثاني : ان الفواية من إبليس ، وليست من الله تعالى ، وقد اعترف إبليس بنفسه على انه هو الغاوي في الآية ٣٩ من الحجر : « ولأغويتهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » . وكيف يغوي الله العبد ، ثم يعاقبه على الفواية ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، أما قول إبليس : (فيها أغويتني) فعناه بما امتحتني به من الأمر بالسجود لآدم الذي أوقعتني في الغي والعصيان فاني سأفعل كذا وكبت .. وبكلمة ان قول إبليس هذا هو تعبير ثانٍ عن قوله :

سورة الأعراف

لأنك أمرتني وعصيتُ أمرك فسوف لا أدع أحداً يطيع لك أمراً .

وعن السؤال الثالث : ان مشيئة الله اقتضت أن يمد الانسان بالعقل والتذكر على أيدي الرسل ، وبالقدرة على فعل الخير والشر ، وأن يدع له الخيار ، وأن يتلبسه بالشهوات والمغريات التي يوسوس بها إبليس وجنوده تمييزاً للطيب من الخبيث ، والمخلص من الخائن .. أنظر تفسير الآية ٩٤ من المائدة ، فقرة ١ معنى الاختبار من الله ، والمجلد الثاني من تفسيرنا هذا ص ٣٢٤ ، فقرة ١ قرين الشيطان .

ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة الآية ١٩ - ٢٥ :

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِبَيْدِيهِمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ *

اللغة :

الوسوسة الصوت الخفي ، وقد يكون المراد بها هنا ما يجده الانسان في نفسه من الخواطر الضارة . ووُوري الشيء غُطي وستر . والسوءة ما يسوء الانسان ، والمراد بها هنا العورة ، حيث يسوؤه ظهورها . وقاسمها أي أقسم لها . ودلاهما استنزلهما . والغرور الخداع بالباطل . وطفقا أخذوا وشرعا . ونخصفان أي جعلنا يلصقان ورقة على ورقة ، من قولهم خصف الاسكافي النعل .

الإعراب :

فتكونا يجوز الجزم عطفاً على لا تقربا ، والنصب بأن مضمرة بعد الفاء . والمصدر المنسبك من أن تكونا مجرور بإضافة مفعول لأجله محذوف ، أي ما نهاكما الا عناية كونكما ملكين . تلكما المشار اليه الشجرة ، والمخاطب بالاشارة اثنان ، ولذلك ثني حرف الخطاب . وبعضكم مبتدأ وعدو خبر ، ولبعض متعلق بعلو . ولكم في الأرض مستقر مبتدأ وخبر .

المعنى :

(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) . مر تفسيره مفصلاً عند الآية ٣٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٨٤ .

(فوسوس لها الشيطان ليبيد لها ما ووُوري عنها من سوءاتها) . ووُوري من المواراة أي الستر ، والسوءة العورة ، وعنها أي لا يرى احدهما عورته ، ولا عورة الآخر ، أما وسوسة الشيطان فلا ندري كيف كانت ، ولكننا نؤمن بأن أي خاطر أو قول أو عمل يقف في طريق الحياة وتقدمها فهو من وحي الشيطان .. ومهما يكن ، فان الشيطان أظهر النصيح لآدم وحواء ، وأبطن الغدر ، وبوحي ظاهر الآية بأن إبليس كان يعلم ان من أكل من هذه الشجرة تبدو عورته ،

سورة الأعراف

وان من بسدت عورته بطرد من الجنة ، ومن أجل هذا احتال لاختراجها من الجنة ، (وقال ما نهاكيا ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمها اني لكما من الناصحين) . عكس اللعين الآية رأساً على عقب .. فحلف انه لهما من الناصحين ، وهو العدو اللدود ، وحلف انها إذا أكلتا من الشجرة يكونان من الخالدين ، وهو على علم اليقين ان عاقبة الأكل هو الطرد والشقاء والموت .. وهكذا يفعل شياطين الإنس يوهمون البسطاء بأن السراب ماء ، والماء سراب .

(فدلاهما بغرور) دلاهما من التذلية، أي اسقطها ، والغرور الخداع بالباطل ، والمعنى ان الشيطان بعد أن حلف لآدم وحواء انه ناصح أمين استجابا لاغرائه ظناً منها انه لا أحد يجرأ على الحلف بالله كاذباً ، لأن اللعين هو أول من تجرأ على اليمين الكاذبة ، كما انه أول من تعصب لأصله ، وقاس برأيه (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) . طفقاً شرعاً ، ويخصفان يصفان ، والمعنى حين أكلتا من الشجرة ظهرت لكل واحد منهما عورته وعورة صاحبه ، وكانت من قبل في حجاب ، ففجلا ، وشعرا بالحاجة إلى سترها ، فشرعا يجمعان من ورق شجر الجنة ، ويضعانه على العورة .

(وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين) . هذا تقرير من الله لآدم وزوجه على اغترارهما بقول إبليس ، وضعفها تجاه اغوائه وإغرائه ، وفي الوقت نفسه فيه تنبيه إلى وجوب التوبة والانابة ، ولذا سارعوا إلى الاعتراف بالذنب وطلب الاستغفار . (قالاربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) . وقد غفر الله ورحم بديل الآية ٣٧ من سورة البقرة : « فتلقي آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » .

(قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو) . الخطاب في اهبطوا لآدم وزوجه وإبليس ، والمراد ببعضكم إبليس وقبيله ، وبعض آدم وذريته ، وسبب هذا العداء هو إبليس ، لأنه تعمد إغواء الانسان وإفساده انتقاماً منه لمأساته ، أما الانسان فانه لا يرى إبليس كي يناله بأذى ، قال تعالى : « انه يراكم هو وقبيله

من حيث لا ترونهم - ٢٧ الأعراف . وقال : ه ان الشيطان لكم عدو فاتخلوه عدواً - ٦ فاطر .

(ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها نحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) . وهكذا كتب الله علينا، بعد أن كان من آدم ما كان، ان نحيا ونموت في هذه الأرض ، ثم نخرج منها للحساب والجزاء بعد الذي قاسيناه من الشقاء والعناء .

قصة آدم كما هي في القرآن :

ذكر الله سبحانه قصة آدم في الآية ٣٣ وما بعدها من سورة البقرة ، وفي الآية ١٨ وما بعدها من سورة الأعراف ، وفي الآية ١١٥ وما بعدها من سورة طه ، وتتلخص القصة كما جاءت في هذه الآيات :

بأن الله جلت عظمته أنبأ ملائكته انه سينشيء خلقاً في هذه الأرض ، يمشون في مناكبها ، ويأكلون من رزقه ، وان الملائكة قالوا له : كيف تجمعل في الأرض من يفسدون ويفسكون الدماء تنافساً على خيراتها ، ونحن دائبون على العبادة لك ١٩ فأجابهم سبحانه بما اطمأنت له قلوبهم ، وطلب منهم أن يسجدوا لآدم إذا سواه بشراً . وبعد أن خلقه من تراب ، وأعطاه الصورة النهائية أقبل الملائكة على آدم معظمين له وساجدين إلا إبليس جهر بالعصيان ، وأعلن التمرد.

ولما سأله الله قال : أنا خير منه عنصراً .. فجازاه الله بالطرد واللعنة .. وعلم سبحانه آدم أسماء الكائنات كلها ، وكانت الملائكة تجهلها ، فأمر الله آدم أن ينبئهم بها بياناً لفضله ، واطهاراً لحكمة استخلافه في الأرض ، فأخبرهم آدم بما كانوا يجهلون ، وحيثل تبيينوا فضله ، وأدركوا حكمة الله في خلقه .

وجعل الله لآدم زوجة من جنسه ، وأسكنها جنة من نعيمه ، وأطلق لهما العنان في اجتناء ما يريدون من ثمارها، ونهاهما عن شجرة واحدة من أشجارها ، وضمن لهما إذا هما امتثلا أن لا يجوعا ولا يظمأ ولا يعريسا ، ثم حذرهما من إبليس واغوائه .. وعز على اللعين أن يشقى هو، وينعم الذي كان السبب لشقاؤه

سورة الاعراف

وطرده من رحمة الله ، فدخل إلى الجنة ، وجد في استمالة آدم وزوجه ، فافتنا بزخرف قوله وزلا باغوائه ، وكان عليها لباس يوارى عورتها لا يراها من أنفسها ، ولا أحدهما من الآخر .. ولما أكلا من ثمر الشجرة نهافت اللباس عنها وظهرت العورة منها ، فبادرا إلى سترها بورق الجنة .

فناداهما الجليل معاتباً ومؤنباً على اغفال نصيحته ، ونسيان تحذيره من إبليس ، فتضرعا إليه بالاعتراف والتندم ، وطلبيا الرحمة والمغفرة ، فرحم وغفر ، ولكنه طردهما من نعم ما كانا فيه ، وأسكنهما هذه الأرض التي جعل فيها طريقين : هدى وضلالاً ، ووعد من اتبع هداه بالجنة ، وتوعد من ضل بالنار ، وأنبأ آدم وذريته بأن العداوة بينهم وبين إبليس مستظل قائمة إلى آخر يوم ، وحذرهم من فتنته وغوايته .

هذا تلخيص ما في القرآن لقصة آدم وزوجه ، والناس فيها على قولين : بين جاحدين بالوحي ، وبين مؤمنين به ، وهؤلاء على فئتين : فئة تجاوزت ظاهر النص القرآني ، واعتمدت الاسرائيليات في تفسير جنة آدم وغيرها ، وان هذه الجنة كانت في الدنيا ، وتسمى جنة عدن ، وان الشجرة التي أكل منها آدم وحواء هي شجرة الخنطة ، وانها ستر سوءاتها بورق التين ، وان إبليس دخل الجنة ، وهو في جوف حية ، إلى غير ذلك مما لا حديث فيه ، ولا وحي .. وفئة شطحت إلى ما وراء الحس ، وفسرت الشجرة بالامتحان ، والشيطان بالشهوة ، والسوءة بالرديلة ، إلى غير ذلك من فراسة الصوفية وأذواقهم .

ونحن نقف موقفاً وسطاً بين الفئتين ، فنؤمن اجالاً بما أوحى به ظاهر النص من ان الشجرة والسوءة والورق ، كل ذلك كان من الكائنات الحسية ، لأنها هي المدلول الحقيقي للتلفظ ، ولا موجب للتأويل ، ما دام العقل يتقبل المعنى الظاهر ، ولا يرفضه .. ولا نتحدث عن حقيقة جنة آدم ، وانها كانت في هذه الدنيا أو في غيرها ، ولا عن نوع الورق الذي ستر به آدم وحواء عورتيهما ولا عن شخص الشجرة ، ولا كيف دخل إبليس إلى الجنة ، لأن هذه التفاصيل من علم الغيب ، ولم ينزل بها وحي والعقل يعجز عن إدراكها .. وعن الإمام أحمد انه قال : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي » يرشد

الجزء الثامن

التفسير بغير المعنى الظاهر من كلام الله تعالى ، لأنه من الذين يستدلون بهذا الظاهر في الأصول والفروع .

اللباس الحمي والمعنوي الآية ٢٦ - ٢٧ :

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ أَيْكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ
التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَكَّرُونَ * يَا بَنِي آدَمَ
لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ أَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا
الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ *

اللغة :

المراد بالريش هنا ما كان فاخراً من اللباس والأثاث ، ومثله الرياش .
والفتنة الابتلاء والاختبار . والقبيل الجماعة كالقبيلة .

الأعراب :

لباس التقوى مبتدأ أول ، وذلك مبتدأ ثان ، وخبر خبره ، والجملة خبر
المبتدأ الأول . لا يفتننكم مضارع مبني على الفتح لفظاً لاتصاله بنون التوكيد ،
ومحله الجزم لمكان لا النافية . كما أخرج الكاف بمعنى مثل ، صفة لمفعول مطلق
محدوف ، وما مصدرية ، والمصدر المنسبك مجرور بإضافة مثل ، والتقدير لا
يفتننكم فتنة مثل فتنة اخراج أبويكم . وجملة ينزع عنها حال من أبويكم .

المعنى :

ذكر سبحانه في الآية ١٤١ من الأنعام ما تفضل به على عباده من الطعام ، فقال : « وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان مثلاً وغير مثالب كلوا من ثمرة إذا أثمر » . وذكر تعالى في الآية التي نحن بصددنا ما أنعم به على عباده من اللباس ، فقال : (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً) . الخطاب لجميع بني آدم ، وأنزلنا عليكم ، أي أعطيناكم ، قال تعالى : « وأنزلنا من الأنعام ثمانية أزواج » . وقال : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد .. » وقد امتن سبحانه على عباده بما أنعم عليهم من اللباس على اختلاف أنواعه ، من الأدنى الذي يواري السوء إلى الریش ، وهو ما كان فاخراً من اللباس والأثاث (ولباس التقوى ذلك خير) وهو الخوف من الله والعمل الصالح ، وأطلق اللباس على التقوى ، لأنها تقي صاحبها من عذاب الله ، كما بقي اللباس من الحر والبرد ، قال تعالى : « وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم - ٨١ النحل » (ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) أي ان الله أعطاكم اللباس فضلاً منه لتعملوا بطاعته ، وتنتهوا عن معصيته .

(يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنها لباسها ليريهما سوءاتهما) . لا يفتنكم الشيطان أي لا تغفلوا عن فتنه وخداعه ، ويتزع عنها لباسها ، أي كان الشيطان سبباً لتزع اللباس عنها ، وإظهار عورتيهما . أشار سبحانه في الآية السابقة إلى عداوة الشيطان لآدم ، وكيف كاد له ، حتى أخرجه وزوجه من حياة الراحة والهناء إلى حياة التعب والعناء ، وفي هذه الآية حذر جل ذكره أبناء آدم أن يوقعهم الشيطان في شباكه وفتنته ، ويحملهم على معصية الله ، ليصدهم عن دخول الجنة ، كما خدع أبويهم من قبل ، وكان سبباً لكشف عورتيهما ، وإخراجها من الجنة .. وبدية ان المنع من دخول الجنة أيسر من الإخراج منها بعد الدخول ، فان طرد المحتل أكثر صعوبة من صد من يحاول الاحتلال ، قال بعض الواعظين : ان ذنباً واحداً أخرج آدم من الجنة بعد أن دخلها آمناً ، فكيف يدخلها أبناؤه ، وقد تراكت عليهم الذنوب.

الجزء الثامن

(انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) . يرانا الشيطان وجنوده، ونحن لا نرى واحداً منهم ، بهذا خبر الوحي ، ونحن به من المؤمنين (انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) . تومي هذه الجملة إلى جواب عن سؤال مقدر ، وتقرير السؤال : إذا كان الشيطان يرانا ولا نراه فعني هذا انه يقدر علينا ، ونعجز عنه ، وانه يستطيع اغتيالنا متى شاء ، ولا نستطيع التحفظ منه ، فكيف صح الأمر بالخطر منه ، والنهي عن الاصغاء اليه ؟ .

وتقرير الجواب بنحو من التفصيل : أجل ، نحن لا نرى الشيطان بشخصه ، ولكننا نحس بآثاره ، وهي وسوسته ان لا جنة ولا نار ، ونحو ذلك .. فن آمن بالله واليوم الآخر بعرض عن هذه الوسوسة ، ولا يستجيب لها ، ويتعوذ منها ومن بوسوس بها ، فيقلب الشيطان عنه خاسراً خاسراً ، ومن كفر بالله واليوم الآخر يندفع مع هذه الوسوسة ، ويستولي الشيطان عليه ، فيقوده حيث شاء ، ومتى شاء ، وهذا معنى قوله تعالى : (انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) أما المؤمنون فلا ولاية للشيطان عليهم ، لأنهم أسلموا قيادهم لله وحده : والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات .

وقال بعض المفسرين : ان الشياطين التي لا نراها هي المكروبات يحملها الذباب والبعوض إلى جسم الانسان ، فتتوالد فيه وتنمو بسرعة ، وتسبب الأمراض المستعصية .. وهذا تفسير لمعاد الله تعالى بالحدس والتخمين .. وما هو من منهجنا في شيء .

وإذا فعلوا فاحشة الآية ٢٨ - ٣٠ :

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

سورة الأعراف

الَّذِينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ
إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ *

اللغة :

الفاحشة المعصية الكبيرة ، والفعلية المتناهية في القبح . والقسط العدل .

الإعراب :

واقيموا معطوف على معنى الأمر بالقسط ، أي اقسطوا واقيموا . ومخلصين حال من واو ادعوه . والدين مفعول لمخلصين . كما بدأكم الكاف بمعنى مثل صفة لمحنوف ، أي تعودون عوداً مثل بدئكم . فريقاً هدى وفريقاً حق ، الفريق الأول مفعول هدى ، والفريق الثاني مفعول أضل المحذوفة ، ودل السياق على الحذف .

المعنى :

(وإذا فعلوا فاحشة) ضمير فعلوا يعود إلى الذين ! يؤمنون المذكورين في آخر الآية السابقة ، وقال جماعة من المفسرين : ان المراد بالفاحشة ما كان يفعله عرب الجاهلية من الطواف بالبيت عراة نساء ورجالا . والصحيح انها تعم جميع المحرمات التي كانوا يقرفونها ، وإذا نهوا عنها (قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) وفعل الآباء حجة ودليل عند المشركين وغيرهم ، حتى عند أكثر علماء الدين ، ولكنهم لا يشعرون .. أما زعم المشركين بأن الله أمرهم بالفاحشة فقد استدلوا عليه بما حكاه سبحانه عنهم في الآية ١٤٩ من سورة الأنعام : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا » . ورد الله عليهم

الجزء الثامن

هناك بقوله « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تبعون الا للظن » . وفسرنا كلاماً من الزعم ودحضه .

أما هنا فقد رد عليهم سبحانه بقوله : (قل ان الله لا يأمر بالفحشاء) بل « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء - ٢٦٨ البقرة » . (أتقولون على الله ما لا تعلمون) . وكل من قال من غير علم فهو مفر كذاب ، وقد خاب من افترى .

(قل أمر ربي بالقسط) وهو العدل والاستقامة ، وقال الطبرسي : القسط اسم جامع لجميع الخيرات ، وأياً كان معنى القسط فان الأمر به يكذب زعمهم بأن الله أمرهم بالفاحشة (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) . المراد بأقيموا وجوهكم العبادة لله ، وكلمة المسجد اسم لمكان السجود وزمانه ، ولكن كثر استعمالها في البناء المعروف المختص بالعبادة ، حتى صار اسماً لا يشاركه فيه سواه ، وليس المراد بكل مسجد جميع المساجد ، بل المراد مسجد من المساجد أياً كان^١ ، والمعنى ان الله يأمركم باقامة العبادة في أي مسجد اتفق ، على أن تخلصوا له في دينكم وعبادتكم (كما بدأكم تهودون) اليه يوم القيامة للحساب والجزاء ، وفي هذا تهديد وانذار لمن يخالف ما أمر الله به من العدل واقامة العبادة والأخلاص .

(فريقاً هدى) وهم الذين اتخذوا الله ولياً ، وامثلوا أمره ونهيه ، ولم يتخذهم زخارف الشيطان وأباطيله (وفريقاً حق عليهم الضلالة) وهم في الآخرة عذاب عظيم ، ذلك (أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً (ويحسبون أنهم مهتدون) في ارتكاب الفواحش ، وتقليد الآباء ، والافتراء على الله الكذب « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً » الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - ١٠٥ الكهف » .

١ للمعوم مثنيان : استغفرتي مثل جاء كل رجال الليل ، اي لم يتخلف منهم احد ، وعموم بدلي مثل اريد رجلاً من البلد أي أي رجل كان ، وكلمة كل وضعت للاستغفار ، وقد تستعمل لبدل كما في الآية .

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ *

الإعراب :

عند ظرف لخلوا . وكل على حذف مضاف أي قصد كل مسجد . ومن حرم مبتدأ وخبر . والطيبات عطف على زينة . وهي مبتدأ ، وللذين متعلق بمحذوف خبراً للمبتدأ ، والتقدير هي مستقرة للذين آمنوا . وخالصة حال من الضمير في الخبر المحذوف ، وهو مستقرة . ويجوز رفع خالصة على أن تكون خبراً لها ، وللذين آمنوا متعلق بخالصة . وما ظهر وما بطن بدل من الفواحش .

المعنى :

(يا بني آدم خلوا زينتكم عند كل مسجد) . قال المفسرون : كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة نساء ورجالا ، وكانوا لا يأكلون في أيام حجهم

دسماً ، ولا يتألون من الطعام إلا ما يقيم الأود تعظيماً للحج ، فنزلت هذه الآية ، وإن النبي (ص) قال : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فنودي بقوله في الموسم ، ومن روايات هذا الباب أن امرأة جميلة من العرب نزع ثيابها ووضعت يدها على فرجها وطافت ، ولما صوبت إليها الأنظار أنشدت وهي تلطف :

اليوم يبدو بفضه أو كله وما بدا منه فلا أحله
جهم من الجهم عظيم ظله كم من لبيب عقله بضله
وناظر ينظر ما يحله

الجهم العبوس ، تريد أن فرجها عظيم في مكانه ، له هبة وصيانة ، ولا أحد يستطيع الوصول إليه ، وأنه يضجر من ناظره ويكرهه .
وأياً كان سبب النزول فإن الله حرم نظر الأجنبية إلى عورة غيره رجلاً كان أو امرأة ، وأوجب ستر العورتين في الصلاة والطواف .. والمراد بكل هنا العموم البدلي ، دون العموم الاستغراقي ، ومثلنا للفرق بين العمومين في التعليق على الآية السابقة ، والمقصود هو الحث على النظافة والتطهير من الأوساخ والاحداث ، والترين بمجمل الثياب في صلاة الجمعة والجماعة والأعياد والطواف ، حيث يجتمع الناس ، فلا ينفر بعضهم من ربح بعض ومنظره ، والتجمل حسن حتى للفقير يتجمل حسب وضعه وحاله ، وفي الحديث : إن الله جميل يحب الجمال .

(وكلوا واشربوا) هذا رد على من حرم بعض المأكول والمشرب (ولا تسرفوا) في الأكل والشرب ، ولا في التزين باللباس والمظهر (إنه لا يحب المسرفين) . وفي الآية ٢٧ من الإسراء : « أن المبشرين كانوا اخوان الشياطين » . وفي الحديث : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، وعودوا كل جسم ما اعتاد » .. وقال الإمام علي المرتضى (ع) : كم أكلة منعت أكالات .
(قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) . ظاهر اللفظ الاستفهام ، ومعناه المبالغة في نفي التحريم ، وأنه من وساوس الشيطان ، لا من وحي الرحمن ، وإضافة الزينة إليه تشعر بالحلل ، أما لفظة الطيبات فتدل

سورة الأعراف

بذاتها عليه ، لأن كل ما هو محرم فهو خبيث وليس بطيب ، والزينة تشمل جميع أنواعها من مسكن وملبس ومركب وأثاث ، وتشمل الطيبات جميع المأكولات والمشروبات ، والتمتع بالطيب والنساء ، والصوت الجميل والمنظر الجميل ، وكل ما لذ وطاب مما لم يرد النهي عنه في الشريعة ، واتفق علماء الإسلام قولاً واحداً على أن كل شيء حلال ، حتى يرد فيه نهى ، واستدلوا بحكم العقل بأنه لا عقاب بلا بيان ، وبقول الرسول الأعظم (ص) : الناس في سعة ما لا يعلمون . وقوله : ما حجب الله علمه عن العباد فهو موضوع عنهم . وقوله : كل شيء مطلق ، حتى يرد فيه نهى .

(قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) . أي أن الذين آمنوا الآن وفي هذه الحياة سوف يتمتعون غداً بزيينة الله والطيبات من الرزق وحدهم لا يشاركونهم فيها أحد من الذين كفروا وأشركوا ، أما في الحياة الدنيا فيبتنع بها الجميع المؤمنون والكافرون . (وكذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) من تتبع أي الذكر الحكيم يرى أن الله سبحانه يطلق كلمة العالم على من علم أحكام الله وعمل بها ، وأيضاً يطلقها على من يرجى منه أن يعلمها وابتنع بها إذا فصلت له ، والمراد بقوم يعلمون هنا هم النوع الثاني الذين يتتبعون ببيان حكم الزينة والطيبات وغيرها ، وبصيرون بمعرفة حكم الله علماء بالدين ، ويستدلون بآيات الله سبحانه على حلاله وحرامه .

وبعد أن أنكر سبحانه على من حرم الزينة والطيبات بين أصول المحرمات، وهي:

- ١ - (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . تقدم بيانها عند تفسير الآية ١٥١ من الأنعام ، فقرة الوصايا العشر ، رقم ٤ .
- ٢ - (والاثم) وهو كل ما يعصى الله به من قول أو فعل، وعطف الاثم على الفواحش من باب عطف العام على الخاص ، نحو قوله تعالى : « كما أوحينا إلى نوح والنبيين - ١٦٣ النساء » .

- ٣ - (والبغي بغير الحق) وهو الظلم ، وفي الحديث : « لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منها دكاً » . وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) : من سل سيف البغي قتل به .

الجزء الثامن

٤ - (وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) وليس بعد الكفر والشرك ذنب ، والشرك ضد التوحيد الذي يتلخص بقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » وتقدم الكلام عنه في الوصايا العشر الآية ١٥٣ من الأنعام .

٥ - (وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) ومن ذلك ما كان عليه أهل الجاهلية الذين أشارت إليهم الآية ٢٨ الأعراف : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » . ولا رذيلة أقبح من القول بلا علم ، ولا فرق بين الافتراء على الله ، وبين الشرك به من حيث الحكم ، قال الإمام علي (ع) : من ترك قول لا أدري أصيبت مقاتله .

(ولكل أمة أجل) . المراد بالامة هنا الجماعة ، كما في الآية ٢٣ من القصص : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون » .. بعد أن ذكر سبحانه في الآية السابقة ٢٨ ان المشركين يفعلون الفواحش ، ويقولون : الله أمرنا بها وذكر في الآية ٣١ ما أحل الله ، وفي الآية ٣٣ ما حرم ، بعد هذا قال : ولكل أمة أجل . أي لكل جماعة ، ومنهم المشركون الذين افتروا على الله الكذب - أجل معين في هذه الحياة ، ثم يردون الى الله ، فينثنهم بما كانوا يعملون .. وفي هذا تهديد ووعيد للمشركين ومرتكبي الفواحش ولأهل البغي والاثم ، ولكل من قال على الله بغير علم .

(فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) تقدم تفسيره في الآية ١٤٥ من آل عمران ، فقرة « الأجل محنوم » ج ٢ ص ١٧١ .

لن اتقى وأصلح الآية ٣٥ - ٣٩ :

يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَتَنٍ
اتَّقُوا وَأَصْلَحْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ
نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا كُنتُمْ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ
كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلًّا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا
جَمِيعًا قَالَتْ أَخِرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا
ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ
لِأَخِرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْسِبُونَ *

الإعراب :

إما يأتينكم (إما) مركبة من كلمتين ان الشرطية ، وما زائدة مؤكدة ،
ولدخولها على ان دخلت النون الثقيلة على يائسي . فن اتقى جواب الشرط .
حتى إذا (حتى) تفيد معنى الغاية ، ولا عمل لها هنا ، وكذلك إذا دخلت
على الجمل . وإذا ظرف في محل نصب بقالوا . وأين ما كنتم تدعون (أين)
مبتدأ ، و (ما) خبر ، أي أين الآلهة التي كنتم سجدون . وكلما منصوبة على
الظرفية ، واكتسبت هذه الظرفية من (ما) التي هي بمعنى وقت . وجميعاً
حال من واو اداركوا . وضعفاً صفة لعذاب بمعنى مضاعف ، ومن النار متعلق
بمحذوف صفة ثانية . ولكل متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف ، وضعف
صفة للمبتدأ المحذوف ، والتقدير لكل من الأخرى والأولى عذاب ضعف .

المعنى :

(يا بني آدم إنا بأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . خلق الله سبحانه آدم وذريته ، وسن لهم منهاجاً يسرون عليه ، وأرسل اليهم من يبلغهم إياه ، وجعل الرسل المبليين من أبناء جنس المرسلين اليهم ، لأن ذلك ادعى في التأثير ، وأبلغ في الحججة ، فمن سمع وأطاع فهو في أمن وأمان من غضب الله وعذابه (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . كان استاذنا رضي الله عنه وأرضاه يقرأ لتلاميذه مقطعاً مقطعاً من الكتاب المقرر للتدريس ، ويشرحه لهم بكلام يفهمه كل الناس ، فإذا كان المقطع واضحاً وفهوماً للجميع علق عليه بكلمة : « توضيح الواضحات من أشكال المشكلات » . ومشى الى غيره .

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته) تقدم في سورة الأنعام الآية ٢١ . (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) أولئك اشارة إلى من تقدم ذكرهم ، وهم الذين اختلقوا في ما لا وجود له ، وكذبوا بما هو موجود، والمراد بالكتاب النصيب المكتوب من الآجال والأرزاق ، والمعنى أن الله يدع الكاذبين والمكذبين يستوفون ما كتب لهم في هذه الحياة من العمر والرزق (حتى إذا جاءتهم رسلنا) وهم ملائكة الموت (يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله) أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها ؟ (قالوا ضلوا عنا) لا نحن نعرف أين هم ؟ . ولا هم بأنون خلاصنا من العذاب (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) والاعتراف بالذنب يجدي حيث يمكن اخفاؤه والفرار من الجزاء عليه ، أما بعد ظهوره كالشمس ، وحين تنفيذ العقوبة فلا يجدي الاعتراف والندم شيئاً .

بعد ان يشهد الكافرون على أنفسهم تنتهي المحاكمة ، ويصدر الحكم عليهم بعذاب الحريق .

(قال ادخلوا في أم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار) . المراد بالأم أهل الملل الكافرة ، أي ان الله يقول لمن كفر بنبوة محمد (ص) : ادخلوا النار جزاء على كفركم ، كما دخلها من كذب بالانبياء من قبلكم .

سورة الأعراف

(كلما دخلت أمة لعنت أختها) يتلاعنون ، وقد كانوا أخوة في الدين ،
وتجمعهم الأنساب والاصهار .. وهكذا أهل الأهواء والضلال يتحابون ويتعاطفون
حين الدعة وأيام الأمل ، ويتباغضون ويتلاعنون حين لا يُدرك أمل ، ويرجى
نوال .

(حتى إذا ادركوا فيها جميعاً) أي تلاحقوا ، وأدرك بعضهم بعضاً ،
وعندها يبدأ الخصام والجدال (قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم
عذاباً ضعفاً من النار) . قال بعض المفسرين : المراد بأولاهم الأولى دخولاً في
النار ، وبأخراهم المتأخرة دخولاً فيها . وقال آخرون : بل المراد بأولاهم
القسادة المتبوعون ، وبأخراهم الأتباع . وهذا القول أقرب وأنسب أقول
أخراهم : هؤلاء أضلونا مشيرين لأولاهم ، لأن المضل متبوع والمضلل تابع ..
طلب التابعون من الله سبحانه أن يضاعف العذاب للمتبعين ، لأنهم السبب في
ضلالهم (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) أي ان لكم ولهم عذاباً مضاعفاً
ولكن لا يعلم كل فريق ما للآخر من مقدار العذاب وشدته .

(وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل) طلب التابعون أن
يزيد في عذاب المتبعين ، فقال هؤلاء لأولئك : ولماذا هذا الطلب ؟ وكلنا في
الجزاء سواء ، ولا تفاوت في شيء ، حتى يزيد الله في عذابنا دون عذابكم ،
ثم توجه المتبوعون إلى التابعين ، وقالوا لهم جواباً عن طلب المزيد في عذابهم :
(فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) مختارين من الآثام ، وما كان لنا عليكم
من سلطان .

الحمل وسم الحياط الآية ٤٠ - ٤٣ :

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ
وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ
غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا
كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَبَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا
أَنْ تَلَکُمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

اللغة :

السم بفتح السين وضمها الثقب . والحياط الابرة . والمهاد الفراش . والغواشي
جمع غاشية ، وهي ما يغطي الشيء ويستره . والوسع الشيء المقدور . والتزع
قلع الشيء من مكانه . والغل الحقد .

الاعراب :

يلج منصوب بأن مضمرة بعد حتى . ومحل الكاف من كذلك الت نصب صفة
لمصدر محذوف ، أي نجزي المجرمين جزاء مثل ذلك . ولهم من جهنم مهاد مبتدأ
وخبر . ومن فوقهم غواشٍ مثله ، والتنوين في غواش عوض عن الياء المحذوفة ،
وهي ممنوعة من الصرف مثل مساجد . والذين آمنوا مبتدأ أول ، وأولئك مبتدأ
ثان ، وأصحاب الجنة خبره ، والجملة خبر المبتدأ الأول . وجملة لا نكلف
نفساً معترضة بين المبتدأ والخبر . وتسبك ان وهذان بمصدر مرفوع بالابتداء ، والخبر
محذوف ، أي لولا هداية الله حاصلة لنا . وان تلکم (ان) مفسرة بمعنى أي ،
وتلکم مبتدأ ، والجنة عطف بيان ، وجملة أورثتموها خبر المبتدأ .

المعنى :

(ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء) . آيات الله تشمل الدلائل على وجوده ، ونبوة أنبيائه ، وكل ما جاء على ألسنتهم نقلاً عن الله تعالى ، والتكذيب بآيات الله معروف ، وعطف الاستكبار عنها من باب عطف التضخيم ، وقوله : (لا تفتح لهم أبواب السماء) كناية عن رفض أعمالهم ، وانها لا تُقبل منهم كما تُقبل أعمال الصالحين ، قال تعالى : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » - ١٠ فاطر .

(ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) . هذا تعليق على محال ، تماماً كقوله تعالى : « قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » - ٨١ الزخرف . ووجود ما عُلق على المحال محال .. والعرب تضرب المثل لما لا يكون بقولهم : لا أفعله ، حتى يشيب الغراب ، وحتى يدخل الجمل في سم الخياط (وكذلك نجزي المجرمين) أي نجازيهم بالحرمان من الجنة .

ومع هذا الحرمان (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواشٍ وكذلك نجزي الظالمين) . المهاد الفراش ، والغواشي الأغطية ، والمعنى ان جهنم محيطة بالمجرمين من جميع الجهات .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) . لما توعد العاصين بعذاب جهنم وعد المطيعين بنعيم الجنة ، يتمتعون به إلى ما لا نهاية ، وأشار بقوله : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » إلى أن الجنة على عظمتها يمكن الوصول إليها بغير مشقة وحرَج ، وان من دخل جهنم انما دخلها لأنه سلك طريقها بارادته واختياره .

(ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار) . ولماذا الغل ؟ وقد كان في الدنيا غل وحسد ورياء وكذب ونفاق ، لأن فيها فقيراً وغنياً ، وظالماً ومظلوماً ، وخاملاً وشهيراً ، ولا فقر في الجنة ولا ظلم ولا شهرة بعد أن وضع الله كلاً في درجته التي يستحقها ، ومرتبته التي عمل لها .. ان كل واحد من أهل الجنة يشعر بالغبطة والسعادة لخلاصه من نار جهنم ، ولا ينظر إلى من فوقه إطلاقاً : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » .

الجزء الثامن

(وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا) أي أرشدنا إلى طريق هذا النعيم (وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) هذا شكر لله على نعمه (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) أخبرهم الرسل بالجنة ، فأمنوا بالغيب ، ولما شاهدوها عياناً فرحوا ، حيث أصبح الغيب مشهوداً (ونودوا أن تلتكم الجنة أو رثتموها بما كنتم تعملون) . وكلمة الارث بسبب العمل توحى بأن الجنة حق لازم للعالمين ، تماماً كالميراث لأهله ، وبكلمة ان الآية تدل على ان الثواب حق لا تفضل .

ونادى أصحاب الجنة الآية ٤٤ - ٤٥ :

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذْنُ مُؤَذِّنٌ يَنْبَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ *

اللفظ :

العوج بفتح العين مختص بالمرثيات ، وبكسرهما مختص بما ليس بمرثي ، تقول : في ساقه عوج ، وفي رأيه عوج .

الاعراب :

ان قد وجدنا (أن) مفسرة بمعنى أي ، ومثلها ان لعنة الله . وحقق حال من (ما وعدنا) ويجوز أن تكون مفعولاً ثانياً لوجدنا عسى ان تتضمن معنى

سورة الاعراف

علمنا . وعوجاً حال من واو ييغونها أي ييغونها معوجين أو ضالين ، وقال الطبرسي في جمع البيان : ان عوجاً مفعول به على معنى ييغون لها العوج .

المعنى :

(ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً) . ان أصحاب الجنة على علم اليقين بأن أصحاب النار قد وجدوا صدق الوعيد والتهديد ، ولكنهم وجهوا اليهم هذا السؤال شكراً لله على ما أنعم عليهم ، وتقرباً لأهل النار على كفرهم وعنادهم ، وتذكيراً لهم بما كانوا يقولونه من الهزوء والاستخفاف بدين الحق وأهله .

(قالوا نعم) حيث لا وسيلة للانكار (فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين) بهذه اللعنة يرفع المؤذن صوته يوم القيامة واصفاً الظالمين بثلاثة أوصاف :

١ - (الذين يصدون عن سبيل الله) أي يمنعون الناس من اتباع الحق بشئ الوسائل .

٢ - (وييغونها عوجاً) . لا يريدون الصديق والاخلاص والاستقامة ، وانما يريدون الكلب والنفاق والحيانة .

٣ - (وهم بالآخرة كافرون) فلا يخافون حساباً ولا عقاباً على جرائمهم وآثامهم .

وعلى الاعراف رجال الآية ٤٦ - ٤٩ :

وَيَنْتَهِمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَاوُا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا ضَرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ * وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسَيِّئِهِمْ قَالُوا
مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ
لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ *

اللفظ :

الحجاب المانع والحاجز . والأعراف جمع عرف ، وهو المكان المرتفع ، ومنه
عرف الديك والفرس . وسيا وسياه وسيماء بمعنى واحد العلامة . والتلقاء جهة
اللقاء ، وهي الجهة المقابلة ، ولذلك كان ظرفاً من ظروف المكان ، مثل حذاءك .

الأعراب :

تلقاء منصوب على الظرفية ، والعامل فيه صُرفت . وما أغنى (ما) نافية ،
وأغنى فعل ماضٍ ، وجمعكم فاعل ، وما كنتم (ما) مصدرية ، والمصدر المنسبك
معطوف على جمعكم ، أي وكونكم تستكبرون . وهؤلاء مبتدأ ، والذين خبر
لمبتدأ محذوف ، والجملة خبر هؤلاء ، أي هؤلاء هم الذين أقسمتم ، ولا يجوز
أن يكون الذين عطف ببيان هؤلاء ، لأن المبتدأ يبقى بلا خبر .

الأعراف :

نحن نؤمن بيوم القيامة وحسابه وجزائه - اجبالاً - كأصل من أصول الدين ،
أما التفاصيل والجزئيات فإنها من عالم الغيب ، ولا يثبت شيء من هذا العالم إلا
بآية صريحة واضحة ، أو بحديث صريح واضح ثبت عن المعصوم بالخبر المتواتر ،
لا بخبر الآحاد ، لأن خبر الآحاد حجة في الفروع ، لا في الأصول ، والخبر

سورة الأعراف

المتواتر هو الذي يرويه كثيرون يمتنع عادة نواطؤهم على الكذب ، ويقابله الخبر الواحد .

وقد ثبت بالوحي ان في الآخرة مكاناً يقع بين الجنة والنار يسمى الأعراف ، وما هو بالنعيم ، ولا بالجحيم ، ولكن باطنه فيه الرحمة ، وهو ما يلي الجنة ، وظاهره فيه العذاب ، وهو مما يلي النار : « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب - ١٤ الحديد . وعلى هذا المكان المسمى الأعراف رجال يعرفون جميع أهل الجنة ، وجميع أهل النار ، يعرفونهم لا بأسمائهم ولا بأشخاصهم ، بل بعلامات فارقة تدل عليهم ، وهم يتعمدون النظر إلى أهل الجنة ، ويسلمون عليهم ، ويطمعون أن يكونوا في وقت من الأوقات معهم ، وإذا وقع طرفهم على أهل النار سألوا الله أن لا يجعلهم مع القوم الظالمين المالكين . ثم تنتهي الحال بأهل الأعراف إلى دخول الجنة لأنهم من أهل لا إله إلا الله ، والله عناية خاصة بأهلها .

هذا مجمل ما نزل به القرآن في الأعراف وأهلها ، ولكن كثيراً من المفسرين تجاوزوه إلى تفاصيل لا نعرف لها أصلاً .. وبعد هذا التمهيد نشرع في تفسير مداليل ألفاظ الآيات :

(وبينها حجاب) أي بين الجنة والنار ، أو بين أهلها ، والحجاب هو الأعراف الذي أشار إليه بقوله : (وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم) . أي ان رجال الأعراف يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بعلامات تدل عليهم .. وغير بعيد أن تكون هذه العلامات هي المشار إليها في الآية ١٠٦ من آل عمران : « يومَ تبيضُ وجوهٌ وتسودُ وجوهٌ » . والآية ٣٨ وما بعدها من سورة عبس : « وجوه يومئذٍ مسفرة ضاحكة مستبشرة وجوه يومئذٍ عليها غبرة ترهقها قفرة - أي سواد وظلمة - أولئك هم الكفرة الفجرة » . وقيل : ان هذه علامات عامة يعرفها كل الناس ، وظاهر الآية يدل على ان تلك العلامات يعرفها رجال الأعراف فقط . ومهما يكن ، فان الأمر سهل جداً ، ما دمتا غير

١ الأعراف اسم لهذا المكان ، أما البرزخ فهو الزمان الذي بين الموت والبعث .

الجزء الثامن

مكلفين ولا مسؤولين عن معرفة تلك العلامات بكنهها وحقيقتها ، ولا بصفتها الخاصة أو العامة .

وتسأل : من هم رجال الأعراف ؟

الجواب : للمفسرين فيهم أقوال ، أرجحها - ذوقاً - ما عليه الأكثر : أنهم الذين تساوت كفتا ميزانهم ، ولم ترجح حسناتهم على سيئاتهم ، ولا سيئاتهم على حسناتهم ، ولو زادت أحدهما على الأخرى مثقال ذرة لتمن مصيرهم ، إما إلى جنة ، وإما إلى نار .

سؤال ثان : ان أهل الجنة يعرفون بدخولها ، وكذلك أهل النار ، فأية حاجة إلى العلامات ؟

الجواب : قد تكون تلك العلامات للتمييز بين الفريقين قبل الحساب والعقاب كما يعرف المجرم من ملامح وجهه ، وهو يساق إلى المحاكمة .

(ونادوا أصحاب الجنة ان سلام عليكم) ضمير نادوا يعود إلى رجال الأعراف ، والمعنى أنهم حين ينظرون إلى أهل الجنة يسلمون عليهم تسليم تحية واکرام (لم يدخلوها وهم يطمعون) في دخول الجنة ، لأنهم من أهل لا إله إلا الله ، وكل من آمن بالله بطمع في رحمته ومغفرته : « انه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون - ٨٧ يوسف » . وفي الحديث : « ان رجلاً قال : والله لا يغفر الله لفلان . فقال الله تعالى : من هذا الذي ثألى عليّ - أي أقسم عليّ - أن لا أغفر لفلان ؟ .. فاني قد غفرت لفلان ، وأحببت عمل المتأثلي » .

(وإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) وبناء (صُرفت) للمجهول يوحي بأن نظر رجال الاعراف إلى أهل النار كان من غير قصد ، والمراد بالظلم هنا الشرك والكفر ، والمعنى أنهم إذا صادف ورأوا ما عليه أهل النار خافوا وتضرعوا إلى الله تعالى أن لا يجعلهم مع الكافرين المالكين .

(ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) . كان الذين استكبروا في الأرض يسخرون من

سورة الأعراف

المؤمنين ، ويتعظّمون عليهم بما كانوا يملكون من مال وجاه ، ويقولون لهم : لا تنالكم أبداً رحمة الله ، ولما جاءت ساعة الحق ، ولاقى المترفون جزاء أعمالهم ذكرهم أهل الأعراف بأمرين : الأول بما كانوا يجمعون ويستكبرون به من مال ونحوه ، واليه الإشارة بـ (قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) . الثاني بما قالوه للمؤمنين : لا تدخلون الجنة ، واليه الإشارة بـ (هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته) . فهؤلاء أشاروا الى المؤمنين المستضعفين ، والمحطاب في أقسمتم موجه من أهل الأعراف الى المترفين المستكبرين ، « ولا ينالهم الله برحمته » من قول المترفين .

(ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) . أي ان المؤمنين الذين قال لهم المترفون : (لا تنالكم رحمة الله ولا تدخلون الجنة ، ان هؤلاء المؤمنين قيل لهم : ادخلوا الجنة الخ ، وبطبيعة الحال قيل للمترفين المستكبرين : ادخلوا النار خاسرين خاسئين . وسلام على من قال : الغنى والفقر بعد العرض على الله .

بين أهل الجنة وأهل النار الآية ٥٠ - ٥٣ :

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَتَحَدُّونَ * وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ

فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا
نَعْمَلُ قَدْ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *

الآفة :

المراد بالكتاب هنا القرآن . وفصلناه بيّناه . وينظرون ينتظرون . والتأويل
ما يؤول البه حال الشيء .

الإعراب :

ان أفيضوا (ان) مفسرة بمعنى أي . وقال حرّمها ولم يقل حرّمه مع ان
العطف السابق بأو ، لا بالواو ، لأن المعنى حرّم كلاّ منها . والذين اتخلّوا
في عمل جر صفة للكافرين . وهو مأفول ثانٍ لاتخذوا . على علم متعلق بمحذوف
حالاً من فاعل فصلناه ، وهدي حال من المفعول أو مفعول لأجله ، ويوم
منصوب يقول . فيشفعوا منصوب بأن مضمرة بعد الفاء الواقعة في جواب
الاستفهام . ونرد بالرفع لأن التقدير أو هل نرد . وفنعمل بالنصب بأن مضمرة .

المعنى :

جاء في الحديث : ان فرحة أهل الجنة بالخلاص من الجحيم تزيدهم نعيماً
على نعيم ، وان حسرة أهل النار على ما فاتهم من النعيم تزيدهم عذاباً على عذاب ،
وهم يعلمون ان أهل الجنان في نعيم مقيم ، ولذا (نادى أصحاب النار أصحاب
الجنة ان أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) فأجابهم أهل الجنة (ان الله
حرّمها على الكافرين) .

وبعد اليأس من أهل الجنة يستغيث أهل النار بخزنتها ، كما في الآية ٤٩ من

سورة الأعراف

غافس : (وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ، فيجيب الخزنة : « أو لم تكن تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

وبعد البأس من الخزنة يستغيثون بالله رب العالمين ، وقد كان أهون شيء عليهم في ساعة اليسر والرخاء : « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين . ربنا أخرجنا منها فان عدنا فإنا ظالمون » فيجيهم الباري جل اسمه : « انحسأوا فيها ولا تكلمون - ١٠٨ المؤمنون » .

(الذين اتخذوا دينهم لهواً ولهياً وغرثهم الحياة الدنيا) تقدم تفسيره في سورة الأنعام الآية ٧٠ (فالיום ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يمحذون) المراد بالنسيان هنا الإهمال : « وما كان ربك نسياً » والمعنى يهملهم الله يوم القيامة كما أهملوا العمل له ، وكما جحدوا ما أنزل على رسله من الآيات والحجج .

(ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) . ذكر سبحانه فيما سبق أهل الجنة ، وأهل النار ، وأهل الأعراف ، وهذه الآية والتي تليها مختصتان بأهل النار الذين غرثهم الحياة الدنيا .. قال سبحانه : لقد جئنا هؤلاء بالقرآن يهدي الى الرشد ، ويبين عن علم ما يحتاج اليه الناس في معاشهم ومعادهم ، وضمن لمن آمن وعمل بتعاليمه الهداية الى الخير في الدنيا ، ورحمة الله وثوابه في الآخرة .

أما من أعرض ، واتبع هواه فآله جهنم وساءت مصيراً (هل ينظرون إلا تأويله) ينظرون أي ينتظرون ، وضمير تأويله يعود الى الكتاب ، ومعنى تأويله هنا ان كل ما نطق به القرآن يؤول أمره الى الوقوع لا محالة (يوم يأتي تأويله) بوقوع ما أخبر عنه ، ويتبين للكافرين صدقه بالعيان (يقول السذبن نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) قالوا هذا بعد أن شاهدوا العذاب ، ومن قبل قالوا للرسول : سحرة مفترون .. وأيضاً قالوا بعد أن رأوا العذاب : (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) عند الله في غفران خطايانا ، ولا يعاملنا بما نستحقه من الخزي والعقوبة .

(أو نردّ فنفعل غير الذي كنا نعمل) . لو استجاب الله لدعوتهم هذه لبطلت جميع المقاييس والقيم ، وتساوى الخبيث الذي لا يؤمن إلا بالسيف مصلت على رأسه مع الطيب الذي يؤمن بالحق بملء ارادته ، ويضحى في سبيله بالنفس والنفس (قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفكرون) . وهكذا تذهب أعمال المبطلين سدى ، وبغيب عنهم الشفعاء والأولياء الذين كانوا يعملون من أجلهم ، ويدخرونهم لساعة العسرة .

في ستة أيام الآية ٥٤ - ٥٦ :

إِنَّ رَبَّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *

اللغة :

استوى هنا بمعنى استولى . والعرش كناية عن الملك والسلطان . والغشاوة الغطاء ، وقبل : المراد بها الذهاب ، أي ان الليل يذهب بنور النهار . وحديثاً مسرعاً . والمسخر الخاضع المنقاد . وتبارك الله ، أي تعالى بعظمته ، وهو فعل غير منصرف لا يصاغ منه أمر ولا مضارع . والتضرع التذلل . والخفية لغة ضد العلانية .

الاعراب :

جملة يطلبه حال من الليل . وحيثاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي طلباً حيثاً ، ويجوز أن يكون حالاً . والشمس مفعول لفعل محذوف ، أي وخلق الشمس . ومسخرات حال من الشمس وما عطف عليها . وتضرعاً في موضع الحال من واو ادعوا ، أي متضرعين وغنيين . ومثله خوفاً وطمعاً أي خائفين وطامعين . وقريب على وزن فاعيل يستوي فيه المذكر والمؤنث .

المعنى :

(ان ربكم الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) . للمفسرين في هذه الآية أقوال متضاربة ، ويرجع سبب الاختلاف إلى أمرين : الأول ان أفعال الله تعالى لا تُقدر بالزمان : « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » ٥٠ القمر . أي كلمة واحدة وهي « كن فيكون » . الأمر الثاني ان الزمان انما يُقدر بعد وجود السموات والأرض وما يقع فيها من حوادث ، فقبل الكون لا زمان ولا أيام ، فكيف يمكن إيجاده من أيامه وفي أيامه ؟ وهل هذا إلا كقول القائل : بنيت بيتاً من سقفه وحيطانه ؟ .

اذن ، لا بد من تأويل الأيام بمعنى مقبول ومعقول ، وقد اختلفوا في تعيين هذا المعنى المجازي ، فمنهم من قال : ان في الكلام حذفاً أي في مقدار ستة أيام ، ومنهم من قال : ان الأيام هنا كناية عن المراحل والدفعات ، وانه تعالى لم يخلق الكون دفعة واحدة ، بل على ست مراحل ، ليكون لكل شيء حد محدود ، ووقت مقدر . ومن قائل : ان الأيام كناية عن الأطوار ، وانه سبحانه لم يخلق الكون ابتداء كما هو عليه الآن ، بل انتقل بخلقه من طور إلى طور وفقاً لنظرية النشوء والارتقاء ، حتى الطور السادس والأخير ، وهو الذي نراه الآن .

وهذه الوجوه كلها محتملة ، وليس لدينا ما يعين أحدها ، أو يرجحه برغم تبعنا لكثير من التفسير القديمة والحديثة ، ولذا نقول مع القائل :

الجزء الثامن

« ان الأيام قد تكون ست مراحل ، وقد تكون ستة أطوار ، وقد تكون ستة أيام من أيام الله التي لا تقاس بمقياس زماننا .. وقد تكون شيئاً آخر ، فلا ينبغي أن يجزم أحد ماذا يعني هذا العدد على وجه التحديد .. والظن باسم العلم محاولة تحكّمية ، وهزيمة روحية أمام ما يقال له علم ، وهو لا يتجاوز درجة الظنون والفروض » .

(ثم استوى على العرش) . هذه الجملة تفسرها الجملة التي بعدها ، وهي (الا له الخلق والأمر) أي انه يملك الكون ويدبر أمره ، ومثلها الآية ٣ من سورة يونس : « ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر » . وانما عبر سبحانه عن ملكه وتدبيره بالاستواء على العرش لأن الملك يستولي على مملكته ويدبرها : وهو على عرشه ، والقصد التقريب ، دون التشبيه : « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير » .

(يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) . هذا من تدبيره تعالى لشؤون الكون ، ومعناه ان الليل يتبع النهار ، ويتعقبه مسرعاً في طلبه ، ويتغلب على المكان الذي كان فيه ، فيصير مظلماً بعد ان كان منيراً ، ومثله قوله تعالى : « والليل إذا يغشى » أي يتغلب على ضوء النهار ، وقوله : « والليل إذا بغشاها » أي يتغلب على ضوء الشمس .

(والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) . أي وخلق هذه الكواكب تنقاد لمشيئته ، وتسير على مقتضى الحكمة والمصلحة .. والكلام عن هذه الكواكب يحتاج الى علم الفلك ، ولا نعرف منه شيئاً (الا له الخلق والأمر) هذا بيان وتفسير لقوله : « ثم استوى على العرش » كما أسلفنا ، وفي الحديث : من زعم ان الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل على أنبيائه بقوله : الا له الخلق والأمر . (تبارك الله رب العالمين) . تعالى بوحديته وملكه وتدبيره .

(وادعوا ربكم تضرعاً وخفية) . وليس معنى دعوة العبد ربه أن يقول : اللهم رحمتك وخضرانك ، كلا .. وانما دعوة الحق أن يخافه ويتقيه ، ويلتزم أوامره ونواهيه ، وليس المراد بالتضرع أن يقول : اللهم انضرع اليك ثائباً ،

سورة الأعراف

وأعوذ بك مستجيراً ، بل المراد به أن يكون صادقاً مخلصاً لله فيما يقول ويفعل ، أما خفية فعتها أن لا يباهي بما يفعل من خير ، ويعلمه على الملأ ، فان هذا ضرب من الاعتداء ، والله يقول : (انه لا يحب المعتدين) أي المتجاوزين ما أمر به ، وما نهى عنه ، وقد نهى سبحانه عن المباهاة بالعبادات ، وفعل الخيرات .

الله اصلح الأرض والانسان افسدها :

(ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها) . اصلح الله هذه الأرض بما أودع فيها من كنوز لا تحصى كثرة من الطيبات والمتع الروحية والمادية .. فمن مباحج الطبيعة إلى جمال المرأة ، ومن وفاء الأصدقاء إلى بر الأبناء ، ومن نشوة المعرفة والاطلاع إلى وشوشة الألحان والأنغام .. إلى ما لا نهاية .

أما الطيبات المادية فمن المأكول الحبوب والخضار والاحوم والفواكه ، وفي كل نوع من هذه أشكال وألوان ، ومن الملبوس الصوف والقطن والجلد والحرير ، ثم اكتشف الانسان النايلون ، وسيكتشف بعد ما نطقه من الممتعات والمستحيلات ، تماماً كما اكتشف واخترع الأعاجيب لطى الأرض والسماء ، وعبور القارات في دقائق ولحظات ، أما الوقود فمن الشجر إلى الفحم الحجري ، ومن البترول إلى الكهرباء ، إلى حرارة الشمس والذرة .. وقرأت فيها قرأت ان العلم استخرج من البترول المطاط الصناعي للاطارات ، والزجاج غير القابل للكسر ، وقنابل النابالم والنايلون ، والأسمدة الكيماوية ، والأطباق ، وأنابيب الري بالرش ، ومساحيق التجميل ، ومناضد الحداثي ، وأغطية الموائد ، والزهور الصناعية ، وأحمر الشفاة وكحل العيون ، وطلاء الأظافر ، والملابس الداخلية ، وفرشاة الأسنان ، وحبر المطابع ، والأفلام ، إلى ثلاثة آلاف صنف أحصاها الخبراء ، بل إلى ما لا يحصى عدداً إلا من أحاط بكل شيء علماً : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الإنسان لظلوم كفار — ٣٤ ابراهيم » .

ان الانسان ظلوم كفار .. جاءت الآية بصيغة المبالغة ، مع تأكيدين لهذه المبالغة : أولها بأن ، وثانيها باللام .. وأي شيء أكثر ظلماً وكفراناً ، وأعظم

الجزء الثامن

فساداً وطمعاً من تحويل الطيبات من الرزق إلى قنابل النابالم، تقتل الصغار وتنشوه الكبار ، وإلى نفاثات السموم واللهب يحرق الأخضر واليابس ، أما القنابل الذرية والهيدروجينية فأنها لا تبقى ولا تذر .

لقد بدل الإنسان نعمة الله كفوفاً ، وحول نعيم أرضه إلى جحيم ، وربط مصير الإنسانية كلها بمصير القنابل الذرية والهيدروجينية .. لقد أودع الله في هذه الأرض المتع والطيبات من الرزق لعباده وعباله ، وأودع الظلوم الكفار القنابل الذرية في مخازنه وطائراته ، تجوب أجواء القارات ليل نهار ، يرقب الفرصة المؤانية لبحول الأرض ومن عليها إلى رماد وهباء.. وهذا هو تأويل قوله تعالى: (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) . فيجب أن تعرف الذي أفسد علينا الأرض بعد أن أصلحها الله لنا ، وأن نقطع عليه الطريق بكل ما نملكه من وسائل ، وأقلها أن نعلن حقيقته للملأ ، ونسميه باسمه الذي وضع له ، وهو عدو الله والإنسانية ، ليحذر الناس ، كل الناس من مكروه وخذاعه .

(وادعوه خوفاً وطمعاً) . ان بث روح اليأس خيانة ، لأنه لا حياة مع اليأس ، وبث روح الأمل مع ترك التحفظ والحذر أيضاً خيانة ، لأنه تغيير وتخدير ، وطريق النجاة وسط بين الاثنين ، قال تعالى : « ويرجون رحمته ويخافون عذابه - ٥٧ الإسراء » . وقال : « نبئ عبادي اني أنا الغفور الرحيم وان عذابى هو العذاب الأليم - ٥٠ الحجر » . فالؤمن العاقل يعمل ، وهو خائف من الله أن لا يقبل منه لخلل في عمله ، وفي الوقت نفسه يرجو النجاح والقبول ، وكل من الخوف والرجاء يدعو إلى التحفظ والاتقان ، (ان رحمة الله قريب من المحسنين) . فيه إيماء إلى أن من يخاف الله ويرجوه فهو من أهل الاحسان ، وانه تعالى يجازي الإحسان بمثله .

يرسل الرياح بשרاً الآية ٥٧ - ٥٨ :

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا

سورة الاعراف

ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ* وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ
بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِيداً كَذَلِكَ نَهْرَفُ الْأَيَاتِ
لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ*

اللفظ :

بُشْراً بسكون الشين وأصله بضم الشين بُشْراً جمع بشر ، ومعناه مبشرات .
والمراد بالرحمة هنا المطر . وثقال جمع ثقل ، والمراد به هنا الثقل ببخار الماء .
والبلد الميت أرض لا نبات فيها . والبلد الطيب هو الجيد التربة . والنكد بكسر
الكاف كل شيء يخرج بتعسر ومشقة .

الاعراب :

بشراً حال من الرياح أي مبشرات . وأهملت حتى بدخولها على اذا . ونكداً
حال من ضمير يخرج .

المعنى :

(هو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً
سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) لبلد ميت على
حذف مضاف أي لحياة بلد ميت ، وضمير به الأولى يعود الى بلد ميت ،
وضمير به الثانية يعود الى الماء ، وكل الثمرات المراد به العموم العرفي ، لا
العموم الواقعي .

الجزء الثامن

ان الرياح تهب ، والشمس تبخر ماء البحار ، وترتفع الرياح بهذا البخار إلى العلو ، ثم تجذبه الأرض إليها ، فيتساقط عليها قطرات مراكبة ، كل ذلك وما إليه يأتي وفقاً لسنن الطبيعة ، ما في ذلك ريب .. ولكن من هو الذي أوجد هذه الطبيعة ، وأودعها هذه السنن التي تسير على وتيرة واحدة مدى ملايين القرون ، لا تتغير ولا تتبدل ؟ هل وجدت الطبيعة عقوا ؟ وهل حكمتها القوانين والسنن من البداية إلى النهاية صدفة ومن غير سبب ؟ اذن ، فبالأولى أن يكون هذا الزعم جرافاً ومن غير سبب ؟ وكيف ينتج اللانظام نظاماً ، واللاوعي وعياً ؟

وبالتالي ، هل لهذه التساؤلات جواب معقول ومقبول إلا وجود خالق قدير ، ومدبر حكيم ؟.. هو الذي أوجد الطبيعة ، وأودعها السنن والقوانين ، وإليه ينتهي كل شيء ، ويفتقر كل شيء ، ولا يفتر إلى شيء .

فالرياح والمطر وحياة البلد الميت تُنسب إلى سنن الطبيعة مباشرة ، وبالواسطة إلى خالق الطبيعة (كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرن) . يقول الجاحدون : كيف نؤمن بالبعث ، وما رأينا واحداً عادت إليه الحياة بعد موته ؟ يقولون هذا ، وهم يرون رأي العين حياة الأرض بعد موتها ، ولكنهم ذهبوا إلى السبب واحد ، وأنه لا فرق إلا في الصورة ، فذكرهم الله بذلك لعلهم ينتفعون بالتذكير ، أو تلزمهم الحجة .

(والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً) . بإذن ربه كناية عن عطاء الكثير بيسر وسهولة ، والنكد كناية عن عطاء القليل بعسر وصعوبة ، وأكثر المفسرين ، أو الكثير منهم على أن هذا تمثيل لقلب المؤمن والكافر ، والبر والفاجر بالأرض التي خلقت الجميع منها ، ووجه الشبه أن الأرض كلها واحدة من حيث الجنس ، ولكن منها الطيبة إذا شربت الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ومنها القاسية المغلقة تصد وتأنى عن الخير والصلاح ، وإذا أنت بشيء منه فكذلك يساق إلى الموت (كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) . أن الله يضرب هذه الأمثال وغيرها للجميع ، للخبيث والطيب ، ولكن الطيبين هم الذين ينتفعون بها ويشكرون الله عليها ، أما بالنسبة إلى الخبيث فإنها حجة قاطعة لأعدائهم وعلائهم .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَهِ غَيْرِهِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ
قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي
رَسُولٌ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ
وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ
عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ
فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ *

الآية :

الملأ من القوم أشرفهم . والفلك بضم الفاء يطلق على السفينة والسفن . وعين
جمع عم ، وهو من عمى البصيرة ، والأعمى من عمى البصر .

الإعراب :

من زائدة ، وإله مبتدأ ، ولكم خبر ، وغيره صفة لإله على المحل . ويا
قوم أصلها يا قومي ، حذفت الياء تخفيفاً ، وكُسرت الميم للدلالة على الياء .
ولينذرکم منصوب بأن مضمرة ، والمصدر المنسبك متعلق بجاءكم . ومعه متعلق
بمحذوف صلة الذين ، أي والذين استقروا معه في الفلك . وعين صفة لقوم ،
وأصله عمين .

المعنى :

بعد أن قال سبحانه في الآية ٣٥ من هذه السورة : « يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم) أشار في هذه الآيات وما بعدها الى قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وأوجز سبحانه قصة نوح هنا أشد الإيجاز ، حيث اكتفى بذكر الحوار بينه وبين قومه ، وإعراضهم عن دعوته ، وكيف عجبوا ان يختار الله رسولا منهم ، وانه سبحانه أغرق المكذبين ونجى المؤمنين .

(لقد أرسلنا نوحا الى قومه) . قال الطبرسي في مجمع البيان : هو نوح ابن ملك بن متوشلخ بن اخنوخ النبي ادريس ، ونوح أول نبي بعد ادريس ، وقيل : انه كان نجاراً ، وانه ولد في العام الذي مات فيه آدم .. ونحن لا نعلم لهذا القليل مصدراً .

(فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) . أوجز الرسالة التي حملها إلى قومه من الله ، أوجزها نوح بكلمة : وهي أن يعبدوا الله وحده ، لأنه لا إله سواه ، وان دعوته هذه اليهم إنما هي لإشفاقه عليهم من عذاب يوم القيامة .

(قال الملائ من قومه إنا ل نراك في ضلال مبين) . رموه بالضلالة والسفاهة لا لشيء إلا لأنه نهاهم عما أليفوه وورثوه من عبادة الأحجار .. وهكذا كل سفیه وضال يرمي بدائه من سار على طريق الهداية والرشاد .

(قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) . رد عليهم بنفي الضلالة عن نفسه ، ووصفها بأشرف الصفات ، وصفها بأنه رسول الله أرسله لينقذهم من الهلاك والضلالة ، وانه ناصح لهم وأمين ، وانه يعلم من الله وحدانيته وعدله ، ومن كانت له هذه الصفات فلا يكون ضالاً .

(أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينتذرکم ولتتقوا ولعلكم ترحمون) . قال له قومه : ما أنت إلا بشر مثلنا ، ولو أراد الله أن يبعث رسولا لبعثه ملكاً ، فرد عليهم بأنه لا عجب أن يرسل الله رجلاً إلى قومه لا مصلحة له ولا هدف إلا أن يرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، وإنما العجب

سورة الأعراف

أن يهملهم ويتركهم سدى من غير مرشد ، قال الرازي : هذا الترتيب في غاية الحسن ، فإن المقصود من البعثة الإنذار ، والمقصود من الإنذار التقوى ، والمقصود من التقوى الفوز برحمة الله في دار الآخرة .

(فكلبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا أنهم كانوا قوماً عمن) . تفتحت أبواب السماء بالماء ، وتفجرت به عيون الأرض ، فأغرق الله الظالمين المكذبين ، ونجى نوحاً ومن معه من المؤمنين ، ويأتي الكلام مفصلاً عن نوح وقومه في السورة المسماة باسمه إن شاء الله .

هود الآية ٦٥ - ٧٢ :

وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ* قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ* أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَادِقِينَ* قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا

مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ
مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ *

المعنى :

جاء في تفسير المنار نقلاً عن اسحق بن بشر وابن عساكر : « ان هوداً
أول من تكلم بالعربية ، وكان له أربعة أولاد : قحطان ومقحط وقاحط وقالغ ،
وهو أبو مضر ، وأما قحطان فأبو اليمن ، ولا نسل لقاحط ومقحط .
وقال المقسرون : كان قوم هود من ذراري نوح ، وكانوا على دينه ، ولما
طاع عليهم الأمد لعب بهم الشيطان ، فعبدوا الأصنام ، وأفسدوا في الأرض ..
وفي تفسير الطبري ان الإمام علياً (ع) قال لرجل من حضرموت : هل رأيت
كثيراً أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بحاجة كذا وكذا من أرض
حضرموت ؟ قال الرجل : نعم ، يا أمير المؤمنين ، والله انك لتنتعنه نعت
رجل قد رآه . قال الإمام : لا ، ولكنني حدثت عنه . قال الرجل : وما شأنه
يا أمير المؤمنين ؟ قال : فيه قبر هود (ع) .

وإذا صح هذا الخبر وجب أن تزال القطعة المعلقة على قبر الإمام التي جاء
فيها : السلام عليك وعلى جارك هود وصالح الا ان يكون الجوار في الآخرة ،
لا في الدنيا أو تفل جثمان هود بعد وفاة الإمام .

وهذه الآيات التي نزلت في قصة هود موافقة للآيات السابقة التي نزلت في
قصة نوح لفظاً ومعنى إلا في أشياء نشير اليها فيما يلي :

١ - قال نوح لقومه : (اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) . وقال هود
لقومه : (أفلا تتقون) ذلك انه قبل نوح لم يظهر في العالم مثل ذاك العذاب ،
وهو الطوفان ، وكان قوم هود على علم به ، فحلفهم وأمرهم أن يتقوا الله بترك
الشرك والافرار له بالوحدانية .

٢ - قال قوم نوح له : (انا لئراك في ضلال مبين) وقال قوم هود له :

سورة الأعراف

(انا لئراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين) لأن نوحاً كان يصنع الفلك ، حيث لا بحر ولا نهر ، وهذا العمل بظاهره جهل وضلال ، أما هود فلم يفعل شيئاً من هذا النوع ، وانما سفته قومه بعبادتهم الأصنام ، فقابلوه بالمثل ، ونسبوه الى السفاهة .

٣ - قال نوح لقومه : (لعلكم ترحمون) وقال هود لقومه : (لعلكم تفلحون) وأراد نوح بالرحمة دفع العذاب عنهم ، وأراد هود بالفلاح الهداية الى الصواب ، والمعنيان متشابهان لا ينفك أحدهما عن الآخر .

٤ - ان الله سبحانه ذكر في هذه الآيات أشياء قالها قوم هود لنبيهم ، ولم يذكر هنا جل ثناؤه أن قوم نوح قالوها لنبيهم ، وهي (قالوا أجتئنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) . عبارة مطروقة يجترها كل جاهل ومقلد (فائتانا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) استعجلوا العذاب استعجال من يهزأ بالناصح الأمين .. وجاء الجواب من الرسول حامماً وسريماً (قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) ومعنى وقع هنا وجب ، والمراد بالرجس العذاب ، وبالعصب السبب الموجب للعذاب .

(أنجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان) . لا وجود للآله التي يعبدونها ، وكل ما لا وجود له لا أثر له ، ولا دليل عليه ، وعلى هذا يكون الاسم الذي وُضع له كلاماً فارغاً بلا معنى (فانتظروا اني معكم من المنتظرين) هذا جواب قولهم : فائتانا بما تعدنا ان كنت من الصادقين .

(فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) الدابر هو الآخر ، وقطع دابر القوم استأصلهم بالهلاك عن آخرهم . . وبين سبحانه نوع العذاب الذي أهلك به قوم هود في الآية ٦ وما بعدها من سورة الحاقة : « واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » .

ويأتي ان شاء الله مزيد بيان لحال هود ، مع قومه في السورة المسماة باسمه .

وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ *
وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ يُبُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ
اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ
قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمَا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ إِنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ
رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا
بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا
يَا صَالِحُ انْقِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ *

اللمعة :

البينة العلامة الفاصلة بين الحق والباطل . وبوأكم أنزلكم . والعني مجاوزة الحد .
وعقروا الناقة نحروها . والعنو التمرد . والرجفة من الرجف ، وهو الحركة
والاضطراب . والجثوم البروك على الركبة ، والمراد به هنا الهلاك .

الأعراف :

إلى ثمود متعلق بمحذوف ، أي وأرسلنا إلى ثمود ، ومنع ثمود من الصرف للعلمية والتأنيث ، وهي القبيلة . وصالحاً بدل من أخاهم . وآية حال من فاقة الله . وتأكل مجزوم جواباً للأمر ، وهو فلدروها . فيأخذكم جواب للنهي ، وهو ولا تمسوها ، والناصب ليأخذكم ان مضرة بعد الفاء . وقصوراً مفعول أول لتتخذون ، ومن سهوها مفعول ثان . وتنتحون بمعنى تتخفون ، وعليه تكون الجبال مفعولاً أولاً ، والبيوت مفعولاً ثانياً . ومفسدين حال من الواو في نعتوا . ولمن آمن بدل بعض من للذين استضعفوا باعادة العامل مثل مررت يزيد بأخيك . وجائمين خبر فأصبحوا ، وفي ديارهم متعلق بجائمين .

المعنى :

(وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . ثمود قبيلة من العرب سميت باسم جددهم ثمود بن عامر ، وكانت مساكنهم الحجر بكسر الحاء بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، قال تعالى : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين - ٨٠ الحجر » . وقوله تعالى : (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) نظير قوله : (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) وقوله : (وإلى عاد أخاهم هوداً) ومر التفسير في الآية ٥٩ و ٦٥ من هذه السورة .

(هذه ناقة الله لكم آية) . قال جماعة من المفسرين : ان قوم صالح سألوه أن يخرج لهم ناقة من الصخرة ، وأنه سأل ربه ذلك ، فتمخضت الصخرة كالمرأة يأخذها الطلق ، فولدت ناقة عشرةا وبراء .. ونحن نؤمن إجمالاً بأن الناقة كانت بينة وآية من الله ، وأنها لم تأت بسبب معناد ، وإن الله سبحانه أضافها إليه تعظيماً لشأنها .. نؤمن بهذا ولا نزيد شيئاً ، حيث لم ينزل به وحى ولا جاء به خبر متواتر عن المعصوم .

(فلدروها تأكل من أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) . أمر صالح (ع) قومه أن يتركوا الناقة وشأنها تأكل من أرض الله ، وحذرهم من

الجزء الثامن

سوء العاقبة ان تعرضوا لها بأذى ، ثم قال لهم : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) . أهلك الله عاداً بلذئبهم ، وأورث ثمود أرضهم وديارهم ، فذكروهم صالح بنعمة هذا الاستخلاف ، وأيضاً ذكرهم قائلاً : (وبوأكم الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً) . ويدل هذا النص على إيجازه ان ثمود كانت تعيش في حضارة عمرانية واضحة المعالم ، وانها كانت في نعمة ورفاهية (فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) . آلاء الله نعمه ، ومعنى لا تعثوا في الأرض مفسدين لا تسعوا في الأرض فساداً .. بعد أن ذكر صالح قومه بما أسبغ الله عليهم من النعم أمرهم أن يتذكروا ويشكروا نعم الله ، ونهاهم عن الفساد .. وفي ذلك تحذير لهم من بأس الله وعذابه .

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم) . أصر المترفون من قوم صالح على التآدي في الطغيان ، والتعصب لعبادة الأوثان ، أما المستضعفون فمنهم من آمن ، ومنهم من بقي على الشرك تبعاً للمترفين ، فقال هؤلاء لمن آمن من الفقراء المستضعفين :

(أنعلمون ان صالحاً مرسل من ربه) ؟ . سألو المستضعفين هذا السؤال مستنكرين ومهددين ، أو ساخرين مستهزئين .

(قالوا - أي المستضعفون - إننا بما أرسل به مؤمنون) . قالوا هذا غير مكترئين بالتهديد والاستهزاء ، لأنهم على يقين من دينهم ، وثقة من أمرهم . (قال الذين استكبروا - للمؤمنين المستضعفين - إننا بالذي آمنتم به كافرون) . على الرغم من الدلائل والبيانات القاطعة على نبوة صالح ، لأن مصالحهم فوق الأديان السماوية ، والبراهين العقلية ، قال الرازي : هذه الآية من أعظم ما يحتاج به على ان الاستكبار انما يتولد من كثرة المال والجاه ، لأن هذه الكثرة هي التي حملتهم على التمرد والإباء والكفر .

(ففعلوا الناقه وعثوا عن أمر ربهم) . وكشف هذا العتو عن حقيقتهم وذات أنفسهم ، وانهم لا يكثرثون إلا بمصالحهم وحده لا شريك له .. وقد تحدوا صالحاً باستعجال العذاب (وقالوا يا صالح اتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين) . ولم يهملهم سبحانه جزاء لهذا العناد (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جائعين) .

سورة الأعراف

أي هالكين، والمراد بالرجفة الصاعقة ، قال تعالى : « وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فمتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون - ٤٥ الذاريات .
(فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) . لما رأى صالح ما حل بقومه من العذاب تولى عنهم كثيراً ، وتبرأ من مصيرهم هذا الذي جلبوه على أنفسهم بالعتو والتمرد .

قال الرازي : قال رسول الله (ص) : « يا علي أشقى الأولين عاقر ناقصة صالح ، وأشقى الآخرين قاتلك » .

وسنعود إلى النبي صالح (ع) مرة أخرى ان شاء الله .

لوط الآية ٨٠ - ٨٤ :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ *

الأعراب :

ولوطاً أي وأرسلنا لوطاً وهو منصرف لخصته . وجملة ما سبقكم حال من الفاحشة . وشهوة مفعول لأجله لتأتون . وجواب خبر مقدم لكان ، والمصدر المنسبك من ان قالوا اسمها . ومطراً مفعول مطلق .

المعنى :

(ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة) . نقل صاحب تفسير المنار عن كتب الأنساب العربية وسفر التكوين ان لوطاً ابن أخي ابراهيم الخليل (ص) وانه ولد في (اور الكلدانيين) وهي في طرف الجانب الشرقي من جنوب العراق الغربي من ولاية البصرة ، وكانت تلك البقعة تسمى أرض بابل ، ثم سافر لوط مع عمه ابراهيم إلى ما بين النهرين ، وهو مكان تحيط به دجلة ، حيث كانت مملكة آشور ، ثم أسكنه ابراهيم في شرقي الأردن .

(ما سبقكم بها من أحد من العالمين) . يدل على ان قوم لوط أول من ابتدع هذا النوع من الفساد (انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) . هذا تفسير للفاحشة ، وان المراد بها هنا اللواط المعبر عنه اليوم بالشذوذ الجنسي ، والفعل الشنيع (بل أنتم قوم مسرفون) . قد تجاوزتم الحد في كل شيء ، حتى بلغت إلى هذا الانحراف الذي يمجحه الطبع ، وتأباه الفطرة ، ويخالف سنن الحياة .

(وما كان جواب قومه إلا أن قالوا اخروجوهم من قريبتكم انهم أناس يتطهرون) . أجل ، ان الطهر والعفاف ذنب عند العاهر الفاجر ، والأمانة جريمة عند العميل الخائن .. أخرجوهم لأنهم يتطهرون .. وهكذا المجتمع القلدر يرفض الأطهار والأبرار ، لا لشيء إلا لأنهم يتطهرون ، والعكس صحيح أيضاً .

(فأجيئناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) . المراد بأهله من آمن معه ، سواء أكان من أرحامه ، أو من غيرهم ، وغير تأتي بمعنى مضي ، وبمعنى بقي ، وهذا المعنى هو المراد هنا ، أي ان امرأة لوط بقيت مع المالكين ، ولم يصحبها معه حين سرى بأهله بقطع من الليل فراراً من العذاب ، لأنها كانت منافقة تتأمر على زوجها مع المشركين ، وقيل : ان اسمها واهلة .. وقال تعالى : من الغابرين ، ولم يقل من الغابرات تغليبا للرجال على النساء ، لأن الدين أهلهم الله كانوا من المشتين .

وهكذا أصاب امرأة لوط من العذاب ما أصاب المشركين لأنها منهم ، ولم يجدها القرب من نبي الله والتصاقها به شيئاً . وفي الحديث : المرء مع من أحب .

سورة الأعراف

(وأمطرنا عليهم مطراً) . بيّن سبحانه العذاب الذي أنزله بهم بأنه نوع من المطر ، ولكنه بالحجارة ، لا بالماء كما جاء في الآية ٨١ من سورة هود : « وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد » ويأتي التفصيل في محله ان شاء الله (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) ؟ انها العذاب الأليم ، والعاقل من اتعظ بغيره .

وتسأل : ان كلاً من نوح وهود وصالح دعا قومه الى عبادة الله وحده فيما تقدم من الآيات ، أما لوط فقد دعا قومه في هذه الآيات الى الامتناع عن الفاحشة ، فهل معنى هذا ان قوم لوط كانوا موحدين ، ولكنهم فسقوا بهذا الفعل الشنيع ؟.

الجواب : ان قوم لوط كانوا كفاراً ، وقد دعاهم الى التوحيد ، ونهاهم عن الكفر والشرك كما نهاهم عن اللواط بدليل قوله تعالى : « كذبت قوم لوط المرسلين ، اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ، اني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون - ١٦٣ الشعراء » . وانما اهتم بهذه الرذيلة لأنها كانت فاشية فيهم ، وأدت بهم الى غيرها من القبائح والرذائل ، وحملتهم على التمرد والعناد للحق ، وجرت بهم على تكذيب أنبياء الله ورسله .

وقد أجمعت المذاهب الإسلامية قولاً واحداً على تحريم اللواط ، وانه من الكبائر ، واختلفوا في عقوبته ، قال الحنفية : انها التعزير بما يراه الحاكم ، وقالت بقية المذاهب : انها القتل لحدوث : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » .

وأباححت الحكومة الانكليزية اللواط ، وأقره مجلس العموم البريطاني سنة ١٩٦٧ ونقلت جريدة الأهرام تاريخ ٦ - ٩ - ١٩٦٧ عن التايمز اللندنية ان جماعة من كبار الشخصيات في انكلترا أقاموا احتفالاً عاماً ابتهاجاً بإباحة اللواط ، وتعاطوا فيه هذه العملية أمام المئات من المتفرجين .. وليس من شك ان وجود السيدات والآنسات في هذا الحفل يزيد من بهجته وروعته .

وإلى مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَخْضَعَكُمْ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ *

الله :

الكيل تقدير الشيء بالكيال . والوزن تقديره بالميزان . والمساحة تقديره بالمر والذراع . والبخس النقص . والعرج بفتح العين يكون فيها يرى كالعود والحائط ، وبكسر العين يكون فيها لا يرى كالدين وما إليه .

الإهواب :

إلى مدين متعلق بفعل مخلوف أي وأرسلنا إلى مدين ، ومدين مجرور بالفتح للتعريف والتأنيث ، وشعيباً بدل من أخاهم . ولا تبخسوا يتعدى إلى مفعولين : الأول الناس ، والثاني أشياءهم . وجملة توعدون حال من واو لا تقعدوا . ومن آمن مفعول به لتصدون . وضمير تبغونها يعود إلى سبيل الله .

(وإلى مدین أخاهم شعبياً قال یا قوم اعبدوا الله ما لکم من إله غیره) .
مر نظیره فی الآیة ۵۹ من هذه السورة . وشعب من أنبیاء العرب كهود وصالح ،
وأهل مدین عرب ، وكانوا یسكنون أرض معان من أطراف الشام .

(قد جاءتكم بینة من ربکم) . البينة كل ما یتبین به الحق ، سواء أكان
برهاناً عقلياً ، أم معجزة خارقة للعادة ، وليس من شك ان شعبياً قد جاء قومه
بمعجزة تدل علی نبوته ، والا كان متنبئاً ، لا نبياً . ولا نص فی القرآن يدل
علی نوع هذه المعجزة ، فتعینها بالذات كما فی بعض التفاسیر قول علی الله بغير علم .
(فأوفوا الكیل والمیزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم) . ویومئ هذا النص
إلی أنهم كانوا یسیئون المعاملة فی البیع والشراء ، وان ذلك كان فاشياً فیهم ،
ولذلك أمرهم بإیفاء الكیل والمیزان بعد أن أمرهم بتوحید الله ، ثم أمرهم بالعدل
وعدم البخس فی جمیع الحقوق مادية كانت كالملیعات ، أو معنوية كالعلم
والأخلاق ، فلا یصفون العالم بالجهل ، والأمین بالخيانة .

(ولا تفسدوا فی الأرض بعد إصلاحها) . مر تفسیره فی الآیة ۵۶ من
هذه السورة ، فقرة : الله أصلح الأرض والإنسان أفسدها ، (ذلكم خیر لکم
ان كنتم مؤمنین) ذلك إشارة إلی الخمسة المتقدمة ، وهي عبادة الله ، والوفاء
بالکیل والوزن وعدم البخس والافساد .

(ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبیل الله من آمن به تیغونها
عوجاً) . هذا بیان وتفسیر لقوله : ولا تفسدوا فی الأرض لأن معناه دعوا
الناس وشأنهم ، ولا تلقوا علیهم الشبهات ، ولا تتوعدوهم وتهددوهم ان أرادوا
الإیمان بالله ورسوله ، ولا تمنوا من آمن أن یقیم شعائر الدین ، وتصدوه عن
طریق الله القويم ، وتحاولوا أن یحملوا الناس علی سلوك الطریق العوجاء التي
تسیرون علیها .. وأوضح تفسیر لهذه الآیة وأجزء ما روی عن ابن عباس أنهم
كانوا یقعدون علی الطریق ، ویخوفون الناس أن یأتوا شعبياً ، ویقولون لهم انه
كذاب ، فلا یفتننكم عن دینكم .

(واذكروا إذ كنتم قبلًا فكنتم) . جعلهم الله أغنیاء بعد أن كانوا فقراء ،

الجزء الثامن

وأقرباء بعد أن كانوا ضعفاء ، وكثيرين بعد أن كانوا أفلأء ، فوجبت عليهم الطاعة والشكر لله (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) أي وإلا أصابكم ما أصاب من أفسد الأرض مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط .

(وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم تؤمن فاصبروا حتى يحكم الله بيننا) . آمن بشعب جماعة ، وكفر به آخرون ، فدعا الجميع إلى التعايش السلمي ، وان ترك كل طائفة وشأنها ، ولا يتعرض أحد لأحد بأذى ، سواء اختار الكفر ، أم الإيمان ، ثم تنتظر الطائفتان إلى ان يحكم الله بينهما (وهو خير الحاكمين) . ولا رد لهذا المنطق ، وبأي شيء ترد من يقول لك : انتظر فبك حكم الله ؟ .

الجزء التاسع

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ* قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتُحِبُّونَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْهَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ*

اللفظ :

الملة الديانة . والفتح معانٍ ، منها الحكم ، وهو المراد هنا .

الإعراب :

أو لو كنا كارهين ، الهزمة للإنكار ، والواو للحال ، ولو بمعنى ان ، والجملة بمعنى الحال ، والتقدير كيف نعود في ملتكم ، ونحن كارهون لها ؟ . وربنا بدل من الله ، والمصدر المنسبك من أن يشاء الله مجرور بإضافة ظرف محذوف ، أي إلا عند مشيئة الله ، أو مع مشيئة الله . وعلماً تمييز محول عن فاعل ، أي وسع علم ربنا كل شيء .

المعنى :

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك

سورة الأعراف

من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) . قدمنا ان شعبياً دعا المترفين الكافرين الى المسألة والتعابش مع الذين آمنوا به ، وان يُترك الخيار لمن يشاء أن يدخل في الدين الذي يشاء .. ولكن المترفين رفضوا دعوته ، وخبروه بين أمرين لا ثالث لهما : اما أن يخرج هو ومن آمن معه من بلدهم ، واما أن يعود الذين آمنوا به الى الكفر ، ويعود هو إلى موقفه السابق — قبل النبوة — لا مؤيد لدينهم ولا مفند ، وبكلمة ان قولهم : (أو تعودون في ملتنا) معناه أن يرجع الوضع الذي كان قبل النبوة إلى ما كان .

(قال أو لو كنا كارهين) ؟ . هذا هو منطق المنصف المخلص ، لا يحمل أحداً على ما يكره ، ولا يحب أن يحمله أحد على ما لا يريد ، ثم هل يكون الإيمان بالإكراه ؟ . وهل المؤمن حقاً يؤثر الإقامة في الوطن على دينه وعقيدته ؟ . (قد افترينا على الله كذباً ان عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) . طلب المشركون من شعيب (ع) أن يرتد عن الإيمان إلى الشرك ، فقال لهم : ان الارتداد افترأ على الله ، وعاقبة الافتراء عليه تعالى وبال وعذاب ، وقد أنجانا الله منه ، فكيف نفترى عليه ؟ .. اما ان الارتداد افترأ على الله فواضح ، لأن معناه ان الشرك بالله خير وأبقى من الإيمان بوحدايته (وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) . ضمير فيها يعود إلى ملة الكفر والشرك ، والتعليق هنا على مشيئة الله تعليق على المحال ، لأن الله لا يشاء الكفر والشرك ، فهو تماماً كقوله تعالى : « ولا يدخلون الجنة حتى بلغ الجمل في سم الخياط » .

(وسع ربنا كل شيء علماً) تقدم نظيره في الآية ٨٠ من سورة الأنعام . (على الله توكلنا) . ومن توكل عليه لا يخشى التهديد والوعيد ، لأنه على علم البقين بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع . (ربنا افتتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) . بعد أن يشع شعيب منهم وتأكد من اصرارهم على الكفر التجأ إلى الله ، وتضرع اليه أن يحكم ويفصل بينه وبين من كفر من قومه ، لأنه تعالى هو مصدر القوة والعدل .

لئن اتبعتم شعياً الآية ٩٠ - ٩٣ :

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَقَوَّلَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ *

اللفظ :

غني بالمكان أقام به . وآسى عليه حزن عليه .

الإعراب :

لئن تدل اللام على قسم محذوف ، وجملة انكم إذا لخاسرون جواب للقسم ، وسادة مسد جواب الشرط ، وإذا ملغاة لاعتراضها بين اسم ان وخبرها . والذين كذبوا شعياً الأولى مبتدأ ، وكان اسمها ضمير الشأن محذوف أي كانه ، وجملة كان واسمها وخبرها خبر المبتدأ ، والذين كذبوا شعياً الثانية بدل من الأولى . وهم ضمير فصل بين اسم كان وخبرها ، ولا محل له من الإعراب .

المعنى :

(وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعياً انكم اذا لخاسرون) .

سورة الأعراف

توجه المشركون أولاً إلى شعيب صاحب الدعوة يهددون ويتوعدون ، ولما يشوا منه تحولوا الى الذين آمنوا به يحاولون فتنتهم عن دينهم ، وقالوا لهم فيما قالوا : انكم لخاسرون في اتباعكم شعبياً ، وهذا دأب من لا حجة له إلا الاغواء والإضلال .

(فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) . هذا هو الجواب الصحيح لمن عاند وتمرد ، وأبى إلا الضلال والفساد ، وتقدمت هذه الآية بالحرف ٧٨ من هذه السورة .

(الذين كذبوا شعبياً كأن لم يغتوا فيها) . لقد أتى العذاب عليهم وعلى ديارهم وجميع آثارهم ، حتى كأنهم لم يعرفوا هذه الحياة وتعرفهم .. وكل امرئ مجزي بما أسلف عاجلاً أو آجلاً . (الذين كذبوا شعبياً كانوا هم الخاسرين) . قال الذين أشركوا للذين آمنوا : انكم لخاسرون فكانت العاقبة خسارتهم وهلاكهم ، وربح المؤمنين ونجاتهم .. والعاقلة لا يقول للمترف الهناء لك ، وللمستضعف الويل لك ، لأن للدهر مخبات ومفاجآت ، والأمور بخواتيمها ، وإنما كرر (الذين كذبوا شعبياً) تأكيداً لخسارتهم وهوانهم .

(فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسئ على قوم كافرين) . كيف أحزن على من أهلك نفسه بنفسه مصراً على الكفر بالله وكتبه ورسله ، والاستهزاء بمن آمن به واتبع صراطه القويم . وتقدم نظيره في الآية ٧٩ من هذه السورة .

وما أرسلنا في قرية الآية ٩٤ - ٩٥ :

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ* ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ*

الكلمة :

البأساء الشدة . والضراء ما يضر الإنسان مادياً أو أدبياً . والتضرع الخضوع .
والعفو الترك ، والمراد به هنا الكثرة والنمو ، أي تركوا حتى تناسلوا وكثروا .
والبغثة الفجأة .

الإعراب :

بضّرعون أصلها يتضرعون ، فادغمت التاء في الضاد . وحتى عفووا أي الى
أن عفووا . وبغثة نعت لمصدر محذوف أي اخذة بغثة ، ويجوز أن تكون بغثة
مصدراً في موضع الحال ، أي مباغتين .

المعنى :

(وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم بضرعون).
المراد بالقرية البلدة الجامعة التي يسكنها - في الغالب - الرؤساء والزعماء ، ولعل
هنا بمعنى كمي .

في الآيات السابقة أشار سبحانه الى الهلاك الذي حل بالمكذبين من قوم نوح
وهود وصالح ولوط وشعيب ، وإلى ما في نهايتهم من عبر وعظات ، وإن الخير
كان حاقبة المتقين ، وإن دائرة السوء دارت على المبطلين ، ويبتن في هذه الآية
أن ما جرى لأقوام أولئك الأنبياء لا يختص بهم وحدهم ، ولكنها سنة الله .
تجري على كل قوم كذبوا نبيهم.. يأخذهم الله بالشدة والمشقة في أنفسهم وأبدانهم
وأموالهم ، لا شيء إلا ليتعظوا ويرتدعوا ، ويعتبر بهم من يأتي من بعدهم .
(ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفووا وقالوا مس آبائنا الضراء والسراء).
المراد بالسيئة هنا الضيق والعسر ، وبالحسنة السعة واليسر ، وبالعفو الكثرة .
والمعنى أن الله سبحانه ابتلاهم بالضيق والشدة ليتعظوا ، وبالسعة والعافية ليشكروا ،
ولكن قل من يتعظ ، وأقل منه من يشكر ، ولما كثروا بالنعم والنسل استخفوا

سورة الأعراف

بالحق ، وهزأوا بأهله ، وأخذوا يفسرون سنة الله بجهلهم وعلى أهوائهم ، ويقولون : ما أصاب آباءنا من الضراء لم يكن عقوبة على ضلالهم وفسادهم ، وما نالهم من السراء لم يكن مثوبة على صلاحهم ومداينتهم ، وإنما هي الصدفة تخطب خبط عشواء .

وإذا غفل هؤلاء واضربهم عن حكم الله وحكمته فإن الله جل ثناؤه ما هو بغافل عنهم وعن أعمالهم (فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) جزاء على اغترارهم وانطلاقهم مع الأهواء والأغراض .. وهكذا يجذر القرآن الذين لا يتورعون ولا يتحرجون عن شيء ، يحذرهم من الأخذ بغتة ، وهم لا يشعرون .

ولو ان أهل القرى آمنوا الآية ٩٦ - ١٠٠ :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ
الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ
أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ * أَوْ لَمْ يَنصِدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ
مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ شَاءَ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ *

الآية :

البركات بوجه عام الخبرات النامية ، وبركات السماء كثيرة ، وأظهرها المطر ،

الجزء التاسع

وبركات الأرض كثيرة أيضاً ، وأظهرها الحصب والمعادن ، بخاصة الذهب الأسود .
والمراد بالبأس هنا العذاب . والبيات وقت المييت وهو الليل . والضحي انبساط
الشمس .

الإعرا ب :

أفأمن الهمة للاستفهام على وجه التوبيخ والإنكار ، والفاء لعطف الجملة على
ما قبلها . وبياتاً منصوب على الظرفية يأتيهم لأن المراد به الليل . والمصدر
المنسبك من أن يأتيهم مفعول لأمن ، أي امنوا إتيان بأست . ان لو نشاء (ان)
مخففة من التثنية ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، والجملة بعد لو خبرها ،
والمصدر المنسبك فاعل يهد ، والتقدير أو لم يهد لهم هذا الشأن ، وهو أنا لو
نشاء أصبناهم بلدنوبهم .

المعنى :

(ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) .
أظهر بركات السماء المطر ، وأظهر بركات الأرض النبات والمواشي والمعادن بشئ
أنواعها .

وقد بينا عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة المائدة ، فقرة : هل الرزق صدفة
أو قدر : ان مجرد الإيمان بالله لا ينبت قحاً ، وبيناً أيضاً في تفسير الآية ٦٦
من سورة المائدة ، فقرة : الرزق وفساد الأوضاع ، : ان المراد بالإيمان الموجب
للرزق هو الإيمان بالله مع العمل بجميع أحكام الله ومبادئه ، وإقامة العدل في
كل شيء ، وأنه متى عمّ العدل وساد صلحت الأوضاع ، وذهب البؤس والشقاء .
(ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) . أي لم يعملوا بأحكام الله ،
بل سعوا في الأرض فساداً بالظلم والجور ، والسلب والنهب ، وتكديس الثروات
على حساب الضعفاء والبؤساء ، وقد أخذهم الله بالهلاك والعذاب ، لأنهم كفروا
واستأثروا .

سورة الأعراف

(أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون) ؟ . هذا تخويف وانذار منه تعالى للمتبردين والمستأثرين أن يفاجئهم الله بعذابه ، وهم في غفلة من غفلاتهم ، كما فعل بمن كان قبلهم .. وهل يملك الإنسان أن يدفع عنه قضاء الله في صحوه وحذره ؟ فكيف يملكه ، وهو أشبه بالملوث ؟ .

(أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) ؟ ويلعبون هنا كناية عن ذهولهم عن المفاجآت والمخبات ، وعن محاسبتهم لأنفسهم . وتساءل : لا فرق أبداً بين يقظة الإنسان وغفلة أمام أس الله ، فإما هو القصد من ذكر النوم واللعب ؟ .

الجواب : ان يشبه الإنسان إلى جهات الضعف فيه لعله يتذكر أو يخشى .

(أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) . المراد بمكر الله هنا العذاب الذي يأتيهم بغتة دون سابق انذار ، وسبق الكلام عن مكر الله تعالى في تفسير الآية ٥٤ من آل عمران ج ٢ ص ٦٨ وأنه سبحانه يصف نفسه بالماكر لأنه يبطل مكر الماكرين ، وبالشاكِر لأنه يثيب الشاكِرين ، وبالتواب لأنه يقبل من التائبين .. أما انهم الخاسرون فلأنهم أوقعوا أنفسهم في الخسران بسبب عنادهم واستهتارهم .

(أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ان لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) . أي ان هؤلاء المشركين الذين ورثوا الأرض ممن أهلكتهم بذنوبهم ، وقد كانوا أشد منهم قوة - ان هؤلاء المشركين ألم يتبين لهم ان شأننا فيهم تماماً كشأننا فيمن كان قبلهم لو نشاء أصبناهم عذابنا كما أصاب غيرهم من قبل ؟ .. فان سنة الله واحدة في جميع خلقه .. والفرض من هذه المبالغة في النصيحة والتحذير أن يراقب الإنسان نفسه ، ولا يذهل عنها ، وان يتعظ بغيره ، ولا يفتّر بالمظاهر الجوفاء .. ولكن : « وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون - ١٠١ يونس » .

(ونطيع على قلوبهم فهم لا يسمعون) . تقدم الكلام عنه في الآية ٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٥٣ .

تلك القرى نقص عليك الآية ١٠١ - ١٠٢ :

تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ
الكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ
لَفَاسِقِينَ *

اللغة :

نقص عليك أي نتلو عليك . والنبأ الخبر عن أمر عظيم الشأن . والمراد بالعهد
هنا الالتزام بالأدلة الدالة على التوحيد والنبوة وكسل ما أمر الله والعقل به ،
ونهبأ عنه .

الإعراب :

تلك مبتدأ ، القرى عطف بيان ، وجملة نقص خبر . ومن عهد (من)
زائدة وعهد مفعول لوجدنا ، ولأكثرهم متعلق بمحذوف حالاً من عهد . وإن
مخففة من الثقيلة يجوز أن تكون ملغاة ، وإن تكون عاملة ، واسمها محذوف أي
إنا وجدنا ، ولفاسقين مفعول ثانٍ لوجدنا ، ودخلت عليه اللام للفرق بين إن
المخففة وإن النافية .

المعنى :

(تلك القرى نقص عليك من أنبائها) . تلك القرى إشارة الى أهل القرى

سورة الأعراف

الخمس ، وهم قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، والخطاب في نقص عليك موجه الى رسول الله محمد (ص) ، والقصد منه أن يخبر المسلمين بأحوال الغابرين ليعتبروا ويحذروا (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) .

ذكر الرازي ثلاثة وجوه لتفسير هذا المقطع من الآية ، وزاد الطبرمي رابعاً ، ولم يرجحها وجهاً منها ، وتركها القازي العادي في نيه ، مع ان المعنى واضح لا غموض فيه ، ويتلخص بأن أهل تلك القرى كانوا قبل أن يرسل الله اليهم رسله على الشرك والضلال ، وانهم استمروا في شركهم وضلالهم بعد أن جاءتهم الرسل بالدلائل والمعجزات ، ولم تؤثر فيهم شيئاً ، حتى كأن الله لم يرسل اليهم بشيراً ونذيراً ، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى : (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) ، والطبع هنا كتابة عن قسوة قلوبهم ، وانها لا ترعوي عن ضلالها ، ولا يرجى خيرها .

(وما وجدنا لأكثرهم من عهد) . فلا يؤمنون بدين الله ، ولا يلتزمون بشيء يمت الى الانسانية بصفة .. أجل ، لهم عهد واحد يلتزمون به ، ولا يحيدون عنه ، وهو اتباع المصالح والأهواء . (وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) . أي وانا وجدنا أكثرهم منحرفين عن قصد السبيل .

موسى وفرعون الآية ١٠٣ - ١١٢ :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَاهَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكَ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ

مُيِّنٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْنُتَاهُ لِلنَّاطِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ
فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَا تَوَكُّ
بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ *

اللمعة :

ظلموا بها أي جعلوها بها . وحقيق بمعنى جدير . والتزع اخراج الشيء من
مكانه . والمراد بتأمرون هنا تشيرون . وأرجأ الشيء أخره وأجله . ومدائن
ومدن جمع مدينة . وحاشرين أي ان الشرطة يجمعون السحرة ، ويحشرونهم ضد
موسى (ع) .

الإعراب :

كيف خبر مقدم لكان ، وعاقبة اسمها ، والجملة مفعول فانظر . وحقيق
مبتدأ ، وعلى متعلق به ، والمصدر المنسبك من إلا أقول خبر المبتدأ ، أو فاعل
حقيق ساد مسد الخبر ، والتقدير حقيق علي قول الحق على الله . فإذا للمفاجأة .
وهي ثعبان مبتدأ وخبر . وفاذا تأمرون يجوز أن تكون (ما) مبتدأ وذا اسم
موصول خبر ، ويجوز أن تكون (ماذا) كلمة واحدة منصوبة بتزع الخافض
مفعولاً لتأمرون ، والتقدير بأي شيء تأمرونني ؟ . وأرجه أصله أرجئه بالهمزة ،
أو أرجيه بالياء حيث يجوز فيه الأمران - كما قيل - وعلى الباء يكون الحذف
على الأصل ، وعلى الهمزة يكون حذفها إلحاقاً لها بالياء أو للتخفيف ، وأخاه
مفعول معه . وحاشرين مفعول به لأرسل .

تلخيص القصة :

لقد مر بنا العديد من الآيات التي عرضت قصة موسى (ع) مع بني اسرائيل، والآن تعرض هذه الآيات التي نعرضها قصة موسى (ع) مع فرعون .
وكلمة فرعون لقب للملوك مصر القدماء كلقب قبصر الملوك الروم ، وكيسرى الملوك الفرس ، والنجاشي للملوك الحبشة ، ونقل عن الكثيرين ممن يُعنون بالتاريخ المصري القديم : ان اسم فرعون موسى مفتاح ، وكان يلقب بسليل الإله ، وقد كتب بجانب هيكله الذي بدار الآثار المصرية هذه الآية : « فالיום ننجيك بيدك لتكون لمن خلقت آية » .

اسم ام موسى والأسطورة :

أما موسى (ع) فهو ابن عران ، وأهل الكتاب يقولون (عمرام) ، وفي المجلد الأول من هذا التفسير ص ١٠١ ذكرنا ان اسم موسى مركب من (مو) اسم الماء ، و (مى) اسم الشجر ، لأن أمه وضعته في صندوق ، واقلته اقلالاً محكماً ، وألقته في النيل خوفاً عليه من فرعون الخ.

ومن الطريف أن يخترع مخترع من هذا القفل الذي أقفلت به ام موسى صندوق ولبدها ، أن يخترع منه اسطورة شاعت وذاعت مدى قرون من الزمن، وآمن بها كثيرون من البسطاء السذج .. وهي ان ما من قفل إلا ويفتح تلقائياً إذا قرئ عليه اسم ام موسى ، ومن أجل هذا لا يعرفه إلا الخواص من أهل الأسرار .. وفي ذات يوم دخلت على أحد رجال الدين ، وله اسم وشأن بين قومه ، فوجدته يبحث وينقب مهتماً في مجلدات بحار الأنوار للمجلسي ، فقلت له : ما شأنك ؟ قال : أريد أن أعرف اسم ام موسى ..

ومنذ ستين قصدي رجل بظن اني من أهل الأسرار ، وسألني عن اسمها ، فقلت له : ليس المسؤول بأعلم من السائل ، فلم يقتنع ، فقلت له : ان هذه خرافة .. فاعتقد اني أترب منه ، ولا أريد أن اطلعه على هذا السر العظيم .. ولما يشتت منه قلت له : لا يجوز لي أن اطلعك عليه لأنني لا آمن أن تسرق

الجزء التاسع

أموال الناس، فأقسم وأغلظ في القسم انه لن يفعل، فظاهرت بعدم الثقة به، ومضت الأيام ، وشرعت في تفسير القرآن الكريم ، ولما بلغت هذه الآيات راجعت مصادرها ، ومنها كتاب « قصص القرآن » وضعه أربعة من الكتاب المصيرين ، وهم محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل ، والسيد شحاته ، واذا فيه ان اسم ام موسى « يوكابد » ولكن المؤلفين لم ينسبوه إلى مصدر .

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى قصة موسى مع فرعون ، كما جاءت في الآيات التي نحن بصدد تفسيرها، ويتلخص معناها بأن فرعون كان يدعي الربوبية من دون الله ، ويضطهد بني اسرائيل ، فأرسل الله اليه موسى وهارون ، فذهبا واقتحما عليه مجلسه لا يخشيان سلطانه وطقينه ، وجابهه موسى بقوله : يا فرعون اني رسول من رب العالمين اليك والى كل جاحد ، ولديّ ما يثبت رسالتي ، وعليك أن تطلق بني اسرائيل من أسرك ، وتدعهم أحراراً يذهبون حيث يشاءون .. فاستخف به فرعون ، وقال : هات ما يثبت رسالتك، فألقى موسى عصاه ، فاذا هي ثعبان ، ووضع يده في جيب قميصه، وأخرجها فتلاأت ناصعة لكل ناظر ، وكان موسى أعمى .

فقال رجال فرعون وأهل مشورته : ان هذا ساحر ماهر .. وجمع فرعون السحرة لموسى ، وقبل أن يشرعوا بالأعبيهم قالوا لفرعون : ألنا أجر ان غلبنا موسى ؟ قال : لكم أجر وقربي ، وألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، فخيل للنظارة انها حيات تسعى ، وألقى موسى عصاه ، فاذا هي تلقف ما يأفكون ، فأسلم السحرة ، وآمنوا برسالة موسى ، فتهدهم فرعون بالعذاب والتنكيل ، فلم يعابوا وثبتوا على إيمانهم .. وجاء في العديد من الروايات ان فرعون نفذ فيهم تهديده ووعيده ، وطبيعة الحال ترجح ذلك .

وراح فرعون يتزل بموسى ومن معه صنوف العذاب ، ويشنط في التنكيل والتعذيب ، ولكن موسى استمر في دعوته الى الله لا يثنيه عنها شيء ، فضج بنو اسرائيل وقالوا لموسى : أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، فأمرهم بالصبر ، ومناهم الفوز .

سورة الأعراف

وأخذ الله آل فرعون بالجدب والضيق ، وأرسل عليهم أمطاراً تهلك زرعهم
وثمارهم ، وجراداً يأتي على ما بقي من أثر السيول ، وقلاً ينهك أجسامهم ،
وضفادع تفسد عليهم حياتهم ، وفوق هذا كله تحولت مياههم الى دماء ..
وعندها فرعوا الى موسى ، وقالوا له : لئن كشف ربك عنا العذاب لنكونن
من المؤمنين ، وكشف الله عنهم الى حين لعلمهم يرجعون .. ولكن نكثوا العهد ،
وأصروا على الكفر ، فأغرقهم الله في البحر ، وقطع دابر الكافرين .
هذا تلخيص سريع لما جاء في الآيات التي نحن بصددنا ابتداء من الآية ١٠٣
الى نهاية الآية ١٣٧ . وفيما يلي نشرح دلالة هذه الآيات على ما ذكرنا .

المعنى :

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فظلموا بها) . ضمير
بعدهم يعود الى الأنبياء الخمسة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، أو الى
قومهم ، والآيات التي بعث بها موسى هي المعجزات الدالة على نبوته ، وملاً
فرعون أشراف قومه الذين بيدهم الحل والعقد ، وليس لغيرهم إلا الانقياد والتسليم ،
ومعنى ظلموا بها جحدوا وكفروا بما جاء به من الآيات والمعجزات . (فانظر
كيف كان عاقبة المفسدين) . وهم فرعون وأنصاره الذين يتحكمون في رقاب
العباد ، وهذه العاقبة ستجيء في السياق .

(وقال موسى يا فرعون اني رسول من رب العالمين) . بهذا النداء خاطبه
موسى « يا فرعون » من غير تبجيل وتعظيم ، لأنه يتكلم بلسان الله ، ويبلغ
رسالات الله التي يصفر عندها كل كبير .. وبهذا ندرك السر لسيرة الصالحاء
الذين يترفعون على الفاسقين ويخفضون جناح الذل من الرحمة للمؤمنين .
(حقيق علي ان لا أقول على الله إلا الحق) شأن كل نبي ائتمته الله على
وحيه ، واختاره لرسالته (قد جئتمكم ببينة من ربكم) تدل على اني رسول من
رب العالمين (فأرسل معي بني اسرائيل) كان فرعون يستعبد بني اسرائيل ،
ويستخدمهم في أشق الأعمال ، فطلب منه موسى (ع) أن يطلقهم ، ويسدعهم
وشأنهم يذهبون الى حيث يشامون .

الجزء التاسع

(قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين) . يظهر ان فرعون كان يظن ان موسى كاذب في دعواه ، فأراد أن يفتضح أمام الملأ ، فقال له : فأت بها ان كنت من الصادقين ، فألقمه موسى حجراً بحجته الدامغة ومعجزته القاطعة (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) ظاهراً وواقعاً ، لا تمويهاً وإيهاماً ، ففرع فرعون ، ولكنه تمالك لأنه كان يدعي انه هو الرب الأعلى ، وفاجأه موسى بالثانية كما فاجأه بالأولى (ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين) . ويد موسى سمراء ، لأنه كان يميل إلى السمرة ، فكيف صارت بيضاء من غير سوء ، أي من غير مرض وعلة ؟ .

فشعر فرعون بالمدلة والمهوان ، وصغر شأنه عند نفسه ، فأدرك جلساؤه وحاشيته منه ذلك ، وان موسى أنزله من عليائه ، فحاولوا أن يخففوا عن سيدهم ، وكذبوا عليه وعلى أنفسهم (قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم) . هذه هي حجة العاجز لإصاق التهم بالأبرياء ، والنيل من كرامة الأصفياء .

ثم قال الملأ من قوم فرعون : (يريد أن يخرجكم من أرضكم) . أي ان موسى يريد أن يتزعزع منهم الحكم والسلطان ، ولما سمع فرعون ما سمع قال : (فإذا تأمرون) أي إذا كان الأمر كذلك فماذا تشيرون ؟ (قالوا أرجه وأخاه) ، أخرهما ولا تقتلها ، لأنك ان فعلت ذلك غضب الرأي العام ، وعرضت نفسك وسلطانك للتهديد والخطر (وأرسل في المدائن حاشرين) المدائن جمع مدينة ، والحاشرون الشرطة (بأنوك بكل ساحر عليم) . قال المؤرخون : ان أرض مصر كانت تمتلئ بالمشعوذين والسحرة على عهد الفراعنة ، وكان كهنة الديانات وسدنة الآلهة هم الذين يزاولون أعمال السحر ، قال العقاد في كتاب « إبليس » فصل « الحضارة المصرية » :

« كان الفراعنة أنفسهم يلجأون إلى السحر لمغالبة الأرواح الخفية .. ولدينا من بقايا قصص السحر نخبة لم يتخبرها جامعو الآثار ، ولكنها اجتمعت لهم من حيث اتفق بين الانقراض والمحفوظات ، وكلها تروي أعمال السحر في مجازاة الأشرار .. وكانوا يقسمون السحر إلى أقسام، منها ما يستعان فيه بقدرة إله الخير على إله الشر، ومنها ما يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبير على الشياطين الصغار . »

سورة الأعراف

وانتشار السحر في عهد فرعون يفسر لنا عصا موسى ، ويؤيد المبدأ القائل :
ان معجزة كل نبي تأتي من النوع السائد في عصره ، ليكون التحدي أبلغ في
الحجة وقاطعاً لكل حذر ، فوسى أبطل السحر لرواجه في عصره ، وعيسى أحيا
الموتى ، وعمد أخرس البلقاء للغاية نفسها من المشابهة .

وجاء السحرة الآية ١١٣ - ١٢٦ :

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ *
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِيمَنَ الْفَاقِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنُثْقِي وَإِنَّمَا أَنُكُونُ نَحْنُ الْمُلْكَ * قَالُوا قُلُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ
وَأَسْرَبُوا لَهُمْ وَجَاهُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ أَلْقِ
عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ * فَعَلَبُوا هَذَاكَ وَأَنقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأَلْقَى السَّحَرَةُ
سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ
فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي
الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا
مُنْقَلِبُونَ * وَمَا نَنْفَعُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ *

اللفة :

استرهبوهم أي أرهبوهم وخوفوهم من أعمال السحر . وتلقف الشيء تناوله
بحذق وسرعة . والإفك صرف الشيء عن وجهه، ومنه الكذب . والمكر الخديعة،
ومنه مدموم إذا قصد به الشر ، ومنه ممدوح إذا كان وسيلة للخير ، ولا شائبة
فيه للشر . وتقطيع الأبدى والأرجل من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل
اليسرى ، والعكس بالعكس .

الاعراب :

والمصدر المنسبك من إما أن تلقي وإما أن نكون مفعول لفعل محذوف،
أي اختر اما اللقاءك واما اللقاءنا . ان ألقى (ان) مفسرة لأوحينا ، فهي هنا
ترادف كلمة أي ، ويجوز أن تكون مصدرية على أن يكون المصدر المنسبك
مجروراً بباء الجر المحذوفة أي وأوحينا باللقاء . وهناك في محل نصب على الظرفية
متعلقاً بـغلبوا ، لأنه إشارة إلى المكان الذي غلبوا فيه . وصاغرين حال ، ومثلها
ساجدين . ورب موسى وهرون بدل من رب العالمين . وما تنقم (ما) للاستفهام
مع الإنكار ، وعملها الرفع بالابتداء ، وجملة تنقم خبر ، والمصدر المنسبك من
ان آمننا مفعول تنقم أي لا تنقم منا إلا الإيمان .

المعنى :

(وجاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لأجراً ان كنا نحن الغالبين ، قال نعم
وإنكم لمن المقربين) . ان هؤلاء السحرة الذين ساوموا فرعون ضد موسى (ع)
كانوا يمثلون الدين في عصرهم .. ولهم أشباه ونظائر في كل عصر ، يساومون
على دينهم وضربهم كل من يدفع الثمن .. ففي عصرنا هذا اشترى الصهاينة
والمستعمرون الكثير من أرباب القلائس والعائم ، ودفعوا لهم الثمن ، فقبضوا
وتطوعوا يناصرون الاستعمار والاستغلال بالتمويه والتضليل ، وألقوا لهذه الغاية

سورة الأعراف

الهيئات والجمعيات باسم الدين والمبادئ ، ولكن سرعان ما افتضحوا ، وصاروا سبة على لسان كل واعٍ مخلص .

(قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين) . خيروه بين أن يبدأ ، أو يبدأوا ثقة منهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة ، وعدم ميالهم بموسى (ع) . وغريب قول الرازي : ان السحرة خيروا موسى تأدياً واحتراماً . (قال - موسى - ألقوا) مستخفياً بهم وبسحرهم (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) . ونسبة السحر إلى الأعين دليل على ان سحرهم لا واقع له ، وإنما هو مجرد تمويه وتضليل ، واسترهبوهم أي ان السحرة خوفوا وأرهبوا النظارة ، وجاءوا بسحر عظيم في التميويه والتضليل ، لا في الحقيقة والواقع .

(وأوحينا إلى موسى ان ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) . خاف موسى أن يفتر الجاهلون بتمويه السحرة وتضليلهم ، فشد الله من عزمه ، وأوحى إليه انه معه ، وأن ما جاء به السحرة ليس بشيء ، وإنما هو افتعال وتزوير . وأمره أن يلقي العصا ، ولما ألقاها ابتلعت ما زوروا ، وأبطلت ما افتعلوا ، وظهر الحق عياناً للجميع . وذهل فرعون من هول الصدمة .. انه حشد الجماهير ، وأتى بالسحرة من كل مكان ليدعم بهم عرشه وسلطانه ، ويثبت للناس كذب موسى وافتراءه .. وإذا بالآية تنعكس رأساً على عقب ، ويؤمن الجميع بما فيهم السحرة بصدق موسى وأمانته ، وكذب فرعون وخيائته (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) . بعد ذاك الزهو ، وتلك الكبرياء ، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لمان الخطب على فرعون بعض الشيء ولكنه فوجيء بما هو أدهى وأمر (وألقي السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون) . هؤلاء هم السحرة الذين تحدى بهم فرعون موسى وهرون يستسلمون طائعين ، ويسجدون لرب العالمين رب موسى وهرون ، لا لفرعون الذي جاء بهم لإبطال دعوة الله والحق .

وتسأل : ما هو القصد من قول السحرة : رب موسى وهرون ، مع العلم بأن قولهم : آمنا برب العالمين يعني عنه ؟ .

الجواب : ان فرعون كان يقول للناس : أنا ربكم الأعلى .. ما علمت

الجزء التاسع

لكم من إله غيري ، . ولو اكتفى السحرة بقولهم : رب العالمين لدلّس فرعون وحرف ، وقال : اباي يعنون برب العالمين ، فقطعوا الطريق على تدليسه وتحريفه بقولهم : رب موسى وهرون .

حول السحر :

في المجلد الأول ص ١٦٤ تكلمنا عن السحر بعنوان « السحر وحكمه » ، وقلنا فيها قلنا : نحن مع الذين لا يرون للسحر واقعاً ، وأقنا الدليل على ذلك ، ونعطف الآن على ما سبق ما يلي :

ان قوله تعالى : سحروا أعين الناس دليل واضح ان السحر لا واقع له ، وانه شعوذة وتعميه ، أما قوله سبحانه : وجاءوا بسحر عظيم فعناه ان ما جاءوا به عظيم في ظاهره ، وفي أعين الناس ، وانهم قد بلغوا النهاية في الشعوذة والتزوير ، وبوضح هذا المعنى ويؤكد الآيه ٦٦ من سورة طه : « فاذا جالهم وعصيم يخيل اليه من سحرم انها تسعى » . انها لا تسعى حقيقة وواقعاً ، بل توهماً وتخيلاً .. وعن الرسول الأعظم (ص) : « من مشى الى ساحر أو كاهن أو كذاب بصدقه فقد كفر بما أنزل الله » .

وقال كثير من المفسرين : ان سحرة فرعون احتالوا لتحريك الحبال والعصي بما جعلوا فيها من الزئبق حتى تتحرك بحرارة الشمس .. وأياً كان السبب فنحن نؤمن ايماناً لا بشوبه ريب بأن الساحر كذاب لا بصدقه إلا مغفل ، وان ما أنى به سحرة فرعون ، ويأتي به الهنود وغير الهنود من الأعمال المدهشة لها سبب من غير شك ، ونحن وان كنا نجهل نوع هذا السبب فانا نعلم علم اليقين بأنه لا يغير الواقع ، ولا يبدل منه شيئاً ، والا استطاع الساحر أن يدفع عن نفسه الضر ، ويملك لها النفع ، ويحكم العالم بأسره بمجرد ارادته وتمناته ، وكان شريكاً لله في ملكه تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

(قال فرعون آمنتم به قبل ان آذن لكم) . أرايت الى هذا المنطق ؟ انه يريدهم أن يستأذنه في شؤون قلوبهم من الإيمان والحب والبغض .. ولا انسان

سورة الأعراف

في الكون له سلطان على قلبه ، ولكنه منطق الطغاة (ان هذا لمكر مكرّمعه في المدينة لنخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) . يوجه فرعون بقوله هذا التهمة إلى السحرة بأن إيمانهم بموسى لم يكن عن حجة واقتناع ، وإنما هو مجرد حيلة وخديعة تواطأوا عليها مع موسى من قبل ، وان الغاية من هذا التواطؤ اخراج الحاكمين من مصر وانتزاع الملك منهم .. قال هذا فرعون ، وهو يعلم انه كاذب في قوله ، ولكن أراد التمويه على الناس خوفاً أن ينتفضوا عليه، ويؤمنوا بموسى ، ولكن الناس يعلمون ان السحرة كانوا يؤهلون فرعون ، ويمكنونه من رقاب العباد باسم الدين ، وان السحرة لم يؤمنوا الا عن بصيرة واقتناع ، وأيضاً يعلم الناس ان موسى لم يجتمع بواحد من السحرة ، لأن فرعون جمعهم من هنا وهناك .

(لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين) . هذا هو سلاح الطغاة في مواجهة الحق ، قال المسعودي في مروج الذهب : جمع معاوية الناس في سنة ٥٩ هـ ليأبىوا ولده يزيد ، فقام رجل من الأزدي خطيباً ، وقال : ان مات هذا - مشيراً الى معاوية - فهذا مشيراً الى يزيد ، ومن أبى فهذا ، وهز السيف . فقال له معاوية : اقعد أنت من أخطب الناس .

(قالوا إنا إلى ربنا منقلبون) . افعل ما شئت فلا نأبه بك ولا بقتلك فنحن على يقين من لقاء ربنا وعدله .. وكل من يؤمن بلقاء الله يقف هذا الموقف ، بل يرى الاستشهاد سعادة ووسيلة لمرضاة الله وثوابه ، أما الذين يخافون الموت في سبيل الله ، ويتهربون منه فهم يؤمنون بلقاء الله نظرياً فقط ، أما عملياً فانهم به كافرون .

(وما تنقم منا الا ان آمنّا بآيات ربنا لما جاءتنا) . ان قولهم هذا يتضمن التهديد لفرعون ، لأن معناه انك لا تنقم منا نحن ، وإنما أنت تنقم من الله ورسوله بالذات ، لأنه لا ذنب لنا إلا الإيمان بالله ورسوله موسى : « ألم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم - ٦٤ التوبة » .

(ربنا افرغ علينا صبراً) . في هذا الموقف يحمّد الصبر على القتل والتعذيب

لأنه في سبيل الله ، وقد سألوا الله سبحانه ان يرزقهم هذه الفضيلة خوفاً أن تنهار أعصابهم ، وتلاشى عزائمهم ان أحسوا بوقع السيف في أجسادهم .
(وتوفنا مسلمين) لك ولنبيك راضين بالتعذيب والتشكيل في سبيلك .

الذر موسى وقومه الآية ١٢٧ - ١٢٩ :

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَيَذَرُكَ وَأَهْلَكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ
قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ
يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ
أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ
وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ *

المعنى :

(وقال الملأ من قوم فرعون أذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض) . بعد ان انفض ذلك المشهد الرهيب الذي انتصر فيه موسى ، وافتضح فرعون مضى موسى يدعو إلى عبادة الله وحده ، ودليله ما حدث بالأمس بينه وبين السحرة ، فاجتمع حوله خلق كبير ، فخاف الأشراف من قوم فرعون أن تتغير الأوضاع ، وتدور الدائرة عليهم وعلى سيدهم فحرضوه على موسى ، وقالوا : إلى متى تسكت عن موسى ، وتدعه يُفسد في الأرض ؟ . وهم يريدون بالإفساد في الأرض عبادة الناس لله وحده التي تودي بطغيانهم وطفيان فرعون .

سورة الأعراف

(ويلذك وآلهتك) . ان هذا القول من الملائكة لفرعون يدل على انه كان له آلهة يعبدها، وهو يتنافى بظاهره مع قول فرعون : ما علمت لكم من إله غيري.. أنا ربكم الأعلى ، وأجاب المفسرون بأجوبة أرجحها انه كان لفرعون آلهة يزعم انه الابن الحبيب لها ، وانه يستمد منها حكمه وسلطانه، فقلوه : ما علمت لكم إلهاً غيري يريد به انه لا حاكم للمصريين باسم الإله والرب إلا هو وحده لا شريك له ، ويؤيد هذا المعنى قوله : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي - ٥١ الزخرف » .

(قال سقتل أبناءهم ونستحي نساءهم) . كان فرعون قبل ولادة موسى يقتل الذكور من نسل بني اسرائيل ، ويستحيي الأناث ، ولما حرضه الأشراف من قومه على موسى أجابهم بأنه سيعبد فيهم سيرته الأولى من قتل الأبناء واستبقاء النساء ، حتى ينقضوا (واناً فوقهم قاهرون) . أي انه قادر عليهم الآن كما كان قادراً عليهم من قبل موسى .

(قال موسى لقومه استمعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) . لما سمع بنو اسرائيل تهديد فرعون ووعيده جزعوا فسكنهم موسى (ع) ، وأمرهم بالصبر والتوكل على الله ، ومناهم بالنصر إذا هم صبروا واتقوا ، لأن الأرض والملك لله لا لفرعون ، والله مع المتقين .

(قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) . كان فرعون يضطهد بني اسرائيل قبل مجيء موسى ، وأوغل في اضطهادهم بعد مجيئه ، ولما قالوا لـ (لموسى) قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تكون) . ان موسى على علم اليقين انه سيهلك فرعون ، وانه سيمن على بني اسرائيل بالنجاة منه ، ويمكن لهم في الأرض ، وعبر عن ذلك بالرجاء دون الجزم لثلا يتكلموا على وعده .. ثم أوما موسى (ع) إلى قومه انه ليس المهم أن يهلك الله عدوهم ويستخلفهم في الأرض ، وانما المهم أن يتقوا الله ، ويحسنوا خلافته في أرضه ، فينظر أيضا هلحون أم يفسدون ؟.. وقد عملوا الكثير في الأرض، حيث قتلوا الأنبياء والمصلحين من قبل ، وأقاموا دولة من بعد. لا شريعة لها إلا شهوة القتل والتشريد .

الجزء التاسع

في هذه السنة ١٩٦٨ صدر كتاب في اسرائيل ، اسمه « سياخ لوناخيم » أي أحاديث الجنود ، ترجمت جريدة الأهرام بعض ما جاء فيه في عدد ٦٨/٢٣ ، من ذلك :

« من لا يستطيع أن لا يقتل أو لا يدمر بيتاً وينسفه على من فيه فالأفضل له أن يقعد في بيته ، ان الحركة الصهيونية تقوم على هذا الأساس ، عندما جئنا إلى أرض فلسطين كان هناك شعب آخر يسكنها ويعيش فيها ، ولم يكن لنا أن نتوقع انه سوف يترك مزارعه وبيوته لنا بالرضى والقبول ، فكان لا بد أن نقتلهم لنأخذ البيت والمزرعة ، أو نخيفهم بالقتل لكي يهربوا ، ويتركوا لنا البيت والمزرعة . »

هذه هي شريعة اسرائيل ، وهذا هو هدفها : القتل والتشريد .. انها ليست مجرد دولة كغيرها من الدول ، وانما هي عصابة مسلحة صهيونية استعمارية تهدف إلى قتل أو تشريد أصحاب البيوت والمزارع من النبل إلى القفرات لتحتل بيوتهم ومزارعهم .. فإذا أعد لها العرب ٢٠٠ لا وسيلة ولا حل إلا المبدأ الفيتنامي القاتل: اما الموت ، واما الحياة ، اما لا اسرائيل تقتل وتشرد ، واما لا حرب اطلاقاً على سبيل ممانعة الجمع .

ولقد أخذنا آل فرعون الآية ١٣٠ - ١٣٣ :

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ*
فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى
وَمَنْ مَعَهُ أَلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ*
وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ*

سورة الأعراف

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالنَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ *

اللغة :

الأخذ هو التناول باليد ، والمراد به هنا الابتلاء . والسنة تطلق على الحول ، وتطلق على الجذب ، يقال : أسنت القوم إذا أجدبوا ، وهذا المعنى هو المراد في الآية . والتطير التشاؤم . والمراد بطائرهم نصيبهم الذي قدر لهم .

الأعراب :

يطيروا أصلها يطيطروا فادغمت التاء بالطاء ، وبه عائد إلى مها . ومؤمنين الباء زائدة ، ومؤمنون خبر لنحن . وآيات حال من الأشياء المذكورة .

المعنى :

(ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) . كانت مصر تفيض بالغصب والعطاء ، وقد فاخر فرعون بخصبها هذا ، حيث قال : « وهذه الأنهار تجري من تحتي » . وقال المنجي عن ثعالبها : « فقد بضمن وما تفنى العناقيد » . وأخذها الله بالجذب وضيق العيش على عهد فرعون موسى ليرعوي عن غيه ، ويستجيب لدعوة الحق .. وفي بعض الروايات إذا جار الولاة حبس المطر . وسواء أكان هناك علاقة بين ظلم الوالي والجذب على وجه العموم أم لم يكن ، فإن الله عاقب آل فرعون لظلمهم لعلهم يذكرون قبل أن يقذف بهم في أعماق اليم .

(فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن نصيبهم سيئة يطيطروا بموسى ومن

الجزء التاسع

معه) . بهذا المنطق يفسرون الأحداث .. كل ما أصابهم من خير فهم مستحقون له ، لأنهم يتحكمون في رقاب العباد ، وكل ما أصابهم من سوء فسيبه من يدعوهم الى الحق . أما الله والطبيعة التي خلقها الله فبمعزل عن الحصب والجذب ، فرد الله عليهم بقوله : (الا انما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون) . طائرهم كناية عما أصابهم من الجذب ، وانه بارادة الله التي تنتهي اليها جميع الأسباب ، وان تطيرهم بموسى خرافة وجهل .

وتسأل : لماذا قال الحسنة بالتعريف وقال سيئة بالتكبير ؟ .

الجواب : غير بعيد أن يكون تعريف الحسنة اشارة الى أن خير الطبيعة كالخصب ونحوه كثير ، وان تكبير السيئة اشارة الى ان شرها كالزلازل والطوفان قليل . (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فإنا نكذبك بآياتنا) . هذا اعتراف صريح بأنهم يرفضون الحق ، وفي الوقت نفسه اعتراف بالعجز عن مواجهته بالحجة والبرهان .. فكان جزاء عنادهم هذا ان ابتلاهم الله بنجمة أنواع من العذاب :

١ - (فأرسلنا عليهم الطوفان) من مطر السماء ، فأغرق الزرع وأهلك الضرع .

٢ - (والجراد) جاء بعد الطوفان بطبيعة الحمال ، وأكل البقية الباقية من كلأهم وزرعهم .

٣ - (والقمل) بضم القاف وتشديد الميم دواب صفار كالقردان تركب البعير الغزير ، ويفتح القاف وتخفيف الميم القمل المعروف ، وكلامها يتزل البلاء ، وينشر الوباء .

٤ - (والضفادع) تنغص عليهم الحياة .

٥ - (والدم) . قيل : نحول ماؤهم الى دم ، ولم يقدرُوا على الماء العذب ، وقيل : أصيبوا بمعرض الرعاف .

سورة الأعراف

ولما وقع عليهم الرجز الآية ١٣٤ - ١٣٧ :

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ *
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُيُوبِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ *
فَاَتَتْهُمْ مِّنْهُمْ فَأَعْرِفْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا
غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ
وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ
بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ .

الآية :

الرجز الانحراف عن الحق ، ومنه والرجز فاهجر . ونكث العهد نقضه .
واليم البحر . يعرشون ان أخذ من العرش فعناه البناء ، وان أخذ من العرش
فعناه الكروم .

الإعراب :

إذا هم (إذا) للمفاجأة . وأورثنا يتعدى الى مفعولين لمكان الهزمة ، الأول
القوم ، والثاني مشارق الأرض . وما كان يصنع (ما) بمعنى الذي ، واسم
كان ضمير مستتر يعود الى ما .

المعنى :

ذكر سبحانه في الآية السابقة انه ابتلى آل فرعون بخمسة أنواع من العذاب ، وكانوا كلما نزل بهم نوع منه يتوسلون بموسى في الكشف عنهم لكرامته عند الله ، ويقطعون العهود على أنفسهم انه إذا فعل استجابوا لدعوة الحق ، وكان سبحانه يكشف العذاب عنهم إلى أجل معلوم ليمهد لهم سبيل التوبة ، ويقم عليهم الحجة ، ولكنهم كانوا ينكثون العهد ولا يفون بما يقولون ، فینزل الله العذاب الثاني ، فيعودون إلى التضرع والتوسل ، ويعود سبحانه إلى الكشف عنهم ، وهكذا إلى العذاب الخامس ، أو التجربة الخامسة ، ولا شيء بعدها إلا الأخذ الخامس ، فانقم الله منهم ، وألقاهم في أعماق البحر .

وبعد أمد طويل من اغراق فرعون ، ووفاة موسى وهرون خرج من بني إسرائيل داود وسليمان (ع) ، وأوجدا دولة لها حدودها شرقاً وغرباً .. ولكن سرعان ما ذهبت ، وحكم رقاب الإسرائيليين بختصر ، ثم الفرس ، ثم خلفاء الإسكندر ، ثم الرومان .

وجاوزنا بني إسرائيل البحر الآية ١٣٨ - ١٤١ :

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَبِرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَخْبَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ *

سورة الأعراف

اللغة :

تجاوز الشيء تعداه . وعكف عليه واطب عليه ولزمه . والتبار والتبر
الهلاك ، والتببر الاهلاك والتدمير .

الإعراب :

قال الرغشري والبيضاوي : ان ما في (كما لهم) كافة للكاف عن العمل .
وما هم فيه (ما) بمعنى الذي فاعل متبر ، وهم فيه مبتدأ وخبر ، والجملة
صلة الموصول . وما كانوا يفعلون (ما) فاعل لباطل . وابغي تتعدى إلى مفعولين
الأول ضمير المخاطبين (كم) والثاني إلهاً ، وغير الله حال مقدم من إله .

المعنى :

(وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا
يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون) . جاء في بعض
الروايات ان موسى بقي ثلاثة وعشرين عاماً يجاهد فرعون من أجل كلمة التوحيد
وتحرير بني إسرائيل من الاضطهاد ، وقد شاهدوا المعجزات الباهرة التي ظهرت
على يد موسى ، وأخيراً رأوا انفلاق البحر بضربة من عصا موسى ، وكيف
جعل منه اثني عشر طريقاً يبدأ لكل سبط من بني إسرائيل طريق معلوم، وأيضاً
رأوا كيف انطبق البحر على فرعون وجنوده ، شاهدوا ذلك كله ، وقبل أن
تمضي فترة ينسون فيها ما رأوه من المعجزات وقعت أبصارهم على قوم وثنيين
يعبدون الأصنام ، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه ، طلبوا هذا ،
وهم يعلمون ان موسى رسول الله ، وان مهمته الأولى الدعوة الى التوحيد ،
ومحاربة الشرك ، ويعلمون أيضاً ان الله أغسرق فرعون وجنوده لشركه ، قال
بعض المفسرين : لو انهم بأنفسهم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن
يطلبوا إلى رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة ، ولكننا هي إسرائيل .

الجزء التاسع

(ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) . بدأ موسى (ع) جوابه لقومه بأنهم من أهل الحماقة والجهالة ، وثنى بإخبارهم ان نهاية المشركين وعبرة الأوثان إلى الخسران والهلاك .

(قال أغير الله أبنيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين) . مر تفسيره في الآية ٤٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٥ . وعلى أية حال ، فإن تفضيلهم على فرعون وقومه لا يعد منقبة وفضيلة .

(وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسمونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) . تقدم نظيره في الآية ٤٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٩ .

وواعدنا موسى ثلاثين ليلة الآية ١٤٢ - ١٤٥ :

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَمَتَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً

سورة الأعراف

وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذْنَاهَا بِقُوَّةٍ وَأَمْرٍ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأَرِيكُمْ
دَارَ الْفَاسِقِينَ *

اللمعة :

الميقات الوقت المعين الذي يُقرر فيه عمل من الأعمال . واخلفني أي كن
خليفة من بعدي . وتجلي الشيء ظهوره بنفسه أو بآثاره ودلالته . وخر سقط .
وصعقاً : مغشياً عليه .

الإهراء :

ثلاثين ليلة مفعول ثانٍ لواعدنا على حذف مضاف أي تمام ثلاثين . وأربعين
ليلة متعلق بمحذوف حالاً من ميقات ، أي كاملاً أربعين ليلة . وهرون بدل
من أخيه . ودكاً مفعول ثانٍ لجعله . وصعقاً حال من موسى . وموعظة وتفصيلاً
بدل من كل شيء على المحل ، لأن كل شيء مفعول أو بمعنى المفعول لكثرتنا ،
ولأن المراد بكل شيء عموم الموعظة وتفصيل الأحكام .

المعنى :

(وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممتها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) .
طلب موسى (ع) من ربه أن ينزل عليه كتاباً يهدي الناس به الى ما يحتاجون
اليه من أمور دينهم ، فوعده سبحانه أن ينزل عليه الكتاب بعد ثلاثين ليلة ،
ويستمر إنزاله عشر ليال ، فيكون المجموع من أمد الوعد وأمد الانزال أربعين
ليلة ، فصلها هنا ، وأجملها في الآية ٥١ من سورة البقرة ، حيث قال : «وإذ
واعدنا موسى أربعين ليلة » .

الجزء التاسع

(وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) . لما ذهب موسى (ع) استخلف أخاه هرون على بني إسرائيل ، ونصحته أن يقوم على شؤونهم ويصلح أمورهم ، وحلوه من طبيعتهم التي هي إلى الفساد أميل ، فبالأمس القريب اشربت نفوسهم إلى عبادة الأوثان ، وقال لهم موسى : انكم قوم تجهلون كما سبق في الآية ١٣٨ . فتقبل هرون النصيحة عن طيب خاطر ، كما يتقبلها المرؤوس المخلص من رئيسه الناصح الأمين .

(ولما جاء موسى لميقاتنا) الذي وقته سبحانه لاعطاء التوراة (وكلمه ربه) من وراء حجاب : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » - ٥١ الشورى ، (قال ربي أرني أنظر اليك) . قال بعض العلماء : ان موسى لم يسأل رؤية الله من أجل نفسه ، وإنما سألها من أجل قومه . وهذا القول يتنافى مع قول موسى : (سبحانهك تبت اليك) . ومهما يكن ، فان موسى قد طلب الرؤية ، سواء أكان من أجله أم من أجلهم .. ونحن لا نرى أي بأس في هذا الطلب ، فان نفس الانسان تتشوف إلى ما يكون وإلى ما لا يكون ، بخاصة إلى الرؤية التي تزيد النفس اطمئنناً وتأكيداً ، وقد طلب ابراهيم (ع) ما يشبه ذلك : « وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » - ٢٦٠ البقرة .

(قال لن تراني) . لأن رؤية الله بالبصر محال ، وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٥١ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٢ فقرة « رؤية الله » (ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني) . تلفت موسى إلى الجبل ليرى الله فإذا به قد غار في الأرض ، ولم يبق له عين ولا أثر . وقد أراد الله بهذا أن يُفهم موسى (ع) ان رؤية الله متمتعة عليه وعلى غيره .. خلق سبحانه امكان رؤيته على استقرار الجبل ، والمفروض انه لم يستقر ، اذن ، فالرؤية متمتعة وغير ممكنة .. وهذا الأسلوب من باب افعال هذا إذا شاب الغراب ، وإذا دخل الجمل في سم الخياط .

(فلما تجمل ربه للجبل جعله دكاً) . أي فلما ظهر أمر ربه ، تماماً كقوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » أي جاء أمر ربك (وخسر موسى صفاً) . غاب عن وعيه لهول المفاجأة ، فلطف الله به وشمله برحمته ، فأفاق

سورة الاعراف

من غشبه (فلما أفاق قال سبحانه ثبت البك) من سؤالي رؤيتك (وأنا أول المؤمنين) بأنك أعظم من أن ترى بالعيان. وليس المراد انه أول المسلمين بحسب الزمان ، وإنما المراد الثبات والتأكيد على الإسلام .

(قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) . بعد أن تضرع موسى (ع) إلى خالقه ذكره الله بنعمه وأعظمها النبوة والتكليم ، والمراد بالناس ناس زمانه بدليل قوله : (برسالاتي) فان الله قد اختار رسلاً كثيرين قبل موسى وبعده ، أما تخصيصه بالتكليم فلا دلالة فيه على الأفضلية ، وان دل على الفضل ، فان ارسال الروح الأمين الى خاتم الرسل وسيد النبيين هو أعلى المراتب وأفضلها على الإطلاق .

(وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء) . المراد بالألواح التوراة لأنها هي التي أنزلها على موسى ، وفيها الموعظة وتفصيل الأحكام . وكل شيء لفظ عام ، والمراد به خاص ، وهو ما يتعلق بموضوع الرسالة من المواعظ والحكم ، وأصول العقيدة كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والأحكام الشرعية كالاحلال والحرام ، فقلوه : (موعظة وتفصيلاً) هو بيان وتفسير لقلوه : (من كل شيء) لأن المراد بالتفصيل بيان الأحكام الشرعية . (فخذها بقوة) أي حافظ على التوراة ، واعمل بها بنية صادقة .

(وأمر قومك ياخذوا بأحسنها) . كل ما أنزل الله في كتابه فهو حسن ، ولكن منه الأحسن ، قال تعالى : « فن إعتدى عليكم - ثم قال - واحسنوا ان الله يحب المحسنين - ١٩٤ البقرة » . وقال : « والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له - ٤٥ المائدة » . أي من تصدق بالقصاص .

(سأريكم دار الفاسقين) . أي على الفاسق والباغي تدور الدوائر . هذا ما فهمته من هذه الجملة قبل أن أرجع الى التفسير ، وبعد الرجوع اليها وجدت أقوالاً في تفسيرها ، ومنها ان الله سيربهم دار فرعون وقومه بعد اهلاكهم . ومنها انه سيربهم أرض الشام التي كانت في ذاك الزمان بقبضة الوثنيين .

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا
كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ
يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا
غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ
يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ
حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ
ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *

الآفة :

كل من لا يخضع للحق فقد تكبر عليه . والحلي بضم الحاء وتشديد الباء جمع
حل بفتح الحاء وتخفيف اللام . والحوار صوت البقر . وسقط وأسقط في يده
كناية عن الندم .

الإعرا ب :

جسداً صفة لعجل ، أي مجسداً ، وليس رسماً بالألوان ، وقيل : بدل منه ،
والمعنى واحد .

المعنى :

(سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) . المتكبرون في الأرض هم الذين يعاندون الحق، ولا يخضعون لسلطانه ، وقوله: (بغير الحق) للتوضيح ، لا للاحتراز تماماً مثل (ويقتلون النبيين بغير الحق) . أما آيات الله فيطلقها القرآن تارة على الآيات المبينة لأصول العقيدة وأحكام الشريعة ونحوها ، وتطلق تارة على الحجج والدلائل المثبتة للألوهية والنبوة ، فإن تكن الأولى هي القصد في الآية التي نفسرها فالمعنى ان الله سبحانه يحفظها ويصونها من يد التحريف ، تماماً كقوله : « انا نحن نزلنا الذكر واننا له لحافظون - ٩ الحجره .

وان تكن الثانية أي الدلائل والبيئات فالمعنى ان المعاندين بعد أن أعرضوا عنها ورفضوا الإصغاء اليها فإن الله سبحانه يدعهم وشأنهم ، ولا يلجئهم إلى الإيمان بها إلجاءً ، وتقدم الكلام عن ذلك مرات ، منها عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٩٩ فقرة الاضلال من الله سلمي لا إيجابي .

(وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وأن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً) وان يروا سبيل الذي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين). هذا بيان لحقيقة المتكبرين ، والسبب الموجب لتكبرهم أيضاً ، أما حقيقتهم فهي أنهم لا يرتدعون عن غي ، ولا يميلون إلى رشداً ، أما السبب الموجب فهو ان الله سبحانه قد جاءهم بالحجج والبراهين ، وطلب اليهم أن ينظروا اليها ويتدبروها ويعملوا بموجبها، فرفضوا وأصرروا على الاعراض وعدم النظر .. ولو أنهم استجابوا ودرسوا تلك الدلائل لأدى بهم الدرس والنظر الى الإيمان والاعتراف بالحق ، ولم يتكبروا وبفسدوا في الأرض .

(والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) . كل من لا يؤمن بالله ولقاء ربه فهو من المالكين غداً ، ويذهب ما كان يفاخر به ويكاثر سدى وهباء جزاءً على كفره وعناده .. وأعجبنى ما قاله هنا بعض المفسرين غفر الله له ، وشمله برحمته ، ولذا أنقله بالحرف، قال : « حيوط الأعمال مأخوذ من قولهم : حبطت الناقة إذا رعت نباتاً ساماً ،

فانتفخ بطنها ثم نفقت، وهو وصف ملحوظ في طبيعة الباطل يصدر من المكذبين بآيات الله ولقاء الآخرة ، فالمكذب ينتفخ حتى يظنه الناس من عظمة وقوة ، ثم ينفخ كما تنفخ الناقة التي رعت ذلك النبات السام .

(واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً له خوار) . تقدم في الآية ١٤٢ ان موسى (ع) ذهب لميقات ربه ، وانه استخلف على قومه أخاه هرون ، وأيضاً تقدم في الآية ١٣٨ أن بني إسرائيل بعد أن تجاوزوا البحر طلبوا من موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه ، لا لشيء إلا لأنهم رأوا عبدة الأصنام ، وما أن غاب موسى حتى اغتنموا فرصة غيابه ، فجمع السامري حلي النساء ، وصنع منها عجلًا ، وجعله على هيئة بحيث يخرج منه صوت الثيران ، وقال لهم : هذا إلهكم وإله موسى ، فتهافتوا على عبادته ، ونهاهم هرون ، ولكنه لم يملك ردهم عن الضلال ، ولم يستجب له إلا قليل منهم . وتقدمت الإشارة إلى ذلك في الآية ٥١ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٢ . وأيضاً يأتي الكلام عنه . وهذه الآية تعزز ما كررناه في المجلد الأول والثاني من ان اسرائيل لا تثبت إلا على مبدأ الشهوات والأهواء ، ان صح ان تكون الأهواء مبدأ .

(ألم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين) . هذا هو منطق الفطرة والعقل الذي يأبى أن يعبد الإنسان إلهاً من صنع يده . ولكن ما لاسرائيل والعقل والفطرة والدين ؟ .

(ولما سقط في أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لنن لم يرحنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) . هذه هي النقطة الوحيدة والأولى والأخيرة التي سجلها القرآن لاسرائيل من حيث هي وعلى وجه العموم ، وبصرف النظر عن القلة القليلة التي آمنت منهم بموسى وثبتت معه حتى النهاية .. وقد استظهر بعض المفسرين من توبة بني اسرائيل انه كان فيهم آنذاك بقية من الاستعداد للصالح ، ثم ذهبت هذه البقية ، ولم يبق أي أثر فيهم للاستعداد إلى الخير . وهذا الاستظهار غير بعيد ، وتوهم اليه الآية ٧٤ من سورة البقرة : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة » وهذه الآية بالذات نزلت بعد قصة ذبح البقرة ، وهذا الذبح متأخر عن عبادتهم العجل .

ولما رجع موسى الى قومه الآية ١٥٠ - ١٥٤ :

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي
أَعِجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ
ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ
وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي وَأَدْخِلْنَا
فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ
غَضَبُ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ *
وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي
نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ *

اللغة :

ثاني أسف بمعنى غضب ، ومنه قوله تعالى : « فلما آسفونا انتقمنا منهم » .
وثاني بمعنى حزن ، ومنه « وقال يا أسفا على يوسف » وهذا هو المراد من
الآية . والشامة الفرح بالمصيبة ، ولا تكون إلا من العدو . وفي نسخها أي ما
نسخ وكتب منها .

الإعراب :

غضبنا حال من موسى ، وأسفا حال ثانية . ابن أم قرىء بفتح الميم على

الجزء التاسع

أن تكون ام وابن بمتزلة خمسة عشر ، وقرىء بكسر الميم ، والكسرة تدل على الياء المحذوفة لأن الأصل يا ابن امي . والذين عملوا السيئات مبتدأ ، والخبر جملة ان ربك من بعدها لغفور رحيم . واللام في لرهم تقوية لوصول الفعل إلى مفعوله ، مثل للرؤيا تعبرون .

المغنى :

(ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً) . حين كان موسى على الطور يتناجي ربه أخبره المولى جل ثناؤه بأن قومه قد عبدوا العجل من بعده ، كما دلت الآية ٨٧ من طه : « قال فلأنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً » .. وظهر هذا الغضب بقوله : (بشما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم) . تركهم على التوحيد ، ولما عاد وجدهم على الشرك .. أما أمر ربهم الذي لم يصبروا له فهو انتظار موسى أربعين ليلة ، ويدل هذا على قول موسى لهم كما في سورة طه : « أنظال عليكم العهد » ؟

وكما بدا غضبه في قوله فقد بدا أيضاً في فعله (وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) . قال جماعة من العلماء : ألقى موسى التوراة ، وفيها اسم الله ، وأخذ برأس أخيه هرون ، وهو العبد الصالح الطيب ، وموسى معصوم فكيف حدث منه ذلك ؟ .. وبعد هذا التساؤل أخلوا يؤولون ويعللون .

أما نحن فلا نؤول ولا نعلل ، بل نُبقي الكلام على ظاهره ، لأن العصمة لا تحوّل الانسان عن طبيعته ، وتجعله حقيقة أخرى ، ولا تسلبه صفة الرضا والغضب ، بخاصة إذا كان لله ، وبصورة أخص إذا فوجيء بما فوجيء به موسى (ع) ، فلقد لبث في قومه عمراً يلقنهم التوحيد ، ويؤدبهم على دين الله ، حتى إذا اطمأن إلى إيمانهم جابهوه بالردة والشرك ، دون أي سبب موجب .

وقال آخرون : ان موسى كان حديداً ، أما هرون فكان ليناً .. ونقول : ان موسى كان شديد العزيمة ، قوي الارادة ، عظيم الثقة بنفسه ، وكان هرون دونه بمراحل ، على صلاحه وفلاحه (قال ابن امّ أن القوم استضعفوني وكادوا

سورة الاعراف

يقتلونني فلا تمشيت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين) . يرشد بالأعداء الذين عبدوا العجل ، لأنهم اتخذوا هرون عدواً ، وأرادوا قتله حين نهاهم عن الشرك وعبادة العجل ، فكأنه يقول لأخيه موسى : أتكون عليّ مع أعدائي وأعدائك ، فتأخذ برأسي ولحيتي أمامهم ليشتموا بي ؟ . وكيف تغضب مني كغضبك منهم ، وأنا بريء منهم ومن أفعالهم ، ووقفت منهم موقف المعارض والمفتد ، ولم أقصّر بما وجب عليّ من النصح والتحذير .

وهنا يلين موسى (ع) ، وتأخذه عاطفة الرحمة والأخوة (قال رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) . استغفر لنفسه لما كان من قسوته مع أخيه ، واستغفر لأخيه غفافة تقصيره في هدايتهم وردعهم عن الشرك والارتداد.. وليس من شك ان الله قد استجاب لدعوة موسى (ع) لأنه أرحم الراحمين ، ولعلمه باخلاص موسى وهرون .

(ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين) . ونسأل : تدل هذه الآية بظاهرها على ان الذين اتخذوا العجل قد غضب الله عليهم ، وأظلم في الحياة الدنيا الى يوم يبعثون ، مع العلم بأنهم تابوا واستغفروا الله وسألوه الرحمة كما نصت الآية السابقة ١٤٩ . والله سبحانه هو القائل : ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم - ١١٩ النحل . اذن كيف لزم الغضب الأبدي واللعنة الدائمة من تاب عن عبادة العجل ؟ .

وأجاب البعض بأن الذين عبدوا العجل انقسموا بعد رجوع موسى اليهم إلى فرقتين : فرقة تابت توبة صحيحة ، وهؤلاء قد غفر الله لهم . وفرقة أصرت واستمرت على الشرك كالسامري وأشباعه ، وهؤلاء هم الذين غضب الله عليهم وأظلم في الحياة الدنيا .

ويلاحظ بأنه لا شيء في الآية يدل على هذا التقسيم .. وأنسب الأجوبة ان الله قد علم ان اليهود لا يتوبون ولن يتوبوا أبداً عن الضلال واتباع الشهوات توبة خالصة ، لا ردة بعدها ، ويدل على هذه الحقيقة طبيعتهم ومسيرتهم ، فأنهم كانوا وما زالوا لا يزدجرون من الله والضمير بزاجر ، ولا يرتدعون عن الضلال والفساد برادع إلا القوة وحدها .

الجزء التاسع

سؤال ثانٍ : ان ليهود اليوم دولة باسم اسرائيل .. وبها زالت عنهم الذلة في الحياة الدنيا ، وهذا يتنافى مع ظاهر الآية ؟.

الجواب : كلا ، وألف كلا ، ما قامت ولن تقوم أبداً دولة اليهود ، تماماً كما سجل الله في كتابه الحكيم .. أما اسرائيل فليست دولة كثيرها من الدول ، وإنما هي عصاة مسلحة ، تماماً كجيش المرتزقة .. أوجدها الاستعمار لحماية مصالحه وضرب القوى الوطنية ، وليس لها من الدولة إلا الاسم ، وقد أثبتنا ذلك عند تفسير الآية ١٠٩ من آل عمران ، وغيرها في المجلد الأول والثاني من هذا التفسير ، وفي كتاب « من هنا وهناك » فصل : باع دينه للشيطان ، وغيره من الفصول .

(والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) . معنى الآية واضح ، وتقدم نظيرها أكثر من مرة ، والقصد من ذكرها بعد الآية السابقة هو التأكيد بأن من تاب وأتاب مخلصاً ، ولم يعاود المعصية كما يفعل بنو اسرائيل فان الله سبحانه يرحمه ويغفر له اسرائيلياً كان أو قرشياً .

(ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) . ان موسى نبي معصوم ، ما في ذلك ريب ، ولكنه انسان يحزن ويفرح ، ويرضى ويغضب .. وقد تملكه الغضب حين فوجيء بارتداد قومه عن دين الله ، وتركه الغضب حين استعطفه أخوه هرون ، ووعدته الله بالانتقام من المرتدين ، وبعد أن عاد موسى (ع) إلى وضعه الطبيعي عاد إلى الألواح التي ألقاها حين غضبه ، واطمأن إلى ما فيها من الهدى لمن يفتح قلبه للخبر ، وإلى ما فيها من الرحمة لمن يخشى نعمة الله وعذابه .. ان حكمته الله جل ثناؤه اقتضت أن يهب الرضوان والرحمة لكل من أطاعه مخافة نعمته ، وان يُتزل النعمة والعذاب بكل من عصاه انكالا على رحمته .

ان هي الا فتنتك الآية ١٥٥ - ١٥٧ :

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِئَاسَةً فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ

رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا
 إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا
 فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
 حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ
 وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
 وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
 يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ
 وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُخْلِجُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ
 عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
 وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

اللفظ :

المراد بالفتنة هنا العذاب ، وبآتي البيان ، وهُدُّنَا إِلَيْكَ أي تَبْنَا إِلَيْكَ. والإصر
 الثقل الذي يمنع حامله من الحركة . والأغلال جمع غُلٍّ بالضم حديدة تجمع يد
 الأسير أو الجاني إلى عنقه . والمعاد بها هنا المشقة. والمعاد بالتعزير الإعانة والتوقير.

الأعراب :

قومه منصوب بترع الخافض ، أي واختار من قومه . وسبعين مفعول اختار.

ورجلًا تميز . ولو شئت مفعول شئت محذوف أي لو شئت أهلكنا . وأهلكتهم جواب لو ، وإياي معطوف على الضمير المنصوب في أهلكتهم . وإن هي (إن) نافية بمعنى ما ، وهي ضمير عائد إلى الرجفة . والذين يتبعون الرسول بدل من للذين يتقون .

المعنى :

(واختار موسى سبعين رجلاً لميقاتنا) . لقد أطال المفسرون الكلام حول هذه الآية ، وتضاربت أقوالهم في تفسيرها . فاختلفوا في بيان الميقات هل هو ميقات نزول التوراة أو غيره ؟ وأيضاً اختلفوا لماذا اختار موسى من قومه سبعين رجلاً للخروج إلى الميقات : هل لأنهم اتهموا موسى ، وقالوا له : لن نؤمن لك حتى نسمع كلام الله كما سمعته أنت ، فصحبهم معه ليسمعوا كما سمع ، أو لسبب آخر ؟ وأيضاً اختلف المفسرون في السبب الذي من أجله عاقبهم الله . وبالتالي اختلفوا : هل أدت الرجفة بهم إلى الموت ، أو أنها كادت أن تقصم ظهورهم ، وتقطع مفاصلهم ، ولم تبلغ بهم إلى الموت .

وليس في الآية أية إشارة إلى شيء مما اختاره جماعة من المفسرين ، وكل ما دلت عليه أن موسى (ع) اختار من قومه سبعين رجلاً ، ليذهب بهم إلى ميقات ربه ، وبطبيعة الحال كان هذا الاختيار بأمر من الله لأن موسى لا يفعل إلا بما يؤمر ، وإن الله قد أنزل بالسبعين نوعاً من العذاب لحكمة استدعت ذلك ، وليس لدينا ما يثبت تحديد الميقات ، ولا السبب الموجب للاختيار، ولا للعذاب .. أجل ، إن قول موسى الله : (أهلكنا بما فعل السفهاء منا) يدل على أنهم فعلوا ما يوجب الهلاك ، ولكنه لم يبين الشيء الذي فعلوه ، وليس لنا أن نقول ما لا نعلم .

(فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) . لقد اصطفى موسى من خيار قومه سبعين رجلاً ، وذهب بهم إلى ميقات ربه ، حتى إذا بلغوه هلكوا جميعاً ، وبقي فريداً .. إنه لموقف حرج يضعف فيه القواد ،

سورة الأعراف

وتقل فيه الحيلة ؟ . فما يصنع ؟ . هل يرجع وحده إلى بني اسرائيل ؟ . وبماذا يجيبهم إذا سألوهم عن رجالهم ؟ . لا ملجأ أبداً من الله إلا إليه ، فتضرع إلى الله أن يكشف عنه ما هو فيه ، وتغنى لو أهلكه معهم من قبل أن يسأني بهم إلى هذا المكان .. ثم قال مخاطباً العلي الأعلى : (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) أي انك أجل وأعظم من أن تفعل ذلك ، لأنك حلیم كريم .

(ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) . للفتنة معان ، منها الاضلال والافساد ، ومنه « يا بني آدم لا يفتنك الشيطان كما أخرج أبوك من الجنة - ٢٦ الأعراف » . ويقال : هذا مفتن أي مفسد . ومن معاني الفتنة القتال ، يقال : افتن القوم أي تحاربوا وتقاتلوا . ومنها الابتلاء والاختبار « وكذلك فتنا بعضهم ببعض » . وتستعمل الفتنة كثيراً في العذاب ، ومنه الآية ٢٥ من الأنفال : « واتقوا فتنة لا تصيبن الدين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب » .

وهذا المعنى أي العذاب هو المراد من الفتنة في قوله : « ان هي الا فتنتك » وضمير هي يعود إلى الرجفة التي تقدم ذكرها صراحة ، ومعنى « تضل بها من تشاء » ان الله يصيب بالرجفة التي هي العذاب من يشاء من عباده ، ومعنى « وتهدي من تشاء » انه تعالى يصرف الرجفة عن يشاء . والمعنى الجملي ان الله سبحانه يُنزل العذاب بمن يشاء ممن يستحقه ، ويصرفه عن يشاء ممن لا يستحقه .. وبهذا يتبين معنا ان قوله : « ان هي الا فتنتك » يرتبط معناه بما تقدم عليه ، وتأخر عنه من السياق ، وانه لا يجوز الاستدلال به على ان الاضلال من الله ، وكيف يفضل الله الانسان ، ثم يعاقبه على الضلال ؟ . وما الله يريد ظملاً للعباد.. ان الشيطان هو العدو المضل ، وكفى ببرك هادياً ونصيراً^١ .

(أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة انا هدانا إليك) . ولا ترجان لهذه المناجاة أفضل من قول سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي (ع) حين أحاط به الأكلوف من كل جانب ، وهو وحيد فريد فلاذ إلى ربه ، وعاذ به من أعدائه قائلاً :

١ راجع فصل « الهدى والضلال » ج ١ ص ٧٠ من هذا التفسير الآية ٢٦ سورة البقرة .

الجزء التاسع

« اللهم أنت تقني في كل كرب ، وأنت رجائي في كل شدة ، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة ، كم من كرب يضعف فيه الفؤاد ، وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت فيه العدو أنزلته بي ، وشكوته إليك رغبة مني إليك عن سواك ، ففرجته عني وكشفته ، فأنت ولي كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل رغبة » .

(قال عذابي أصيب به من أشاء) ممن يستحق العذاب ، لأن مشيئة الله لا تجري إلا بالحق والعدل ، ولا عبث ولا ظلم عند الله ، قال الرازي : قرأ الحسن (أصيب به من أشاء) بالسين لا بالشين ، واختار الشافعي هذه القراءة .

رحمة الله مع ابليس :

بطلق القرآن رحمة الله على عانيته ، وعلى ثوابه ، ومعنى العناية منه جل ثناؤه ان الموجودات بكاملها ، حتى ابليس تفتقر اليه سبحانه في بقائها واستمرارها ، كما تفتقر اليه في أصل وجودها ، وأنه هو الذي يمدّها بالبقاء في كل لحظة من لحظات استمرارها في الوجود ، بحيث لو تخل عنها طرفة عين فا دونها لم تكن شيئاً مذكوراً ، وأوضح تفسير هذه الرحمة والعناية الآية ٤٥ من سورة فاطر : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » .

وهذه الرحمة هي المراد من قوله تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء) حتى ابليس اللعين . أما الرحمة بمعنى الثواب فان الله سبحانه يمنحها لمن آمن واتقى ، وإليها أشار بقوله : (فسأكتبها للذين يتقون) المعاصي ، ويمتثلون أمر الله ونهيه (ويؤتون الزكاة) وذكر الزكاة دون الصلاة ، لأن الانسان يظني ان رآه استغنى .

(والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي). أي ان رحمة الله التي هي بمعنى الثواب لا ينالها إلا من اتقى الله ، وآتى المال على حبه ، وآمن بنبوّة محمد (ص) إذا بلغت اليه رسالته .. وخص المال بالذكر لما أشرنا اليه ، ولأن الحديث عن اليهود ، والمال ربهم الذي لا إله سواه عندهم وقد وصف الله محمداً (ص) في هذه الآية بالصفات التالية :

سورة الأعراف

١ - (الرسول النبي الأمي) والامة وصف خاص به ، دون الأنبياء إشعاراً بأنه على أميته أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأثر في حياة الأمم في كل عصر ومصر .

٢ - (الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) . راجع تفسير الآية ١٤٦ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٣٣ . وفقرة هل الأنبياء كلهم شريون ؟ ج ٢ ص ٤٩٢ الآية ١٦٣ من سورة النساء .

٣ - (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) . راجع ج ٢ ص ١٢٣ و ١٣٢ الآية ١٠٤ و ١١٠ من آل عمران .

٤ - (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) .

٥ - (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) . الإصر الثقل الذي يمنع من الحركة ، والمراد بالأغلال المشقة .. لقد حرم الله على بني اسرائيل بعض الطيبات التي أشار إليها في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام ، كما ان شريعة موسى كانت شديدة وشاقة ، حتى ان النائب من بني اسرائيل لا تقبل توبته الا إذا قتل نفسه : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » - ٥٤ البقرة . ويقول الله لبني اسرائيل الذين أدركوا محمداً (ص) : انهم اذا أسلموا تحمل لهم طيبات ما حرم عليهم ، وترفع عنهم المشقة في التكليف ، لأن محمداً قد بعث بالشريعة السهلة السمحة .

(فالذين آمنوا به) المراد من آمن بمحمد(ص) من اليهود وغيرهم(وعزروه) أعانوه في دعوته ، ووقروه لعظمته (ونصروه) على عدوه (واتبعوا النور الذي انزل معه) أي عملوا بالقرآن (أولئك هم المفلحون) في الدنيا والآخرة .

رسول الله اليكم جميعاً الآية ١٥٨ - ١٥٩ :

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِينُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ

الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى
أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ *

الاعراب :

جميعاً حال من الرسول . والذي له خبر مبتدأ محذوف ، أي هو الذي له ملك النخ . قال أبو البقاء في كتاب الاملاء : لا يجوز أن يكون الذي بدلاً ولا صفة من رسول الله لوجود فاصلين هما اليك وجميعاً . لا إله خبر لا محذوف تقديره موجود إلا هو و (هو) بدل من الضمير المستتر في موجود .

المعنى :

(قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً) . هذه الآية مكية في سورة مكية ، وهي تكذب الذين قالوا : ان محمداً حين كان ضعيفاً قال : أنا رسول الله لأهل مكة ومن حولها ، وبعد أن صار قوياً قال : أنا رسول الله للناس أجمعين . وأجبتنا هؤلاء بردود قاطعة عند تفسير الآية ٩٢ من سورة الأنعام .

(الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت) . تؤكد هذه الآية وكثير غيرها من الآيات انه لا واسطة بين الله وعباده ، وان الملك والأمر لله وحده .. فحمد ، وان كان مرصلاً لجميع الناس في كل زمان ومكان وأشرف المخلوق وخاتم النبيين وسيدهم ، ولكنه لا يملك لنفسه شيئاً فضلاً أن يملك لغيره : قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله - ٤٩ يونس ، . وقد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، والقصد هو تعريف المسلمين بحقيقة محمد (ص) وانه بشر مثلهم ، كيلا يغالوا فيه ، كما غالى النصارى بالسيد المسيح (ع) . وكفى بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله التي يكررها المسلم ليل نهار ، كفى بها دليلاً على تنزيه المسلمين من الغلو ، وإيمانهم بأن محمداً لا

سورة الأعراف

يملك من الأمر إلا الرسالة والتبليغ .

(فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) . ان قوله : فاتبعوه بعد قوله : فآمنوا بالله ورسوله، دليل على ان مجرد الإيمان لا يجدي شيئاً ما لم يكن معه عمل بكتاب الله وسنة رسوله . راجع فقرة : لا إيمان بلا تقوى ، ج ١ ص ٣١٤ الآية ٢١٢ من سورة البقرة .

بين الصهيونية واليهودية :

(ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) . قال الرازي : «اختلفوا في ان هذه الأمة متى حصلت ؟. وفي أي زمان كانت ؟. فقيل : هم اليهود الذين آمنوا بمحمد (ص) كعبد الله بن سلام ، وابن سوريا .. وقيل : انهم قوم ثبتوا على دين موسى ، ولم يحرفوه كما فصل غيرهم من بني اسرائيل الذين أحدثوا البدع » .

ونحن نميل إلى أن هؤلاء كانوا في عهد موسى ، ثم انقروا كما يومئ قوله تعالى : « من قوم موسى » أما ابن سلام وابن سوريا فلا يقال لهما ولا لعشرة مثلهما أمة وطائفة .. وعلى أية حال ، فإن القرآن قد نعت اليهود بكل قبيح ، وألصق بهم وبتاريخهم العار والشار في العديد من آياته .. وان دل قوله : « من قوم موسى » على شيء فلأنما يدل على ان لكل قاعصة شواذ ، وبديهة ان الشاذ النادر لا يتفص القاعدة ، بل يؤكداه ؟.

وبصرف النظر عن الذكر الحكيم وآياته فهل الفساد والفضلال بعيد عن طبيعة اليهود وسيرتهم ؟. وهل اليهود متزهون عن الفضلال والافتعال ؟. بل هل في تاريخ اليهود بادرة واحدة فقط لا غير تشعر بالخير .:

ورب قائل : ان الفساد والفضلال وصف لازم للصهيونية لأنها حركة عنصرية فاشية سياسية تهدف إلى خدمة الاستعمار وانتشاره ، أما اليهودية فانها ديانة كفيها من الديانات !..

ونجيب أولاً : ما يدرينا ان المصدر الذي أوحى بهذا الفارق هم اليهود أنفسهم

ليدفعوا عنهم ما لصق بهم ويتاريخهم القديم والحديث من العار والشتار على وجه العموم .. راجع فقرة الصهاينة تواطأوا مع النازية في تفسير الآية ٦٤ من المائدة .

ثانياً : على فرض وجود الفارق بين اليهود والصهيونية - وهو فرض محل نظر - فهل اليهود بوجه العموم راضون أو ناقدون على الصهيونية التي أوجدت عصاة مسلحة باسم اسرائيل لا تهدف إلى شيء إلا إلى حماية مصالح الاستعمار ، وضرب القوى التحررية ؟.. ولماذا ناصر اليهود هذه العصاة الصهيونية ، ومدوها بالأموال والأرواح ، وتطوعوا بالآلاف ذكوراً وإناثاً في حرب ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ بعد أن تدربوا وتمرنوا على استعمال الأسلحة الجهنمية ؟. ثم الا يؤمن اليهود ديناً وعقيدة بأنهم شعب الله المختار ، وان الله متحيز معهم ضد جميع الناس ، وانه قد حرم دماءهم ، وأحل لهم دماء البشرية جمعاء ، وانهم وضعوا قوانينهم ونظمهم على هذا الأساس ، والقوة المنفذة عصاة اسرائيل ؟.

وبعد ، فإن اليهودية كديانة نزلت من السماء على موسى (ع) قد ذهبت وباد أهلها ، ولم تبق منهم باقية ، كما باد غيرها من الديانات ، وان يهود اليوم صهاينة إلا من شذ ، والشاذ - كما قدمنا - لا يقاس عليه .

ولقطعناهم النبي عشرة أسباطاً الآية ١٦٠ - ١٦٢ :

وَقَطَعْنَا لَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ أُسْبَاطًا أَمْمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اِثْنَتَا عَشَرَ عِثَةً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ* وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ

سورة الأعراف

سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ *

اللغة :

السيط ولد الولد ذكراً كان أو أنثى ، ويغلب على ولد البنت مقابل الحفيد
لولد الابن . وقطعناهم صيرناهم قطعاً وفاقاً . والاستسقاء طلب الماء للسقيا .
والاننجاس الانفجار . والمن مادة بيضاء تنزل من السماء . والسلوى طير يشبه
السمان .

الأعراف :

اثنى عشرة مفعول ثانٍ لقطعنا ، لأنها بمعنى صيرنا ، والمميز محذوف أي
اثنى عشرة فرقة ، ولهذا أنث العشرة . واسباطاً بدل من اثنى عشرة ، لا تميز
لأنه جمع ، وتميز العدد المركب مفرد . وأما صفة لاسباط . وإن اضرب بمعنى
أي لأن ما بعد أن وهو اضرب تفسير لأوحينا . وحطة خبر لمبتدأ محذوف أي
أمرنا حطة . ونفخر على اجزم جواباً للامر ، وهو قولوا وادخلوا .

المعنى :

(وقطعناهم اثنى عشر اسباطاً أمّا) . أي فرقنا بني إسرائيل اثنى عشرة
فرقة ، وكل فرقة تنتمي إلى سبط من الأسباط الاثنى عشر ليعقوب بن اسحق
ابن ابراهيم ، فقد كان له ١٢ ولداً ، ولكل واحد نسل .
(وأوحينا إلى موسى إذ استسقاء قومه أن يضرب بعصاك الحجر فانجست منه
اثنى عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم) تقدم نظيره في الآية ٦٠ من سورة
البقرة ج ١ ص ١١١ .

الجزء التاسع

(وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) . سبق مثله في الآية ٥٧ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٦ .

وقوله : (واذ قيل لهم الى قوله : (يظلمون) مذكور مع التفسير في ج ١ ص ١٠٨ الآية ٥٨ - ٥٩ من سورة البقرة .

واسألهم عن القرية الآية ١٦٤ - ١٦٦ :

وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ *

الآية :

حاضرة البحر أي على شاطئه . يعدون أي يتجاوزون حكم الله . وشرعاً ظاهرة على وجه الماء . والعنزة والعنر بمعنى واحد . والبئس الشديد . والعنصر العصيان . وخاسئين صاغرين .

الاعراب :

شرعاً حال من الحيتان . ومعذرة خبر مبتدأ محذوف أي موعظتنا معللة .
وبئس صفة لعذاب :

المعنى :

(واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) . الخطاب موجه لمحمد (ص) ،
والقرية على حذف مضاف أي أهل القرية ، وضمير (هم) في واسألهم يعود إلى
يهود المدينة الذين عاصروا رسول الله (ص) ، لأن هذه الآية نزلت في المدينة
لمواجهة اليهود بها ، وضمت إلى السورة المكية تكملة للحديث عن اليهود ، ولم
يذكر الله سبحانه اسم القرية ، وقيل : أنها كانت على شاطئ البحر الأحمر ..
وعلى أية حال فهي معروفة عند اليهود الذين سألهم النبي عنها ، أما الباعث على
هذا السؤال فأمران : الأول أن يجابه النبي يهود المدينة بأنهم أنكروا نبوته ،
وهم على يقين منها في أنفسهم ، لأنه قد أخبرهم عن الكثير من تاريخ أسلافهم ،
ومنها قصة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر ، مع العلم أنه لم يقرأها في
كتاب ، ولم يسمعها من أحد ، فما هي - أذن - إلا وحي من الله .. الأمر
الثاني : أن ينههم النبي إلى أنهم مكابرون معاندون للحق ، وإن عنادهم هذا
ليس غريباً عن طبيعة اليهود وسيرتهم ، وإنما هو دأبهم ودينتهم منذ القديم .

والدليل قصة أهل تلك القرية التي أشار إليها بقوله : (إذ يعتدون في السبت
إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يستتون لأنبيهم كذلك نبلوهم بما
كانوا يفسقون) . وتتلخص هذه القصة بأن الله حرم على اليهود العمل يوم
السبت ، ومنه صيد الأسماك ، ولأجل أن يعاملهم الله معاملة المختبر لحالهم ،
ويظهرهم للملأ على خبيثتهم كان يرسل الحيتان إليهم بكثرة ظاهرة على وجه
الماء يوم السبت ، ويمنعها عنهم في سائر الأيام ، فتوصل جماعة منهم إلى حيلة
يحللون بها ما حرم الله ، فحفروا أخاديد ، ومسارب تتصل بالماء تنفذ الحيتان
منها إلى الأخاديد ، ولا تستطيع الخروج ، فكانوا يأخذونها يوم الأحد ويقولون ،

الجزء التاسع

نحن نصطاد يوم الأحد ، لا يوم السبت ، فأنكر عليهم جماعة منهم ، وزجروهم عن هذا الاحتيال والتلاعب بالدين ، وحلروهم من بأس الله وعذابه فلم يتعظوا . (واذا قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً) . أي قالت جماعة من بني اسرائيل أيضاً للجماعة الناهية عن المنكر ، قالت لهم : ما الفائدة من نهيكم العصاة ، وتغذيركم اياهم ، ما داموا لا يتتهون ولا يحلرون ؟ دعوهم .. فان الله سيستأصلهم عن آخرهم من هذه الأرض ، أو يبقيه مع العذاب الأليم . فقالت جماعة الأمر بالمعروف : (معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون) . أي نهيهم عن المنكر ليعلم الله اننا لهم مخالفون ، ولأعمالهم كارهون ، وفي الوقت نفسه نرجو أن يتفعلوا بنهيها ومواظبنا .

(فلما نسوا ما ذكروا به أنجبنا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) . الضمير في نسوا وذكروا وظلموا ويفسقون عائد إلى العصاة ، وضمير ينهون عائد إلى جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ووصف الله العصاة بالفاسقين لأنهم فسقوا عن أمر ربهم ، وبالظالمين لأن كل من فسق عن أمر ربه فهو ظالم لنفسه ، والمعنى ان الله سبحانه أخذ المذنبين بذنوبهم ، وأنجا المطيعين لطاعتهم .

(فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) . عاقب سبحانه أولئك العصاة بمسخهم على هيئة القرود ، وفي رواية أنهم بقوا كذلك ثلاثة أيام ، ثم هلكوا ، لأن المسوخ لا يعيش أكثر من هذه المدة ، ولا يولد له شيء من جنسه .

وتسأل : لقد جرت سنة الله أن لا يأخذ المذنب بذنبه في الدنيا بشهادة الوجدان والعيان بالاضافة إلى قوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » - ٤٥ فاطر . فكيف عاقب أولئك الذين خرجوا عن طاعته في صيد الحيتان ، وترك الذين أجروا من دماء الأبرياء أنهاراً في فلسطين وفيتنام ، ومن قبلها الكونغو واليابان ، وغيرها كثير مما لا يبلغه الاحصاء ؟ .

الجواب : أجل ، لقد جرت سنته تعالى بأن لا يأخذ المذنب بذنبه في هذه الحياة ، مهما عظم .. ولو فعل لما تميز الخبيث من الطيب ، ولما كان لتارك

سورة الأعراف

الشر من فضل ، لأن الترك كان بدافع الخوف ، لا حباً بالخير، وكرهاً للشر.. ولكن حكمة الله سبحانه قد اقتضت أن يستثني من هذه السنة معجزات الأنبياء، واستجابة دعائهم في أهل المعصية والفساد لكرامتهم عند الله ، ولأثبت نبوتهم . وقال أهل التفاسير في تفسير الآية ٧٨ من المائدة : ولعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . قالوا : ان داود (ع) لعن أهل ابلة من بني اسرائيل لما اعتدوا واصطادوا في في سبتهم ، وقال : اللهم ألبسهم اللعنة مثل الرداء ، فسخهم الله قردة خاسئين. اذن ، فسب مسخ الصيادين المحتالين هو دعاء النبي داود ، ولا نبي في هذا العصر يدعو على سفاكي الدماء ، وناهي مقدرات الشعوب .. ومها يكن، فنحن نؤمن بعقل الله ، وبأن الحق لا يلعب عنده هدرأ ، وان الانسان مجزي بأعماله ، مها طال الزمن ، وانما يعجل من يخاف الموت .

اليهود وسوء العذاب الآية ١٦٧ :

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *

اللعنة :

تأذن من الاذان ، وهو الاعلام . ويسومهم أي يذيقهم .

المعنى :

لقد تحدث القرآن طويلاً عن بني اسرائيل ، تحدث عن كفرهم وافسادهم في الأرض ، وتمردهم على الحق ، وتكلمنا نحن كثيراً عنهم تبعاً لأبي الذكر

الجزء التاسع

الحكيم ، وذكرنا عشرات الأمثلة من سيرتهم كشرح وتطبيق للنص القرآني في شأنهم ، ولكن هنا سؤال قد يرتفع إلى مستوى الحيرة والشك حول هذه الآية : (وإذ تأذن ربك ليعنن عليهم إلى يوم القيامة من بسومهم سوء العذاب) . وحول الآية ١١٢ من سورة آل عمران : « ضربت عليهم الدلة أين ما ثقفوا » .

وأجبتنا عن هذا السؤال في المجلد الثاني صفحة ١٣٤ عند تفسير الآية ١١٢ من سورة المائدة ، وأيضاً أجبتنا عنه بأسلوب آخر قريباً عند تفسير الآية ١٥٣ من السورة التي مازلنا في تفسيرها ، ونشير هنا إلى الجواب بإيجاز .. لقد سلط الله من قبل على بني اسرائيل الفراعنة ، ثم البابليين ، ثم الفرس ، ثم خلفاء الاسكندر ، ثم النصارى .

ومن الطريف ما جاء في تفسير البحر المحيط ان طائفة من النصارى املقت ، فباعت اليهود الذين في بلدهم لبلد مجاور .. وأخيراً فر اليهود من الدل والنكال لاجئين الى بلاد العرب ، فعاشوا بها آمنين ، ولكنهم نكثوا العهد الذي أعطوه لرسول الله (ص) ، فقتل بعضاً ، وأجل عمر بن الخطاب البقية الباقية ، فشتتوا في شرق الأرض وغربها موزعين مع الأقليات تابعين غير مستقلين يسمعون الأوامر فطبعون صاغرين .

وأخيراً أدرك اليهود انه لن يكون لهم اسم يذكر إلا إذا أخلصوا للاستعمار ، ومن أجل هذا باعوا أنفسهم لكل مستعمر قوي بغفلون مؤامراته ودمائه .. وفي أيامنا هذه - نحن الآن في صيف سنة ١٩٦٨ - اكتشفت بعض الدول ان المستعمرين أوهزوا إلى يهود أوروبا الشرقية أن يقوموا بمحاولات تهدف إلى سير هذه البلاد في ركاب المستعمرين ، وبإشراف اليهود بتنفيذ الخطة ، ولكنهم اقتضحوا قبل انتمامها وكادوا ينجرون العالم إلى حرب ثالثة . وعلى هذا المخطط ، مخطط سير الشعوب في ركاب الاستعمار أوجد المستعمرون عصاة مسلحة من اليهود على أرض فلسطين ، وأطلقوا عليها اسم دولة اسرائيل .

وكل عاقل يتساءل : هل يصح أن تسمى اسرائيل دولة بالمعنى الصحيح ، مع العلم بأنه لو تخلى الاستعمار عنها يوماً واحداً لزلت من الوجود ؟ . وهل من دولة في العالم كله لا تعترف بها دولة واحدة من الدول المجاورة لها ؟ . وإذا

سورة الأعراف

كانت اسرائيل دولة بالمعنى الصحيح فلماذا تقيم «علاقاتها» مع الدول والشعوب المجاورة لها على أساس الغدر والاعتداء والتوسع ؟.

ان الدولة حقاً ليست غدرًا وسلاحاً ، وإنما هي قبل كل شيء كيان يقوم على أساس السلم ، ونظام يرتكز على أساس الحق ، وقيم تبثعدها عن العنصرية والتعصب ، وكيان اسرائيل عسكري يقوم على أساس الحرب ، ونظامها عدم التوقف عن العدوان ، وقيمها الصهيونية العنصرية ، والحقد والمكر والغدر ، قال الكاتب الانكليزي « كرسوفر مارلو » في مسرحية اليهودي المألطي : « ان نجبل امكانية معايشة اليهود ضرباً من الجنون ، ولا دواء لنفوسهم إلا السيف البتاره . أبعد هذا يقال للعرب عيشوا مع اليهود بسلام ، أو يقال : ان اليهود أعزاء لأن منهم عصاة مسلحة تسمى باسم دولة اسرائيل تقتل وتشرذم مئات الألوف بمساندة الاستعمار ؟. أجل ، إذا كانت القرصنة عزاً ، والرذيلة مجداً فان اليهود في أوج المجد والعز .

وبالتالي ، فان الله وحده هو الذي يعلم الخطوة التالية ، والعاقلة لا يخدع بالظواهر ، ولا يستبق الأحداث .

(ان ربك لسريع العقاب) للذين حققت عليهم كلمة العذاب (وانه لغفور رحيم) لمن أفلح عن ذنبه وأتاب .

وبلوناهم بالحسنات والسيئات الآية ١٦٨ - ١٧١ :

وَقَطَّعْنَا فِي الْأَرْضِ أَمْمًا مِنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ

يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ* وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ* وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ*

اللغة :

وقطعناهم أمّا أي فرقناهم جماعات . والحلف بسكون اللام قوم لاحقون أشرار ، وافتحها أخيار . وعرض بفتح الراء الشيء الزائل الذي لا ثبات له . والمراد بالأدنى هنا الدنيا . ودرسوا ما فيه قرأوا ما فيه . ويمسكون بالكتاب يعملون به . والتقى قلع الشيء ، والمراد هنا رفع الجبل فوقهم بعد قلعه . والظلة مفرد وجمعها ظلل وظلال ، وكل شيء يظلك من سقف ونحوه فهو ظلة بضم الظاء .

الاعراب :

يجوز أن تمرّب أمّا مفعولاً ثانياً على أن تكون قطعناهم بمعنى صيرناهم، ولك أن تمرّبها حالاً على أن تكون قطعناهم بمعنى فرقناهم . ومنهم الصالحون مبتدأ وخبر ، ومثله ومنهم دون ذلك على أن يكون المبتدأ محذوفاً ودون صفة له أي قوم دون ذلك، ولفظ ذلك مفرد ومعناها هنا الجمع أي دون أولئك لأنها تستعمل للمفرد والمثنى والجمع . والذين يمسكون مبتدأ وجملة إنا لا نضيع خبر .

المعنى :

(وقطعناهم في الأرض أمّا) . فرّق الله بني اسرائيل في الأرض فرقاً وجماعات شتى لا وطن يجمعهم ولا دولة تحفظهم ، وحاولت الصهيونية أن تقيم

سورة الاعراف

لهم دولة من النيل الى الفرات بالقرصنة والاغتيال ، وخُيِّلَ اليها ان العدوان الاسرائيلي يحقق لها ما تريد ذاهلة ان اسرائيل تقوم على الألغام ، وان الأمر يحدث بعده الأمر، وان مصائر الخلق بيد الله وحده لا بيد الصهيونية والاستعمار .

(منهم الصالحون ومنهم دون ذلك) . الطاهر ان المراد بالصلاح هنا الإيمان . وان المراد بدون ذلك غير المؤمنين ، وتقدم نظيره الآية ١٥٩ من هذه السورة (وبلوناهم بالחסنات والسيئات لعلهم يرجعون) المراد بالחסنات الصحة والرخاء ، والسيئات ضدّها ، والغرض من تقلبهم بين النماء والضراء أن يثوبوا إلى رشدهم ويثوبوا إلى بارئهم .

(فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) . المراد بعرض هذا الأدنى المسال الحرام كالربا والرشا . بعد أن ذكر سبحانه انه كان على عهد موسى (ع) جماعة من بني إسرائيل صالحون ، ومنهم دون هؤلاء قال : لقد ترك هؤلاء وأولئك نسلاً عرفوا حلال التوراة وحرامها ، ولكنهم كانوا يجرمون ما أحل الله ، ويحطلون ما حرم ، ويقولون : سيغفر الله لنا ، ولا يؤاخذنا على شيء ، لأننا أبناؤه وأحبائه وشعبه المختار .

وتسأل : لماذا قال سبحانه : (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) بعد أن قال : (يأخذون عرض هذا الأدنى) مع ان القولين في معنى واحد ؟ فما هو الغرض من هذا التكرار في آية واحدة ؟.

الجواب : الغرض الرد عليهم بأنهم يصرون على كبائر الذنوب ، ويعودون اليها مرات ومرات غير مكترئين ولا مستغفرين ، ومع هذا يقولون : (سيغفر لنا) ؟ .. ان الإصرار على الصفات معصية كبرى ، فكيف بالإصرار على الكبائر ؟.

(ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه) . هذا رد ثانٍ عليهم ، ووجه الرد انهم يزعمون الإيمان بالله وبالتوراة ، وقد درسوها وفهموا كل ما فيها ، وبما جاء في التوراة ان الله يغفر لمن تاب وأقلع عن المعصية ، أما من أصر عليها فهو من المالكين ، وأيضاً قد أخذت التوراة عهداً وميثاقاً على كل من آمن بالله وبها أن لا يفترى على الله الكذب ، والمعصية

على علم من هذه الحقيقة ، ومع هذا يصرون على كباثر الذنوب قائلين : سيغفر الله لنا .. وهذا نقض للعهد والميثاق ، وكذب على الله وافتراء : وقد خاب من افترى (والدار الآخرة خير للذين يتقون) ولا ينهاتون على عرض هذا الأدنى ، ولا يقولون كذباً وافتراء : سيغفر الله لنا (أفلا تعقلون) وكيف يعقل من أعشت الشهوات عقله ، وأمضت الأهواء قلبه ؟ .

(والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا ننزع أجر المصلحين) . الذين يمسكون بالكتاب هم الذين يعملون به ، ويمسك أبلغ من يعمل لأنه يشعر بالجد والعزم الثابت على العمل ، وعطف أقاموا الصلاة على يمسكون من باب عطف الخاص على العام ، لسر في الخاص أوجب النص عليه بالذات ، والآية تعريض باليهود الذين آمنوا بالتوراة ، ولم يعملوا بأحكامها ، وأيضاً هي تعريض بكل من انتسب إلى دين وتهاون في أحكامه، بخاصة الصلاة التي هي عمود الدين.. ولكنها عند أبناء هذا الجيل تأتي على « الهامش » لأن الدين كذلك عندهم .

(واذا نفقنا الجيل فوقهم كأنه ظلة وظنوا انه واقع بهم خلدوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) . رفع الله الطور فوق بني اسرائيل كأنه سقف أو غمامة تظلهم ، وأمرهم في ظل هذه المعجزة ، وهذا التخويف ان يتقوا الله.. ولكن اسرائيل هي اسرائيل..وتقدم نظيره في سورة البقرة الآية ٦٣ ج ١ ص ١١٩ .

الست بربكم الآية ١٧٢ - ١٧٤ :

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ* أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ* وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ*

اللغة :

الظهور جمع ظهر، وهو معروف . والنرية سلالة الانسان من ذكور وأناث .

الإعراب :

من ظهورهم بدل اشتمال من بني آدم مع إعادة حرف الجر ، والمعنى أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم . وبلى حرف جواب تبطل النفي ، فلذا قال لك قاتل : ليس لي عندك درهم ، وأجبت بلى كان اقراراً منك بالدرهم، وان أجبت نعم لا يلزمك شيء ، ولنا قيل : لو قالوا : نعم في جواب ألسن بربكم لكفروا . والمصدر المنسبك من ان تقولوا مجرور بإضافة مفعول من أجله محذوف أي مخافة قولكم .

عالم اللز :

(واذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألسن بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين). في المسلمين فئة تؤمن بعالم اللز مستندة الى هذه الآية ، وإلى بعض الروايات ، ومعنى عالم اللز عند هذه الفئة ان الله بعد أن خلق آدم أخرج من صلبه كل ذكر وأنثى يوجدان - فيما بعد - منذ آدم الأول الى نهاية الكون ، وجمعهم دفعة واحدة على هيئة اللز ، ثم قال لهم : ألسن بربكم ؟ قالوا : بلى أنت ربنا ، وبعد هذا الاعتراف ردهم إلى صلب آدم .. ونحن مع الذين يؤمنون بعالم اللز ان أجابوا عن التساؤلات التالية :

أين جمع الله هذه اللرية ؟ هل جمعها في هذه الأرض أو في غيرها ؟ وهل تتسع هذه الأرض لهم جميعاً ؟ ولنفترض انها اتسعت ، لأنهم على هيئة اللز ، فهل كان آدم من الضخامة بحيث يستوعب كل من خرج منه مباشرة وبالواسطة إلى يوم يعثون ؟ ثم هل يتذكر واحد من الجلم الذي يفوق عدد

الجزء التاسع

الرمال ، هل يتذكر واحد فقط هذا الخطاب والعهد الذي أعطاه الله مشافهة ؟ .
وان كان قد أنساه طول العهد ، فكيف يحتاج الله عليه بشيء لا يتذكره ..
هذا من جهة العقل ، أي بعض ما يدور في ذهن العاقل .

أما من جهة نص الآية فانه يدل على عكس عالم النذر الذي أخذ من صلب
آدم الأول، لأن الله سبحانه قال : (أخذ ربك من بني آدم) ولم يقل من آدم ،
مسح العلم ان ابن آدم يقال له : آدم ، ولا يقال لآدم الأول : ابن آدم ..
وأيضاً قال تعالى : (من ظهورهم) ولم يقل من ظهره . وقال : (ذريتهم)
ولم يقل : ذريته .. هذا ، الى ان الله قال في الآية الثانية : انه فعل ذلك لثلا
يحتاج عليه أحد بشرك الآباء ، مع ان أول من أشرك لا مبرر لاحتجاجه بشرك
آبيه ، لأن المفروض ان أباه لم يشرك .. وان دل هذا على شيء فانه يدل على
ان العهد قد أخذ من كل واحد واحد مستقلاً بعد وجوده حقاً، بل وبعد رشفه
وإدراكه .

ونحن لا نفهم معنى لهذا العهد المأخوذ من الانسان لله تعالى الا الفطرية ،
وغريزة الاستعداد التي أودعها الله في كل عاقل ، والتي بها - لو قصد التفهم
والتدبر - يميز بين الهدى والضلال، وبين الحق والباطل، وبها يهتدي الى الإيمان بالله
ودينه الحق .. وبكلمة ان على كل امرئ ان يتفكر في آيات الله ودلائله. وانفق
المسلمون قولاً واحداً على ان السنة النبوية تفسير وبيان للآيات القرآنية، وقد ثبت
بالتواتر قوله (ص) : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه
أو يمجسانه » . وقوله : « يقول الله اني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين
فاجتاحتهم عن دينهم » .

(واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) . كل من السؤال
والجواب قائم الى اليوم ، ولما آخر يوم ، لأنهما بلسان الحال والواقع ، تماماً
كقوله تعالى : « فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين -
١١ فصلت » . (ان تقولوا يوم القيامة) أي مخافة أن تقولوا أو لثلا تقولوا :
(إنا كنا عن هذا غافلين) . هذا اشارة الى التوحيد الذي دل عليه قوله :
(ألست بربكم قالوا بلى) . لا تعليل ولا معذرة أبداً ، لا في هذه الحياة ولا

سورة الاعراف

في الآخرة لمن منحه الله الاستعداد الكامل لفهم الدلائل والبيانات على وحدانية الله وعظمته ، ثم كفر وأشرك .

(أو تقولوا انما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) . يقد الانسان في الأشياء التي تحتاج إلى التخصص ، وتستغرق سنوات من الدراسة كالطب والهندسة ، وما إليها ، أما الادراكات الفطرية التي لا تكلف الانسان أكثر من البقطة والتنبيه كوجود الله ووحدانيته ، أما هذه فالكل فيها سواء .. وقد أقام الله سبحانه البراهين الوافية الكافية على وحدانيته ، ومنح كل عاقل الاستعداد لفهمها بيسر ، ولم يُبقَ عنراً لمعتذر بأنه جحد أو أشرك تقليداً لغيره من المبطلين .. ولا فرق أبداً في نظر العقل بين من يعمل بغير علمه متعمداً وبين من يتبع الباطل جهلاً به ومن غير قصد مع قدرته على معرفته وتمييزه عن غيره .

(وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون) إلى عقولهم التي تؤدي بهم حتماً بمعونة الدلائل إلى عقيدة التوحيد . أنظر تفسير الآية ٤١ من سورة الأنعام ، فقرة : الله والفطرة ، ص ١٨٨ .

آتياء آياتنا فانسلخ منها الآية ١٧٥ - ١٧٧ :

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظَالِمُونَ *

اللة :

النبا الخبر الذي له شأن . فانسليخ منها تجرد منها . وأخلد إلى الأرض لصق بها ، والمراد به هنا الركون الى الدنيا . واللهث بفتح اللام ، واللهاث بضمها ، ومعناها واحد ، وهو التنفس الشديد مع اخراج اللسان عطشاً أو اعياء . والمراد بالمثل هنا الصفة .

الإعراب :

ساء بمعنى بشس ، والفاعل مستتر بفسره مثلاً المنصوب على التمييز ، والقوم مجرور بإضافة اسم محذوف أي مثل القوم، وهذا المحذوف هو المخصوص بالذم ، وهو مبتدأ ، وجملة ساء خبر .

المعنى :

(وائل عليهم نسباً الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) . اتل الخطاب موجه لمحمد (ص) ، وضمير عليهم يعود الى اليهود . أما الذي آناه الله آياته فانسلخ منها فلا نعرف من هو ولا ندخل في شيء ليس في القرآن والسته المتواترة نص عليه ، ولكن القصاصين وأكثر المفسرين أو الكثير منهم قالوا : ان اسم الرجل بلعام بن باعور ، وانه كان على دين موسى وعالماً بأحكامه ، ثم ارتد ، ونحن ننظر الى هذا النقل والى غيره أيضاً بحذر ، ولا نطمئن إلا للنص القرآني ، وقد دل هذا النص على ان الله سبحانه أمر رسوله أن يخبر اليهود بقصة الرجل الذي كان عالماً بدين الله وآياته ، وبطبيعة الحال كان علماء اليهود على علم من هذا الرجل ، ثم أغواء الشيطان ، فترك علمه ودينه ، ولزم الغواية فكان من الغاوين الهالكين .

(ولو شئنا لرفعناه بها) أي بما آناه الله من العلم بآياته ، ولكن الله لم يشأ أن يلجئه إلى العمل بآياته قهراً ، لأنه جل ثناؤه لا يعامل الناس بمشيئته الخالقة

سورة الاعراف

التي تقول للشيء كن فيكون ، وانما يعاملهم بمشيئة النصيح والارشاد التي يعبر عنها بأمره ونهيهِ ، ولهذا ترك للذي انسلخ من آيات الله ، ترك له الحرية والاختيار ، فاختار العاجلة على الآجلة (ولكنه انحلد الى الأرض واتبع هواه). معنى الاخلاص اللزوم ، والمراد بالأرض هنا متاع الحبيسة الدنيا ، لأن الأرض مصدرها ، ومنها الطيبات والملاذات ، والمعنى ان هذا المنسلخ المتجرد قد عصى مولاه ، وأطاع هواه ملازماً ، لا يفارقه أبداً ، قال الرازي : هذه الآية أشد الآيات على أصحاب العلم ، قال رسول الله (ص) : من ازداد علماً ، ولم يزد هدى لم يزد من الله الا بعداً .

(فقله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) . الكلب الذي يلهث من العطش أو الاعياء يستمر في اللهات زجرته أو تركته ، فانه لاهث على كل حال .. وكذلك من لزم هواه يستمر في ضلاله وعظته أو أغفلته فهو ضال على كل حال (ذلك مثل الذين كذبوا بآياتنا) . أي هذه هي صفة كل من أصر على المعصية .. أبداً ، لا ينتفع بآية ، ولا يصني لموعظة ، وضرب الله مثلاً للعاصي المصر بالكلب اللاهث اشارة إلى خسته وضعته .

(فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) . أي حدث يا محمد اليهود عن المكذبين من أسلافهم ، وما آل اليه أمرهم كأهل القرية التي كانت حاضرة البحر، وهذا المنسلخ ليكون ذلك عبرة لهم ، ورادعاً عن التكذيب بنبوتك .

(ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) . الكذب على الله ، والتكذيب بآيات الله كلاهما بدعة ، لأن الأول بُشِت في الدين ما ليس منه ، والثاني ينفي عنه ما هو منه ، وهذه هي البدعة بالذات ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار - اذن - من ابتدع فقد ظلم نفسه ، حيث عرضها للعذاب والهلاك .

وتسأل : من يحرف الحق خوفاً على نفسه من ظالم : هل يُعد مبتدعاً ؟

الجواب : أجل ، انه مبتدع يستحق الذم والعقاب ، ما في ذلك ريب، لأن عليه أن يخاف من غضب الله لتحريف الحق ، لا من غضب الظالم للثبات على الحق .. أجل ، قد يسوغ للانسان ترك العمل بالحق دفعاً للضرر عن نفسه ، أما

تحريف الدين بالكذب على الله فلا مبرر له على الإطلاق ، مهما تكن النتائج .

من يهدي الله فهو المهتدي الآية ١٧٨ - ١٨١ :

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَإِذْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ *

اللغة :

الذرا الانشاء والخلق . والإلحاد الانحراف عن الطريق القويم .

الاهراب :

اللام في جهنم للعاقبة مثل فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً . وجملة لهم قلوب صفة لكثير . وجملة لا يفقهون صفة للقلوب . وإذ خلقنا خبر مقدم ، وأمة مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضل فأولئك هم الخاسرون) . ليس المراد

سورة الأعراف

ان من يخلق الله فيه الهداية فهو المهتدي ، ومن يخلق فيه الضلال فهو الضال ..
كلا ، ان هذا المعنى تأباه القطرة والبدية .. لأن الله ليس بظلام للعبيد، وأيضاً
بأباه النص القرآني : فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها
- ١٠٨ يونس ، . وكيف يجمع الله تعالى بين وصفي العدالة والاضلال ؟ ان
الشیطان هو المضل : « قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين - ١٥
القصص ، . « وأضل فرعون قومه . »

والذي نراه ان المعنى المقصود من الآية ان المهتدي حقاً هو من كان عند
الله مهتدياً ، ولو كان عند الناس ضالاً .. وليس من شك ان الانسان لا يكون
من المهتدين في الميزان الإلهي إلا اذا آمن وعمل صالحاً : « إن الذين آمنوا وعملوا
الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم - ٩ يونس ، . « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم
سبيلنا وإن الله لمع المحسنين - ٦٩ العنكبوت ، « وكذلك الضال فإنه من كان
ضالاً في حساب الله ، لا في حساب الناس . وبكلمة ان الآية تحدد معنى كل
من المهتدي والضال بأنه من كان كذلك عند الله ، تماماً كما قال الإمام علي(ع) :
الغنى والفقر بعد العرض على الله .

(ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس) . ذرأنا خلقنا .. والله سبحانه
لم يخلق ولن يخلق أحداً بقصد تعذيبه ، كيف ؟ . وهل يلتذ جلت عظمته بتعذيب
المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلاً ؟ . في بعض ما قرأت
ان الأمريكيين كانوا إذا أرادوا الترويح عن النفس جاءوا بأحد الملونين، وتحلقوا
حوله ، وأمطروه بوابل من رصاص مسدساتهم ، فيسقط على الأرض متخبطاً
بدمائه ، وهم يرسلون القهقهات عالياً .. والله لن يشوي البشر بناره إلا إذا
تجنس بالجنسية الأمريكية أو الصهيونية .. تعالى الله عما يصفون .

ان الله سبحانه خلق الانسان للعلم النافع ، والعمل الصالح ، وزوده بجميع
المؤهلات لذلك ، وأعطاه العقل المميز بين الهدى والضلال، وأرسل الرسل لايقاظه
وارشاده ، وترك له الخيار في سلوك الطريق الذي يشاء منها ، لأن الحرية هي
قوام حقيقة الانسان ، ولو سلبها منه لكان هو والجهاد سواء ، فان اختار طريق
الهدى أدى به الى مرضاة الله وثوابه ، وان سلك طريق الضلال فآله جهنم

الجزء التاسع

وساءت مصيراً .. وعلى هذا تكون اللام في لجهم لام العاقبة مثل اللام في ليكون من قوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً، ومثل: لدوا للموت وابنوا للخراب .

وتسأل : ان الله سبحانه قال : « وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون » وأنت تقول : خلق الله الانسان للعلم النافع ، والعمل الصالح .

الجواب ان العلم النافع والعمل الصالح من أفضل الطاعات ، فقد جاءت الرواية : عالم واحد أفضل من ألف عابد ، وألف زاهد ، وفي رواية ثانية : عالم ينتفع بعلمه أفضل من عبادة سبعين ألف عابد .

(لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولم آذان لا يسمعون بها) . كل شيء لا يؤدي الغاية المطلوبة منه فوجوده وعدمه سواء من هذه الحثيثة . ومن أهم الغايات المقصودة من القلب أن يفتح لدلائل الحق ، ومن العين أن تبصر هذه الدلالة ، ومن الأذن أن تسمعها : فاذا أعرضت هذه الأجهزة الثلاثة عن ذلك ، ولم تنتفع بشيء من دلائل الحق كان وجودها كعدمه، قال تعالى : «ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ٣٧ قه . فالقلب والسمع موجودان ، ومع ذلك يصح سلب الوجود عنها اذا غفلا عن آيات الحق ودلالته (أولئك كالأنعام) لهم قلوب وأعين وآذان ، ولكن قلوبهم لا تفتح للحق ، وأعينهم لا تبصر دلالته ، وآذانهم لا تسمعها فكانوا كالأنعام (بل هم أضل) لأن الأنعام تؤدي الغرض المطلوب منها على أكمل وجه، ولأنها تعجز عن تحصيل الكمال ، ولا تحاسب وتعاقب ، وبالتالي هي تعرف خالقها بالفطرة ، والكافرون لا يؤدون المطلوب منهم ، وقادرون على الكمال ، ولا يفعلونه، وهم محاسبون ومعاقبون (أولئك هم الغافلون) عن دلائل الله في أنفسهم وفي الآفاق، وعن مصيرهم وما سيجل بهم في الآخرة من الخزي والعذاب .

هل اسماء الله توقيفية او قياسية ؟

(والله الأسماء الحسنى) . كل أسماء الله حسنة ، لأنها تعبر عن أحسن المعاني

سورة الأعراف

وأكملها ، وكلها على مستوى واحد في الحسن ، إذ ليس لله حالات متعددة ، ولا صفات متغايرة ، حتى عند القائلين بأن صفاته غير ذاته، ولا أفعال متفاوتة ، فخلقة جناح بعوضة وخلق الكون بأسره سواء لديه ، يوجد كلاً بكلمة « كن فيكون » .. ومضى تساوت المعاني تساوت الألفاظ لأنها فرع، والفرع ينبع الأصل.

(فادعوا بها) . أي اذكروا الله ، وادعوه بأي اسم شئتم من أسمائه، فكلها ألفاظ تعبر عن تنزيهه وتعظيمه على مستوى واحد ، وليس لله اسم أعظم، واسم غير أعظم، فكل ما دل عليه هو أعظم الدلالات ، لأن المدلول أعظم الموجودات.. ومن أجل هذا لا نقول مع القائل : ان لله اسماً خاصاً هو الاسم الأعظم ، وان من عرفه فاضت عليه الخيرات ، وظهرت على يده المعجزات .. وقيل « ان لله تسعاً وتسعين اسماً ، وان من أحصاها دخل الجنة » . حتى كأن الله خلق جنته لمؤلفي قواميس اللغة ، لا للمتنقين ١.

(وذكروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) .. اللحد والاحداد الميل عن القصد، ومعنى الجملة النهي عن اطلاق أية كلمة تشعر بالربوبية على غيره ، سواء أكان ذلك الغير نبياً أو كوكباً أو صنأً أو أي شيء، وأيضاً لا يجوز اطلاق أية كلمة عليه تشعر بغير الربوبية كالأب والابن .

واختلف علماء الكلام في أسماء الله تعالى : هل هي توقيفية أو قياسية؟. ومعنى توقيفية الوقوف في أسمائه على ما جاء في الكتاب والسنة ، بحيث لا يجوز اطلاق أي اسم عليه إلا إذا نصت عليه آية أو رواية ، ومعنى قياسية ان أي لفظ كان معناه ثابتاً في حق الله فيجوز اطلاق هذا اللفظ عليه، سواء أورد في كتاب الله ، أم لم يرد .

وذهب أكثر العلماء الى أن أسماء الله توقيفية . أما نحن فنجزر مخاطبة الله ومناجاته بكل ما يدل على التنزيه والتعظيم، سواء أورد له ذكر في القرآن والحديث أم لم يرد، ولا نمنع إلا عما منع الله عنه، عملاً بالمبدأ القائل : كل شيء مباح، حتى يرد فيه نهى على شرط التعظيم .. هذا ما تقتضيه الأصول والقواعد العلمية الدينية ، بالإضافة إلى اجماع الأمة قديماً وحديثاً في كل زمان ومكان على ان لغير العرب أن يعبروا عن ذات الله وصفاته وأفعاله بلغتهم الخاصة بهم .

الجزء التاسع

(ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) . كل الناس منهم مؤمن وكافر ، وطيب وخبيث ، وما من أحد إلا ويعرف هذه الحقيقة ، فما هو القصد من بيانها ؟ .

الجواب : قال سبحانه في الآية السابقة : ان كثيراً من الجن والإنس مصيرهم الى جهنم ، ولقد فرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، فناسب ان يقول هنا : وان أمة منهم مصيرها الى الجنة ، وان تكن هذه أقل من تلك كما تشعر لفظة (من) . وعبر عن أهل الجنة بالذين يهدون بالحق وبه يعدلون اشارة الى ان السبب الموجب لدخولهم الجنة هو الهدى والعدل .

والذين كذبوا بآياتنا الآية ١٨٢ - ١٨٦ :

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ * مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ *

اللة :

الاستدراج من الدرجة ، أي ان الله يسوقهم الى الهلاك شيئاً فشيئاً ، تماماً كمن يرتقي درج السلم . والإملاء الإمهال والتأخير . والكيد المكر ، والمراد به

سورة الأعراف

هنا التدبير الخفي ، بحيث لا يشعر المكيد له إلا بعد خسارته وخذلانه . والجنة بكسر الجيم ، وأصله السر . والمملوكات المالك غير المملوك . والعمسة للقلب ، والعيسى للعين .

الإعراب :

إن كيدي متين جملة مستأنفة ولهذا كسرت همزة إن . وما استفهامية انكارية في محل رفع بالابتداء ، وبصاحبهم متعلق بمحذوف خبراً ، والجملة مفعول ليتفكروا لأن التفكر من أفعال القلوب التي يجوز تعليقها عن العمل . وإن عسى (إن) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف أي أنه عسى ، والمصدر المنسبك من أن يكون فاعل عسى ، وقد استغنت عسى بالفاعل هنا عن الخبر ، كما استغنت عنه في قولك عسى أن تقوم كأنك قلت : قرب قيامك ، ومثله عسى أن تكرهوا شيئاً . واسم يكون ضمير مستتر يعود الى الشأن ، وجملة قد اقترَب أجملهم خبر كان ، والجملة من عسى وفاعلها خبر إن .

المعنى :

(واللذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) . قد تتابع النعم على الانسان ، فينادى في طغيانه اغتراراً بكثرته وثروته ذاهلاً عن المخبات والمفاجآت ، حتى إذا قال الناس طوبى له فاجأته ساعة السوء .. وقد اغتر أبو سفيان يوماً أحد ، وقال : يوم بيوم بدر ، حتى إذا جاء نصر الله والفتح استسلم صاغراً . قال الإمام علي (ع) : « كم من مستدرج بالاحسان اليه ، ومغرور بالستر عليه ، ومفتون بحسن القول فيه ، وما ابتلى الله أحداً بمثل الاملاء له (واملي لهم ان كيدي متين) . الاملاء الامهال وعدم الاستعجال ، والمراد بكيد الله أنه تركهم يغترون باحسانه الظاهر ، حتى إذا ركنوا اليه أخذهم من حيث لا يشعرون : « أبحسون إنما نغدهم به من مال وبين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون - ٥٧ المؤمنون » .

(أو لم يفكروا ما بصاحبهم من جنة ان هو الا نذير مبين) . هكذا يثبت للصوفى والسفاكون دعاياتهم المضللة ضد كل مخلص في كل زمان ومكان .. محمد مجنون وساحر وكذاب ، ولمه ؟ لأنه يأبى الكذب والضلال ، ومحارب للصوفية والاستغلال .. افترت قريش على محمد .. وهي تعرف من هو محمد منذ نشأته ، حتى تجاوز الأربعين من عمره الشريف ، وتعرف فيه العقل والصدق والأمانة ، ولكنها تعرف أيضاً ان رسالة محمد هي الخطر الأكبر على سلطان قريش وطفانيها ، ومن أجل هذا وحده قالت : انه مجنون عسى أن يندع بهذا الافتراء من استغلوه واستعبدوه .. فدعاهم القرآن إلى التفكير والتدبر في أمر محمد (ص) ، وهو صاحبهم ، وعشيرهم الذي سبروه وخبروه ، دعاهم القرآن أن يفكروا : هل أخذوا عليه مأخذاً ، أو وجدوا في عقله وخلقه مغزراً ؟ (ان هو إلا نذير مبين) يبين الحق ، وينسلر من خالفه ، وهذا هو ذنبه الوحيد عندهم .

(أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) . ملكوت مبالغة في الملك ، والمعنى ان السموات والأرض وكل ما فيها من شيء يخضع لسلطانه ، ويدل على وحدانيته ، وان ما من عاقل ينظر الى أي شيء في هذا الوجود مجرداً عن كل غاية إلا آمن بالله وكتبه ورسله ، أما الذي لا يفكر إلا في مصلحته فلا يهتدي ولن يهتدي إلى الله ولا لشيء من الخير (وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) . بعد أن طلب الله اليهم التفكير والتدبر في خلق الكون وأشياءه نبههم إلى الموت هادم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وانه ربما فوجئوا به عما قريب ، وهم في ضلالهم سادرون . نبههم الى هذا عسى أن يتوبوا ويثوبوا الى الرشده .

(فبأي حديث بعده يؤمنون) ؟ الضمير في بعده يعود الى القرآن ، وليس بعد القرآن بيان أقوى ، ولا دليل أقوى ، فن لا تقنمه دلائل الله فلا يقنعه شيء . (من يضل الله فلا هادي له) ذكرنا معناه قريباً عند تفسير الآية ١٧٨ من هذه السورة (ويلزمهم في طغيانهم يعمهون) . أي ان الله يتركهم يترددون في الضلال ويعملهم إلى أجل ، ثم يجازيهم بما أسلفوا ، وليس في هذا الإهمال ظلم ، لأنه جاء بعد البيان والتحذير ، وبعد اليأس من ارجعائهم وهدايتهم .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا
لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً
يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ
وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا
إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *

الآية :

الساعة لغةً جزء قليل غير معين من الزمان ، وعرفاً جزءاً من أربعة وعشرين
جزءاً من مجموع الليل والنهار ، والمراد بالساعة هنا الوقت الذي يقضى فيه العالم
ويعتوت جميع الخلق . ومرساها اثباتها وحصولها من رسا الشيء إذا ثبت وحصل .
والخفي المستقضي في السؤال .

الإعراب :

أبان اسم مبني لتضمنه حرف الاستفهام ، وهو سؤال عن الزمان ، وعمله
الرفع خبراً مقدماً ومرساها مبتدأ مؤخر . وبغته حال من الضمير في تأتاكم العائد
إلى الساعة .

المعنى :

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو) . المراد بالساعة خراب الكون وموت الخلائق ، ويجليها يكشفها ويظهرها ، واللام في لوقتها للتوقيت ، مثل أقم الصلاة لدلوك الشمس .. ويدل ظاهر الآية على ان قوماً سألوا رسول الله (ص) : متى تقوم الساعة ؟ فأمره الله أن يقول لهم : انها من الأمور التي ليس في طاقة البشر معرفتها ، وان علمها مختص بالله وحده ، وهو الذي يكشفها في وقتها المحدود (ثقلت في السموات والأرض) أي ثقل وقعها على أهل السموات والأرض لعظمتها وشدتها (لا تأنيكم إلا بغتة) من غير اعلام سابق .

(يسألونك كأنك حفي عنها) أي كأنك مهتم بالسؤال عنها مثل اهتمامهم . لم يكن النبي (ص) بهم بعلم الساعة ومتى تقوم ؟ وانما كان بهم بالعمل لأجلها والانداز بها ، ويربط بين النجاة من هولها وبين العمل الصالح ، ومن أجل هذا لم يسأل ربه عنها . وقيل : ان اعرابياً سأله : متى تقوم الساعة ؟ فقال له النبي (ص) : وماذا أعددت لها ؟ يريد بجوابه هذا أن يفهمه ان الأولى بك أن تسأل عما ينجيك منها ، لا عن وقتها وشكلها . فالعاقل اذا أصيب بداء لا يسأل : كيف يموت به ؟ وانما يسأل : ما الذي يشفيه منه ؟ . وأعاد سبحانه (قل انما علمها عند الله) لتأكيد حصر العلم بالساعة وحده ، ونهيها لقوله : (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) بأن علم الساعة عند خالقها ولا يُطلع عليه أحد .

النبي وعلم الغيب :

(قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء الله) . هذه عقيدة المسلمين بنبيهم محمد أشرف خلق الله أجمعين ، لا يملك لنفسه شيئاً فضلاً عن أن يملكه لغيره ، وهذا الاعتقاد بمحمد (ص) هو نتيجة حتمية لعقيدة التوحيد .

(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) . ان كلمة الغيب لا تدل على معناها فحسب ، بل تدل أيضاً على ان الغيب لله وحده ،

سورة الأعراف

وبالإضافة الى هذه الدلالة فان أقرب الناس الى ربه يعلن للأجيال بأنه أمام الغيب بشر لا فرق بينه وبين غيره من الناس ، ثم لا يكتفي بهذا الإعلان بل يستدل على ذلك بالحس والوجدان وهو انه لو علم الغيب لعرف عواقب الأمور ، فأقدم على ما تكون عاقبته خيراً ، وأحجم عما تكون عاقبته شراً ، وما أصابه في هذه الحياة ما يسوؤه ويكرهه .

وكيلاً يقول قائل : كيف لا يعلم محمد الغيب ، وهو الرسول المقرب من الله ؟ قال محمد (ص) بأمر من الله : (إن أنا إلا بشير ونذير لقوم يؤمنون) . انه رسول الله ، ما في ذلك ريب .. ولكن مهمة الرسول تنحصر بتبليغ الناس رسالات ربهم ، وانذار من عصى بالعقاب ، وبشارة من أطاع بالثواب ، أما علم الغيب ، والنفع والضرر فييد الله وحده .. وخص المؤمنين بالبشارة والالذار مع انهما يمان جميع الناس اشارة إلى أن البشارة والالذار إنما يتنفع بهما من يريد الإيمان الحق ، أما المكابر فلا يجدي معه شيئاً .

وتسأل : لقد جاء في سيرة النبي (ص) وكتب الأحاديث : ان محمداً(ص) أخبر عن كثير من المفيات .. من ذلك اخباره بأن المسلمين من بعده يتغلبون على الروم والفرس ، وان سلمان الفارسي سيوضع على رأسه تاج كسرى . فوضع .. وأيضاً أخبر عن موت النجاشي وعن شهادة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة وعن نباح كلاب حوآب على عائشة وعن قتال علي بن أبي طالب الناكثين والقاسطين والمارقين ، وعن استشهاد سبطه الحسين بن علي .. إلى غير ذلك كثير .. فكيف تجمع بين إخباره عن المفيات ، وبين قوله : (ولو كنت أعلم الغيب) .

الجواب : ان غيب الله لا حد له ولا حصر ، وحده ان لا حد له ، وهذا الغيب على أنواع : نوع يحجبه الله عن عباده ، ولا يُطلع عليه أحداً كائناتاً من كان كقيام الساعة . ونوع يُطلع عليه من ارتضى من عباده ، وإليه أشارت الآية ٢٦ من الجن : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » . والآية ١٧٩ من آل عمران : « وما كان الله ليطالعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء » . ونوع يطلع عليه كل الناس كالبعث والنشور ، والجنة والنار .

الجزء التاسع

فالمراد بأن الغيب لله وعند الله انه لا طريق الى معرفته بالتجربة ، ولا بالعقل ولا بأي شيء إلا بالوحي منه تعالى، وهو يوحى بشيء من غيبه إلى من ارتضى من رسول حسبما تستدعيه الحكمة وحاجة الناس ، والرسول بدوره يخبرهم بهذا الغيب كما تلقاه من الله .. وعلى هذا فلا يكون إخبار الرسول به علماً بالغيب، بل نقلاً عن علم الغيب، والفرق بعيد بين مصدر العلم ، وبين النقل عن مصدره ، لأن الأول أصل، والثاني فرع ، وأيضاً فرق بين من ينقل عن نقل عن الأصل مباشرة ، وبين من ينقل عن هذا الناقل .. قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم - ٣٢ البقرة .

وهذه الآيات دليل قاطع على فساد ما تقوله الصوفية من ان نفس الانسان ينحو من الرياضة تنعكس فيها المغيبات .. وقد أسما هذا الانعكاس علماً لدنياً.. ولست أدري كيف جمع الصوفية بين الإيمان بالله ورسالة محمد (ص) ، وبين الاعتقاد بهذا العلم الدني ؟.

وأعجب من هذا ما قاله ابن العربي في الجزء الثالث من الفتوحات المكية الباب ال ٣١١ : ان من أحب الله حباً خالصاً يستطيع أن يحول نفسه الى أية حقيقة شاء من حيوان أو شجر أو حجر أو ماء .. وقد حدث هذا بالفعل ، ذلك ان بعض المحبين من أهل هذه الطريقة - أي الصوفية - دخل على شيخ وحول نفسه بين يديه الى كف من ماء .. ولما قيل للشيخ : دخل عليك فلان ولم يخرج ، فأين هو ؟. قال لهم : هذا الماء هو .

هو الذي خلقكم من نفس واحدة الآية ١٨٩ - ١٩٠ :

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَرَتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا

جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ *

المعنى :

ليست الآيتان حكاية عن حادثة خاصة حصلت بين زوج وزوجته كما بوجه ظاهر اللفظ ، كلا ، وإنما هما حكاية عن حال الانسان بما هو مع صرف النظر عن أفراد معينين ، وتتلخص حكاية هذه الحال أو هذا التمثيل بأن الانسان اذا نزل به ما يكره ، أو أراد الحصول على ما يحب التجأ الى الله يدعو وينضرع ويقطع على نفسه اليهود والمواثيق ان الله اذا حقق له ما يريد شكره وأطاعه ، فاذا آتاه الله ما أراد تولى معرضاً عن عهوده ومواثيقه ، وبعد هذا التمهيد الذي ينبغي أن تفهم الآيتان على أساسه نشرع بايضاحهما :

(هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها) . الخطاب في خلقكم لجميع الناس ، والمعنى انكم جميعاً أيها الناس من شيء واحد جنساً وطبيعة وعنصراً ، لا فرق إطلاقاً بين شرقي وغربي ، ولا عربي وعجمي ، ولا بين اسود وأبيض ، ولا ذكر وأنثى .. ومسألة الذكر والأنثى تعم جميع الأجناس ، ولا تختص بجنس دون جنس ، قال عز من قائل : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون - ٤٩ الذاريات ، والغرض من ذلك معروف هو حفظ النوع ، وبالإضافة الى هذا الغرض فإن الله سبحانه قد خلق للانسان زوجاً من جنسه ليسكن كل منها للآخر ويطمئن اليه ، وليكون بين الاثنين مودة ورحمة .

(فلما تشاها حملت حملاً خفيفاً فررت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) . تشاها قاربها ، وفي الفعل ضمير مستتر يعود الى الزوج وضمير (ها) الى الزوجة ، ومرت به أي استمرت بالحمل ، ولم تسقطه ، وأثقلت حان وقت الولادة ، وفي هذا الحين انجه كل من الأب والأم الى الله سبحانه ، وتضرعا اليه ان يرزقها ذكراً صالحاً أي تام الخلقة والخلق ،

وان الله ان استجاب وفعل أديا شكر هذه النعمة على أكمل الوجوه (فلما آتاها صالحاً) كما طلبا (جعلنا له شركاء فيها آتاها) ضمير جعلا يعود الى الزوج والزوجة ، وضمير له يعود الى الله ، والمراد بما آتاها الولد الذي طلباه ، والمعنى ان الله لما رزقها الولد قالوا : الفضل فيه للأصنام وبركاتنا ، ونسبنا الله وما عاهداه عليه (فتعالى الله عما يشركون) أي يشرك جميع الكافرين ومن جملتهم هذان الزوجان . ومرة ثانية نقول : ان القرض الحكاية عن حال الانسان بما هو ، وليس الحكاية عن حادثة خاصة .

أبشركون ما لا يخلق شيئا الآية ١٩١ - ١٩٨ :

أَبَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا
وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ
عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ عِبَادُ أَثْمَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *
أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ
بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا
تُنْظَرُونَ * إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ *
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ
يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ
وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ *

المعنى :

(أبشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون) . إن الخلق والأمر لله ، وهو وحده الذي يقول للشيء كن فيكون ، وكل من عداه وما عداه بما فيه الأصنام مفتقر اليه تعالى في أصل وجوده وفي استمراره في الوجود . (ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أن ينصروا) ان النصر والغلبة والاعزاز والاذلال بيد الله ، والأصنام أحجار تبول عليها القطط والكلاب ، فلا تنصر ولا تنتصر (وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أَدْعَوْتُكُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ) . هذه الأصنام لا تخلق ، ولا تنصر ولا تنتصر ، ولا تهدي ولا تهدي ، ولا تدعو أحداً ، ولا تستجيب لدعوة أحد ، ومع كل هذا تعبدوا .

(ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين) . لقد زعمتم أيها المشركون ان الأصنام آلهة ، والإله ينفع ويضر ، ويعطي ويمنع فاطلبوا منهم لئرى هل يستجيبون لطلبكم ؟ (ألم أُرْجِلْ بِمَشُونِ بِهَا أَمْ لَمْ أَيْدِ بِبِطْشُونِ بِهَا أَمْ لَمْ أَعِينِ بِبِصْرُونِ بِهَا أَمْ لَمْ أَذَانِ يَسْمَعُونَ بِهَا) . هذا لإيقاظ وتنبية للمشركين الى أنهم خير وأفضل من الأصنام التي يعبدون ، لأن لهم عقولاً تدرك ، وأعيناً تبصر وأذناً تسمع ، وأرجلاً تمشي ، وأكفاً تبطش ، وألسنة تنطق ، وليس للأصنام شيء من ذلك ، فكيف صار الادون معبوداً ، والأكمل عبداً له ؟ .

وتسأل : ان الواو ضمير للعاقل ، فكيف استعمالها القرآن في الأصنام، وهي لا تعقل ، مثل يخلقون ويبصرون الخ ؟ .

الجواب : انها تستعمل في العاقل وغيره ، ومن ذلك قوله تعالى : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم . وقوله : وكل في فلك يسبحون . ولكن الأكثر استعمالها في العاقل .

(قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) . قل الخطاب لمحمد (ص) ، وادعوا للمشركين ، والأمر فيه للتعجيز ، وشركاءكم أي أصنامكم ، وأصل كيدون كيدوني ، ومثلها فلا تنظرون ، وعحصل المعنى ان الله سبحانه أمر نبيه

الجزء التاسع

أن يقول للمشركين : إن كان لأصنامكم شأن كما تزعمون فاني احتقرها وإياكم ، فاستجدوا بها لكبدي والاقتصاص مني ، ولا تمهلوني لحظة ، فهذا أوان مقدرتها وسلطانها .

(ان ولي الله السلي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) . بعد أن تحدى النبي (ص) المشركين وأهنتهم قال لهم : أنتم تتولون هذه الأصنام ، وأنا أتولى الله الذي نزل عليّ القرآن ، وفيه تبيان كل شيء ، وهو أيضاً يتولى حفظي وحراستي ، فهل لأصنامكم كتاب ؟ وهل تتولى هي حفظكم وحراستكم ؟ .. وكانت النتيجة ، كما يعرفها الجميع ، اذلال الشرك والمشركين ، واعزاز الاسلام والمسلمين .

(والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) . تقدم هذا في الآية ١٩٢ ، وجاء التكرار لأن النبي (ص) تحدى الأصنام ان تناله بأذى فناسب أن يشير الى أنها أعجز من أن تنصر أو تنتصر .

(وان تدعوهم الى الهدى لا يسמעوا) . أيضاً تقدم في الآية ١٩٣ والتكرار لل غاية نفسها .

(وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) . يدل هذا النص على ان الأصنام كانت تماماً كهذه التماثيل في الكنائس ، وان عرب الجاهلية كان لهم شأن في فن النحت لأنهم جعلوا أصنامهم بحيث يتخيل الرائي للوهلة الأولى أنها تنظر وتبصر . وتساءل : لماذا كرر الله وأعاد في آيات متلاحقة متلاصقة ان الأصنام لا تنصر ولا تتفع ، ولا تنصر ولا تنتصر ، وأنه ليس لها أيدٍ ولا أرجل ولا أعين الخ حتى بلغت الآيات تسعاً ، مع العلم بأنه بغني عن كل ذلك القول : انها أحجار وكفى .

الجواب : لقد سيطرت الوثنية على تفكير العرب وعقولهم ، وامتزجت بأرواحهم ودمائهم ، لأنهم ورثوها عن الآباء أجيالاً وقروناً ، وكان إيمانهم بها أقوى من إيمانهم بالله الذي جعلوها شريكة له .. فلم يكن تغيير شيء من عقيدتهم هذه سهلاً يسيراً ، وكانوا يضحون بالنفس والنفيس اذا ذكرها ذاكراً بسوء ، فاقضى ذلك التكرار والتأكيد والايضاح .. ولنفترض ان واحداً من رجال الكنيسة حاول

سورة الاعراف

أن يزيل منها هذه الصور والتماثيل فهل يكتفي بقوله : انها أوراق وأحجار ، أو يلقي الخطب الطوال العراض ؟.

نخذ العفو وامر بالعرف الآية ١٩٩ - ٢٠٣ :

نُحِذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ * وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإِيرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *

الآلة :

العفو هو الذي يأتي من غير كلفة ومشقة ، والعرف المعروف ، وهو فعل الخير . والترغ في اللغة التغر والوكر ، ونزغ الشيطان اغراؤه بالشر والفساد . والاستعاذة بالله الالتجاء اليه . والمس الاصابة . والطائف ما يدور حول الشيء ويأتيه من جميع نواحيه . ومعنى اجتبيتها اصطفتيها ، والمراد بها هنا اقتعلتها .

الاعراب :

إذا هم مبصرون (إذا) هنا للمفاجأة لا نحتاج الى جواب. ولولا أداة طلب بمعنى هلا .

المعنى :

(خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلین) . أدب الله نبيه محمداً (ص) فأحسن تأديبه ، وكان يقول في دعائه : اللهم حسن خلقي وخلقي ، وجنبي منكرات الأخلاق ، وقد استجاب الله دعاءه ، وأتم له مكارم الأخلاق ، ثم أرسله كافة للناس ليتم لهم مكارم الأخلاق . ومن الآيات التي أدب الله بها رسوله الأكرم (ص) هذه الآية ، وقد تضمنت أسساً ثلاثة في الشريعة والآداب ، وهي :

١ - العفو ، وهو السهل اليسير الذي لا مشقة فيه ولا عسر ، ويكون في الأفعال وفي الأخلاق ، وهو في الأموال ما زاد عن الحاجة ، وقد أمر الله نبيه أن لا يشق على الناس فيما يأمرهم به ، وينهاهم عنه ، وأن يأخذ زكاة أموالهم فيما زاد عن حاجاتهم ، وهذا أصل من أصول الشريعة : « وما جعل عليكم في الدين من حرج - ٧٨ الحج » ، وأن لا يكلفهم الشاق من الأخلاق ، كأن يلزم أحدهم أن يتنازل لغريمه عن حقه ، ولا يقتصر منه لنفسه .

٢ - الأمر بالعرف ، وهو الخير المعروف الواضح بدركه الانسان بفطرته .

٣ - وأعرض عن الجاهلین ، وهم الذين لا تُرجى هدايتهم بالحجة والدليل ، ولا بالموعظة والارشاد .. وقد يكون افعالهم والإعراض عنهم أجدى في هدايتهم .

وقال الشيخ المراغي في تفسير هذه الآية : « روي عن جعفر الصادق رضي الله عنه انه قال : ليس في القرآن أجمع لمكارم الأخلاق منها » .

(وإما يترغلك من الشيطان نزع فاستعد بالله انه سميع عليم) . النبي يغضب ما في ذلك ريب .. ولكنه يغضب لله ، حتى غضبه لنفسه هو غضب لله .. وربما غضب على جهالة جاهل من الذين أمرهم الله بالإعراض عنهم ، فتحركه نفسه لمجاوبته بكلمة يستحقها ، فقال له مؤدبه الأعظم جل ثناؤه : إن صادف وعرضت لك مثل هذه الحال فلا يذهبن الغضب بحلمك فاصبر واستعد بالله ، فانه يسمع لك ويستجيب ، ويعلم ما تلاقيه من أهل السفاهة والجهالة ، وبثيك عليه .

سورة الأعراف

ولا بد من الإشارة الى ان قوله تعالى : (وإما يترغلك من الشيطان نزع) هو مجرد فرض لمكان ان الشرطية ، تماماً كقوله : (لكن أشركت لبيحطن عهلك) . وبديهة ان فرض المحال ليس بمحال ، وفي المجلد الثاني صفحة ٧٥ فقرة : الأنبياء والمعصية ، بيّنا ان الله سبحانه أن ينهى أنبياءه المعصومين عن المعصية ، لأن نهيهم من الأعلى الى من هو دونه، وليس لأحد غير الله أن يأمرهم أو ينهاهم .

(ان الذين انقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا) . ما من انسان إلا وتنازعه اندفاعات نفسية ، بعضها عاطفي ، وبعضها عقلي ، وبعضها ديني ، وفي الأغلب يهزم الدين والعقل أمام العاطفة ، لأنها تنبع من ذات الانسان ، وتلازمه منذ تكوينه في بطن أمه ، والعقل متأخر عن العاطفة في الوجود ، وهو ينمو بالدرس والتجربة ، أما الدين فترل لترويض العاطفة وكبح جماحها . فهو أضعف العوامل والانفعالات .. اللهم إلا إذا اقتنع الانسان به اقتناعه بنفسه وكيانه ، بحيث لا يرى لنفسه وجوداً سعيداً إلا بالدين والعمل بأحكامه ، وهذا النوع من المتدينين هم الذين يتغلب دينهم على ميولهم ، وهم المعنيون بقوله تعالى : (إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا) . أي إذا أغراهم الشيطان بمعصية الله ، أو وسوست لهم النفس الامارة بذلك تذكروا ما أمرهم الله به ، وما نهاهم عنه (فإذا هم مبصرون) مكائد الشيطان ووسوسة النفس ، فيحجمون عن المعصية ، ويتغلب دينهم على أهوائهم .

(واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا بقصرون) . المراد بالاخوان هنا للشياطين ، والضمير في اخوانهم يعود الى المشركين الذين تقدم ذكرهم ، والضمير المرفوع في يمدونهم يعود الى الشياطين ، والضمير المنصوب يعود الى المشركين ، والمراد بلا يقصرون لا يكف الشياطين عن امداد المشركين بالاغواء والافساد ، وملخص المعنى ان الشياطين هم اخوان المشركين لا يكفون عن غوايتهم وتضليلهم .

(وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجبتنا) . كان المشركون يطلبون من النبي آيات ومعجزات معينة على سبيل التعمت ، فإذا لم يأتهم بها قالوا له : هلا تأتينا بها انت من نفسك ؟ . ألسن نبياً ؟ . (قل انما اتبع ما يوحى إلي من ربي) .

الجزء التاسع

أي قل يا محمد لهؤلاء المعتنين : أجل ، أنا نبي ، ولكن النبي لا يصنع المعجزات ، ولا يتتبع من عنده الآيات ، ولا يقترحها على الله ، بل ينتظر الوحي ، ويبلغه لعباده .

(هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) . هذا اشارة الى القرآن ، والبصائر هي الحجج والبيئات التي يبصر العاقل بها الحق ، ويميزه عن الباطل .. بعد ان قال النبي (ص) للمشركين : انما اتبع ما يوحى إلي من ربي قال لهم : وقد أوحى إلي ربي بهذا القرآن ، وفيه الأدلة الساطعة على نبوتي ، وهو هدى ورحمة لمن يريد أن يؤمن بالحق لوجه الحق ، فإن كنتم من طلابه كما تزعمون فعليكم أن تتركوا الشرك ، وتسلموا ، والا فانتم طلاب منافع وأرباب غايات .

واذا قرئ القرآن الآية ٢٠٤ - ٢٠٦ :

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ *

اللمعة :

استمع له واليه أصغى بقصد . والانصات السكوت من أجل الاستماع . والغدو جمع غدوة ، وهي الصباح ، والآصال جمع أصيل ، وهو المساء ، والقصد دوام الذكر . وخيفة حالة الخوف .

الاعراب :

تضرعاً وخيفة مصدران في موضع الحال من واو فاستمعوا ، أي متضرعين وخائفين . ودون الجهر أي واذكر ربك دون الجهر ، والجملة عطف على واذكر ربك في نفسك . وبالغدو متعلق باذكر .

المعنى :

(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحون) . لما ذكر سبحانه في الآية السابقة ان القرآن بصائر وهدى ورحمة أمر في هذه الآية بالاستماع والانصات له ، لتدبر ما فيه من الهدى والدلائل ، وليس من شك ان من تدبر القرآن ، وانعظ به فهو جدير برحمة الله ورضوانه .

وانفق الفقهاء ما عدا الظاهرية على ان الانصات لقراءة القرآن مستحب وليس بواجب على غير المأموم الذي يصلي جماعة خلف الإمام .
واختلفوا في المأموم : هل يجب عليه أن يسمع وينصت للإمام ، وهو يقرأ القرآن في صلاته ؟ ذهب جماعة الى الوجوب ، وقال آخرون بعلمه .

وعلى أية حال فان الأمر في قوله تعالى : (فاستمعوا له وانصتوا) هو للاستحباب لا للوجوب ، لأن هذا الأمر حكمه حكم الأمر في قوله : (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول) لأنها جاء في سياق واحد ، والأمر بالذكر للاستحباب فكذلك الأمر بالاستماع والانصات .. هذا ، الى ان الانصات لكل قارئ فيه عسر وحرج ، بخاصة في عصرنا الذي أصبحت فيه قراءة القرآن في المكبرات أشبه بالغناء واللعب ترتفع الأصوات به بمناسبة وغير مناسبة . (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) . اذكر الخطاب للنبي ، والمراد عام ، وتضرعاً وخيفة أي ليكن مع الذكر خشوع وخوف من الله ، ودون الجهر من القول معناه اذكر ربك بصوت متوسط بين الجهر والاضغاث ، وبالغدو والآصال كتابة هن دوام الذكر وقوله تعالى : (ودون الجهر من القول) يدل صراحة على ان من

رفع صوته بالقرآن فقد ترك المستحب وفعل خلاف الأولى بخاصة إذا كان في المكبر ، وبصورة أخص إذا كان فيه إزعاج للنائمين . (ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله في نفسك ، لأن الذكر باللسان فقط أشبه بكلام فارغ لا معنى له . ومعنى ذكره تعالى في النفس أن تدرك أن الله وحده هو الحسنى الرزاق ، والمحبي والمحب ، والمبدئ والمعيد .. وأفضل الذكر إطلاقاً أن يبقى الإنسان الاساءة الى أخيه الإنسان خوفاً من عقاب الله ، وأفضل منه أن يحسن اليه رغبة في ثواب الله عز وجل ، ونقول من غير تحفظ : أن هذا المعنى هو المقصود من قوله تعالى : « ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » - ٤٥ العنكبوت . وقوله : « والله يعلم ما تصنعون » بعد قوله : « ولذكر الله أكبر » يؤيد أن الذكر الأكبر هو الإحسان الى عيال الله .. وأخسر الناس صفقة عند الله من يهمل له ويكبر ، وهو يسمى في أرض الله فساداً بالغش والخداع ، ومشايعة الطغاة والمستعمرين ضد عيال الله الأئمة والمستضعفين .

(أن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) . قال المفسرون : أراد الله هؤلاء المسبحين الساجدين - الملائكة ، واستدلوا على ذلك بـ (عند ربك) لأن الذين عند الله هم الملائكة .. ويلاحظ بأنه من الجائز أن يكون المراد كل من له مكانة ووجاهة عند الله ، سواء أكان ملكاً ، أم بشراً .

واختلف الفقهاء هل يجب السجود عند تلاوة آية فيها كلمة يسجدون كهذه الآية ٩. نقل الطبرسي في المجمع عن أبي حنيفة القول بالوجوب ، وعن الشافعي والإمامية القول بالاستحباب المؤكد .

ويلاحظ بأن الشيعة الإمامية قد أوجبوا السجود على كل من القارئ والمستمع لآيات السجدة من السور الأربع ، وهي ألم تنزيل ، وحم فصلت ، والنجم ، والعلق .

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

آياتها ٧٥ ، وهي مدنية الا من آية ٣٠ لغاية ٣٦ فانها مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قل الأنفال لله والرسول الآية ١ - ٤ :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا
ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ
إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَمْسُكُونَ زُرْقَانَهُمْ
يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *

اللمة :

الأنفال جمع نفل بفتح الفاء ، وهو الزيادة ، والمراد به هنا نوع من المال
يأتي بيانه . وبين ظرف بتوسط بين اثنين أو أكثر ، والمراد بالذات هنا الحال
الواقعة بين اثنين أو جماعة . والوجل الخوف .

الإعراب :

حقاً منصوب على المصدرية ، أي أحق حقاً ، أو صفة لموصوف محذوف أي
إيماناً حقاً .

المعنى :

(يسألونك عن الأنفال) . ذكر سر سبحانه في هذه الآية ان قوماً سألوا
النبي (ص) عن الأنفال ، ولم يبين المراد منها ، واتفق أهل العلم بالدين على ان
آية كلمة ترد في كتاب الله وسنة نبيه من غير تحديد لمعناها فإنها تحمل على المعنى
الذي يفهمه الناس من الكلمة ، فان لم يعرف الناس لها معنى تعين الرجوع الى
قواميس اللغة . وتقول هذه القواميس : النفل الغنيمة والزيادة بوجه عام من غير
تحديد لنوعها ، ومن هنا اختلف المفسرون في المراد بالأنفال : هل هي جميع
الغنائم ، أو هي غنائم بدر ، أو غيرها ؟ .

أما الشيعة الإمامية فقالوا : لا مبرر لهذا الاختلاف لأنه ثبت في السنة النبوية
برواية أهل بيت الرسول (ص) ان المراد بالأنفال الأرض التي تؤخذ من غير
المسلمين ، بلا قتال ، والأرض الموات ، سواء أكانت مملوكة ثم ياد المالك ، أم
لم تكن ، ورؤوس الجبال وبطون الأودية ، والأحراج ، وكل ما اختص به
سلطان الحرب ، على شريطة أن لا يكون مغتصباً من مسلم أو معاهد ، وميراث
من لا ميراث له .

ويتفق هذا مع مذهب المالكية لأنهم فبروا الأنفال بما أخذ بغير قتال (احكام
القرآن لأبي بكر المالكي المعروف بابن العربي المعافري) . وقال أبو اسحق
الفيروزبادي الشافعي في كتاب المذهب : « الأنفال أن ينفل أمير الجيش لمن فعل
فعلاً يفضي الى الظفر بالعدو ، كالتجسس والدلالة على طريق أو قلعة ونحو
ذلك » . وقال الجصاص الحنفي في كتاب أحكام القرآن : « قال أصحابنا :
أن يقول الأمير : من قتل قتيلاً فله سلبه ، ومن أصاب شيئاً فهو له » .
(قل الأنفال لله والرسول) . هذا بيان لمحل الأنفال ، وانها لله ورسوله ،

وما كان الله فهو لرسوله ، وما كان لرسوله يُنفق لاعلاء كلمة الإسلام ،
وصالح المسلمين ، يأخذ منه كل ذي حاجة منهم على قدر حاجته . والتفصيل
في كتب الفقه ، ومنها الجزء الثاني من كتابنا « فقه الإمام جعفر الصادق » .
(فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين) .
هذا يشعر بأن الصحابة قد تنازعوا على الأنفال ، ولما سألوا النبي (ص) قال لهم
بأمر من الله : أنها لله والرسول ، وان عليهم أن يستسلموا لله ورسوله ، ولا
يتنازعوا على الأنفال ولا على غيرها ، وان يتآلفوا ويتحابوا في الله ، كما هو
شأن المؤمنين حقاً .

ثم أوضح لهم جل ثناؤه بأن المؤمنين حقاً من اتصفوا بالأوصاف التالية :

١ - (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) . فالخوف لا ينفك
أبداً عن اسم الله عند المؤمنين ببقائه وحسابه وجزائه ، ولكنهم في الوقت نفسه
يرجون رحمة الله ، لأنهم يؤمنون أيضاً بقوله : « قل يا عبادي الذين أسرفوا
على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » . وقوله : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » .
ومما قاله الإمام علي (ع) في وصف المؤمنين : فهم والجنة كمن قد رآها فهم
فيها منعومون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون . وقال الشاعر
في وصفهم :

تعادل الخوف فيهم والرجاء فلم يفرط بهم طمع يوماً ولا وجل

٢ - (وإذا نلت عليهم آياته زادتهم إيماناً) بأنهم على بصيرة من دينهم ،
تماماً كما لو رأوا الغيب رأي العين ، بل قد يشكون فيما تراه العين لأن الحواس
تخدع صاحبها بعض الأحيان ، فيظن السراب ماء ، والورم شحماً ، أما قوله
تعالى فلا يتطرق اليه الشك واحتمال الخلاف .

الدين لا يثبت قعماً :

٣ - (وعلى ربهم يتوكلون) . وليس معنى التوكل عليه تعالى أن نقول

بألستنا توكلنا على الله ، ولا أن نترك الأسباب والعمل اتكلاً على أن يسخر لنا الأشياء ، ونحن قاعدون ، وإنما التوكل ان نسعى كما أمرنا الله راجين التوفيق منه في سعينا مؤمنين بأن العمل شرط أساسي للتوكل ، وأنه عبادة وطاعة لقوله تعالى : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه - ١٥ الملك » .. ان الإيمان والتوكل على الله من غير عمل لا يثبت قحاً ولا يشفي مريضاً ، وإلا لم يخلق الله للانسان يدين ورجلين من أجل العمل .. نعم ، ان الدين الحق يثبت الحب والاخلاص والاستقامة ، وليس الخبز والدواء .. حتى العلم لا يعطينا القمح ، ولا يشفي من المرض ، وإنما يعلمنا كيف نزرع القمح ونصنع الدواء ، ولا يعنيه بعد هذا مثنا من الجوع والمرض أو لم نمت ، أما الدين فهو الحريص على حياتنا ومن أجلها يحثنا على العلم والسبر على منهجه ، ويعتبر اهماله جريمة اذا أدى الى الفساد والضرر .. ان العلم يرسم الخطوط لحياة راضية مرضية ، وهذا ما يهدف اليه الاسلام ، ومن أجله أمر بالعلم وحث عليه تماماً كما أمر بالصيام والصلاة ، ويعاقب من يستغل العلم للتهب والعدوان كما يعاقب من يحرف الدين لمنافعه الشخصية . والخلاصة إذا صح ان الانسان لا يحيا بالخبز وحده فصحيح أيضاً ان الانسان لا يحيا بالصلاة وحدها .

٤ و ٥ - (الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون) . الأوصاف السابقة من أحوال القلب ، والصلاة والزكاة من أفعال الجسم ، وهما نتيجة حتمية للإيمان بالله ، والخوف منه ، والتوكل عليه .. فتارك الصلاة والزكاة لا يعد من المؤمنين حقاً ، والدليل قوله تعالى :

(أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) . أولئك اشارة الى الذين جمعوا بين الصفات الخمس ، والمؤمنون حقاً هم الذين ينعكس الإيمان في أفعالهم ، لا في أقوالهم فحسب ، والدرجات عند الله تتفاوت تبعاً للجهاد والتضحية ، وأعلاها لمن ينتفع الناس بهم ، ويتحملون الكثير ليعيش عيال الله جميعاً في ظل الأمن والعدل والخصب ، والمغفرة التجاوز عن الهفوات والرزق الكريم الجنة .

كما أخرجك ربك الآية ٥ - ٨ :

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ *
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ *
وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ
الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ
الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ *

اللغة :

المراد بالشوكة هنا القوة ، والطائفتان هما العبر والنضير ، والنفير ذات الشوكة
والعبر غير ذات الشوكة ، وبأني التوضيح . ودابر القوم آخرهم .

الإهراب :

كما متعلق بمحذوف دل عليه السياق ، والتقدير ان القتال حق كما أخرجك
من بيتك بالحق، وكما كره فريق اخراجك من بيتك فقد كره أيضاً فريق القتال.
وإذ يعدكم (إذ) منصوب بفعل محذوف أي اذكروا اذ يعدكم ، وإحدى مفعول
ثانٍ ليعدكم ، وتسبك انها لكم بمصدر في موضع نصب بدل اشغال من إحدى
أي يعدكم إحدى الطائفتين ملكيتها . والمعنى ملكية إحدى الطائفتين ، تماماً كما
تقول : أعجبني زيد ثوبه أي ثوب زيد .

الى بدر :

بُعْثَ النَّبِيِّ (ص) وهو ابن اربعين ، وأقام بمكة بعد البعثة ١٣ سنة ، ثم

سورة الأنفال

هاجر الى المدينة فدخلها يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول، وأقام فيها عشر سنوات، وانتقل إلى ربه وهو ابن ٦٣ سنة يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول، ولما استقر به المقام في المدينة أخذ يرسل سرايا تعرض قوافل المشركين ، وتستطلع أخبارهم ، وتقلق راحتهم ، قال المسعودي : كانت غزوات النبي التي قادها بنفسه ٢٦ قاتل منها في تسع .

ونشير هنا الى خروجه ليدرك لأنها موضوع الآيات التي نحن بصدددها ، وفي هذه الغزوة ظهرت أول قوة للمسلمين ترد بها على قوة المشركين الذين ظلوا يطاردون المسلمين بالتيكيل والأذى أكثر من ١٣ سنة ، والمسلمون يتلقون التكييل بالاحتمال ، والأذى بالصبر ، لأن المقاومة مع الضعف الذي كانوا فيه أشبه بعملية الانتحار ، وتتلخص قصة الخروج الى بدر بأن رسول الله (ص) سمع بأن أبا سفيان رجع من الشام بقافلة ضخمة جهزتها قريش بالكثير من أموالها ، وكان من جملة هذه الأموال ما استولت عليه قريش من أموال المهاجرين الذين نفقهم من مكة .

فجمع النبي الصحابة ، وحثهم على الخروج ليصادروا أموال القافلة ، فتأفل البعض وكره الخروج رهبة من قريش وشوكتها ، ثم مضوا مع النبي ، وكان ذلك في ١٧ رمضان للسنة الثانية من الهجرة ، ولم يدر بخلد واحد من الصحابة انه مقبل على معركة من أعظم معارك المسلمين ، وأبعدها أثراً في حياة الإسلام والمسلمين .

وأرسل يهود المدينة الى أبي سفيان من ينذره ، وهو في الطريق ، فبعث أبو سفيان يطلب النجدة من قريش ، فخرجت برجلها ، ولم يبق أحد قادر على حمل السلاح في مكة ، وكان المسلمون اذ ذاك ما يزالون في طريقهم الى بدر ، ولكن أبا سفيان تحول عنها الى ساحل البحر الأحمر ، وأتى النبي (ص) نبأ قريش ، فاستشار (ص) الصحابة أيمضون لقتال قريش ، أو يعودون الى المدينة ؟ وفي الوقت نفسه قال لهم : ان الله وعده باحدى الطائفتين إذا مضوا للقتال ، والطائفتان هما العير المحملة بالأموال ، والنفير وهم قريش الذين خرجوا من مكة لحماية الأموال ، فأشار الأكثرون بالمضي للقتال ، وكرهه البعض ، كما

الجزء التاسع

كره الخروج من المدينة منذ البداية ، ثم أجمعوا على لقاء قريش .
وعندها قال لهم النبي (ص) : سيروا على بركة الله ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ، فتأهبوا لخوض المعركة ، وابتدأت بها قريش ، وكان عندها حوالي ألف مقاتل بينهم مئة فارس ، والمسلمون نحو ٣٠٠ ليس فيهم إلا فارس وقيل اثنان . وقتل المسلمون من المشركين ٧٠ وأسروا ٧٠ ، وفر الباقون ، واستشهد من المسلمين ١٤ ولم يؤسر أسير ، وكانت هذه الغزوة أول نصر للمسلمين تغيرت بعدها أوضاعهم ، وانحاز الكثير إلى جانبهم ، وأصبحوا يقابلون القوة بالقوة والعنف بالعنف بعد أن كانوا يتلقونه بالسكوت أو الفرار من الوطن ..
بعد هذا التمهيد نشرع بتفسير النصوص .

المعنى :

(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) .
المراد بالبيت المدينة .. حين أراد النبي (ص) الخروج من المدينة لمصادرة العير ثاقل جماعة من المؤمنين ، وقالوا : لا طاقة لنا بقريش ، ثم خرجوا على كره مع من خرج على حب ، وفي أثناء الطريق أخبرهم النبي بخروج قريش من مكة ، واستشارهم : أيمضون للقتال ، أو يعودون إلى المدينة ، فكره البعض القتال ، وقالوا : ما كان خروجنا إلا للعير ، وقال الأكثر : نمضي معك للقتال . ثم مضوا جميعاً إلى المعركة على بركة الله . وهذه الآية تشير إلى موقفين لبعض الصحابة : الأول كراهية الخروج من المدينة إلى العير . والثاني كراهية المضي لقتال النضير بعد أن خرجوا من المدينة قاصدين العير ، وأنهم كما كرهوا الخروج إلى العير فقد كرهوا أيضاً المضي لقتال النضير .. هذا هو معنى الآية ، وهو واضح وبسيط ، ولكن المفسرين حاروا في تفسيرها ، وذكر صاحب البحر المحيط خمسة عشر قولاً .

ومن الطريف ما قاله هذا المفسر في كتاب آخر : انه ذكر في البحر المحيط ١٥ قولاً للآية ، ولم يقتنع بشيء منها ، حتى رأى في النوم انه يمشي في رصيف ومعه رجل يباحثه في قوله تعالى : (كما أخرجك ربك من بيتك) فقال له : ما

سورة الأنفال

مر ببني شيء مشكل في القرآن مثل هذا .. ولعل هناك محذوفاً يصحح به المعنى ما وقفت فيه لأحد المفسرين على طائل ، ثم قلت للرجل : ظهر لي الساعة ان ذاك المحذوف هو نصرك .

وما أردت بذكر ما حدث لهذا المفسر الجليل ان أمس من مكانه ، وانما أردت التدليل على ان العالم الفطن قد تُسد أحياناً في وجهه نوافذ القنطة ، فلجئته الحيرة إلى التثبت بكل شيء .. حتى بالأحلام يفسر بها القرآن ، وهو في واقعه في فطرته على يقين من خطأه ، دون أن يلبث الى هذا الواقع ، وهنا مكان الغرابة .. كيف يكون على يقين ، وهو غير ملتفت ؟. ولكن هذا هو الواقع .. والدليل انه لو رأى من غيره ما ارتضاه لنفسه لأنكر عليه .

(يجادلونك في الحق بعد ما تبين) جادل فريق من المؤمنين في لقاء النصير وقتاله ، مع ان هذا اللقاء والقتال حق وخير ، وآثروا العير لأنها أكثر أموالاً ، وأقل رجالاً .. وقوله تعالى : (بعد ما تبين) يشير إلى أنهم جادلوا بعد أن أخبرهم النبي (ص) بالنصر (كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون) الى الموت وأسبابه عياناً ، وهذه صورة يرسمها القرآن لشدة خوفهم من قريش ، لأنها أقوى عدة ، وأكثر عدداً .

وتسأل : ان المسلمين بقدسون البدرين ، ويرفعونهم إلى المكان الأعلى ، وها هو القرآن يدين بعضهم صراحة ، وانهم جادلوا النبي على رغم بيان الحق لهم ووضوحه عندهم لأن الوحي نزل به وأخبرهم عنه الرسول الأعظم (ص) .
الجواب : ان هذا لا يحط من شأنهم ، ولا يمس من إيمانهم بالله ورسوله .
لأنهم بشر تهتز نفوسهم إذا رأوا الموت برغم إيمانها واطمئنانها ، هذا إلى انها غمامة صيف عرضت ، ثم تقشمت . ومضوا مع النبي ، وواجهوا الموت بعزم وثبات .

(وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين) : إما الانتصار في الحرب على قريش ، ولا عير ، وإما العير ، ولا انتصار (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) غير ذات الشوكة هي العير وأموالها ، وقد آثروها على القتال والجهاد في سبيل الله ، ولكن الله أراد الخير لهم وللإسلام بتحطيم الشرك والظفیان (ويريد

الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) . المراد بالحق هنا ظفر المسلمين بالمشركين ، والمراد بكلماته وعده بأن تكون إحدى الطائفتين للمسلمين ، والمعنى انكم أيها المسلمون أردتم الحطام الزائل ، وأراد الله أن ينصركم على صناديد قريش أعداء الله وأعدائكم ، ويهلكهم بأيديكم ، ويستأصل الكافرين منهم ، ويحقق وعده بالنصر لكم ، فأبها خبر وأفضل: هذه العزة والكرامة ، أو الأباغر وحولتها ٩.

(ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) . المراد بالحق في الآية السابقة أي قوله تعالى : (ان يحق الحق بكلماته) انتصار المسلمين على قريش ، والمراد بالحق هنا الإسلام ، والمجرمون أعداؤه ، والمراد بالباطل الشرك، وإحقاق الحق يكون باظهاره وإعلانه على الملأ ، أو بانتصار أهله ، أو بهما معاً ، وإبطال الباطل يكون باعلانه ، أو خذلان المبطلين ، أو بهما معاً ، وأوضح تفسير لهذه الآية قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون - ٣٣ التوبة » .

اذ تستغيثون ربكم الآية ٩ - ١٤ :

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِّفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ *
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ *

الآلة :

مردفين من أردفه إذا ركب وراءه ، والمراد ان للألف من الملائكة تبعاً .
أو ان الألف يأتي بعضهم في أثر بعض . والرجز الشيء المستقل حساً أو معنى .
والربط على القلب اطمئنانه . وفوق الأعناق الرؤوس . والبنان أطراف الأصابع
من اليد أو الرجل . وشاقوا الله ورسوله خالفوها .

الاعراب :

اذ تستغيثون (اذ) ظرف متعلق بمحذوف أي اذكروا اذ تستغيثون ، وقيل
بدل من اذ بعدكم . ومردفين حال من ألف . والضمير في جملة يعود الى الامداد ،
وهو مصدر متصيد من (مدمك) . وبشرى مفعول لأجله . ولتطمئن منصوب
بأن مضمره بعد اللام ، والمصدر المنسبك معطوف على بشرى لأن المعنى إلا للبشارة
وللاطمئنان . وفاعل يغشيكم ضمير مستتر يعود الى الله ، والناس مفعول به ليغشيكم ،
وامنة مفعول لأجله . ذلك بأنهم شاقوا (ذلك) مبتدأ وبأنهم شاقوا خبر ، والكاف
لخطاب السامع . وذلكم خبر لمبتدأ محذوف أي أمر الله أو عذاب الله ذلكم ،
والخطاب للمشاقين .

المعنى :

(اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني مدمك بألف من الملائكة مردفين) .

الجزء التاسع

لما تأكد المسلمون ان القتال واقع لا محالة مع عدو أقوى عدة ، وأكثر عدداً التجأوا الى الله يطلبون منه النجاة من هذه الشدة ، ولما علم الله منهم صدق النية والعزم أنبأهم جل ثناؤه بلسان نبيه (ص) انه قد استجاب دعاءهم ، وانه ينجدهم بألف ملك بأني بعضهم إثر بعض . وتساءل : قال سبحانه هنا : بمدكم بألف مردفين ، وفي الآية ١٢٤ من آل عمران قال : بمدكم بثلاثة آلاف منزلين ، وفي الآية التي بعدها بلا فاصل قال : بخمسة آلاف موسمين . فما هو وجه الجمع بين الآيات الثلاث ٩ . وأجبتنا عن هذا السؤال في ج ٢ ص ١٥٢ .

(وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله ان الله عزيز حكيم) . يقول جلّت عظمتة : ان الغرض من هذا الامداد ان تطمئنوا وتصبروا في قتال العدو ، لا أن تتكلموا على الملائكة ، بل عليكم أن تبدلوا كل جهد ، ولا تبقوا منه بقية ، أما النصر فلا يكون ولن يكون إلا بمشيئة الله ، لا بمجهودكم ولا بامداد الملائكة . وتقدمت هذه الآية في سورة آل عمران رقم ١٢٦ ج ٢ ص ١٥٢ .

ثم ذكر سبحانه ستة وجوه لنعمته على المسلمين .

١ - (اذ يغشيكم النعاس امنة منه) . في يغشيكم ضمير يعود الى الله ، وكذلك ضمير (منه) .. خاف المسلمون من المشركين لكثرتهم ، فعالج خوفهم بالنوم ، وما استيقظوا منه إلا وأنفسهم تغمرها السكينة ، وكلنا يعلم بالتجربة ان النوم يخفف الكثير من وطأة الحزن والخوف ، قال الإمام علي(ع) : ما انقض النوم لعزائم اليوم . أي قد يعزم المرء على أمر فإذا نام وقام انحلت عزمته .

٢ - (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) . بعد أن أخذ المسلمون قسطاً من الراحة بالنوم وجدوا أنفسهم بحاجة الى الماء ، لأنهم لم يكونوا قد وصلوا الى بدر آنذاك ، فأنزل الله عليهم المطر فشرّبوا وتطهروا ، وهذه نعمة ثانية تأتي بعد النوم .

٣ - (ويذهب عنكم رجز الشيطان) . كان الشيطان يوسوس للمسلمين ، ويغفهم من المشركين ، وقد أذهب الله هذا التخويف الذي عبر عنه برجز الشيطان ، اذهب بالنوم والامداد بالملائكة .

سورة الأنفال

٤ - (وليربط على قلوبكم) بزوال الخوف والفرع .

٥ - (وبيّث به الأقدام) . قال أكثر المفسرين : ان ضمير به يعود الى الماء ، وان المراد بالأقدام الأرجل ، وذلك ان المسلمين كانوا في رملة لا تثبت فيها قدم ، فلما نزل المطر تلبدت الرملة وتماسكت ، وثبتت عليها أقدام المسلمين .

هذا ما جاء في أكثر التفسير ، أما نحن فنختار ان ضمير به يعود إلى مصدر متصيد من ليربط قلوبكم ، وان المراد ببيثيت الأقدام الثبات في ميدان القتال ، وعدم الفرار منه ، والمعنى ان الله يثبتكم في القتال بما منحكم من ربط القلوب واطمئنانها .

٦ - (إذ يوحى ربك إلى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب) . الخطاب في (ربك) لمحمد (ص) وفي (معكم وثبتوا) للملائكة عملاً بظاهر السياق ، أي ان الله مع الملائكة يسمع ويرى ، تماماً كقوله لموسى وهرون : « انني معكما أسمع وأرى - ٤٦ طه » .

وتسأل : على أي شكل شارك الملائكة في نصرته المسلمين يوم بدر ؟ هل كانت بالضرب والقتل ، أو بالتشجيع ، وانهم كانوا يسبرون أمام الصف في صورة الرجال المقاتلين ، ولا يقاثلون ، وإنما يقولون للمسلمين : ابشروا فان الله ناصركم ، كما قال بعض المفسرين .

الجواب : لقد أخبر سبحانه انه أمر الملائكة أن يثبتوا المؤمنين ، وليس من شك في انهم فعلوا ، لأنهم يفعلون ما يؤمرون ، وأيضاً ليس من شك ان المشركين هابوا المسلمين وتخوفوا منهم ، لأن الله وعد بذلك ، ووعد الحق ، وان المؤمنين انتصروا على المشركين .. هذا كل ما دل عليه ظاهر النص ، أما التفصيلات والكيفيات فهي من الغيب الذي سكت الوحي عنه ، فبالأولى أن نسكت نحن ، وسكوت الوحي دليل قاطع على ان الإيمان بالتفصيلات ليس من العقيدة في شيء ، وإلا وجب بيانها .

(فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) . قال بعض المفسرين :

الخطاب في اضربوا للملائكة . وقال آخرون : بل للمسلمين . ثم اختلفوا في المراد من فوق الأعناق ، فن قائل : المراد الأعناق بالذات ، وان فوق بمعنى على ، ومن قائل : المراد الرؤوس ، ومن الطريف قول بعض الصوفية : ان المراد النفوس الخبيثة .. والذي نختاره نحن ان الخطاب للمسلمين ، لأنهم المتنسدون بالقتال ، وان قوله : فوق الأعناق وكل بنان كناية عن حث المسلمين على الشدة في قتال المشركين ، وان لا تأخذهم بهم هودة ، ولا يدعوا فرصة تمر إلا ضربوهم في أي عضو من أعضائهم انفق ، فهذه الآية أشبه بقوله تعالى : هـ ولا تأخذكم بها رافة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله - ٢ النور هـ .

(ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) . ذلك اشارة إلى لزوم معاملة المشركين بالشدة ، وبأنهم بيان للسبب الموجب لهذه الشدة ، وهو وقوف المشركين من الله والرسول موقف المخالف والمعاقد (ذلكم فذوقوه) ذا اشارة الى العقاب الشديد وخطاب (كم) للذين شاقوا الله والرسول (وان للكافرين عذاب النار) الى جانب ما أصابهم في الدنيا من القتل والأسر والمزجمة ، وليست هذه بشيء بالقياس الى النار الكبرى .

الفرار من القتال الآية ١٥ - ١٩ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأُدْبَارَ *
وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ
بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ
بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ *
إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ

تَعُودُوا نَعْدُ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ
مَعَ الْمُؤْمِنِينَ *

الكمة :

الزحف الدنو قليلاً قليلاً . والأدبار جمع دبر ، وهو الخلف ، والمراد به هنا الهزيمة . وقال صاحب البحر المحيط : المتحرف للقتال هو الذي يكر بعد أن يفر يُري عدوه انه منهزم ، ثم يعطف عليه . ومتحيزاً الى فئة منحازاً الى جماعة من المسلمين . والمأوى الملجأ . والموهن المضعف .

الإهراب :

زحفاً حال من الذين كفروا أي زاحفين . والأدبار مفعول ثانٍ لتولوهم . ومتحرفاً أو متحيزاً حالان من الواو في تولوهم . ذلكم خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلكم . وتسبك ان الله موهن بمصدر خبراً لمبتدأ محذوف أي الأمر كون الله موهناً كيد الكافرين ، والجملة عطف على جملة الأمر ذلكم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار) . يقال : زحف العسكر إذا توجه للقتال ، وسبق ان المشركين خرجوا من مكة لقتال المسلمين ، وهذه الآية من تعاليم الحرب ، وهي تأمر المسلمين أن يشبتوا لعدوهم ، ولا يفروا منه إذا زحف لقتالهم ، لأن القرار وهن في الدين، وذلك للمسلمين .

(ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب

الجزء التاسع

من الله ومآواه جهنم وبئس المصير) . الا منحرفاً لقتسال أي تاركاً موقفه إلى موقف أحكم وأصلح للقتال ، أو متحيزاً إلى فئة أي منحازاً إلى جماعة أخرى من المسلمين تقاتل العدو لأنهم بحاجة إليه ، أو هو بحاجة اليهم ، والمعنى اثبتوا أبها المسلمون لعدوكم في المعركة ، ولا تفروا منها الا أن تختاروا موقفاً أحسن ، أو تدبروا خطة أحكم بانضام بعضكم إلى بعض ، وإن من فر من العدو بلا مبرر فقد استحق غضب الله ومآواه جهنم .

وقد أفتى الفقهاء بتحريم الفرار من الزحف إلا إذا كان عدد جيش العدو أكثر من ضعف عدد جيش المسلمين .. وفي رأينا ان الفقهاء لا يملكون هنا الفتوى بوجوب الثبات ، ولا بجواز الفرار ، وإن الأمر في ذلك يجب أن يترك لتقدير القائد الأمين الخبير ، لأنه هو المسؤول عن الحرب ، وليس الفقهاء ، فيجب أن يترك له تقدير وجوب الثبات أو الفرار ، فقد يرى الثبات مع زيادة عدد العدو ثلاثة أضعاف ، وقد يرى لزوم الفسار والانحساب من المعركة مع زيادة عدد المسلمين أضعافاً مضاعفة ، لأن الثبات عملية انتحارية ، وفي جميع الحالات يجب الأخذ بقوله ، لا بقول الفقهاء الذين يفتون ، وهم على الوسائل متكون .. هذا، إلى أن قول الفقهاء في الحروب قد ذهب بذهاب وقته الذي كانت تقاس فيه القوة بالسك لا بالكيف ، وبعدد الجيش لا بمعداته الجهنمية الحديثة .

(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) . انتصر المسلمون ببسار على المشركين ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وأسروا من أسروا ، وسبب هذا الانتصار ثبات المسلمين وصبرهم في القتال ، أما سبب هذا الثبات والصبر فهو ما أشارت إليه الآيات السابقة من ان الله ربط على قلوب المسلمين ، وثبت أقدامهم ، وأمدهم باللائكة ، وأزال الرعب من قلوبهم وألقاه في قلوب المشركين .. وعلى هذا تصح نسبة قتل المشركين إلى المسلمين لأنه كان بأيديهم ، وبسبب ثباتهم وصبرهم ، وأيضاً تصح نسبته إلى الله تعالى لأنه هو الذي مهد لهم لهذا الثبات والصبر بالاضافة إلى انه سبب الأسباب .. وفي رواية ان بعض المسلمين قال يوم بدر أنا قتلت فلاناً . وقال آخر : وأنا قتلت فلاناً . فأنزل الله سبحانه : فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم . (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . أجل ، ان الله رمى ، ولكنه

سورة الأنفال

اختار لرميته كف محمد (ص) الذي فضله على جميع خلقه ، وخصه برسالته التي عمت رحمتها جميع العالمين . وروي ان النبي أخذ يوم بدر قبضة من الحصى أو التراب ، ورمى بها المشركين ، وقال : شامت الوجوه ، وأعقب ذلك هزيمتهم . وغير بعيد أن تكون هذه الرواية صحيحة ، وأيضاً غير بعيد أن يكون المراد بالرماية تدبير الأمر وأحكامه ، ومنها يكن ، فان مشيئة الله هي سبب الأسباب ، بها وجد محمد (ص) والحصى والكون بما فيه ، فان أي سبب مباشر أو غير مباشر لأية حادثة من الحوادث فانها تنتهي إلى قوة عليا وجدت من غير موجد ، وإلا كانت كلمة الوجود لفظاً من غير معنى ، تماماً كما لو قلت : لا أحد يعطي المال ، حتى يأخذه من غيره فان هذا تعبير ثانٍ عن قولك : لا أحد يعطي المال على الإطلاق ، لأنك نفيت الأصل الذي يعطي ولا يأخذ ، وبانتفاء الأصل ينتفي الفرع .

(وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً) . البلاء والابتلاء يستعملان بمعنى الاختبار ويكون الاختبار بالنعمة لظهار الشكر ، وبالحنة لظهار الصبر ، وأيضاً يستعمل كل من البلاء والابتلاء بالاعطاء ، وهذا المعنى هو المراد بالبلاء في الآية ، أما المراد بالحسن فهو النصر والغنيمة ، أي ان الله سبحانه أمر المسلمين بالثبات والصبر وعدم الفرار من الزحف ، ومهد لهم السبيل الى ذلك ليسم عليهم نعمته بالنصر والغنيمة (ان الله سميع عليم) . فقد سمع استغاثة المسلمين واستجاب لهم لأنه علم منهم صدق النية وصحة العزم .

(ذلكم وان الله موهن كيد الكافرين) . ولا نعمة أجل وأعظم من ضعف العدو ، وإبطال كيده وجملة (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنتهوا فهو خير لكم وان تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وان الله مع المؤمنين) . الخطاب في أن تستفتحوا وان تنتهوا وان تعودوا وفي لكم وعنكم وفئتكم ، كل اولاء للمشركين بقرينة السياق واستقامة المعنى . وروي ان المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر أخلوا بأستار الكعبة ، فاستنصروا الله ، وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين ، وأكرم الفتنين . فأجابهم الله بقوله : ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح الخ . أي إن تستنصروا للاعلى والأهدى فقد استجاب الله ونصر

الجزء التاسع

الأعلى والأهدى ، فان انتهيتُم عن حرب المسلمين ومشاقة الله والرسول فالانتهاء خير لكم وأبقى بعد أن ذُقم من القتل والأسر والهزيمة ما ذُقم ، وإن عدتم إلى الحرب والمشاقة يحل بكم ثانية ما حل بكم أولاً . أما الكثرة التي تعتزون بها فقد رأيتم أنها لا تدفع عنكم القتل والأسر والهزيمة ، فان الله هو الناصر ، وهو مع المؤمنين ، فان أردتم النصر حقاً فدعوا الشرك ، وآمنوا بالله ورسوله .

طاعة الله والرسول الآية ٢٠ - ٢٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ*
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ
عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ* وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا
لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ*

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله) جاء هذا النداء منه تعالى للمؤمنين بعد قوله : (وإن الله مع المؤمنين) والغرض من النداء والأمر بطاعة الله والرسول هو تحديد المؤمن الذي ينصره الله ، ويكون معه أيها كان ، وأنه الذي يطيع الله ورسوله فيما يأمران به ، وينهيان عنه ، وإن من خالف وعصى فقد استحق من الله العذاب والخلدان (ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون) . التولي الاعراض ، وضبط عنه يعود الى الرسول، ومفعول تسمعون محذوف أي تسمعون كتاب الله وآياته .

(ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) . يستعمل السماع كثيراً

سورة الأنفال

في القبول، ومنه : لا أسمع منك أي لا أقبل منك . وسماعون للكذب أي قابلون له، وهذا المعنى هو المراد بالسماح في الآية، أي ان الله سبحانه نهي المؤمنين أن يكونوا كالمناقضين يظهرون القبول من النبي والطاعة لأمره ، ويضمرون المخالفة والعصيان . (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) . الأصم لا يسمع ، والأبكم لا يتكلم ، والدواب لها آذان تسمع بها ، ولكنها لا تفهم الكلام الذي تسمعه ، ولها ألسنة ولكنها لا تنطق ، فهي لا تفهم ولا تفهم ، ومن يسمع كلام الله والرسول ، ثم لا يهتدي به فثله كمثل الدابة الصماء البكماء تسمع الكلام ولا تنتفع به .

طالب حق وطالب صيد :

(ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) . الناس اثنان : الأول طالب حق، مجرداً عن كل غاية .. وهذا لا يؤمن بمبدأ ، ولا يرى رأياً إلا بعد البحث وامعان النظر في الأدلة ، ثم يبنى آراءه عليها . والثاني طالب صيد لا يؤمن إلا بذاته ومصالحه ، فيرحب بما يلائمها ، وان كان باطلاً ، ويرفض ما ينافيها ، وان كان حقاً .

والله سبحانه يُسمع دعوة الحق لكل من الاثنین على السواء الفاء للحجة ، قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وبعد البيان الذي تم به الحجة على الجميع يزيد سبحانه من النصيح والارشاد للذين يستجيبون له ويتفهمون به : « والذين اهتموا زادهم هدى - ١٧ محمد » . أما الذين لا يستجيبون إلا لمنفعتهم الذاتية فان الله يعرض عنهم ، ما دام النصيح لا يجدي معهم شيئاً . وهذا هو المراد من قوله : (ولو علم فيهم خيراً لأسمعهم) .. ويدل على ذلك قوله بلا فاصل : (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) أي لو أسمعهم الحق لأعرضوا عنه لأنه لا يلائم أهواءهم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *

إذا في قوله تعالى : (إذا دعاكم لما يحييكم) ليست للشرط ، وإنما هي لبيان موضوع دعوة الله والرسول ، وتقريرها وحصرها بالدعوة إلى الحياة بأكمل معانيها .

ومن أحاط بالإسلام علماً يجد أن كل أصل من عقيدته ، وكل فرع من شريعته يرتكز على الدعوة صراحة أو ضمناً إلى العمل من أجل الحياة .. فالإيمان بالله يستدعي الإيمان بالتححرر من العبودية لإلا لله وحده ، وبأنه لا سلطان للمال ولا للجاه ولا للجنس ولا لشيء إلا للحق والعدل ، وبديهة أن الحياة الطيبة القوية لا توجد ، ومحال أن توجد إلا مع الالتزام بهذا المبدأ وتطبيقه . أما الإيمان برسالة محمد (ص) فهو عين الإيمان بشرعية الإخاء والمساواة ، وبحرية الإنسان وحابته، وبكل مبدأ يعود على الإنسانية بالخير الصالح .. ذلك بأن رسالة محمد تهدف إلى هدي البشر وإسعاده ، وبث العدل بين أفرادها ، أما الإيمان باليوم الآخر فهو الإيمان بأن الإنسان لا يُترك سدى ، وأنه مسؤول عن كل صغيرة وكبيرة من أعماله بحاسب عليها وبكافأ ، أن خيراً فخير ، وأن شراً فشر .. وهذا الإيمان — كما ترى — أشبه بالقوة التنفيذية ، أو بالحافظ على العمل بما يوجبه الإيمان بالله والرسول .

هذا فيما يعود إلى أصول العقيدة ، أما الفروع ، وأعني بها ما يجوز من الأفعال ، وما لا يجوز في الشريعة الإسلامية فإنها تقوم على مبدأ انساني أشار إليه الإمام جعفر الصادق (ع) بقوله : كل ما فيه صلاح للناس بحجة من الجهات فهو جائز ، وكل ما فيه فساد بحجة من الجهات فهو غير جائز .. هذه هي دعوة الله والرسول التي نص عليها القرآن بصراحة ووضوح : « استجيبوا لله

سورة الأنفال

وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم ، . وإذا عطفنا على هذا النص الآية ٣٢ من آل عمران : « قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » إذا عطفنا هذه الآية على تلك ، وجمعنا بينها تشكل معنا هذا القياس المنطقي : لقد دعا الله والرسول إلى العمل من أجل الحياة ، وحكم سبحانه بكفر من أعرض وتولى عن هذه الدعوة . فالنتيجة الحتمية ان الذي لا يعمل من أجل الحياة فهو كافر^١ .

وبهذا يتبين معنا ان الإسلام يسير مع الحياة جنباً الى جنب ، وان كل ما هو بعيد عن الحياة فما هو من الإسلام في شيء ، وان أي انسان - كائناً من كان - يدعو الى حياة لا استغلال فيها ولا ظلم ولا مشكلات فان دعوته هسله تلقي مع دعوة الله والرسول ، سواء أراد ذلك ، أم لم يرد ، وان من يقف في طريق الحياة وتقدمها فهو عدو لله وللرسول ، وان قام الليل ، وصام النهار.. أما تلك الزمرة التي ظهرت في عصرنا ، وباعت دينها للصهيونية والاستعمار ، وتسئرت باسم الدين ، اما هذه الزمرة العميلة فقد أشرنا اليها في ج ٢ ص ١٦٦ عند تفسير الآية ١٤٢ من سورة آل عمران .

(واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون) . القلب محل الايمان والكفر ، والاخلاص والتفاني ، والحب والبغض ، وعنه تصدر الأعمال خيراً وشرها ، ولولا القلب لم يكن الانسان انساناً ، وكفى به عظمة قوله تعالى : ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبيد المؤمنين ، وما من شك ان الذي يتسع لما ضاقت عنه السموات والأرضين فهو أعظم منها .

وتسأل ، كيف اتسع هذا العضو الصغير لمن ضاقت عنه السموات والأرضون ؟ ثم لماذا خص تعالى قلب المؤمن دون قلب الكافر ؟

الجواب : ليس المراد بالسعة في هذا الحديث القدسي السعة المكانية ، لأن الله

١ عند تفسير الآية ٤٧ من المائدة ذكرنا ان الكفر اذا أضيق الى العمل فالمراد به الفسق ، وان الفسق اذا أضيق الى العقيدة فالمراد به الكفر ، وعليه يكون المراد بكفر تارك العمل من أجل الحياة الكفر العملي ، لا الكفر العقائدي .

لا مكان له ، وانما المراد بها سعة الادراك والفهم عن الله ، وان قلب المؤمن يفهم عنه تعالى ما لا تفهمه السموات والأرض ، وكذلك قلب الكافر لا يفهم عن الله شيئاً ، لأنه في كنف من الضلال والفساد : « وقالوا قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب - ٥ فصلت » .

وبهذا يتضح ان المراد بالمرء الذي يحول الله بينه وبين قلبه هو الذي أعماه الهوى والضلال ، وعليه تكون هذه الآية بمعنى الآية ٧ من سورة البقرة : « ختم الله على قلوبهم » أي انهم لا يتصفون بقلوبهم بسبب ما ران عليها من الضلال ، حتى كأن الله قد ختم عليها أو حال بين أصحابها وبينها .. وعلى هذا تكون نسبة الختم والمنع اليه تعالى مجازاً ، لاحقيقة .

وذهب جماعة من المفسرين الى ان معنى قوله تعالى : (يحول بين المرء وقلبه) ان القلب في قبضة الله يقلبه كيف يشاء ، فيفسخ عزائمه ، ويبدله بالذكر نسياناً ، وبالنسيان ذكراً ، وبالحوف أمناً ، وبالأمن خوفاً .. وكل من التفسيرين محتمل .

واتقوا فتنة الآية ٢٥ - ٢٩ :

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدُكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخَوْنَا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخَوْنُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ

لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ *

اللفظ :

للفتنة معان ، منها العذاب ، وهو المراد من الفتنة في قوله تعالى : « واتقوا
فتنة » بدليل قوله في نفس الآية : « ان الله شديد العقاب » . أما الفتنة في
قوله : « انما أموالكم وأولادكم فتنة » فان المراد منها المحبة والهوى الذي يصد
عن الحق . ويجعل لكم فرقاناً أي هداية ونوراً تفرقون به بين الحق والباطل .

الإعرا ب :

لا تصيبن نفي بمعنى النهي ، ولهذا دخلت على الفعل نون التوكيد ، والجملة
صفة للفتنة . وتخونوا أماناتكم عطفاً على لا تخونوا الله والرسول .

المعنى :

(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد
العقاب) . هذا تحذير منه تعالى لكل مهتن يفسد في الأرض ، بخاصة الذين
يشون الخلافات والنمرات الدينية، ويقلقون راحة الأمنين، ويعتدون على المستضعفين،
هذا تحذير منه تعالى بأن شرور الفتنة ومفاسدها لا تقتصر على الظالمين ، بل تعم
المجتمع بكامله صالحه وطالحه .. وفي تفسير الطبري نقلاً عن السدي، وهو مفسر
كبير، ان هذه الآية تنطبق على أصحاب الجمل الذين حاربوا علي بن أبي طالب
وذكر الرازي عند تفسير هذه الآية : « ان الزبير كان يسامر رسول الله (ص)
يوماً إذ أقبل علي رضي الله عنه فضحكك اليه الزبير ، فقال له رسول الله :

الجزء التاسع

كيف حبك لعملي ؟ فقال : يا رسول الله احبه كحبي لولدي أو أشد . فقال له الرسول : كيف أنت إذا سرت اليه تقائله ؟ .

وأيضاً في تفسير الطبري : « ان الزبير بن العوام قال : قرأنا هذه الآية زماناً ، وما أرانا من أهلها ، فاذا نحن المعتيون بها . »

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآوأم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) . الخطاب لصحابة الرسول (ص) يذكرهم الله تعالى بما كانوا فيه قبل الإسلام من الضعف والخوف ، والمهانة والفقر ، وبما هم عليه بعد الاسلام من الأمن والمنعة ، والغنى والعز ، لأنهم استجابوا لدعوة الحياة التي دعاهم اليها الله ورسوله ، والغرض من هذا التذكير أن يستمروا على الطاعة والاستجابة لدعوة الحياة ، ليعيشوا في ظلها أقبواه أعزاء .. وانهم متى أعرضوا وعصوا عادوا إلى ما كانوا فيه من الضعف والمهوان كما هي حال المسلمين اليوم ، بخاصة العرب .

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) . وليست خيانة الله والرسول بترك الصوم والصلاة فقط ، وإنما الخيانة العظمى هي خيانة الأمة والوطن ، هي أن يتولى الطغاة مركز القوة والقيادة ، ويتحكموا بالبلاد ومقدراتها ، وان نصبر عليهم وعلى طغيانهم ، ونسكت عن حربهم وجهادهم (وتخونوا أماناتكم) . أي ولا تخونوا أماناتكم . وقال كثير من المفسرين : ان هذا نهى عن خيانة الأمانة فيما بين الناس من المعاملات المالية .. وليس من شك ان رد الأمانة واجب ، وان خيانتها حرام ، ولكن من الخيانة ، بل من أعظمها عدم التعاون مع المستضعفين لاسترداد حقوقهم من الأقوياء الظالمين (وأنتم تعلمون) ولا أحد أجراً على الله ممن يقدم على معصيته علماً متعمداً .

(واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) . جاءت هذه الآية بعد النهي عن الخيانة للتنبيه إلى أن المؤمن لا ينبغي له أن يمنعه المال والولد عن القيام بواجبه تجاه الله والأمة والوطن ، والمراد بالفتنة هنا المحبة التي تصد عن الحق والخير . وقد روي عن النبي (ص) انه قال : « الولد ثمرة القلب ، وانه سَجينة مَبْخَلَة مخزنة ، تماماً كالمال ، فانه ثمرة عرق الجبين وكبد الجبين ، وهو مجبنة لأن

سورة الأنفال

صاحبه يحب عن قول الحق وفعله خوفاً عليه ، كما يحب خوفاً على ولده ، وهو مبغلة لأن مالكة يبخل به حرصاً عليه كما يحرص على ابنه ، وهو محزنة لأن جامعه يحزن إذا أصيب به كما يحزن إذا أصيب بشجرة فؤاده . وأحسن ما قرأت في هذا الباب قول أعرابي في ولده :

أحبه حب الشحيح ماله قد كان ذاق الفقر ثم ناله
إذا يريد بذله بدا له

(وأن الله عنده أجر عظيم) والعاقل يرغب في هذا الأجر العظيم ، ويسعى اليه بالجهاد والعمل الصالح ، ولا يؤثر عليه مالاً يفنى ، وولداً لا يبقى .

(يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) . كثيراً ما يقع الانسان فريسة للعاطفة ، فتصور له الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً ، وأكثر ما يكون ذلك فيما يتصل بماله وولده ، حيث تبلغ العاطفة ذروتها ، ومن أجل هذا أمر سبحانه بالتقوى بعد أن حذر من الافتتان بالأموال والأولاد ، أما الفرقان أي الهداية التي يمنحها الله للمتقين ليميزوا بها بين الحق والباطل ، أما هذه الهداية فهي نتيجة حتمية للتحرر من الأهواء والأغراض ، لأن الهوى يُعمي ويُصم .. ونسب الله الهداية اليه لأنه هو الذي أقام عليها الدلائل ، ومن نظر اليها مجرداً عن كل غاية إلا طلب الهداية إلى الحق فإنه بالغها لا محالة .

(ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) . قال المفسرون : المراد بتكفير السيئات سترها في الدنيا ، وبالمغفرة الصفح عنها في الآخرة ، قالوا هذا فراراً من التكرار .. أما نحن فلا نفر من التكرار في القرآن ، وبيننا وجهه في المجلد الأول والثاني .. والمعنى المراد من مجموع الآية أن من يتقي الله بمنحه الهداية والصفح والثواب ، ومسا ذلك على الله بكثير ، لأنه عظيم الأفضال ، وعطاؤه سهل المنال يبلغه كل طالب وراغب في مرضاته تعالى .

واذ يَمْكُرْ بِكَ الْآيَةُ ٣٠ - ٣٥ :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْنَا
قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ *
وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا
حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلَّا
يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ
أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِنْدَ آلِبَيْتٍ إِلَّا مُمَآءٌ وَتَصَدِيَّةٌ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ *

اللغة :

إذا نُسب المكر إلى الإنسان فعناه الحيلة والخداع ، وإذا نُسب إلى الله فعناه
إبطال المكر . ليثبتوك أي يمنعوك من الحركة بالحبس أو شد الوثاق . والأساطير
جمع أسطورة أي سُطرت في الكتب من غير تمحيص . المكاء التصغير بالفم .
والتصدية التصفيق باليد .

الإعراب :

ان هذا (ان) نافية . هذا هو الحق (هو) ضمير فصل لا محل له من

سورة الأنفال

الاعراب ، والحق خبر كان . واللام في ليعذبهم تسمى لام الجحود لمجيئها بعد النفي ، وانفعل منصوب بأن مضمره بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور باللام متعلقاً بمحذوف خبراً لكان ، والتقدير ما كان الله مريداً لعذابهم . وما لهم مبتدأ وخبر . والمصدر المنسبك من ان لا يعذبهم منصوب بترفع الخافض ، وقدره الطبرسي وأبو البقاء (في) والصحيح انه (من) والمعنى أي شيء يمنع من عذابهم وهم يصدون . وصلاتهم اسم كان ، ومكاء خبرها .

المعنى :

(وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ) . في الآية السابقة ٢٦ ذَكَرَ اللهُ سبحانه المسلمين بنعمه عليهم . وفي هذه الآية ذَكَرَ النبي (ص) بنعمه عليه ، وذلك ان المشركين من قريش أجمعوا على الخلاص من محمد (ص) ، واختلفوا في الوسيلة التي يتخلصون بها منه .. فمن قاتل : نجسه ونقيده ، وقال آخر : بل نخْرِجْهُ من مكة ، ثم اتفقوا على أن يَخْتَارُوا من كل قبيلة رجلاً على أن يقتحم الجميع عليه بيته ، وهو نائم في فراشه ، ويضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل كلها ، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب .. قال المفسرون ، ومنهم الطبري والرازي وأبو حيان الأندلسي : ان الله أوحى الى نبيه بذلك ، وأمره أن يخرج الى المدينة ، وأن يأمر علي بن أبي طالب بالمبيت في مضجعه ، ويأت علي في فراش الرسول ، واتشح ببردته ، ولما بادر القوم إلى المضجع أبصروا علياً فبهتوا . وأوصى النبي (ص) علياً أن يرد ودائع للناس كانوا قد أودعوها عند رسول الله .

وقوله تعالى : (لِيُثْبِتُوكَ) بشر الى من قال : احبسوه وقيدوه . وقوله : (أَوْ يُخْرِجُوكَ) يومئذ إلى من أشار بإخراجه . وقوله : (أَوْ يَقْتُلُوكَ) أراد به ما اتفقوا عليه من القتل .

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) . أما مكر قريش فهو تأمرهم على قتل محمد (ص) بأسلوب يعجز الهاشميون عن الاقتصاد من قاتله . أما مكر الله فهو ابطال مكرهم وكيدهم بما دبر سبحانه من خروج النبي ، ومبيت علي

في فراشه . وتقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٥٤ من آل عمران ج ٢ ص ٦٦ .

(وإذا تلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا إلا أساطير الأولين) . قالت قريش عن القرآن : انه أساطير ، وانها لو شئت لقلنا مثله ، قالت هذا ، وهي تعلم علم اليقين ان القرآن من عند الله ، لأنه تحداهم والناس أجمعين على أن يأتيوا بسورة من مثله ويدعوا من يشاؤون ، ولما عجزت قريش لجأت الى الافتراءات والناورات تُخفي عجزها وضلالها ، شأنها في ذلك شأن كل من عجز عن مجابهة الحق بالحجة والمنطق .

(وإذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) . قد تأخذ بعض الناس العزة بالأنف تعصباً لكبرياتهم تماماً كما يتعصبون لدينهم أو أشد، حتى أنهم ليؤثرون القتل على الخضوع للخصم وان كان محقاً ، ويستسلمون للهلاك والعذاب، ولا يتنازلون عن تعاليمهم وتقاليدهم وفي التاريخ الكثير من هؤلاء ، ذكر القرآن منهم فرعون وقوم نوح وغيرهم.. وقالت قريش حين دعاها النبي (ص) إلى الإسلام : اللهم ان كان محمد محقاً في دعواه فأمطر علينا حجارة من السماء . أي أنهم يفضلون الهلاك رجماً بالحجارة على أن يتبعوا محمداً ، وان كان نبياً مرسلًا من الله .

فأجابهم الله سبحانه بأن العذاب أمامهم ، وان الباب اليه ما زال مفتوحاً ، وإنما أمهلهم بعض الوقت لسبب واحد أشار اليه بقوله : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) . أي ان الله جل ثناؤه لا يعذب أهل مكة ، ومحمد بين أظهرهم اكراماً له ، وتعظيماً لشأنه .

(وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون) . أي وهم يؤمنون برسالة محمد (ص) بعد أن قال عز من قائل : انه لا يعذب قريشاً ما دام محمد بينهم - قال : وأيضاً لا يعذبهم اذا آمنوا ، سواء أكان محمد بينهم، أم لم يكن ، فقوله تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون) بمعنى قوله : « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم - ١٤٦ النساء » ، ويدل على ارادة هذا المعنى قوله بـلافاصل : (وما لهم الا ليعذبهم الله) . وقوله مخاطباً قريشاً : (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

سورة الأنفال

وبكلمة بسيطة وواضحة ان معنى الآية انه تعالى لا يعذب قريباً إذا كان محمد بينهم ، وأيضاً لا يعذبهم إذا أسلموا ، وعبر عن الإسلام بالاستغفار لأنه من لوازمه. وهذا يتضح انه لا حاجة إلى التأويلات التي ذكرها المفسرون بالإضافة إلى أنها ترك القارئ في ظلمات لا يهتدي الى شيء .

(وما لهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) . ما لهم استفهام يتضمن معنى النفي ، أي لا شيء فيهم من دين أو خلق يمنع من عذابهم ، فانهم الى جانب شركهم يصدون المسلمين عن عبادة الله في بيته الحرام ، فما كان المسلم ، حتى النبي (ص) يوم كان بمكة يستطيع الصلاة في المسجد الحرام ، دون أن يتحمل منهم الأذى والتنكيل ، وقد انفقوا على صد النبي والمسلمين بالثوة عن العمرة عام الحديبية (وما كانوا أولياءه) أي ان المشركين ليسوا أصحاب المسجد الحرام ، ولا هم أولياء عليه ، بل هم أعداء الله وأعداء بيته فوجب طردهم ومنعهم عنه ، لأنهم يدنسونه برجسهم ونجاستهم ، ومن أجل هذا حين قوي الاسلام منهم من قربه : « انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا - ٢٨ التوبة » .

(ان أولياءه الا المتقون) . أي لا يحق لأحد كائناً من كان أن يتولى المسجد الحرام إلا إذا كان برأ تقياً الى جانب إسلامه وإقراره بالشهادتين. فكيف المشرك والجاحد ؟ وموضوع الآية وان كان خاصاً بأولياء المسجد الحرام ، ولكن التقوى شرط في كل من يتولى المساجد والمقامات الدينية ، لأن السبب الموجب هو طهارة المكان وقداسته .. والغريب ان أكثر الذين يتولون أمر هذه المقامات هم شرار الخلق الذين يتقنون فن الاحتيال والاصوصية (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان الولي على المساجد والعتبات المقدسة يجب أن يكون برأ تقياً ، وانه لا ولاية لفاسق .

وتسأل : ان قوله تعالى : (وما لهم الا يعذبهم الله) يشعر بأن الله قد عذب قريباً ، مع العلم بأنه لم يحل بهم ما حل بقوم الأنبياء السابقين كعاد وثمود وقوم نوح ولوط وغيرهم ؟ .

الجواب : ان الذين آذوا النبي والمسلمين من قريش قتلهم الله يوم بدر بأيدي المسلمين أنفسهم .. وقد كان من جملة القتلى أبو جهل وعقبة بن أبي معيط

والنصرين الحارث وأمية بن خلف وغيرهم من صناديد قريش الذين كانوا يشتدون ويبالغون في أذى المسلمين . ونذكر من باب المثال أمية بن خلف ، فقد كان يملك بلالاً مؤذن الرسول (ص) وكان أمية يعذبه في الرمضاء ، ويذيقه ألوان العذاب، وفي يوم بدر خرج أمية مع المشركين ، وخرج بلال مع رسول الله (ص) وما أن رأى بلال أمية حتى صرخ: هذا رأس الكفر لا نجوت ان نجا ، واجتمع حول بلال بعض المستضعفين الذين لاقوا الأذى من أمية بن خلف ، واندفع بلال يضرب أمية بالسيف حتى قتله ، وحمل رأسه على سيفه، وهو يرقص طرباً . (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) . المكاء التصغير، والتصدية التصفيق، وكان سائلاً يسأل : إن قريشاً كانوا يصلون في المسجد الحرام، فكيف استوجبوا العذاب ؟ فأجاب سبحانه بأن صلاتهم كانت هرجاء ومرجاً لا خشوع فيها ولا خضوع ، لأنها كانت صغيرة بالأفواه ، وتصفيقاً بالأيدي (فذوقوا العذاب) الذي حل بكم يوم بدر ، وعذاب الآخرة أشد (بما كنتم تكفرون) ولو أسلمتم لسلمتم من عذاب الدنيا والآخرة .

ان الذين كفروا ينفقون أموالهم الآية ٣٦ - ٤٠ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ* لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ* قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِبْرَاقٌ يَنْفُتُهُمْ يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ* وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِذَا انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرُ*

اللمعة :

يركمه يضمه ويجعل بعضه فوق بعض . والمراد بالفتنة هنا الكفر .

الاعراب :

ليميز منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور باللام متعلقاً
بمحشرون . ويجعل وفركمه عطف على ليميز . وبعضه بدل بعض من الخبيث .
وجميعاً حال من الهاء في فركمه . ونعم المولى ونعم النصير المخصوص بالمدح
مخدوف أي الله ، وهو مبتدأ ، والجملة من الفعل والفاعل خبر مقدم .

المعنى :

(إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصلوا عن سبيل الله فيسيفقونها ثم تكون
عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) . كان المشركون
ينفقون أموالهم في قتال المسلمين ، وصدا الناس عن الإسلام ، فبين سبحانه في
هذه الآية أن تلك الأموال ستعود عليهم بالحسرة والخذلان في الدنيا ، والعذاب
الشديد في الآخرة ، لأن النصر في النهاية لدين الله وأهله على الشرك وعبد الأصنام .

(ليميز الله الخبيث من الطيب) . هذا تعليل وبيان للسبب الموجب لحسرة
المشركين وخذلانهم ، وهو أن الله سبحانه عادل وحكيم ، ومن عدله أن لا يتساوى
عنده الخبيث والطيب ، والمؤمن والكافر ، بل يميز كلاهما ، ويعاملهما بما
هو أهل له ، ومن أجل هذا يثيب الطيب ، ويرفع من شأنه في الآخرة ، وقد
يجمع له بين ثواب الدارين ، ويخذل الخبيث المجرم ويعاقبه في الآخرة دار الحساب
والجزاء ، وقد يجعل له نوعاً من العذاب في الدنيا حسباً تقتضيه حكمته .

(ويجعل الخبيث بعضه على بعض فركمه جميعاً فيجعله في جهنم) . المراد
جنس الخبيث أي ما ينطبق عليه هذا الاسم بدليل قوله : (أولئك هم الخاسرون)
والمعنى أن الله سبحانه يجمع الخبيثاء غداً بعضهم فوق بعض متراكمين متراكبين ،

الجزء التاسع

ثم يلقي بهم في نار جهنم ، كما يفعل الحاطب يحزم الحطب في حبله ، ثم يجعله وقوداً للنار : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً - ١٥ الجن ، (أولئك هم الخاسرون) وأي خسران أعظم من أن يكون المرء بدمه ودمه وقوداً لنار سجّرها جبارها لغضبه على من خان ربه وضميره ! . اللهم إنا من عذابك خائفون ، وبك لاثنون ، وأنت كريم لا تطرد من استجار بكركم : ولاذ إلى رحمتك . (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) . الخطاب للنبي (ص) يأمره الله به أن يعظ الكافرين ، ويقول لهم : ان باب التوبة مفتوح أمامهم ، وان الفرصة سانحة للانتهاء عن الكفر وعداوة الله والرسول ، فإن تابوا تاب الله عليهم ، لأن الاسلام يجب ما قبله ، كما جاء في الحديث (وان يعودوا) بعد التبين والتأمين الى عداوة الله والرسول ، والتجمع لحرب الإسلام وأهله ، وانفاق الأموال للصّد عن سبيل الله ورسوله (فقد مضت سنة الأولين) من أمثالهم الذين كذبوا الرسل وقتلوه ، والمراد بسنة الأولين سنة الله فيمن مضى من هلاك الكافرين ونصر المرسلين عليهم : « كتب الله لأغلبب أنا ورسلي ان الله قوي عزيز - ٢١ المجادلة » .

(وقتلوه حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير) . تقدمت هذه الآية مع تفسيرها في ج ١ ص ٢٩٩ الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

(وإن تولوا فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) . أي فان أعرض المشركون عن بيان الرسول وأمانه فاصمدوا لهم أيها المسلمون ولا تخافوهم ، فان الله ناصركم عليهم ، وحافظكم منهم ، وهو خير الحافظين والناصرين .

الجزء العاشر

فان لله خمسه الآية ٤١ :

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا
عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّمَيِّزِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

الغلبة :

الغنيمة لغة الفوز بالشيء ، وشرعاً ما يأخذه المسلمون بالقتال من أموال
الكاافرين ، هذا عند السنة ، أما الشيعة فعنى الغنيمة عندهم أهم ، ويأتي البيان.
واختلفوا في معنى الفيء على قولين : الأول انه الغنيمة ، والثاني المال الذي يؤخذ
بغير قتال ، أما النفل بفتح الفاء فقد تقدم الكلام عنه في أول هذه السورة .
والمراد بلدي القربى قرابة الرسول (ص) . واليتيم من الانسان من مات أبوه قبل
أن يبلغ الحلم . والمسكين المحتاج . وابن السبيل المسافر المنقطع في سفره .

الإعراب :

أما غنمتم ان بفتح الهززة تنصب الاسم وترفع الخبر و (ما) اسم موصول
بمعنى الذي اسم أن ، وجملة غنمتم صلة ، والعائد محذوف أي غنمتموه ، ومن
شيء متعلق بمحذوف حالاً من للضمير المحذوف أي قليلاً أو كثيراً . وقأن
بفتح الهززة ، وخمسه اسم أن ، والله خبر ، والمصدر المنسبك خبر لمبتدأ محذوف
أي فالواجب كون الخمس لله ، والجملة من المبتدأ والخبر خبر أن الأولى ،
والمصدر المنسبك من انما غنمتم مفعول اعلموا .

المعنى :

(واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول ولذي القربى والمساكين وابن السبيل) . بحث المفسرون في جهات عديدة عند الكلام عن هذه الآية ، أما نحن فنقتصر على جهتين فقط أولاً لأن ظاهر الآية يدل عليها دون سائر الجهات . ثانياً ان الجهات الأخرى لا أثر لها من الناحية العملية . والجهتان اللتان نتكلم عنها هما تحديد معنى الغنيمة ، وبيان المستحقين للخمس .

وقد اختلف السنة والشيعة في المعنى المراد من الغنيمة في الآية ، فقال السنة : هي ما يغنمه المسلمون من الكفار بقتال . وعلى قولهم هذا تكون مسألة الخمس عبارة عن قضية لا واقع لها من الناحية العملية في هذه الأيام ، تماماً كمسألة العبيد والاماء ، إذ لا دولة إسلامية تجاهد الكفار والمشركين في هذا العصر .

وقال الشيعة : ان الغنيمة أعم مما يأخذه المسلمون من الكافرين بقتال ، وانها تشمل المعدن كالنפט والذهب وغيرهما ، وأيضاً تشمل الكثر المدفون تحت الأرض إذا لم يعرف له صاحب ، وتشمل ما يخرج من البحر بالغوص كالؤلؤ ، وما يفضل عن مؤنة الانسان وعياله مما اكتسبه في سنته ، وتشمل المال الذي فيه حلال وحرام ، ولم يُعلم شخص الحرام ولا مقداره ولا صاحبه ، وتشمل الأرض التي بشرها الذمي من المسلم ، والتفصيل في كتب فقه الشيعة ، ومنها الجزء الثاني من كتابنا فقه الإمام جعفر الصادق .. وعلى قول الشيعة تكون مسألة الخمس مسألة لها واقع من الناحية العملية .

وكما اختلف الشيعة والسنة في معنى الغنيمة فقد اختلفوا في عدد أسهم الخمس وتقسيمها على مستحقيها ، قال الشيعة : يُقسَّم الخمس إلى قسمين ، والأول منها ثلاثة أسهم : سهم لله ، وسهم لرسوله ، وسهم للذي القربى ، وما كان لله فهو للرسول ، وما كان للرسول فهو لقربائه ، وولي القرابة بعد النبي هو الإمام المعصوم القائم مقام النبي ، فان وجد أعطي له ، وإلا وجب انفاقه في المصالح الدينية ، وأهمها الدعوة الى الإسلام ، والعمل على نشره واعزازه . أما القسم الثاني فهو ثلاثة أسهم : سهم لأيتام آل محمد (ص) ، وسهم لمساكينهم ،

وسهم لأبناء السبيل منهم خاصة ، لا يشاركهم أحد في ذلك ، لأن الله حرم عليهم الصدقات ففوضهم عنها بالخمس . وقال الطبري في تفسيره وأبو حيان الأندلسي في البحر المحيط : « قال علي بن أبي طالب عليه السلام : اليتامى والمساكين أيتامنا ومساكيننا » . وقال الطبري في تفسيره أيضاً : « ان علي بن الحسين رضي الله عنه قال لرجل من أهل الشام : أما قرأت في الأنفال وأعلموا انما غنم من شيء فان لله خمسة وللرسول وقرأ الآية . قال الشامي : نعم ، وانكم لأنتم ؟ قال : نعم » .

أما مذهب السنة فتدع الكلام عنه الى عالمين كبيرين : أحدهما من القدماء ، وهو الرازي ، والثاني من الجدد ، وهو المراغي أحد شيوخ الأزهر ورؤسائه في زمانه ، قال الرازي : « القول المشهور ان ذلك الخمس خمسة أسهم : الأول لرسول الله ، والثاني لذوي قرباه من بني هاشم وبني المطلب ، دون بني عبد شمس - أي الأمويين - وبني نوفل ، والثالث لليتامى ، والرابع للمساكين ، والخامس لابن السبيل .. هذا ، في حياة رسول الله وأما بعد وفاته (ص) فعند الشافعي انه يقسم الخمس على خمسة أسهم : سهم لرسول الله ، ويصرف الى ما كان يصرفه اليه من مصالح المسلمين ، وسهم لذوي القربى من أعتنائهم وفقرائهم : والباقي لليتامى والمساكين وابن السبيل . وقال أبو حنيفة : ان سهم رسول الله بعد وفاته يسقط بسبب موته ، وكذلك سهم ذوي القربى ، وإنما يعطون لفقرهم كغيرهم من الفقراء : ويقسم الخمس على اليتامى والمساكين وابن السبيل . وقال مالك : الأمر في الخمس مفوض إلى رأي الإمام » .

وقال الشيخ المراغي : « روى البخاري عن مطعم بن جبير عن بني نوفل انه مشى هو وعثمان بن عفان من بني عبد شمس إلى رسول الله (ص) وقالاه : يا رسول الله اعطيت بني المطلب وتركنا ، ونحن وهم بمنزلة واحدة .. قال الرسول (ص) : إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد - وعلق الشيخ المراغي على هذا الحديث الشريف بقوله - : وسر هذا ان قريشاً لما كتبت الصحيفة وأخرجت بني هاشم من مكة ، وحصرتهم في الشعب دخل معهم فيه بنو المطلب ، ولم يدخل بنو عبد شمس ، ولا بنو نوفل للمداوة التي كانت بين بني أمية بن

عبد شمس لبني هاشم في الجاهلية والإسلام، فقد ظل أبو سفيان يقاتل النبي (ص) ويؤلب عليه المشركين وأهل الكتاب إلى أن أظهر الله رسوله ، ودانت له العرب بفتح مكة ، وكذلك بعد الإسلام خرج معاوية على علي وقاتله .

ونعطف نحن على قول الشيخ المراغي وكذلك قتل يزيد حفيد أبي سفيان الحسين بن علي سبط الرسول الأعظم (ص) ، وقال الشاعر في هذا العدوان الموروث أباً عن جد :

فابن حرب للمصطفى وابن هند لملي وللحسين يزيد

(إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) . قال المفسرون : المراد بيوم الفرقان واليوم الذي التقى فيه الجمعان هو يوم بدر ، لأن الله فرق فيه بين الكفر والإيمان بأعلاء كلمة الإسلام على الشرك ، وأيضاً فيه التقى الجمعان : جمع المؤمنين ، وجمع المشركين ، ودارت دائرة السوء على هؤلاء .. والمعنى ان الله سبحانه لا يقبل الإيمان به وبكتابه ونبيه كتنظيرة مجردة عن العمل ، وإنما يقبل الإيمان ممن يحكم ويعمل بما حكم الله ، قال الرازي : « إن قوله تعالى : إن كنتم آمنتم بالله يدل على انه متى لم يحصل الحكم بهذه القسمة كما حكم الله لم يحصل الإيمان » .

ونعطف على قول الرازي وكذلك إذا لم يحصل الحكم في غير هذه القسمة كما حكم الله لم يحصل الإيمان به ، لأن السبب الموجب للكفر واحد ، وهو مخالفة حكم الله عمداً .. وبديهة ان هذا السبب لا يقبل التقييد والتخصيص في شيء دون شيء . وقدما أكثر من مرة ان المراد بالكفر في مثل ذلك هو الكفر العملي أي الفسق ، لا الكفر العقائدي .

إذ أنتم بالعدوة الدنيا الآية ٤٢ - ٤٤ :

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ

وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ
مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَكُمُ كَثِيرًا
لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمُورِ وَلَكِنْ اللَّهُ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *
وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ
لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ *

الكلمة :

العدوة بتثنية العين، أي يجوز فتحها وكسرهما وضمها ، وهي جانب الوادي ،
والدنيا مؤنث الأدنى وهو الأقرب ، والقصى مؤنث الأقصى وهو الأبعد .
والبيئة الحجة الظاهرة . والمراد بذات الصدور ما يخرج في القلوب .

الإعراب :

الدنيا والقصى صفتان للعدوة . والركب مبتدأ ، وأسفل منصوب على الظرفية
متعلقاً بمحذوف خبراً للمبتدأ، لأنه بمعنى في مكان أسفل منكم . وليقضي منصوب
بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك متعلق بمحذوف أي فعل ذلك لقضائه
أمراً . والمصدر المنسبك من ليهلك متعلق بيقضي .

المعنى :

تعرض هذه الآيات بعض الأسباب التي مهدها الله لاتنصار المسلمين على

سورة الأنفال

المشركين في وقعة بدر، من تلك الأسباب ان الله سبحانه ألهم المسلمين أن يربطوا في أقرب الجانبين. من الوادي الى المدينة ، أما المشركون فقد نزلوا في الجانب الأبعد منه ، وبسبب الجانبين ربوة تفصل بينهما ، ويظهر من سياق الكلام ان الجانب الذي رباط فيه المسلمون كان موقعاً حربياً بعينهم على أعدائهم ، لأن الله سبحانه قد منّ عليهم به ، وكان من تدبيره تعالى أن ينزل كل في موقعه ، دون أن يعلم بموقع الآخر ، إذ لو رأى المسلمون أعداءهم رأي العين لهاوهم ، ويشوا من الظفر بهم ، وأيضاً من تدبيره انه - جلت حكمته - قتل المشركين عند اللقاء في أعين المسلمين ، كل ذلك ليظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ، ومن الحكمة أيضاً أن تسلم العير التي مال بها أبو سفيان الى ساحل البحر ليتم اللقاء بين جند الحق وجند الباطل ، ولا يتصرف المسلمون الى العير عن النفي .. وبعد هذا التمهيد نشرع بتفسير الآيات :

(إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى) . الخطاب موجه من الله للمسلمين يذكرهم به بالموقع الذي رباطوا فيه ، وهو جانب الوادي الأقرب الى المدينة ، وبالموقع الذي اتخذ المشركون ، وهو الجانب الأبعد ، وذكّر أيضاً بانحراف العير الى ساحل البحر الذي أشار اليه بقوله : (والركب أسفل منكم) . والغرض من هذا التذكير ان هذه الأشياء كانت لصالحهم ، كما تبين فيما بعد .

(ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد) . خرج المسلمون مع النبي (ص) من المدينة طلباً للعير واحمالها غير قاصدين القتال ، كما قدمنا ، ولكن الله سبحانه حول هذه الرحلة من طلب المال إلى الجهاد في سبيله ، وكان في ذلك خير كثير ، ولو خرج المسلمون منذ البداية إلى القتال متواعدين عليه مع المشركين ، ثم علموا بكبرتهم ، لو كان ذلك لعدل بعض المسلمين عن القتال خوفاً ورهبة ، واختلّفوا مع الذين يريدون القتال، ولما تمّ شيء من نصر أولياء الله على أعدائه .

(ولكن يقضي الله أمراً كان مفعولاً) . أي ولكن الله دبر هذا اللقاء على غير ميعاد ليقع ما أراد من اعزاز الدين ، واذلال المشركين (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) المراد بمن هلك من كفر ، وبمن حي من آمن ، والمعنى ان الله نصر أوليائه ، وقهر أعداءه يوم بدر ليكون ذلك

حجة قاطعة على من يكفر ، وحجة ظاهرة لمن يؤمن .

وتسأل : إن ظاهر الآية يدل على ان من صار على الحق يُصرع وُيُغلب ، مع ان المبطل كثيراً ما يتغلب على الحق ، كما نشاهد ونرى ٩.

الجواب : ان الله سبحانه قد وعد المسلمين بالنصر على لسان نبيه - قبل المعركة - مع قتلهم وضعفهم عدة وعدداً ، وذلك حيث يقول في الآية ٧ : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين » وقد وفى لهم بالوعد ، وتحققت المعجزة بذلك لمحمد (ص) الذي أخبرهم بالنصر حين كانت جميع الدلائل تشير إلى العكس .. هذا ، إلى جانب إمدادهم بالملائكة كما في الآية ٩ ، وإلى رمية النبي (ص) المشركين بقبضة من التراب أو الحصى كما في الآية ١٧ ، كل هذه وغيرها كانت معجزات باهرات ظهرت على يد محمد يوم بدر ، وهي المراد بالبينة والحجة على من كفر ، والحجة لمن آمن ، وليس المراد مجرد النصر .. وبكلمة ان المقصود بالبينة في الآية الإخبار بالنصر قبل وقوعه مع ما تم من المقدمات وخوارق العادات ، وليس المراد النصر بالذات (وان الله سميع علم) لا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال وما يختلج في الصدور .

(إذ يريكمهم الله في منامك قليلاً ولو أراكمهم كثيراً لفشلتم وتنازعتم في الأمر) . هذه معجزة أخرى لرسول الله (ص) ، وهي ان الله سبحانه أراه في المنام ان المشركين أقلاء عدداً ضعفاء عدة ، وأخبر النبي الصحابة بما رأى ، فاستبشروا وتشجعوا ، ولو أراه الله الأعداء أقوياء لوهنت عزيمته المسلمين ، وضعفوا عن القتال ، واختلفوا فيه ، ولأعقب ذلك الفشل وذهاب الريح (ولكن الله سلم) من هذه المشكلة ، ولطف بعباده المؤمنين (انه علم بذات الصدور) . أي ان الله يعلم ان قلوب المسلمين تشعر بالخوف من القتال إذا أيقنت بكثرة العدو ، فأبعد الله هذا الشعور عن قلوبهم بما أراه للرسول الأعظم في منامه من قلة العدو وضعفه .

(وإذ يريكمهم الله إذ التقيتم في أعينكم قليلاً) ليشد من عزمكم أيها المسلمون ، وتقاتلوا أعداءكم بجرأة وثبات (ويقتلكم في أعينهم) كي لا يبالغوا في الاستعداد لقتالكم والحذر منكم .. وهكذا كان ، حتى قال أبو جهل : « إنما أصحاب

سورة الأنفال

محمد أكلة جزور ، وكانت عاقبة هذا الاستخفاف والغرور الوبال والخللان ، وقد أثبتت الأحداث ان أقوى سلاح بيد العدو هو الاستخفاف به ، وعدم الاستعداد له .

(ليقضي الله أمراً كان مفعولاً) . قال المفسرون : انما كرر هذه الجملة لأن التعليل بها في الآية الأولى كان للجمع بين المسلمين والمشركين في القتال من غير ميعاد ، أما التعليل بها في هذه الآية فقد جاء لتقليل كل فريق في عين صاحبه .. وذكرنا فسيما سبق ان التكرار في القرآن أسلوب من أساليب الدعاية الناجحة (وإلى الله ترجع الأمور) . انها تصدر منه ، وباله تنتهي ، وهو يدبرها بعذله وحكمته .

اذا لقيتم فئة فاثبتوا الآية ٤٥ - ٤٩ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَ اتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْ هَؤُلَاءَ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

وتذهب ربحكم أي قوتكم وهيتكم . والبطر الطغيان في النعمة وصرفها إلى غير وجهها . والرثاء الرياء . وجار لكم ناصر لكم . وترامت الفتتان التفتتا ورأت كل منها الأخرى . ونكص رجع القهقري . وفتشلوا منصوب بأن مضمرة على معنى جواب النهي . وبطراً مفعول لأجله ، ويجوز أن يكون في موضع الحال .

عوامل النصر :

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) . والمراد بالفئة الفئة الباغية التي تسعى في الأرض فساداً ، وقوله لعلكم تفلحون أي تظفرون بها وتنصرون عليها . وذكر سبحانه في هذه الآية عاملين للنصر على الفئة الطاغية الباغية ، العامل الأول الثبات ، والبس أشار بقوله : (فاثبتوا) . العامل الثاني الإخلاص ، وأشار إليه بقوله (واذكروا الله كثيراً) فليس المراد بذكر الله في الحرب مجرد التهليل والتكبير ، وإنما المراد أن يكون القتال والصمود فيه خالصين لوجه الله تعالى ، بمعنى أن لا تثار الحرب بحال إلا من أجل إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، من أجل الحفاظ على سلامة العباد وأمنهم ، والضرب على أيدي الآثمين الذين يسعون في الأرض فساداً بالسلب والنهب ، ويشيرون للفتن والحروب ليتحكموا بالبلاد وأرزاق العباد .

(وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتشعلوا وتذهب ربحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) . ذكر سبحانه في الآية السابقة عاملين للنصر : الثبات والإخلاص وذكر في هذه الآية ثلاثة عوامل : التقوى بطاعة الله والرسول ، وتجنب الاختلاف والصبر ، ولكن الصبر هو الثبات فقوله تعالى (واصبروا) في هذه الآية تعبير ثان عن قوله : (فاثبتوا) في الآية السابقة ، كما أن طاعة الله ورسوله هي الإخلاص لله ، أما الاختلاف فنه حسن وقبيح ، والتفصيل فيما يلي ، والذي نستخلصه من الآيتين معاً أن عوامل النصر الحقيقية ثلاثة :

سورة الأنفال

١ - الصبر والثبات ، وهو توطئ النفس على التضحية بكل عزيز لنصرة الحق على الباطل ، وكما ينتصر الحق بحق الباطل وزواله ينتصر أيضاً بالكشف عن الباطل ، وإظهاره للناس على حقيقته . والصبر ضروري لبلوغ أية غاية من الغايات ، فما من تلميذ أو أستاذ أو مخترع أو فنان ، أو تاجر ، أو أي كان ينال شيئاً من النجاح إلا بالصبر والثبات ، وعلى مقدار صموده لتحمل المشاق والآلام يكون فوزه ونجاحه ، وبهذا نجد السر في قوله تعالى : (ان الله مع الصابرين) . وقوله : (وبشر الصابرين) . وقوله : (وما يلقاها إلا الصابرون) . وقوله : (ولئن صبرتم لهو خير لكم) . إلى غير ذلك .. وقد جريت الصبر طالباً ومؤلفاً فما وجدت أحلى منه مغبة ، ولا أجدى عاقبة . وتقدم الكلام عن الصبر في فقرة مستقلة ج ١ ص ٢٤٠ .

٢ - الإخلاص ، وهو ان يقصد العامل بعمله وجه الله ، فيثق به لا بسواه ويؤمن إيماناً قاطعاً بأن ما عند الله خير وأبقى من الجاه والمال والبنين ، فلا يؤثر شيئاً من هذه على طاعة الله ومرضاته .. وقد يبلغ المرء ما يبتغيه من أهداف شيطانية ، ولكن هذا لا يُبعد نصرأ إلا إذا اعتبرنا الباطل فضيلة ، والصلووية غنيمة ، والفساد تقوى وصلاحاً .

٣ - تجنب نوع من الاختلاف، لأن الاختلاف قد يكون في الآراء ووجهات النظر ، مع الاخلاص والتجرد للحق ، وهذا لا يتنافى مع طاعة الله والرسول ، ولا يمنع من الاتفاق على الهدف كجهاد المفسدين ومحاربتهم ، وكثيراً ما يكون وسيلة للتحيص وجلاء الحقيقة .

وقد يكون سبب الاختلاف الأهواء وحب الذات ، والتكالب على الدنيا وحطامها ، وهذا هو المقصود بقوله تعالى : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم) والأمثلة على اضرار التنافس في المكاسب والأرباح لا يبلغها الاحصاء ، وبين دفتي التاريخ منها المئات ، ولسنا بحاجة الى التاريخ البعيد ، لنستخرج منه الأمثلة ، فإن تاريخنا الحاضر مع اسرائيل كافٍ ومغزٍ عن جميع الأمثلة .. فبالأمس القريب قرأت عن الكاتب الأمريكي « سألز برجر » انه كتب مقالاً لجريدة الهيرالد تريبون قال فيه ما نصه بالحرف : « واشنطن توازن الخلل العددي بين العرب واسرائيل ،

الجزء العاشر

وتؤكد أنه وان بدا في غير مصلحة اسرائيل إلا أنها توازن دائماً بينه وبين الانقسام المستمر بين الدول العربية لأن هذا الانقسام يجعل نفوق العرب العددي مجرد أرقام لا قيمة لها . وقبل هذا الكاتب أعلن المسؤولون في اسرائيل أكثر من مرة أنهم ربمحا حرب ٥ حزيران لمساندة الولايات المتحدة ، واختلاف كلمة العرب ، وأي شيء أحب إلى اسرائيل من أن يحمل العرب السلاح على بعضهم البعض من ان يشهروه في وجهها ، ولذا لعب الاستعمار والصهيونية دوراً أساسياً في اذكاء الصراع العربي ، وقد وجد ، وللأسف ، من يستجيب لها ، بل ويتكلم بلغتها أيضاً .. وعلى أية حال ، فان الثورة تواصل الزحف ولا بد أن تصل وتتصر على الاستعمار وعملاته أجلاً أو عاجلاً .

(ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) . بعد أن أمر سبحانه المسلمين بثلاثة ، وهم يخرجون الى الحرب : الثبات والاخلاص والانصاف نهاهم عن ثلاثة : البطر ، والرياء والصد عن سبيل الله ، ونسب هذه الأوصاف إلى كفار قريش لأنهم خرجوا إلى بدر لحرب النبي (ص) بطرين مرائين صادين المسلمين عن سبيل الله قال المفسرون : قناد أبو جهل قريشاً لحرب النبي في بدر ، وفي طريقه أتاه ابن الحنفاء الكنانى بهدية من أبيه ، وقال لأبي جهل : يقول لك أبي : ان شئت أمدك بالرجال ، وان شئت زحفت مَعك . فقال أبو جهل : ان كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله مالنا بالله من طاقة ، وان كنا نقاتل الناس فوالله ان بنا على الناس لقوة ، ولا نرجع عن قتال محمد ، حتى نرد بدرأ فنشرب فيها الخمر ، وتعزف علينا القيان .. وتسمع العرب بذلك .

ويتجلى البطر في أوسع معانيه بقول أبي جهل : (وان بنا على الناس لقوة) . أما الرياء فيتجسم بقوله : (وتسمع الناس) ومن أجل هذا نميل الى قول من قال : ان هذه الآية نزلت في أبي جهل ، أما عاقبة هذا البطر والرياء فقتل من قُتل ، وفيهم أبو جهل ، وأسر من أسر ، وهزيمة الباقيين .

(وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال اني بريء منكم اني أرى ما لا ترون

لاني أخاف الله والله شديد العقاب) . هذه الآية تقول بصراحة : ان هناك شيئاً اسمه الشيطان شجع قريباً على حرب النبي في بدر ، وضمن لهم النصر ، وانه لما أبقن بسوء مصيرهم خذلهم وتبرأ منهم .. وقدمنأ أكثر من مرة أننا نؤمن بكل ما دل عليه الوحي ، ولا ياباه العقل ، وأننا ندع التفاصيل للغيب ، ولا شيء في حكم العقل يمنع من وجود شيء يرى أو لا يرى يوسوس للناس بالباطل ويغريهم به .. وقد أمر الله سبحانه نبيه الكريم أن يتعوذ من شر الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس جنناً كان أو انساً .

(إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض هؤلاء دينهم . ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم) . المنافقون هم الذين يظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر ، أما قوله والذين في قلوبهم مرض فيشمل المنافقين والكافرين والغاسقين ، وعليه يكون عطف مرضى القلوب على المنافقين من باب عطف العام على الخاص . وقد حكى الله في هذه الآية عن مرضى القلوب انهم دهشوا حين رأوا إقدام القلة المسلمة على حرب الكثرة الكافرة ، ولم يفهموا تفسيراً لهذا الإقدام الا تهور المسلمين وغرورهم بعقيدتهم ، أما الثقة بالله ، والتوكل عليه ، وفوز الشهيد بالجنة فكلام بلا معنى في مفهومهم ، لأن كل شيء عندهم صفقة تجارية ، حتى الدين .

هل الفدائيون مخربون ؟

في هذا الظرف الذي تتألب فيه قوى الشر ، وتتآمر على العرب والمسلمين ، ويطردهم في الشعب الفلسطيني من دياره ، ويلقى به في العراء نساء وشيوخاً وأطفالاً ، في هذا الوقت الذي يقض فيه الفدائيون مضجع إسرائيل ، ويقلقون راحتها ، ويعبثون عن إرادة كل حر ، ورغبة كل مخلص في تحرير الأرض المحتلة ، في هذا الأوان بالذات يقف معتم على حدود إسرائيل ، وفي قرية من قرى الجنوب ، يقف هذا المعمم ، وينادي في الجموع من مكبر الصوت : الفدائيون مخربون .. تماماً كما يقول دابان وأشكول وايبان .

الفدائيون مخربون يا محترم ، وأنت وإسرائيل مصلحون ؟ ولماذا الفدائيون

الجزء العاشر

مخربون ؟ الأنهم متمسكون بحقهم ، وفي سبيله يقتلون ويقتلون ، أو لأنهم غيروا وبدلوا اسم اللاجئين باسم الفدائيين ؟ وهل أنت في قولك هذا مطيع لله ورسوله ، ومجاهد مناضل تؤدي واجباً دينياً ووطنياً ؟ .

وأي دين من الأديان يحرم التضحيات من أجل دفاع الإنسان عن وطنه وإرادته الحية فيه حراً كريماً ، وإن عظم الثمن ؟ .

أنا أعرف منطقك أيها المعمم ، انك تقول : إن إسرائيل تجيب عن عمل الفدائيين بالانتقام من الأبرياء ، ونحن نسألك بدورنا : أين كان الفدائيون في ٢٩ آب سنة ١٨٩٧ حين عقد الصهاينة مؤتمراً عاماً بسويسرا وقرروا فيه طرد العرب من فلسطين وإحلال اليهود محلهم ؟ هل كان هذا القرار والتصميم نتيجة لضربات الفدائيين آنذاك ؟ ثم ما قولك في مجزرة دير ياسين ، والمذابح التي قام بها اليهود للسكان الآمنين قبل أن تدخل الجيوش فلسطين ؟ .

يجب أن تعرف أيها المعمم أنت وكل عربي أن فلسطين لا تشيع أطاع إسرائيل ومعها الأردن ولبنان وسوريا والعراق ، أنها تهدف لإذلال العرب جميعاً ، وإخضاعهم للصهيونية والاستعمار سياسياً واقتصادياً ، أنها تطمع في نفط الكويت وقطر وأبشي ظبي والسعودية ، وفي السوق العربية الاستهلاكية ، وفي أيدي العرب العاملة الرخيصة .

وقد وضعت لأطاعها هذه التصاميم ورسمت لها المخططات بالتآمر مع دول الاستعمار .. والعمل الفدائي هو الذي أفسد على إسرائيل هذه المخططات ، وتلك القصاص ، وحملها على الاعتقاد بأن دون أحلامها وجود إسرائيل بالذات .

فخير ألف مرة أن نتحمل الألم الذي يفرضه عمل الفدائيين من أن تحقق إسرائيل أطاعها التي لا يحدها شيء ، حتى النيل والفرات .. هذا ، إلى أن المرحلة التي نحن فيها نختم علينا أن نواجه العدو بمقاومة الفدائيين كخطوة أولى ، وأن نتحمل كل عبء بسببها دفعاً لما هو أشد وأعظم .

وبعد ، فاقولك أيها المعمم في السرايا والبحوث التي كان يرسلها محمد (ص) لتقطع الطريق على أعدائه المشركين ، وتنهب أموالهم ، وتقتل وتأسر رجالهم ، وتسلبهم الراحة والأمن في ديارهم ، وكان يقود بعضها بنفسه ، كما فعل حين

غزا يهود بني قريظة بعد أن نكثوا عهده ، وانضموا لحربه مع أبي سفيان عدو الله ورسوله في حرب الأحزاب ، فلقد أمر النبي (ص) جيشه الذي كان يقوده بنفسه أن يحرق زرع اليهود ويقطع أشجارهم ، ويهدم مساكنهم ، فهل كان النبي في عمله مصلحاً أو مخرباً ؟.

وقد تواتر قوله : من مات دون عقال من ماله مات شهيداً .. فكيف بمن مات في مقاومة إسرائيل عدوة الله والوطن والانسانية جمعاء ؟.

قال تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم - ١١٢ التوبة » . ولا عامل اليوم بهذه الآية في الأمة العربية إلا القذافيون ، وفداؤهم هو حجر الأساس لثورة الشعب العربي بأسره .

ولو ترى الآية ٥٠ - ٥٤ :

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَذْبَارُهُمْ فَيَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتُمْ
اللَّهِ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ *
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمََا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا
بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ
وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ *

الثقة :

أدبارهم أي ظهورهم . والدأب العادة .

الإعراب :

جملة ذوقوا عذاب الحريق مفعول لقول محذوف أي ويقول الملائكة للكفار ذوقوا . وبظلام الباء زائدة ، وظلام خبر ليس ، والمصدر المنسبك من ان الله ليس بظلام للعبيد مجرور بالباء المحذوفة أي بأن الله ليس بظلام. كدأب آل فرعون الكاف بمعنى مثل في موضع رفع خبراً لمبتدأ محذوف أي دأبهم مثل دأب آل فرعون . والمصدر المنسبك من ان الله سميع عليم مجرور بحرف جر محذوف متعلقاً بمحذوف أي وذلك كائن بأن الله سميع عليم .

المعنى :

(ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) . ولو ترى خطاب لكل من يرى ، لأن القصد منه العقوبة والاعتبار ، والمراد بالذين كفروا كل كافر أخلاً بظاهر اللفظ من حيث هو ، وقيل : المراد بهم خصوص كفار قريش الذين حاربوا النبي (ص) ببدر عملاً بقريته السياق لأن الحديث ما زال عن وقعة بدر، وضرب الوجوه والأقنية كناية عما يقاسيه الكفار من العذاب عند الموت ، ويجوز أن يكون الضرب على حقيقته وان لم يشاهد بالחס ، وأباً كان الأمر فان الكافر يُخزى عند الموت وبعده ، ولا تهمنا الصورة والكيفية .

(ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد) . كيف ، وهو ينهى عنه ، ويعاقب عليه ؟ . وقال السنة : ان العقل يميز على الله تعالى أن يعاقب الطائع ، ويثيب العاصي ، وأيضاً يميز العقل على الله تعالى أن يخلف وعده (المواقف ٨ المقصد الخامس والسادس من المرصد الثاني في المعاد . والمذاهب

سورة الأنفال

الاسلامية لأبي زهرة فصل بعنوان منهاجه وآراؤه رقم ١٠٤) .

وقال الشيعة : العقل لا يميز على الله أن يعاقب المطيع ، ويميز عليه أن يتفضل على العاصي ، لأن العادل لا يعاقب من أطاع ، والكريم الحليم يسمح عن أداء .
(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ان الله قوي شديد العقاب) . أي ان ما أصاب المشركين يوم بدر من القتل والأسر لأنهم كذبوا محمداً (ص) ان ما أصاب هؤلاء يشبه ما أصاب المشركين السابقين من الهلاك ، لأنهم كذبوا أنبياءهم ، كآل فرعون ومن كان قبلهم .

(ذلك بأن الله لم يك مغبراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم) . الظاهر من النعمة هنا الرزق ، ومن تغييرها سلبه وازالته .. وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو ان ظاهر الآية يدل على ان القوم الذين أنعم الله عليهم بالرزق فانه يبقيه عليهم ما داموا مطيعين ، فإذا عصوا سلبهم إياه ، مع ان الذي نراه من عصاة كثيرين انهم كلما ازدادوا عصباناً ازدادوا ثراء ، أو لا يتغير عليهم شيء .

الجواب : ان الآية لم تصرح بلفظ المعصية ولا بلفظ الكفر ، وكل ما دلت عليه ان الله لا يزيل النعمة عن أهلها إلا إذا غيروا ما بأنفسهم ، ولكنه جل ثناؤه لم يبين نوع التغيير ، ومثلها الآية ١١ من سورة الرعد : ه ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ه . وآل فرعون الذين مثل الله بهم في الآية السابقة كانوا مشركين من قبل ومن بعد ، أجل انهم ازدادوا طغياناً بعد أن جاءهم موسى (ع) بالبينات ، وعلى هذا بتعين حمل الآية التي نحن بصدددها على معنى ان الله لا يهلك قوماً في الدنيا إلا إذا أرسل اليهم رسولا ودعاهم الى الله مشافهة وجهاً لوجه ، فأعرضوا عن دعوته كآل فرعون ، ومن سبقهم من قوم نوح ولوط وغيرهم ، وإذا لم يرسل الله اليهم رسولاً كذلك فانه يؤخر عقابهم الى يوم الحساب والجزاء .. أما آية الرعد فإن لنا رأياً في تفسيرها نبينه في حينه ان شاء الله .

(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقتنا آل فرعون) . مر نظيره في سورة آل عمران الآية ١١ ج ٢ ص ١٧ .

(وكل كانوا ظالمين) . أي كل من آل فرعون الذين كذبوا موسى (ع) ، وكفار قريش الذين كذبوا محمداً (ص) ظلّموا أنفسهم بالكفر ، وظلموا الناس بالصد عن سبيل الله .

قواعد وأحكام في السلم والحرب الآية ٥٥ - ٦٣ :

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِذَا تَشَفَّعْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّذْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ * وَإِذَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْصِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ * وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنْهُمْ لَا يُعْزِزُونَ * وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِذَنْبِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَالْأَفْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

اللغة :

أصل الدابة لكل ما دب على وجه الأرض ، ثم غلب استعماله في ذوات الأربع ، والتحف الظفر . والتشريد الإبعاد . والنبد الطرح . ورباط الخيل حبسها واقتناؤها . وجنحوا مالوا . والسلم يفتح السين وكسرهما ضد الحرب ، ويشمل الصلح والمهادنة ، ويذكر ويؤنث .

الإعراب :

الذين عاهدتم منهم بدل بعض من الذين كفروا . واما تثقفنهم واما تخافن (اما) مركبة من كلمتين ان الشرطية وما الزائدة ، ودخلت نون التوكيد على الفعل لوجود ما ، ومفعول ابتد محذوف أي عهدهم ، ولا يعجزون أي ولا يعجزوني . وجملة ترهبون به حال من الواو في اعدوا . وحسبك مصدر بمعنى اسم الفاعل أي كافيك ، وهو مبتدأ واسم الجلالة خبر ، ويجوز أن يكون فاعلاً ساداً مسد الخبر ، مثل أقائم زيد .

المعنى :

تتضمن هذه الآيات قواعد وأحكاماً في السلم والحرب نشرحها فيما يلي حسب ترتيب الآيات :

١ - (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم يتقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) . يقول سبحانه : إن جماعة من الذين كفروا ولا يرجي إيمانهم قد عاهدوا النبي (ص) على المسالمة وحسن الجوار ، ولكنهم أضمرُوا الغدر ونقضوا العهد أكثر من مرة ، ولم يتقوا ما يترتب على ذلك من العذاب والوبال .. وقد وصف الله هؤلاء بأنهم شر من دب ويدب على وجه الأرض ، وقال جماعة من المفسرين : انهم يهود بني قريظة عاهدوا الرسول ، ثم نكثوا عهده ، وأعانوا عليه مشركي مكة يوم بدر ، ولما

انتصر النبي (ص) على المشركين اعتذر اليه اليهود فقبل عذرهم وصفح عنهم ، ثم عاهدوه ثانية ونكثوا يوم الخندق .. ولا غرابة أن يخون اليهود ويفسدوا ، وإنما يُستكثر منهم الصدق والوفاء .

٢ - (فلما تتقنهم في الحرب فشردهم من خلفهم لعلهم يذكرون) . الخطاب للنبي (ص) بين الله فيه حكم هؤلاء الكفرة القذرة ، وأنه إن ظفر بهم فليقسُ عليهم ، حتى يتعظ بهم غيرهم ممن تراوده نفسه بالخيانة والغدر . وبهذا يتضح ان المراد بمن خلفهم غيرهم .

٣ - (وإما تخافن من قوم خيانة فأنذرهم على سواء) . المراد بالخوف هنا العلم ، وعلى سواء أي تكون أنت وهم سواء في العلم بنقض العهد ، والمعنى إذا كان بينك يا محمد وبين قوم عهد ، وعلمت يقيناً أنهم خائنون بظهور إمارات قاطعة على أنهم يضمرون الغدر والاختيال ، ويتخذون من العهد ستاراً يدبرون من ورائه المكر السيئ ، إذا كان كذلك فألقِ اليهم عهدهم ، واعلمهم انك قد نقضته ، بحيث تكون أنت وهم في العلم بالنقض سواء ، ولا تبدأهم بقتال قبل أن تعلمهم بذلك كي لا تنسب إلى الغدر والخيانة (إن الله لا يحب الخائنين) .

وبكلمة: ان الإسلام يوجب الوفاء بالعهد لأهل الوفاء ، أما الذين يتخذون من العهد وسيلة للغدر والاختيال فان الإسلام يأمر بنقضه لأنه كيد لا عهد : هـ وان الله لا يهدي كيد الخائنين - ٥٢ يوسف هـ . قال الإمام علي (ع) : الوفاء لأهل الغدر غدر ، والغدر بأهل الغدر وفاء .

(ولا يحسن الذين كفروا سبقوا لهم لا يُعجزون) . معنى سبقوا أفلتوا ، ولا يُعجزون أي لا يعجزونني ، والمراد من مجموع الآية لا يحسن أحداً ان الله يفوته مطلوب .

٤ - (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) . الآيات السابقة تعرضت لإبرام العهد مع الغير ، والحكم فيمن ينقضه ، وفي هذه الآية أمر الله سبحانه المسلمين باعداد القوة واستكمال العدة للأعداء ، والمراد بالقوة كل ما يتقوى به على العدو رماً كان ، أو صاروخاً ، أو أي شيء .. وخص سبحانه

سورة الأنفال

الخليل بالذكر، لأنها كانت من أعظم مظاهر القوة آنذاك ، وروي عن النبي (ص) انه تلا هذه الآية ، وقال : « الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي » كررها ثلاثاً ، والقصد بيان أهمية الرمي وتأثيره في الحروب وقد أثبت تاريخها صحة هذه النظرية التي نطق بها الرسول (ص) منذ أكثر من ألف وثلاثمئة سنة ، حيث لا قاذفات قنابل ولا صواريخ موجهة ، وقد انجهدت عباقرة العقول في كل عصر الى تقوية الرمي وتطويره من السهم الى الرصاص ، ومنه الى القنابل ، ومنها الى الصواريخ والقذائف الدرية والهيدروجينية .. وقد استعمل المسلمون مع الرسول الرمي بالمنجنيق في غزوة خيبر .

(ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم).
فسمّ سبحانه أعداء المسلمين الى نوعين : نوع ظاهر العداء يعرفهم المسلمون بليلك ، ونوع غير ظاهر يجهل المسلمون عدائهم ، واليهام الاشارة بقوله : (وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) وهم كل من يتمنى للمسلمين الفشل والخذلان خوفاً على سلطانه واستغلاله ، ومنهم الدول المجاورة كالفرس والروم الذين تغلب المسلمون عليهم حين قويت شوكة الاسلام .

القوة الرادعة والقوة المعتدية :

ونقف قليلاً عند قوله تعالى : (ترهبون به عدو الله وعدوكم) لأنه ينطوي على مبدأ يحفظ المجتمع الانساني من الفوضى، ويردع الطغاة الأقوياء من التلاعب بحياة الناس واستغلالهم .. وهذا المبدأ هو وجود قوة في قبضة أهل الحق والعدل يردعون بها أهل الظلم والباطل ، ويخضعونهم لحكم الله وشريعته التي تدعو الناس جميعاً أن يعيشوا طبقاً لقوانين الحياة وسنتها ، ولا ينحرف عنها أحد ، فإذا ما راودته نفسه بالميل والانحراف ، أرغمته القوة على الرجوع الى تلك السنن والقوانين . ولو ان أرباب العقول والمتخصصين بحثوا عن السبب لمشكلات الحياة وويلاتها لوجدوه في ضعف القوة الرادعة عن العدوان ، واستفحال القوة المعتدية . ويكفي مثالا على ذلك القوة التي تملكها الولايات المتحدة ، وتستغلها في السلب والنهب ، دون رادع وزاجر إلا نضال الشعوب الغزلاء .

الجزء العاشر

يقول « نيكولاس سيكيان » في كتابه الاستراتيجية الامريكية في السياسة العالمية ، يقول : « مسموح لنا نحن الامريكيين بكل أشكال الجبر والقسر بما فيها حروب الدمار ان نملي ارادتنا ونفرضها بالقوة على الذين لا قوة لهم » . وأيضاً يقول « ليو ويلتش » الأمريكي : « واجبتنا أن نحقق زعامتنا الانجابية بالقوة على العالم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، ولا ينبغي أن يكون ذلك إلى أجل مسمى ، انه واجب أبدي لا يجوز التفريط فيه » .

ولا سر لهذا التعاطف من أعداء الله ، والجهر بالعدوان على عباده وعباده من غير مبالاة إلا عدم الخوف والرغبة من القوة الرادعة التي تجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى .

ونفذ القادة في الولايات المتحدة ما جاء في كتاب الاستراتيجية الامريكية ، واعتبروه انجيلهم المقدس دون كتاب الله ، ومارسوا جميع أشكال الجبر والقسوة بما فيها حروب الدمار ليفرضوا ارادتهم على الذين لا قوة لهم ، فألقوا بالقذائف المحرقة على الأطفال والعجائز والحوامل ، وبالقنابل الكيماوية على المحاصيل ووسائل الرزق والحياة من نبات وحيوان لثموت جوعاً البقية الباقية من قنابل النابالم وغيرها من القذائف .. ولهذا الغاية أقامت الولايات المتحدة على أرضها العديد من قلاع الموت ، أنشأت فيها المعامل والمختبرات لاكتشاف أشد المكنوبات فتكاً بالانسان والحيوان والنبات ، ولاختراع الغازات التي تُذهب العقل ، وتُنهك الأعصاب .

فأي عجب بعد هذا إذا أنشأت الولايات المتحدة على أرض فلسطين قلعة الموت والفتن ، وترسانة التخريب والتدمير ، وأطلقت عليها اسم دولة اسرائيل ؟ . أجل ، لا عجب في شيء من ذلك ، وإنما العجب أن تعترف الدول بما فيها الدول الصغيرة الضعيفة - ان تعترف بهذه القلعة والترسانة التي قامت وأُست على عداة الانسانية جمعاء ، وان يكون لها من يمثلها ويدافع عنها وبربر أعمالها في الأمم المتحدة .. وبرغم هذا وفوق هذا فنحن لا نياس أبداً من انتصار الحق ، وخذلان الباطل في يوم من الأيام ، فهذه أصوات الاحتجاج ضد الطغاة المعتدين ترتفع في كل مكان ، حتى في الولايات المتحدة ، وهذا الشعب الفيتنامي الباسل قد أودى بهية الامريكيين ، وقتل من جيوشهم عشرات الألوف ، وأرغمهم أن

سورة الأنفال

يُحْرَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْبَالَيْنِ .

٥ - (وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم الله وأنتم لا تظلمون) .
هذا ترغيب في انفاق المال الذي لا بد منه لإعداد القوة الرادعة . وتقدم الكلام
عن ذلك في ج ١ ص ٣٠١ عند تفسير الآية ١٩٦ من سورة البقرة ، وج ٢
ص ١٠٧ عند تفسير الآية ٩٢ من آل عمران .

٦ - (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه سميع عليم) . السلم
عام يشمل ترك الحرب بالهدنة والصلح ، وبدفع الجزية ، والدخول بالإسلام ،
وقوله تعالى لنبية : (فاجنح لها) هو أمر حتم بمسالة كل من يسلم كائناً من
كان إلا إذا دلت الدلائل القطعية على أن سلمه مكر وتمهيد للوثبة والاحتفال
على غرة .

وينبغي أن نفهم ان المراد بالسلم في الآية سلم الجميع من قاتل ومن لم يقاتل ،
وليس سلم الأطراف المتنازعة فحسب ، كالتعايش السلمي بين الاتحاد السوفياتي
والولايات المتحدة الذي تسلك هذه من خلفه لتدبير المؤامرات والانقلابات لصالحها
في الدول المحايدة ، وضرب الحريسات في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية لتزيد
من أرباح شركائها الاحتكارية على حساب دم الشعوب وخبزها ومستقبلها .
وتسأل : قال سبحانه في هذه الآية : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) .
وقال في الآية ٣٥ من سورة محمد : (فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون
والله معكم) . فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟ .

الجواب : لا منافاة بينهما ، فالأولى تأمر المسلمين أن يسالموا من يسلم ،
والثانية تشد من عزائمهم ، وتقوي فيهم الروح المعنوية ، وتنهاتهم عن الانهيار
والفرار من العدو ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : (فلا تنهوا) . وقوله : (والله
معكم) . فهذه الآية ، وهي فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم تماماً كالآية ١٠٣ من
سورة النساء : « ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما
تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » .

٧ - (وان يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره
والمؤمنين) . ضمير الخطاب موجه للنبي (ص) ، وضمير الغالب في يريدوا

الجزء العاشر

وتخضعوا عائد إلى الذين جنحوا للسلم ، والمعنى ان كان هؤلاء يبيتون لك يا محمد الحياة والغدر من وراء جنوحهم للسلم فلا تخش غدرهم ، فأنت في أمان من الله وهو كافيك شرهم ، وقد أيدك من قبل بنصره وبالمؤمنين .

وتسأل : لقد مر قريباً عند تفسير قوله تعالى : (فاما تخافن من قوم خيانة فانبل اليهم) مرّ ان الله أمر نبيه أن ينقض عهدهم إذا خاف منهم الغدر والخديعة ، وفي هذه الآية أمره بالاستجابة لهم إذا طلبوا السلم ، حتى ولو كانوا يريدون الخيانة في الواقع ، فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟ .

الجواب : أمره الله هناك بنقض العهد مع اعلامهم بالنقض إذا كان على يقين من غدرهم بما ظهر له من الامارات القطعية ، وأمره هنا بمسألتهم وان أرادوا الغدر في الواقع إذا لم تقم الدلائل القطعية على غدرهم ، وإنما احتمل ذلك ، وفي مثل هذه الحال يأخذ النبي بالظاهر ويعاملهم بحسبه ، فان الظاهر للناس ، والباطن لله .

(وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم) . ليس من شك ان الله سبحانه هو الذي ألف بين قلوب الصحابة بعد أن كانت عصبة على التآليف بخاصة بين الأوس والخزرج الذين امتدت الحروب بينها ١٢٠ سنة .. وأيضاً ليس من شك ان الله سبحانه يجري الأمور على سنتها ، والمسببات على أسبابها ، وسبب التآليف بين قلوب أصحاب محمد (ص) هو الإسلام وإيمانهم به نظرياً وعملياً ، والإسلام من عند الله ، فصحت النسبة إليه تعالى .

وقلنا عند تفسير الآية ٢ من هذه السورة ان الدين لا يثبت قبحاً ، ولكنه يثبت سباً وإخلاصاً .. ونظير هذه الآية التي نحن بصدها الآية ١٠٣ من سورة آل عمران ، وتجد تفسيرها مفصلاً في ج ٢ ص ١٢٢ .

حسبك الله الآية ٩٤ - ٩٦ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا
مِثَّتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَخَصًا فَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ مِثَّةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِثَّتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ
يَاذَنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ *

اللفظة :

حسبك كافيك . والتحريض رفع المشقة . والضعف بكسر
الضاد من المضاعفة أي زيادة الشيء مثله في المقدار ، وبفتحها ضد القوة المادية
والمعنوية ، وكذلك بضم الضاد ، وقيل الضم يختص بضعف العقل .

الإعراب :

حسبك الله مبتدأ وخبر ، ومر في الآية ٦٢ . ومن اتبعك (من) في عمل
رفع عطفاً على اسم الجلالة . وان يكن منكم عشرون (منكم) خبر مقدم ليكن،
وعشرون اسمها .

المعنى :

(يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) . قيل : معناه يكفيك
الله يا محمد ، وأيضاً هو يكفي المؤمنين الذين اتبعوك ، وعلى هذا التفسير يكون
عمل (من) النسب عطفاً على الكاف في حسبك ، أما نحن فنحيل الى قول من
قال : ان (من) محلها الرفع عطفاً على اسم الجلالة ، ويكون المعنى يكفيك

الجزء العاشر

يا محمد الله والمؤمنون برسائلك، ودليلنا على ذلك قوله تعالى في الآية السابقة ٦٢ :
(فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) فإنها صريحة بأن الله والمؤمنين
نصروا محمداً ، فكذلك : (حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين) . ومهما يكن ،
فإن القصد أن يطمئن النبي ويعلم بأن معركته مع الكافرين مضمونة على كل حال ،
لأن القوة التي تسانده لا غالب لها .

(يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون
يغلبوا متين وان يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا
يفقهون) . يقول جل ثناؤه لنبيه : شجع يا محمد أصحابك على القتال ، وأخبرهم
بأنهم كفء لاعداء الله وأعدائهم ، حتى ولو زاد عددهم عشرة أضعاف ذلك
بأن المؤمنين يفقهون أمر الله ، ويعتقدون باليوم الآخر ، وان السعادة تُنال بالجهاد
والاستشهاد ، فيقدمون عليه بنية صادقة ، وعزم قوي ، أما الكافرون فلأنهم لا
يفقهون أمر الله ، ولا يعتقدون بالمعاد ، ولهذا يحجمون شحاً بحياتهم وحرصاً
عليها من الفناء والحرمان .

(الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا
متين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) . أطال
المفسرون والفقهاء الكلام حول هذه الآية ، فمنهم من قال : إنها ناسخة للآية
المتقدمة التي فرضت على المسلم أن لا يفر من عشرة ، وقال آخر ، شق على
المسلمين أن يقابل الواحد منهم عشرة ، فجاء التخفيف بقوله : (الآن خفف
عنكم) الخ ، وأفقى الفقهاء استناداً الى هذه الآية بتحريم الفرار من الزحف إلا
إذا كان عدد جيش العدو أكثر من ضعف عدد جيش المسلمين .. وبيننا عند
تفسير الآية ١٥ من هذه السورة ان الفقهاء لا يملكون الفتوى بذلك ، وان الأمر
فيه يُترك لتقدير قائد الجيش الخبير الأمين وحده .

ومن أجل هذا نرجح ان الآيتين هذه والتي قبلها لم تردا لبيان حكم الفرار
من الزحف بوجه عام ، وإنما هما خاصتان بالنبي وأصحابه فقط ، ولا تتجاوزان
إلى غيرهم ، والله أعلم بمراده .

في الأسرى الآية ٦٧ - ٧١ :

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُنَجِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ
عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ
مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ
حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن
فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأُسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا
مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ
فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

اللفظ :

أسرى جمع أسير ، والأسر الشد على المحارب وأخذه . والآنحان الشدة ،
يقال : أنحنه إذا اشتد عليه . والعرض ما يعرض ولا يدوم . ومستم أصابكم .

الاعراب :

لولا كتاب (كتاب) مبتدأ ، وسبق صفة له ، والخبر محذوف ، أي لولا كتاب
كائن . وحلالاً حال من الموصول في مما غنمتم ، أو صفة لمفعول مطلق محذوف
أي كلوا أكلاً حلالاً .

المعنى :

(ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يشحن في الأرض) . اتفق المفسرون على ان هذه الآية نزلت في أسرى بدر ، وظاهر السياق يدل على ذلك ، واختلفوا في تفسيرها على أقوال ، ولايضاح المراد منها نوردته بصيغة السؤال والجواب :

إذا قامت الحرب بين المسلمين وعبداء الأوثان ، وأمكن الله المسلم المقاتل من كافر يتنازله فهل يجب على المسلم قتل هذا الكافر ، أو يجوز له أسره ، وإذا أسره بناء على جواز الأسر فهل يُخبر النبي بين قتل الأسير، وبين أن يطلقه بفدية أو بدونها ؟.

ولا بد في الجواب من التفصيل بين حالين : الأولى أن تقع المعركة بعد أن يعظم شأن الدين في الأرض ، وتم القوة له ولأهله بحيث لا يضرهم كيد العدو ومكره لمكان القوة الرادعة ، وفي مثل هذه الحال يُخبر المسلم المقاتل بين القتل والأسر ، فإذا أسر كان الخيار للنبي بين قتل الأسير وإطلاقه بفداء أو غير فداء ، قال تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثبتتموهم فشدوا الوثاق فاما مناً بعد واما فداء - ٤ محمد . » والسر في ذلك واضح، وهو وجود القوة الرادعة .

الحال الثانية أن تقع المعركة قبل أن يتمكن الدين في الأرض ، وتم له القوة والغلبة ، فإذا تمكن المسلم المقاتل في مثل هذه الحال من الكافر المحارب فعليه أن يقتله ولا بأسره ، والسر لإلقاء الرعب في قلب كل من يحاول إعلان الحرب على المؤمنين ، ويدل على هذا قوله تعالى : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يشحن في الأرض) أي لا أسر من الكفار ، حتى تم للدين القوة الرادعة التي بدل بها أهل الكفر والطغيان .

(تريدون عرض الدنيا) هذا الخطاب موجه بصفة خاصة لمن أسر أسيراً من المشركين بقصد الغنيمة وأخذ الفدية غير مكترث بما يترتب على حياته من الفساد في الأرض (والله يريد الآخرة) يريد لعباده ثواب الآخرة لأنه خير وأبقى من

سورة الأنفال

عرض الدنيا (والله عزيز حكيم) هيب العزة للمؤمنين وإن لم يكن لهم أسرى ، وهو حكيم في تدبيره وأمره ونهيه .

(لولا كتاب من الله سبق لمسك فيا أخذتم عذاب عظيم) . لقد سبق في قضاء الله أن ينصر دينه ونبيه بالفتة القليلة التي حاربت معه بدر ، وإن ينكل بالكثرة الكافرين قتلاً وأسراً ونهباً بأيدي المؤمنين ، ولولا قضاؤه هذا لعذب المؤمنين الذين أسروا أعداء الله طمعاً بالفدية ، لأنه تعالى يريد أن يكون الجهاد والعمل خالصاً لوجهه الكريم ، وفي الحديث : « من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » ونجدد الإشارة إلى انه تعالى لم يبين نوع العذاب الذي كان سيوقعه بالأسرى من الصحابة لولا قضاؤه السابق : هل هو العذاب الدنيوي أو الأخروي .

وتسأل : إذا كان الأسر محرماً قبل أن يُظهر الله دينه على الدين كله فكيف أجاز رسول الله (ص) للصحابة أن يأسروا يوم بدر ، ويقبل هو الفدية من الأسرى قبل النصر الشامل الكامل ؟ فإن المفروض ان معركة بدر كانت الأولى ، وأعقبها معارك استمرت إلى عام الفتح والنصر .

وحار المفسرون وغيرهم في الجواب عن هذا السؤال أو الاشكال ، وتضاربت فيه أقوالهم ، واستسلم بعضهم قائلاً : إن النبي غير معصوم عن الخطأ ، حاشا الله ورسوله الذي لا ينطق عن الهوى .. والذي نرجحه ان الله سبحانه قد استثنى من تحريم الأسر كل من أطلقه النبي (ص) من أسرى بدر ، وقد أسلم الكثير منهم وحسن فيه بلاؤهم ، بل كان فيهم من أخرج كرهاً إلى حرب المسلمين ، قال ابن الأثير في المجلد الثاني من تاريخه بعنوان ذكر غزوة بدر الكبرى :

« قال رسول الله (ص) لأصحابه يومئذ : قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم أخرجوا كرهاً ، فن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله .. وكان في الأسرى سهيل بن عمرو ، فقال عمر بن الخطاب : دعني اقتله يا رسول الله ، فلا يقوم عليك خطيئاً ، فقال النبي (ص) دهه ، فسيقوم مقاماً تحمده عليه .. ومن جملة أسرى بدر أبو العاص بن الربيع زوج بنت رسول الله (ص) ، وبعث

الجزء العاشر

زينب بفداء زوجها ، وفيه قلادة كانت لأُمها خديجة ، فلما رآها رسول الله (ص) رقّ رقّة شديدة ، وقال للمسلمين : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا ، فأطلقوا الأسير ، وردوا القلادة .. وقد أسلم أبو العاص بعد ذلك .

وقتل النبي (ص) من الأسرى من لا يؤمن شره ، ولا يرجى خيره ، ولم يقبل الفدية منه ، قال ابن الأثير : وكان في الأسرى النضر بن الحارث ، وعقبة ابن أبي معيط ، فأمر النبي بقتلها ، فقال عقبة : أليس لي أسوة بهؤلاء الأسرى ؟ فلم يلتفت الرسول إلى قوله ، لأنه يعلم بخبثه وغدره ، وإن حياته شر وفساد في الأرض .. فأطلق النبي لبعض الأسرى ، وقتله البعض الآخر يشعر بوجود مصلحة للإسلام والمسلمين في إطلاق من أطلق منهم ، وقد ظهرت هذه المصلحة فيما بعد كما أشرنا .. ومن أجل هذا صح استثناء أسرى بدر من حكم التحريم .

(فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم) . الخطاب موجه لمن حارب مع النبي (ص) ببدر ، ويتضمن الاذن بالأكل مما غنموه في معركة بدر فدية كان أو سلباً ، وهذا دليل على أن الأسرى من المشركين في معركة بدر جائز، لأن إباحة أحد العوضين تستدعي إباحة العوض الآخر ، وفي الحديث: إذا حرم الله شيئاً حرم ثمّنه .

(يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم) . بعد أن أخذ النبي (ص) الفدية من الأسرى أمره أن يقول لهم : ان آمنتم بالله يعرض عليكم خيراً من الفدية دنياً وآخرة ، وقال المفسرون : ان قوماً من الأسرى أظهروا الاسلام ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم: ان كان ما قلتموه حقاً فإن الله يعلمه ويعرض عليكم خيراً مما أخذ منكم ، ويغفر لكم ، وان كان نفاقاً فقد كفرتم ومكرتم من قبل ، وأمكن الله نبيه منكم .

ثم ذكر المفسرون، ومنهم الرازي والطبرسي ان النبي (ص) قال لعنه العباس،

سورة الأنفال

أفدّ نفسك وابني أخيك عقيلًا ونوفلاً^١ . فقال العباس : كنت مسلماً فأكرهوني على الخروج ، فقال له النبي : ان يكن ما تقول حقاً فالله يجزيك . قال العباس : ليس معي شيء . قال النبي : أين الذهب الذي سلمته لزوجتك أم الفضل ، وقلت لها : ان حدث بي حدث فهو لك ولأولادك ؟ . قال العباس : من أخبرك بهذا ؟ . قال : الله تعالى أخبرني . قال العباس : أشهد أنك رسول الله ، والله ما علم بهذا أحد إلا الله .. وقال العباس بعد ذلك : صدق الله ورسوله لقد عوضني الله عما افتدبت أضعافاً كثيرة .

(وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم) . الضمير في يريدوا عائد الى الأسرى الذين أطلقهم النبي (ص)، والمعنى لا تخف يا محمد من خيانة من سرحت وأطلقت من الأسرى ، وماذا عسى أن يفعلوا إذا أرادوا الغدر والخيانة ؟ . فليس بعد الشرك وعلان الحرب شيء ، وقد حاربوك من قبل فسلطك الله عليهم : « ومن عاد فبنتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام - ٩٦ المائدة » . وهذا دليل آخر على أن الله أباح الأسر للمسلمين في وقعة بدر .

والخلاصة ان الله أوجب قتل أهل الشرك في حربهم مع أهل الإيمان إذا وقعت قبل أن يعظم شأن الدين إلا في معركة بدر فإن الله سبحانه قد أباح فيها للمسلم المقاتل الأسر لمصلحة الإسلام والمسلمين .

المهاجرون والأنصار الآية ٧٢ - ٧٥ :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

١ أسلم عقيل بن أبي طالب قبل وقعة بدر ، وأخرجه المشركون لحرب ابن عمه محمد (ص) كرهاً ، فاستأثره ولأمن أمه علي (ع) .

يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِغَضُّهُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ* وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ* وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ*

اللغة :

المهجرة فراق الوطن . وآواه أسكنه منزله . والمراد بالولاية النصرة في قوله : بعضهم أولياء بعض . والميراث في قوله : أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض .

الإعراب :

من شيء (من) زائدة وشيء مبتدأ ومالك خبر ، والجملة خبر الذين آمنوا ولم يهاجروا . فعليكم النصر مبتدأ وخبر ، ويجوز نصب النصر على معنى ألزموا النصر ، مثل عليك زيدا . والهاء في تفعلوه عائد إلى النصر .

المعنى :

قسمت هذه الآيات المؤمنين إلى أقسام ، وتعرضت للولاية فيما بينهم بسبب

سورة الأنفال

الإيمان والهجرة . وأشارت إلى ولاية الكافرين ، وميراث أولي الأرحام ، والتفصيل فيما يلي :

١ - (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) . وهم المهاجرون الأولون ، وقد وصفهم جل وعز بالإيمان ، وهجرة الأوطان ، والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله وهذه التوضيحية لا بمجرد الإيمان أثنى عليهم القرآن ، وتحدث كثيراً عن استجابتهم لله ورسوله .

وتسأل : المفروض ان المهاجرين دخلوا المدينة ، ولا شيء معهم من المال ، ومن أجل هذا آواهم الأنصار في مساكنهم ، وآثروهم في الأكل والملبس على أنفسهم ، وإلى ذلك أشار تعالى بقوله : (والذين آووا) فن أين جاءهم المال الذي جاهدوا به في سبيل الله ؟ .

الجواب : أولاً ان أغنياء المهاجرين كانوا يتفقون على فقراء المسلمين قبل الهجرة . ثانياً انهم هاجروا من ديارهم تاركين مساكنهم ومزارعهم نهياً للمشركين رغبة في مرضاة الله .. ولا شيء أعظم من تضحية الانسان بمسكنه وأرضه ، وبكل ما جمعه لحبائه وحياة أولاده .

٢ - (والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) . وهؤلاء هم الأنصار ، ونعتهم سبحانه بأنهم آووا النبي ومن هاجر معه في مساكنهم ، وآثروهم على أنفسهم وأولادهم ، وبأنهم سالموا من سالمهم ، وعادوا من عاداهم ، ولهذا شرفهم الله بهذا الوصف ، حتى أصبح اسم الأنصار علماً عليهم مدى للدهر . وقوله : (أولئك بعضهم أولياء بعض) إشارة إلى المهاجرين والأنصار معاً ، وان كلاً منهم يتولى من أمر صاحبه ما يتولى من نفسه نصرة ودفاعاً .. وفي الحديث : مثل المؤمنين في تراحهم وتوادهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائرُه بالخمى والسهر .

وقارن بعض المفسرين بين المهاجرين والأنصار ، وفضل أولئك على هؤلاء ، أما نحن فنميل إلى أنهم عند الله سواء ، وتشعر بذلك الآية التي نحن بصدددها ، والآية ١٢ من الواقعة : (والسايقون السابقون أولئك المقربون) فان المراد بالسايقين المهاجرون والأنصار ، أولئك سبقوا إلى الإيمان والهجرة ، وهؤلاء سبقوا

إلى الإيواء والنصرة ، فكان كل فريق من السابقين الأولين ، وقد وصفهم سبحانه بذلك في الآية ١٠٠ من سورة التوبة : « السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » .

٣ - (وللذين آمنوا ولم يهاجروا) هؤلاء آمنوا بالله ورسوله ، ولكنهم رفضوا الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام ، مع أن القرآن أمرهم بها ، وحنهم عليها ، ولكنهم رفضوا تمسكاً بأموالهم ، وخوفاً على مصالحهم ، وسبق الكلام عن هؤلاء ، وعن حكم الهجرة في ج ٢ ص ٤١٨ وما بعدها عند تفسير الآية ٩٧ من النساء .

وقد بين سبحانه حكم الذين آمنوا ولم يهاجروا بقوله : (ما لكم من ديارهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر) . أي إن هؤلاء لا يعتبرون أعضاء في المجتمع الإسلامي ، ولا يثبت لهم شيء من حقوق المسلمين المقيمين في دار الإسلام ، لأنهم قد اختاروا حكم الشرك والمشركون على حكم الإسلام والمسلمين .. أجل ، إذا تركوا أرض الشرك إلى أرض الإسلام كان لهم حق الدفاع والنصرة ، وأيضاً إذا اعتدى عليهم معتد من أجل دينهم وعقيدتهم ، وحاول أن يفتنهم عن الإسلام ، ويردهم إلى الشرك فعلى المهاجرين والأنصار أن يدافعوا عنهم ، ولا تجب نصرتهم في غير ذلك ، لأن رابطة الدين تحم على كل واحد من أهله أن يدافع عن دين أخيه ، وإن كان فاسقاً .. وبكلمة إن الدفاع عن عقيدة الفاسق دفاع عن الدين بالذات ، لا عن شخص الفاسق .

وكان سائلاً يسأل : إذا اعتدى معتد من الكافرين على مؤمن من الدين آمنوا ولم يهاجروا ، وكان بين الكافر المعتدي ، وبين المسلمين المقيمين في دار الإسلام عهد وميثاق في الأمان والمسالمة ، واستنصر المؤمن المعتدى عليه بمن في دار الإسلام من المسلمين ، إذا كان الأمر كذلك فهل تجب نصره المعتدى عليه على المعاهد المعتدي ؟ .

فأجاب سبحانه بقوله : (إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير) . أي إن النصر لا تجب في مثل هذه الحال محافظة على الوفاء بالمعهد والميثاق ، والإسلام وإن كان عهداً وميثاقاً أيضاً ، ولكنه لا يميز بحال الخيانة والغدر ، حتى بالكافر .

لا أَلر لاسم الدين :

(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) . قد يوهم ظاهر الآية ان مجرد المشاركة في الكفر بين اثنين تستدعي بطبيعتها ان يناصر كل منهما الآخر .. وهذا لا ينطبق على الواقع ، فان تاريخ أهل الكفر بعضهم مع بعض تاريخ حروب ودماء .. وكذلك تاريخ المسلمين .. وقد دلتنا التجارب ان المصلحة هي التي تجمع وتفرق ، أما مجرد المشاركة في الألفاظ والأسماء الدينية ، كمسلم ومسيحي فقد يكون لها شيء من الأثر ، ولكنه لا يبلغ حد الولاية ، أي يتولى كل واحد بحمل هذا الاسم من أمر صاحبه وشريكه فيه ما يتولى من نفسه إلا إذا تجرد عن كل غاية إلا الغاية الدينية ، بحيث يضحى بجميع مصالحه، حتى بنفسه وأهله وماله في سبيل دينه ومعتقده ، وهذا هو المراد من قوله تعالى عن المهاجرين والأنصار : (أولئك بعضهم أولياء بعض) . وقوله : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر - ٧١ التوبة) . أي ان الأمر بالمعروف عندهم هو المصلحة .

أما المراد من قوله : (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) . وقوله : « وان الظالمين بعضهم أولياء بعض - ١٨ الجاثية » . وقوله : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف - ٦٧ التوبة » . أما المراد من هذه الآيات فهو ان الكفار والظالمين والمنافقين يتفقون ببدأ واحدة ضد الحق ، على ما بينهم من العداوة والتناقضات ، لأن المصلحة المشتركة تجمعهم وتوحد صفوفهم ، وهي الدفاع عن المنافع والامتيازات ، وقد تكرر ذلك مرات ومرات قديماً وحديثاً ، فن التاريخ الحديث تكتسل المستعمرين والمستغلين ضد الشعوب والثورات الوطنية، على ما بين الدول الاستعمارية ، والشركات الاحتكارية من التنافس على الأرباح ، ومن القديم اتفاق مشركي العرب ويهود الحجاز والمنافقين ، اتفاقهم وإجماع كلمتهم على محاربة الإسلام والمسلمين ، ولا دافع إلا المصالح المشتركة ، فلقد بلغت العداوة بين المشركين واليهود الغاية قبل الإسلام .. وبهذا نفسر قوله تعالى : (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) . أما ما ذهب اليه أكثر المفسرين من أن المراد به ان الكفار يرث بعضهم بعضاً ،

أما هذا التفسير فبعيد عن ظاهر اللفظ . وتكلمنا عن نظير هذه الآية ، وعن المصلحة المشتركة بين كثير من اليهود والنصارى في هذا العصر عند تفسير الآية ٥١ من سورة المائدة بعنوان « اليهود والبرول والنصارى » .

(إلا تفعلوه تكن فتنه في الأرض وفساد كبير) . إلا هنا مركبة من كلمتين إن الشرطية ، ولا النافية ، والهاء في تفعلوه تعود إلى النصر في قوله : (فلعليكن النصر) والمعنى انكم أيها المسلمون إن لم تنصروا من استنجد بكم من المسلمين على الكافرين الذين حاولوا أن يفتنوه في دينه ، ويردوه إلى الشرك ، إن لم تنجدوه تكن فتنه وفساد بتسلط الشرك على الإيمان والباطل على الحق .

(والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم) . ذكر سبحانه في الآية السابقة المهاجرين والأنصار بهذا اللفظ لبيان ما يجب على كل واحد منهم تجاه الآخر من الدفاع والمناصرة ، ثم أضاف هنا للثناء عليهم بقوله : (أولئك هم المؤمنون حقا) ولبيان شأنهم ، وما أعد الله لهم غداً من العفو عن السيئات والثواب الجزيل الذي عبر عنه بقوله : (ورزق كريم) .

وما قرأت شيئاً أبغ من وصف الإمام زين العابدين (ع) للمهاجرين والأنصار وهو يناجي ربه ، ويطلب لهم الرحمة والرضوان بقوله :

« اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحابة ، وأبلاؤا البلاء الحسن في نصره وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته ، وسابقوا إلى دعوته ، واستجابوا له ، حيث أسمعهم حجة رسالته ، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته ، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته ، وانتصروا به ، ومن كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن تبور في مودته .. فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك .. وكانوا مع رسولك لك اليك » .

— ملحوظة — هذه المناجاة جاءت في الصحيفة السجادية التي تعظمها الشيعة ، وتقدس كل حرف منها ، وهي رد مفحم لمن قال : ان الشيعة يتألون من مقام الصحابة .

٤ — (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) . هؤلاء هم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وهاجروا إلى المدينة ، وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم

سورة الأنفال

بعد السابقين الأولين، ومع ذلك فحكمهم واحد من حيث وجوب النصرة والدفاع.
(وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ان الله بكل شيء عليم).
قال المفسرون : بعد أن آخى النبي (ص) بين أصحابه ، وبينه وبين علي (ع)¹.
أصبحوا أولياء في النصرة ، وفي الميراث أيضاً ، أي أنهم يتوارثون بهذه المؤاخاة
لا بالنسب والقرباة ، ثم نُسخ التوارث بهذه المؤاخاة ، وعاد الى التوارث بالرحم
والقرباة .

واستدل الشيعة بهذه الآية على ان من كان أقرب الى الميت نسباً فهو أولى
بميراثه من الأبعد ، سواء أكان الأبعد ذا سهم ، أم لم يكن ، وسواء أكان
عصبة ، أم غير عصبة ، فبنت الميت تحجب أخاه عن الارث لأنها أقرب منه
الى الميت ، وأخته تحجب عمه لنفس السبب ، وهكذا يحجب الأقرب الأبعد
من جميع المراتب ، وتكلمنا عن ذلك وأقوال السنة والشيعة فيه ، كما أشرنا
إلى التوارث بالمؤاخاة ، وإلى أسباب الأثر في الجاهلية ، كل ذلك تكلمنا عنه
في ج ٢ ص ٢٦٢ وما بعدها عند تفسير الآية ١١ من سورة النساء .

١ قال الشيخ محمد الغزالي في كتاب فقه السيرة ص ١٤٢ طبعة ١٩٥٣ : ولقد صح ان رسول الله (ص) جعل
علياً منه بمنزلة هرون الى موسى ، وهذا يقيد رواية مؤاخاة النبي لعلي .

الفهرست

•	سورة المائدة
•	أوفوا بالعقود الآية ١ - ٢
٨	الثورة والثورة المضادة
٩	حرمت عليكم الميتة الآية ٣
١٣	إكمال الدين وإتمام النعمة
١٥	وما علمتم من الجوارح مكلين الآية ٤
١٧	طهارة أهل الكتاب الآية •
٢٠	الوضوء والتيمم الآية ٦ - ٧
٢٤	اعدلوا هو أقرب للتقوى الآية ٨ - ١٠
٢٧	اذكروا نعمة الله الآية ١١
٢٨	أخذ الميثاق من اليهود والنصارى الآية ١٢ - ١٤
٣٣	قد جاءكم من الله نور الآية ١٥ - ١٦
٣٤	الإسلام وأنصار السلام
٣٥	قالوا إن الله هو المسيح الآية ١٧ - ١٩
٣٨	الاشاعة والنصارى

- ٤٠ موسى وقومه الآية ٢٠ - ٢٦
- ٤٤ قابيل وهابيل الآية ٢٧ - ٣١
- ٤٦ الفرد والجماعة في الإسلام الآية ٣٢
- ٤٩ جزاء المفسدين الآية ٣٣ - ٣٤
- ٥٢ ابتغوا اليه الوسيلة الآية ٣٥ - ٣٧
- ٥٣ والشارق والسارة الآية ٣٨ - ٤٠
- ٥٦ سمعون للكذب الآية ٤١ - ٤٣
- ٦٠ فلا تخشوا الناس الآية ٤٤
- ٦٢ النفس بالنفس الآية ٤٥ - ٤٧
- ٦٤ بين الكفر والفسق والظلم
- ٦٦ لكل جعلنا منكم شرعة الآية ٤٨ - ٥٠
- ٧١ لا تتخلوا اليهود والنصارى الآية ٥١ - ٥٣
- ٧٣ البترول واليهود والنصارى
- ٧٥ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين الآية ٥٤
- ٧٩ مشكلة الأخلاق
- ٨١ يؤتون الزكاة وهم راكعون الآية ٥٥ - ٥٦
- ٨٣ اتخذوا دينكم هزواً ولعباً الآية ٥٧ - ٥٩
- ٨٦ جعل منهم القرود والخنازير الآية ٦٠ - ٦٣
- ٨٩ قالت اليهود يد الله مغلولة الآية ٦٤ - ٦٦
- ٩١ الصهابة تواطأوا مع النازيين
- ٩٣ اليهود ونار الحرب
- ٩٤ الرزق وفساد الأوضاع

- ٩٦ بلغ ما أنزل اليك الآية ٦٧
- ٩٨ صاحب النار وأهل البيت
- ٩٩ اقامة التوراة والإنجيل الآية ٦٨ - ٦٩
- ١٠٠ ميثاق بني اسرائيل الآية ٧٠ - ٧١
- ١٠٢ دعوة المسيح الى بني اسرائيل الآية ٧٢ - ٧٥
- ١٠٥ لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً الآية ٧٦ - ٨١
- ١١٣ عداوة لليهود ومودة للتصارى الآية ٨٢ - ٨٦
- ١١٥ من هم أقرب مودة للمسلمين
- ١١٧ لا تحرموا الطيبات الآية ٨٧ - ٨٨
- ١١٨ اللغو في الإيمان الآية ٨٩
- ١٢١ الخمر والميسر الآية ٩٠ - ٩٢
- ١٢٣ اتقوا وآمنوا الآية ٩٣
- ١٢٤ لا صيد في الحرم ولا مع الاحرام الآية ٩٤ - ٩٦
- ١٢٦ معنى الاختبار من الله
- ١٢٨ البيت الحرام الآية ٩٧ - ٩٩
- ١٣١ كثرة الخبيثات الآية ١٠٠
- ١٣١ هل الرق صدقة أو قدر
- ١٣٤ لا تسألوا عن أشياء الآية ١٠١ - ١٠٢
- ١٣٦ لا بحيرة ولا سائبة الآية ١٠٣ - ١٠٥
- ١٣٨ في اثبات الوصية الآية ١٠٦ - ١٠٨
- ١٤٢ الرسل ويوم الجمع الآية ١٠٩ - ١١١
- ١٤٤ عيسى ونبوأ الأطفال

١٤٦	مائدة السماء الآية ١١٢ - ١١٥
١٤٨	بين حواربي محمد وحواربي عيسى
١٤٩	عيسى والناس الآية ١١٦ - ١١٨
١٥٢	صدق الصادقين الآية ١١٩ - ١٢٠
١٥٧	سورة الانعام
١٥٧	خلق السموات والأرض الآية ١ - ٣
١٥٩	الجنود بآيات الله الآية ٤ - ٦
١٦١	لا ديكثانورية في الأرض ولا في السماء
١٦٢	ولو نزلنا عليك الآية ٧ - ١١
١٦٥	كتب ربكم على نفسه الرحمة الآية ١٢ - ١٦
١٦٩	لا كاشف إلا الله الآية ١٧ - ١٩
١٧١	يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الآية ٢٠ - ٢٤
١٧٥	على قلوبهم أكنة الآية ٢٥ - ٢٦
١٧٧	وقفوا على النار الآية ٢٧ - ٣٢
١٨٠	قد نعلم انه ليحزنك الآية ٣٣ - ٣٧
١٨٤	النواب والطيور الآية ٣٨ - ٣٩
١٨٦	قل أرايتكم الآية ٤٠ - ٤٥
١٨٨	الله والقطرة
١٩٠	ان أخذ الله معكم وأبصاركم الآية ٤٦ - ٤٩
١٩٢	ان اتبع إلا ما يوحى إليّ الآية ٥٠ - ٥٥
١٩٧	لا اتبع أهواءكم الآية ٥٦ - ٥٨
١٩٩	وعنده مفاتيح الغيب الآية ٥٩ - ٦٢

٢٠٢	قل من ينجيكم الآية ٦٣ - ٦٧
٢٠٥	حتى يخوضوا في حديث غيره الآية ٦٨ - ٧٠
٢٠٨	قل ائدعو من دون الله الآية ٧١ - ٧٣
٢١٠	مع أهل التصوف
٢١١	ابراهيم مع أبيه وقومه الآية ٧٤ - ٧٩
٢١٤	أنحاجوني في الله الآية ٨٠ - ٨٣
٢١٧	ووهبنا له اسحق ويعقوب الآية ٨٤ - ٩٠
٢١٩	الحسن والحسين ابنا رسول الله
٢٢١	وما قدروا الله حتى قدره الآية ٩١ - ٩٢
٢٢٤	أنبياء الله وعلماء الطبيعة
٢٢٦	الافتراء على الله الآية ٩٣ - ٩٤
٢٢٩	يخرج الحي من الميت الآية ٩٥ - ٩٩
٢٣١	من أين جاءت الحياة ؟
٢٣٥	وجعلوا لله شركاء الآية ١٠٠ - ١٠٧
٢٤٠	لا تسبوا الآية ١٠٨ - ١١٠
٢٤٧	وكلمهم الموتى الآية ١١١ - ١١٣
٢٤٨	طراز من الناس
٢٥١	أفغير الله أبغني حكماً الآية ١١٤ - ١١٧
٢٥٣	التسمية على الذبيحة الآية ١١٨ - ١٢١
٢٥٦	أو من كان ميتاً الآية ١٢٢ - ١٢٤
٢٥٧	المسؤولية والسائل الأعلى
٢٦٠	بشرح صدره للإسلام الآية ١٢٥ - ١٢٧

٢٦٣	ويوم نحشرهم جميعاً الآية ١٢٨ - ١٣٢
٢٦٦	وربك الغني الآية ١٣٣ - ١٣٥
٢٦٧	فقالوا هذا لله الآية ١٣٦ - ١٤٠
٢٧٢	كلوا من ثمره الآية ١٤١ - ١٤٤
٢٧٥	قل لا أجد فيها أوحى إليّ محرماً الآية ١٤٥ - ١٤٧
٢٧٧	لو شاء الله ما أشركنا الآية ١٤٨ - ١٥٠
٢٨١	ما حرم ربكم الآية ١٥١ - ١٥٣
٢٨٢	الوصايا العشر
٢٨٥	ثم آتينا موسى الكتاب الآية ١٥٤ - ١٥٧
٢٨٨	لا ينفع نفساً إلا إيمانها الآية ١٥٨ - ١٦٠
٢٩١	قل انني هداني ربي الآية ١٦١ - ١٦٥
٢٩٣	ولا تزر وازرة وزر أخرى
٢٩٤	الأرض والبيت
٢٩٩	سورة الأعراف
٢٩٩	كتاب أنزل اليك الآية ١ - ٣
٣١٠	وكم من قرية أهلكناها الآية ٤ - ١٠
٣٠٣	ميزان الأعمال
٣٠٤	ولقد خلقناكم الآية ١١ - ١٨
٣٠٥	حول أصل الإنسان
٣١٠	ويا آدم اسكن زوجك الآية ١٩ - ٢٥
٣١٣	قصة آدم كما هي في القرآن
٣١٥	اللباسي الحسي والمعنوي الآية ٢٦ - ٢٧

٣١٧	وإذا فعلوا فاحشة الآية ٢٨ - ٣٠
٣٢٠	يا بني آدم خذوا زينتكم الآية ٣١ - ٣٤
٣٢٣	فمن اتقى وأصلح الآية ٣٥ - ٣٩
٣٢٦	الجمال وسم الخياط الآية ٤٠ - ٤٣
٣٢٩	ونادى أصحاب الجنة الآية ٤٤ - ٤٥
٣٣٠	وعلى الأعراف رجال الآية ٤٦ - ٤٩
٣٣١	الأعراف
٣٣٤	بين أهل الجنة وأهل النار الآية ٥٠ - ٥٣
٣٣٧	في ستة أيام الآية ٥٤ - ٥٦
٣٤٠	الله أصلح الأرض والانسان أفسدها
٣٤١	يرسل للرياح بشرأ الآية ٥٧ - ٥٨
٣٤٤	نوح الآية ٥٩ - ٦٤
٣٤٦	هود الآية ٦٥ - ٧٢
٣٤٩	صالح الآية ٧٣ - ٧٩
٣٥٢	لوط الآية ٨٠ - ٨٤
٣٥٥	شعيب الآية ٨٥ - ٨٧
٣٦١	لنخرجنك يا شعيب الآية ٨٨ - ٨٩
٣٦٣	لئن اتبعتم شعيباً الآية ٩٠ - ٩٣
٣٦٤	وما أرسلنا في قرية ٩٤ - ٩٥
٣٦٦	ولو أن أهل القرى آمنوا الآية ٩٦ - ١٠٠
٣٦٦	تلك القرى نقص عليك الآية ١٠١ - ١٠٢
٣٧٠	موسى وفرعون الآية ١٠٣ - ١١٢

٣٧٢	اسم أم موسى
٣٧٦	وجاء السحرة الآية ١١٣ - ١٢٦
٣٧٩	حول السحر
٣٨١	أنذر موسى الآية ١٢٧ - ١٢٩
٣٨٣	ولقد أدخلنا آل فرعون الآية ١٣٠ - ١٣٣
٣٨٦	ولما وقع عليهم الرجز الآية ١٣٤ - ١٣٧
٣٨٧	وجاوزنا بيني امرائيل البحر الآية ١٣٨ - ١٤١
٣٨٩	وواعدنا موسى ثلاثين ليلة الآية ١٤٢ - ١٤٥
٣٩٣	سأصرف عن آياتي الآية ١٤٦ - ١٤٩
٣٩٦	ولما رجع موسى الى قومه الآية ١٥٠ - ١٥٤
٣٩٩	ان هي إلا فتنتك الآية ١٥٥ - ١٥٧
٤٠٣	رحمة الله تسع ابليس
٤٠٤	رسول البكم جميعاً الآية ١٥٨ - ١٥٩
٤٠٦	بين الصهيونية واليهودية
٤٠٧	وقطعناهم اثني عشرة اسباطاً الآية ١٦٠ - ١٦٢
٤٠٩	واسألهم عن القرية الآية ١٦٣ - ١٦٦
٤١٢	اليهود وسوء العذاب الآية ١٦٧
٤١٤	وبلوناهم بالحسنات والسيئات الآية ١٦٨ - ١٧١
٤١٧	ألست بربكم الآية ١٧٢ - ١٧٤
٤١٨	عالم اللز
٤٢٠	آتيناه آياتنا فانسلخ الآية ١٧٥ - ١٧٧
٤٢٣	من يهد الله فهو المهتدي الآية ١٧٨ - ١٨١

- ٤٢٥ هل أسماء الله توقيفية أو قياسية
- ٤٢٧ والذين كذبوا بآياتنا الآية ١٨٢ - ١٨٦
- ٤٣٠ بسألونك عن الساعة الآية ١٨٧ - ١٨٨
- ٤٣١ النبي وعلم الغيب
- ٤٣٣ هو الذي خلقكم من نفس واحدة الآية ١٨٩ - ١٩٠
- ٤٣٥ أيشركون ما لا يخلق شيئاً الآية ١٩١ - ١٩٨
- ٤٣٨ خذ العفو وامر بالعرف الآية ١٩٩ - ٢٠٣
- ٤٤١ وإذا قرئ القرآن الآية ٢٠٤ - ١٠٦
- ٤٤٧ سورة الأنفال
- ٤٤٧ قل الأنفال لله والرسول الآية ١ - ٤
- ٤٥١ كما أخرجك ربك الآية ٥ - ٨
- ٤٥٥ إذ تستغيثون ربكم الآية ٩ - ١٤
- ٤٥٩ الفرار من القتال الآية ١٥ - ١٩
- ٤٦٣ طاعة الله والرسول الآية ٢٠ - ٢٣
- ٤٦٤ طالب حق وطالب صيد
- ٤٦٥ الدين والدعوة إلى الحياة الآية ٢٤
- ٤٦٧ واتقوا فتنة الآية ٢٥ - ٢٩
- ٤٧١ وإذا بمكر بك الآية ٣٠ - ٣٥
- ٤٧٥ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم الآية ٣٦ - ٤٠
- ٤٨١ فإن لله خمسة الآية ٤١
- ٤٨٤ إذ أنتم بالعدوة الدنيا الآية ٤٢ - ٤٤
- ٤٨٨ إذا لقيتم فئة فاثبتوا الآية ٤٥ - ٤٩

٤٨٩	عوامل النصر
٤٩٢	هل الفدائيون مغربون
٤٩٤	ولو ترى الآية ٥٠ - ٥٤
٤٩٧	قواعد وأحكام في السلم والحرب الآية ٥٥ - ٦٣
٥٠٠	القوة الرادعة والقوة المعتدبة
٥٠٣	حسبك الله الآية ٦٤ - ٦٦
٥٠٦	في الأسرى الآية ٦٧ - ٧١
٥١٠	المهاجرون والانتصار الآية ٧٢ - ٧٥
٥١٤	لا أثر لاسم الدين